فتح البيان

في مقاصد القرآن

تفسير سلفي أثري خالٍ من الإسرائيليات والجدليات المذهبية والكلامية
يغني عن جميع التفاسير ولا تغني جميعها عنه

تأليف

السيد الإمام العلامة الملك المؤيد من الله الباري
أبي الطيب "صديق بن حسن بن علي الحسيني القنوجي البخاري"
"١٢٤٨ - ١٣٠٧هـ"

عني بطبعه وقدم له وراجعه
خادم العلم
عبد الله بن ابراهيم الأنصاري

الجزء الرابع عشر



١٤١٢هـ - ١٩٩٢م



شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ - تلكس SCS ٢٠٤٣٧ LE

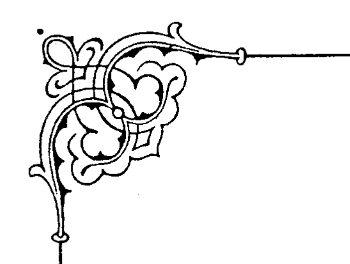
صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلكس ٢٩١٩٨ LE

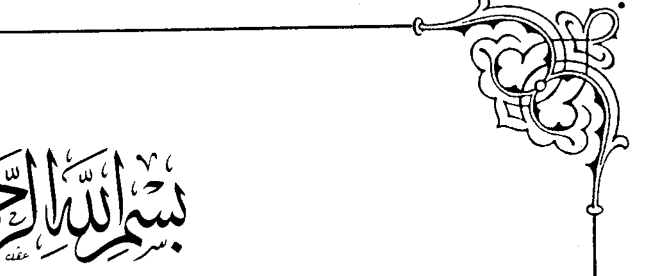
فتح البيان

في مقاصد القرآن



الجزء الرابع عشر
بسم الله الرحمن الرحيم
ويحتوي على:
- سورة المجادلة
- سورة الحشر
- سورة الممتحنة
- سورة الصف
- سورة الجمعة
- سورة المنافقون
- سورة التغابن
- سورة الطلاق
- سورة التحريم
- سورة الملك
- سورة القلم
- سورة الحاقة
- سورة المعارج
- سورة نوح
- سورة الجن
- سورة المزمل
- سورة المدثر
- سورة القيامة
- سورة الإنسان





سورة المجادلة

﴿ اثنتان وعشرون آية وهي مدنية ﴾

قال القرطبي: في قول الجميع، إلا رواية عن عطاء أن العشر الأول منها مدني، وباقيها مكي. وقال الكلبي: نزلت جميعها بالمدينة غير قوله: ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم﴾ نزلت بمكة، وقال ابن عباس: نزلت بالمدينة وعن ابن الزبير مثله والمجادلة بكسر الدال كما ذكره السعد في حواشي الكشاف وفي الشهاب بفتح الدال وكسرها والثاني هو المعروف كما في الكشاف وهذه السورة أول النصف الثاني من القرآن، باعتبار عدد السور، فهي الثامنة والخمسون منها، وهي أول العشر الأخير من القرآن باعتبار عدد أجزائه. وليس فيها آية إلا وفيها ذكر الجلالة مرة أو مرتين أو ثلاثاً وجملة ما فيها من الجلالات خمس وثلاثون.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾

﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ﴾ أي تراجعك الكلام في شأنه أي أجاب قولها ومطلوبها بأن أنزل حكم الظهار على ما يوافق مطلوبها ، وعلى هذا فقد للتحقيق ، ومن قال إنها للتقريب والتوقع فلم يلاق المعنى ، وقد سمع باظهار الدال وإدغامها في السين قراءتان سبعيتان .

﴿ وتشتكي إلى الله ﴾ أي تظهر ما بها من المكروه والفاقة والوحدة ، والمجادلة هذه الكائنة منها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انه كان كلما قال لها قد حرمت عليه ، قالت والله ما ذكر طلاقاً ، ثم تقول : أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي ، وأن لي صبية صغاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إلي جاعوا وجعلت ترفع رأسها الى السماء وتقول : اللهم إني أشكو إليك ، فهذا معنى قوله : ﴿ وتشتكي إلى الله ﴾ قال الواحدي : قال المفسرون : نزلت هذه الآية في خولة بنت ثعلبة ، وزوجها أوس بن الصامت ، وكان به لمم فاشتد به لممه ذات يوم فظاهر منها ، ثم ندم على ذلك ، وكان الظهار طلاقاً في الجاهلية ، وقيل : هي خولة بنت حكيم ، وقيل : اسمها جميلة ، والأول أصح . وقيل : هي بنت خويلد قال الماوردي : إنها نسبت تارة إلى

أبيها وتارة إلى جدها وأحدهما أبوها والآخر جدها فهي خولة بنت ثعلبة بن خويلد .

روي أن عمر بن الخطاب مر بها في زمن خلافته وهو على حمار والناس حوله فاستوقفته ووعظته ، فقيل له : أتقف لهذه العجوز هذا الموقف ؟ فقال أتدرون من هذه العجوز ؟ هي خولة بنت ثعلبة سمع الله قولها من فوق سبع سموات ، أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر ؟

﴿ والله يسمع تحاوركما ﴾ مستأنفة جارية مجرى التعليل لما قبلها ، أي والله يعلم تراجعكما في الكلام من حاور إذا راجع ، أو حور إذا رجع ، أو جملة حالية وهو بعيد . وقد أخرج ابن ماجة والحاكم وصححه والبيهقي وغيرهم .

« عن عائشة قالت : تبارك الذي وسع سمعه كل شيء إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفي علي بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي تقول : يا رسول الله أكل شبابي ، ونثرت له بطني ، حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني اللهم إني أشكو إليك ، قالت : فما برحت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات : ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ﴾ وهو أوس بن الصامت » .

﴿ إن الله سميع بصير ﴾ يسمع كل مسموع ، ويبصر كل مبصر ، ومن جملة ذلك ما جادلتك به هذه المرأة ، أخرج أحمد وأبو داود وابن المنذر والطبراني والبيهقي .

« من طريق يوسف بن عبد الله قال : حدثتني خولة بنت ثعلبة قالت : فيّ والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة ، قالت : كنت عنده وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه ، فدخل عليّ يوماً فراجعته بشيء فغضب فقال : أنت عليّ كظهر أمي ، ثم رجع فجلس في نادي قومه ساعة ، ثم دخل عليّ فإذا هو يريدني عن نفسي ، قلت : كلا والذي نفس خولة بيده لا تصل

إلي ، وقد قلت ما قلت ، حتى يحكم الله ورسوله فينا ، ثم جئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكرت ذلك له ، فما برحت حتى نزل القرآن ، فتغشى رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما كان يتغشاه ثم سرّي عنه ، فقال لي : يا خولة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك ، ثم قرأ عليّ ﴿ قد سمع ﴾ إلى قوله : ﴿ عذاب أليم ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مريه فليعتق رقبة ، قلت : يا رسول الله ما عنده ما يعتق ، قال : فليصم شهرين متتابعين ، قلت : والله إنه لشيخ كبير ما به من صيام ، قال : فليطعم ستين مسكيناً وسقا من تمر ، قلت : والله ما ذاك عنده ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأنا سأعينه بعذق من تمر فقلت : وأنا يا رسول الله سأعينه بوسق آخر فقال قد أصبت وأحسنت فاذهبي وتصدقي به عنه ، ثم استوصي بابن عمك خيراً قالت : ففعلت » ، وفي الباب أحاديث .

ثم بين سبحانه شأن الظهار في نفسه وذكر حكمه بطريق الاستئناف فقال : ﴿ الذين يظاهرون ﴾ بضم الياء وتخفيف الظاء وكسر الهاء ، وقرأ الجمهور يظهرون بالتشديد مع فتح حرف المضارعة ، وقرىء يظاهرون بفتح الياء وتشديد الظاء وزيادة ألف ، وقد تقدم مثل هذا في سورة الأحزاب وقرىء يتظاهرون وكلها سبعيات ومعنى الظهار شرعاً أن يقول لامرأته : أنت عليّ كظهر أمي ، أنت منّي أو معي أو عندي كظهر أمي ولا خلاف في كون هذا ظهاراً ، واختلفوا إذا قال أنت علي كظهر ابنتي أو أختي أو غير ذلك من ذوات المحارم ، فذهب جماعة منهم أبو حنيفة ومالك الى أنه ظهار وبه قال الحسن والنخعي والزهري والأوزاعي والثوري ، وقال جماعة منهم قتادة والشعبي : إنه لا يكون ظهاراً بل يختص الظهار بالأم وحدها واختلفت الرواية عن الشافعي فروي عنه كالقول الأول وكالقول الثاني .

وأصل الظهار مشتق من الظهر وهو لغة العلو وليس هو من ظهر الإنسان واختلفوا إذا قال لامرأته : أنت عليّ كرأس أمي أو يدها أو رجلها أو نحو ذلك ، هل يكون ظهاراً أم لا ؟ وهكذا إذا قال : أنت عليّ كأمي ولم يذكر

الظهر ، والظاهر أنه إذا قصد بذلك الظهار كان ظهاراً ، وروي عن أبي حنيفة انه إذا شبهها بعضو من أمه يحل له النظر إليه لم يكن ظهاراً ، وروي عن الشافعي أنه لا يكون الظهار إلا في الظهر وحده ، واختلفوا إذا شبه امرأته بأجنبية فقيل : يكون ظهاراً ، وقيل : لا ، والكلام في هذا مبسوط في كتب الفروع .

﴿ منكم ﴾ أي حال كونهم منكم أيها العرب ، وهذا توبيخ لهم ، وتهجين لعادتهم ، لأن الظهار كان خاصاً بالعرب ومن أيمان جاهليتهم دون سائر الأمم ﴿ من نسائهم ﴾ يعني يحرمون زوجاتهم كتحريم الله عليهم ظهور أمهاتهم ، يقولون لهن : أنتن كظهور أمهاتنا ﴿ ما هن أمهاتهم ﴾ أي ما نساؤهم بأمهاتهم فذلك كذب بحت منهم ، وإنه منكر وزور ، وفي هذا توبيخ للمظاهرين وتبكيت لهم قرأ الجمهور أمهاتهم بالنصب على اللغة الحجازية في إعمال ﴿ ما ﴾ عمل ليس ، وقرىء بالرفع على عدم الإعمال ، وهي لغة نجد وبني أسد . ثم بيّن لهم سبحانه أمهاتهم على الحقيقة فقال :

﴿ إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم ﴾ أي ما أمهاتهم إلا النساء اللاتي ولدنهم ،يريد أن الأمهات على الحقيقة الوالدات ، والمرضعات ملحقات بالوالدات بواسطة الرضاع ، وكذا أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لزيادة حرمتهن وأما الزوجات فأبعد شيء من الأمومة فلذا زاد سبحانه في توبيخهم وتقريعهم فقال :

﴿ وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً ﴾ أي وإن المظاهرين ليقولون بقولهم هذا فظيعاً من القول ، ينكره الشرع ، والزور:الكذب الباطل ، المنحرف عن الحق ﴿ وإن الله لعفو غفور ﴾ أي بليغ العفو والمغفرة إذ جعل الكفارة عليهم ، مخلصة لهم عن هذا القول المنكر ولما ذكر سبحانه الظهار إجمالاً ، ووبخ فاعليه ، شرع في تفصيل أحكامه فقال :

﴿ والذين يظاهرون من نسائهم ﴾ أي والذين يقولون ذلك القول المنكر

الزور ، ويمتنعون بهذا اللفظ من جماعهن ﴿ ثم يعودون لما قالوا ﴾ أي إلى ما قالوا بالتدارك والتلافي ، كما في قوله ﴿ أن تعودوا لمثله ﴾ ، أي إلى مثله ، قال الأخفش : ﴿ لما قالوا ﴾ وإلى ما قالوا يتعاقبان ، قال : ﴿ والحمد لله الذي هدانا لهذا ﴾ وقال : ﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ وقال : ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ وقال ﴿ وأوحى إلى نوح ﴾ وقال الفراء : اللام بمعنى عن والمعنى ثم يرجعون عما قالوا ويريدون الوطء ، وقال الزجاج : المعنى ثم يعودون الى إرادة الجماع من أجل ما قالوا .

واختلف أهل العلم في تفسير العود المذكور على أقوال ، الأول أنه العزم على الوطء ، وبه قال العراقيون أبو حنيفة وأصحابه . وروي عن مالك : وقيل هو الوطء نفسه ، وبه قال الحسن ، وروي أيضاً عن مالك ، وقيل : هو أن يمسكها زوجة بعد الظهار مع القدرة على الطلاق ، وبه قال الشافعي ، وقيل : هو الكفارة ، والمعنى أنه لا يستبيح وطأها إلا بكفارة ، وبه قال الليث بن سعد ، وروي عن أبي حنيفة ، وقيل : هو تكرير الظهار بلفظه وبه قال أهل الظاهر وروي عن بكير بن الأشج وأبي العالية والفراء والمعنى ثم يعودون إلى قول ما قالوا وقيل : المعنى يعودون إليه بالنقض والرفع والإزالة وإلى هذا الاحتمال ذهب أكثر المجتهدين وقيل : معنى العود السكوت عن الطلاق بعد الظهار وقيل : العود الندم أي يندمون فيرجعون إلى الألفة .

قال ابن عباس في الآية : هو الرجل يقول لامرأته : أنت علي كظهر أمي فإذا قال ذلك فليس يحل له أن يقربها بنكاح ولا غيره ، حتى يكفر بعتق رقبة فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا والمس النكاح فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً وإن هو قال لها أنت علي كظهر أمي إن فعلت كذا فليس يقع في ذلك ظهار حتى يحنث فإن حنث فلا يقربها حتى يكفر : ولا يقع في الظهار طلاق .

﴿ فتحرير رقبة ﴾ أي فالواجب عليهم إعتاق رقبة يقال : حررته أي

جعلته حراً والظاهر أنها تجزىء أي رقبة كانت وقيل : يشترط أن تكون مؤمنة كالرقبة في كفارة القتل وبالأول قال أبو حنيفة وأصحابه وبالثاني قال مالك والشافعي واشترطا أيضاً سلامتها من كل عيب ولم يجز المدبر وأم الولد والمكاتب الذي أدى شيئاً ، قال الأخفش : الآية فيها تقديم وتأخير والمعنى والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما كانوا عليه من الجماع ، فتحرير رقبة لما قالوا أي فعليهم تحرير رقبة من أجل ما قالوا ، فالجار في قوله : ﴿ لما قالوا ﴾ متعلق بالمحذوف الذي هو خبر المبتدأ وهو فعليهم .

﴿ من قبل أن يتماسا ﴾ المراد بالتماس هنا الجماع وبه قال الجمهور فلا يجوز للمظاهر الوطء حتى يكفر ، وقيل : إن المراد به الاستمتاع بالجماع أو اللمس أو النظر إلى الفرج بشهوة ، وبه قال مالك ، وهو أحد قولي الشافعي ﴿ ذلكم ﴾ أي الحكم المذكور ﴿ توعظون به ﴾ أي تؤمرون أو تزجرون به عن ارتكاب الظهار ، فإن الغرامات مزاجر عن تعاطي الجنايات وفيه بيان ما هو المقصود من شرع الكفارة ، قال الزجاج : معنى الآية ذلكم التغليظ في الكفارة توعظون به أي إن غلظ الكفارة وعظ لكم حتى تتركوا الظهار ، لأن الحكم بالكفارة دليل على ارتكاب الجناية ، فيجب أن تتعظوا بهذا الحكم ، حتى لا تعودوا الى الظهار وتخافوا عقاب الله عليه .

﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمالكم ، فهو مجازيكم عليها .

« قال ابن عباس : أتى رجل النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فقال : إني ظاهرت من امرأتي فرأيت بياض خلخالها في ضوء القمر فوقعت عليها قبل أن أكفِّر ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ألم يقل الله ﴿من قبل أن يتماسا﴾ قال: قد فعلت يا رسول الله ، قال : أمسك عنها حتى تُكفّر »(١) ، وأخرج أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة والحاكم والبيهقي .

« عن ابن عباس أن رجلاً قال : يا رسول الله إني ظاهرت من امرأتي

---

(١) رواه الحاكم.

فوقعت عليها من قبل أن أكفِّر ، فقال : وما حملك على ذلك ؟ قال : رأيت خلخالها في ضوء القمر ، قال : فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله » ثم ذكر سبحانه حكم العاجز عن الكفارة فقال :

﴿ فمن لم يجد ﴾ لرقبة في ملكة ، ولا تمكن من قيمتها ﴿ فصيام ﴾ أي فعليه صيام ﴿ شهرين متتابعين ﴾ متواليين لا يفطر فيهما ، فإن أفطر استأنف إن كان الافطار لغير عذر ، وإن كان لعذر من مرض أو سفر فقال سعيد بن المسيب والحسن وعطاء بن أبي رباح وعمرو بن دينار والشعبي والشافعي ومالك : إنه يبني ولا يستأنف ، وقال أبو حنيفة : إنه يستأنف ، وهو مروي عن الشافعي ومعنى ﴿ من قبل أن يتماسا ﴾ ما تقدم قريباً فلو وطىء ليلاً أو نهاراً عمداً أو خطأً استأنف ، وبه قال أبو حنيفة ومالك ، وقال الشافعي : لا يستأنف إذا وطىء ليلاً ، لأنه ليس محلاً للصوم والأول أولى .

﴿ فمن لم يستطع ﴾ صيام شهرين متتابعين ﴿ فإطعام ستين مسكيناً ﴾ أي فعليه أن يطعم ستين مسكيناً لكل مسكين مدان ، وهما نصف صاع ، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه ، وقال الشافعي وغيره لكل مسكين مد واحد من غالب قوت البلد ، والظاهر من الآية أن يطعمهم حتى يشبعوا مرة واحد أو يدفع اليهم ما يشبعهم ولا يلزمه أن يجمعهم مرة واحدة بل يجوز له أن يطعم بعض الستين في يوم ، وبعضهم في يوم آخر عن أبي هريرة ثلاث فيه مد ، كفارة اليمين ، وكفارة الظهار ، وكفارة الصيام .

﴿ ذلك ﴾ أي ما تقدم من البيان وتعليم الأحكام والتنبيه عليها واقع أو فعلنا ذلك ﴿ لتؤمنوا بالله ورسوله ﴾ وتعملوا بشرائعه التي شرعها لكم وتصدقوا أن الله أمر بها ، أو لتطيعوا الله ورسوله في الأوامر والنواهي ، وتقفوا عند حدود الشرع ولا تتعدوها ، ولا تعودوا إلى الظهار الذي هو منكر من القول وزور أخرج أحمد وأبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجة والحاكم وصححه غيرهم « عن سلمة بن صخر الأنصاري فقال :

كنت رجلاً قد أوتيت من جماع النساء ما لم يؤت غيري فلما دخل رمضان ظاهرت من امرأتي حتى ينسلخ رمضان ، فرقاً من أن أصيب منها في ليلي ، فأتتابع في ذلك ، ولا أستطيع أن أنزع حتى يدركني الصبح ، فبينما هي تخدمني ذات ليلة إذ انكشف لي منها شيء فوثبت عليها ، فلما أصبحت غدوت على قومي فأخبرتهم خبري ، فقلت : انطلقوا معي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره بأمري فقالوا : لا والله.، لا تفعل نتخوف أن ينزل فينا القرآن ، أو يقول فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مقالة يبقى علينا عارها ، ولكن اذهب أنت فاصنع ما بدا لك ، قال : فخرجت فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبرته خبري ، فقال أنت بذاك ، قلت : أنا بذاك . قال : أنت بذاك ، قلت : أنا بذاك . قال أنت بذاك ، قلت: أنا بذاك . وها أنا ذا فامض في حكم الله ، فاني صابر لذلك ،قال :أعتق رقبة ، فضربت عنقي بيدي فقلت : لا والذي بعثك بالحق ما أصبحت أملك غيرها ، قال : فصم شهرين متتابعين ، فقلت : هل أصابني ما أصابني إلا في الصيام قال : فأطعم ستين مسكيناً ، قلت : والذي بعثك بالحق لقد بتنا ليلتنا هذه وحشاً ما لنا عشاء ، قال : اذهب الى صاحب صدقة بني زريق ، فقل له فليدفعها إليك ، فأطعم عنك منها وسقا ستين مسكيناً ، ثم استعن بسائرها عليك وعلى عيالك ، فرجعت الى قومي فقلت : وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي ، ووجدت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، السعة والبركة أمر لي بصدقتكم فادفعوها إليّ فدفعوها إليه » .

﴿ وتلك ﴾ أي الأحكام المذكورة في الظهار والكفارة ﴿ حدود الله ﴾ فلا تجاوزوا حدوده التي حدها لكم ، فإنه قد بين لكم أن الظهار معصية ، وأن كفارته المذكورة توجب العفو والمغفرة ﴿ وللكافرين ﴾ الذين لا يقفون عند حدود الله ، ولا يعلمون بما حده الله لعباده ، وسماه كفراً تغليظاً وتشديداً ﴿ عذاب أليم ﴾ وهو عذاب جهنم يوم القيامة ، ولما ذكر سبحانه المؤمنين الواقفين عند حدوده ذكر المحادين فقال :

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾

﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله ﴾ المحادة المشاقة والمعاداة والمخالفة ومثل قوله ﴿ إن الذين يشاقون الله ورسوله ﴾ قال الزجاج : المحادة أن تكون في حد يخالف صاحبك ، فهي كناية عن المعاداة لكونها لازمة لها ، وأصلها الممانعة ، ومنه الحديد ، ومنه الحداد للبواب ، والمحادون هم أهل مكة ، فإن هذه الآية وردت في غزوة الأحزاب وهي في السنة الرابعة وقيل : في الخامسة والمقصود منها البشارة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بأن أعداءهم المتحزبين القادمين عليهم .

﴿ كبتوا ﴾ أي يكبتوا ويذلوا ويتفرق جمعهم ، وعبر عن المستقبل بلفظ الماضي ، تنبيهاً على تحقيق وقوعه ، وقيل : المعنى على الماضي وذلك ما وقع للمشركين يوم بدر ، فإن الله كبتهم بالقتل والأسر والقهر ﴿ كما كبت الذين من قبلهم ﴾ أي أذلوا وأخزوا ، يقال : كبت الله فلاناً إذا أذله ، والمردود بالذل يقال له : مكبوت ، قال المقاتلان : أخزوا كما أخزي الذين من قبلهم من أهل الشرك ، وكذا قال قتادة وقال أبو عبيدة والأخفش : أهلكوا ، وقال ابن زيد : عذبوا ، وقال السدي : لعنوا وقال الفراء : أغيظوا يوم الخندق ، والمراد بمن قبلهم كفار الأمم الماضية المعادين لرسل الله .

﴿ وقد أنزلنا آيات بينات ﴾ أي والحال أنا قد أنزلنا آيات واضحات فيمن حاد الله ورسله من الأمم المتقدمة وقيل المراد الفرائض التي أنزلها الله سبحانه

وقيل هي المعجزات الدالة على صدق الرسول ﴿ وللكافرين ﴾ بكل ما يجب الإيمان فتدخل الآيات المذكورة هنا دخولاً أولياً ﴿ عذاب مهين ﴾ يهين صاحبه ويذله ويذهب بعزه .

﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً ﴾ أي يذكر يوم يبعثهم مجتمعين في حالة واحدة أو يبعثهم كلهم لا يبقى منهم أحد غير مبعوث ﴿ فينبئهم ﴾ أي فيخبرهم ﴿ بما عملوا ﴾ في الدنيا من الأعمال القبيحة إما ببيان صدورها عنهم توبيخاً لهم وتكميلاً للحجة عليهم أو بتصويرها في صورة قبيحة هائلة على رؤوس الأشهاد . تخجيلاً لهم وتشهيراً بحالهم وتشديداً لعذابهم .

﴿ أحصاه الله ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل : كيف ينبئهم بذلك مع كثرته واختلاف أنواعه ؟ فقيل : أحصاه الله جميعاً ، ولم يفته منه شيء ﴿ و ﴾ الحال أنهم قد ﴿ نسوه ﴾ ولم يحفظوه ﴿ والله على كل شيء شهيد ﴾ تذييل مقرر لإحصائه تعالى ، أي لا يخفى عليه شيء من الأشياء ، بل هو مطلع وناظر ، ثم أكد سبحانه بيان كونه عالماً بكل شيء فقال :

﴿ ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ؟ ﴾ أي ألم تعلم أن علمه محيط بما فيهما ، بحيث لا يخفى عليه شيء مما فيهما ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة ﴾ مستأنفة لتقرير شمول علمه ، وسعته وإحاطته بكل المعلومات ، قرأ الجمهور يكون بالتحية ، وقرىء بالفوقية ، وكان على القراءتين تامة ، ومن مزيدة للتأكيد ، والنجوى السرار ، يقال : قوم نجوى أي ذوو نجوى ، وهي مصدر ، والمعنى ما يوجد من تناجي ثلاثة أو من ذوي نجوى ، ويجوز أن تطلق النجوى على الأشخاص المتناجين ، قال الفراء : ثلاثة نعت للنجوى ، فانخفضت ، وإن شئت أضفت نجوى إليها ، ولو نصبت على إضمار فعل جاز .

﴿ إلا هو رابعهم ﴾ أي بالعلم يعني يعلم نجواهم : كأنه حاضر معهم ومشاهدهم ، كما تكون نجواهم معلومة عند الرابع الذي يكون معهم كذا في

الخازن وأبي السعود . والجمل التي بعد إلا في موضع نصب على الحال يعني ما يوجد شيء من هذه الأشياء إلا في حال من هذه الأحوال فالاستثناء مفرغ من أعم الأحوال .

﴿ ولا ﴾ نجوى ﴿ خمسة إلا هو سادسهم ﴾ أي جاعلهم ستة من حيث إنه يشاركهم في الاطلاع على تلك النجوى وتخصيص العددين بالذكر لأن أغلب عادات المتناجين أن يكونوا ثلاثة أو خمسة أو كانت الواقعة التي هي سبب النزول في متناجين كانوا ثلاثة في موضع وخمسة في موضع . أو لأن العدد الفرد أشرف من الزوج لأن الله تعالى وتر يحب الوتر فخصهما بالذكر تنبيهاً على أنه لا بد من رعاية الأمور الآلهية في جميع الأمور . قال الفراء : والعدد غير مقصود لأنه سبحانه مع كل عدد قل أو كثر ، يعلم السر والجهر لا تخفى عليه خافية .

﴿ ولا أدنى من ذلك ﴾ أي ولا أقل من العدد المذكور كالواحد والاثنين ﴿ ولا أكثر ﴾ منه كالستة والسبعة ﴿ إلا هو معهم ﴾ أي مصاحب لهم بعلمه ، يعلم ما يتناجون به ، لا يخفى عليه شيء منه ، قرأ الجمهور أكثر بالثاء وبالجر بالفتحة عطفاً على لفظ نجوى ، وقرىء بالياء الموحدة وبالرفع عطفاً على محل نجوى ، قال الواحدي : قال المفسرون : إن المنافقين واليهود كانوا يتناجون فيما بينهم ، ويوهمون المؤمنين أنهم يتناجون فيما يسوءهم فيحزنون لذلك ، فلما طال ذلك وكثر ، شكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمرهم أن لا يتناجوا دون المسلمين ، فلم ينتهوا وعادوا إلى مناجاتهم ، فأنزل الله هذه الآيات :

﴿ أين كانوا ﴾ معناه إحاطة علمه بكل تناج يكون معهم في أي مكان من الأمكنة ، ولو كانوا تحت الأرض ، فإن علمه بالأشياء ليس لقرب مكان حتى يتفاوت بقرب الأمكنة وبعدها ، ﴿ ثم ينبئهم ﴾ أي يخبرهم ﴿ بما عملوا يوم القيامة ﴾ توبيخاً لهم وتبكيتاً وإلزاماً للحجة ﴿ إن الله بكل شيء عليم ﴾ لا يخفى عليه شيء كائناً ما كان .

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾

﴿ ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ، ثم يعودون لما نهوا عنه ﴾ هؤلاء هم من تقدم ذكرهم من المنافقين واليهود ، وصيغة المضارع للدلالة على تمكن عودهم وتجدده ، واستحضار صورته العجيبة ، قال مقاتل : كان بين النبي صلى الله عليه وسلم ، وبين اليهود مواعدة ، فإذا مر بهم الرجل من المؤمنين تناجوا بينهم حتى يظن المؤمن شراً فنهاهم الله فلم ينتهوا ، فنزلت وقال ابن زيد : كان الرجل يأتي النبي صلى الله عليه وسلم ، فيسأله الحاجة ويناجيه ، والأرض يومئذ حرب ، فيتوهمون أنه يناجيه في حرب أو بلية أو أمر مهم ، فيفزعون لذلك .

﴿ ويتناجون بالإثم والعدوان ﴾ قرأ الجمهور يتناجون بوزن يتفاعلون لقوله فيما بعد ﴿ إذا تناجيتم فلا تتناجوا ﴾ ، وقرىء ينتجيون بوزن يفتعلون ، وحكى سيبويه أن تفاعلوا وافتعلوا يأتيان بمعنى واحد ، نحو تخاصموا واختصموا وتقاتلوا واقتتلوا ، ومعنى الإثم ما هو إثم في نفسه ، كالكذب والظلم ، والعدوان ما فيه عدوان على المؤمنين .

﴿ ومعصيت الرسول ﴾ أي مخالفته ، وقرىء معصيات بالجمع ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نهاهم عن النجوى فعصوه وعادوا إليها ،

وقيل : المعنى يوصي بعضهم بعضاً بمعصية الرسول ، رسمت معصية هذه والتي بعدها بالتاء المجرورة وإذا وقف عليها فأبو عمرو وابن كثير والكسائي يقفون بالهاء ، غير أن الكسائي يقف بالإمالة على أصله ، والباقون يقفون بالتاء على الرسم ، واتفقوا في الوصل على التاء .

﴿ وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ﴾ قال القرطبي : إن المراد بها اليهود ، كانوا يأتون النبي صلى الله عليه وسلم فيقولون : السام عليك يريدون بذلك السلام ظاهراً . وهم يعنون الموت باطناً ، فيقول النبي صلى الله عليه وسلم : عليكم ، وفي رواية وعليكم قال ابن عمر في الآية : يريدون بذلك شتمه فنزلت هذه الآية أخرج أحمد والبخاري والترمذي وصححه .

« عن أنس أن يهودياً أتى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فقال : السام عليكم فرد عليه القوم ، فقال : هل تدرون ما قال هذا ؟ قالوا : الله أعلم ، سلم يا نبي الله ، قال : لا ولكنه قال : كذا وكذا ، ردوه علي فردوه ، قال : قلت السام عليكم ؟ قال : نعم قال النبي صلى الله عليه وسلم عند ذلك : إذا سلم عليكم أحد من أهل الكتاب فقولوا : عليك ، قال عليك ما قلت » ، وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما :

« عن عائشة قالت : دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم يهود فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم ، فقالت عائشة : عليكم السام واللعنة ، فقال : يا عائشة إن الله لا يحب الفحش ولا المفحش ، قلت : ألا تسمعهم يقولون السام ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو ما سمعتني أقول : وعليكم ، فأنزل الله هذه الآية »[١] وعن ابن عباس قال : كان المنافقون

---

(١) رواه مسلم .

يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا حيوه سام عليك فنزلت .

﴿ ويقولون في أنفسهم ﴾ أي فيما بينهم إذا خرجوا من عنده ﴿ لولا يعذبنا الله بما نقول ﴾ أي هلا يعذبنا بذلك ؟ ولو كان محمد نبياً لعذبنا بما يتضمنه قولنا من الاستخفاف به . وقيل : المعنى لو كان نبياً لاستجيب له فينا ، حيث يقول : وعليكم ، ووقع علينا الموت عند ذلك ﴿ حسبهم جهنم ﴾ عذاباً ﴿ يصلونها ﴾ يدخلونها ﴿ فبئس المصير ﴾ أي المرجع وهو جهنم .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول ﴾ لما فرغ سبحانه عن نهي اليهود والمنافقين عن النجوى ، أرشد المؤمنين إذا تناجوا فيما بينهم أن لا يتناجوا بما فيه إثم وعدوان ومعصية لرسول الله ، كما يفعله اليهود والمنافقون ، وقيل : الخطاب للمنافقين ، والمعنى يا أيها الذين آمنوا ظاهراً أو بزعمهم واختار هذا الزجاج وقيل : الخطاب لليهود والمعنى يا أيها الذين آمنوا ظاهرا أو بزعمهم واختار هذا الزجاج وقيل : الخطاب لليهود والمعنى يا أيها الذين آمنوا بموسى ، والأول أولى ، قال ابن عباس : كان النبي صلى الله عليه وسلم ، إذا بعث سرية وأغزاها التقى المنافقون فأنغضوا رؤوسهم الى المسلمين ويقولون قتل القوم ، وإذا رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم تناجوا وأظهروا الحزن ، فبلغ ذلك من النبي صلى الله عليه وسلم ومن المسلمين ، فأنزل الله هذه الآية : وأخرجه البخاري ومسلم وغيرهما :

« عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث فإن ذلك يحزنه »[1] ، وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه :

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

« عن أبي سعيد قال : كنا نتناوب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يطرقه أمر أو يأمر بشيء ، فكثر أهل النوب والمحتسبون ليلة ، حتى إذا كنا أنداء نتحدث ، فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من الليل فقال : ما هذه النجوى ؟ ألم تنهوا عن النجوى ؟ قلنا : إنا كنا يا رسول الله في ذكر المسيح ، فرقاً منه ، فقال : ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي منه ؟ قلنا : بلى يا رسول الله قال : الشرك الخفي أن يقوم الرجل يعمل لمكان رجل » . قال ابن كثير : هذا إسناد غريب ، وفيه بعض الضعفاء ، ثم بين لهم ما يتناجون به في أنديتهم وخلواتهم فقال :

﴿ وتناجوا بالبر والتقوى ﴾ أي بالطاعة وترك المعصية ، ثم خوفهم سبحانه فقال ﴿ واتقوا الله الذي إليه تحشرون ﴾ فيجزيكم بأعمالكم ثم بين سبحانه أن ما يفعله اليهود والمنافقون من التناجي ، هو من جهة الشيطان فقال : ﴿ إنما النجوى ﴾ يعني الإثم والعدوان ومعصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، ﴿ من الشيطان ﴾ لا من غيره أي من تزيينه وتسويله .

﴿ ليحزن الذين آمنوا ﴾ أي لأجل أن يوقعهم في الحزن ، بما يحصل لهم من التوهم أنها في مكيدة يكادون بها قرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي من أحزانه والباقون بفتح الياء وضم الزاي من حزن يقال حزنه وأحزنه بمعنى ، قال في القاموس : وأحزنه جعله حزيناً ، والقراءة الأولى أشد في المعنى ﴿ وليس بضارهم شيئاً ﴾ أي وليس الشيطان أو التناجي الذي يزينه الشيطان أو الحزن بضار المؤمنين شيئاً من الضرر ﴿ إلا بإذن الله ﴾ أي بمشيئته وقيل : بعلمه .

﴿ وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ أي يكلون أمرهم اليه ويفوضونه في جميع شئونهم ويستعيذون بالله من الشيطان ، ولا يبالون بما يزينه من النجوى .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم : تفسحوا ﴾ وقرىء تفاسحوا ﴿ في المجالس ﴾ قرىء على الجمع لأن لكل واحد منهم مجلساً ، وقرىء على الإفراد ، قال الواحدي : والوجه التوحيد في المجلس ، لأنه يعني به مجلس النبي صلى الله عليه وسلم ، والتفسح التوسع ، يقال : فسح له يفسح فسحاً أي وسع له ومنه قولهم : بلد فسيح أمر الله سبحانه المؤمنين بحسن الأدب بعضهم مع بعض بالتوسعة في المجلس ، وعدم التضايق فيه قال قتادة ومجاهد والضحاك : كانوا يتنافسون في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمروا أن يفسح بعضهم لبعض ، وقال ابن عباس والحسن ويزيد بن أبي حبيب : هو مجلس القتال إذا اصطفوا للحرب ، كانوا يتشاحنون على الصف الأول ، ولا يوسع بعضهم لبعض رغبة في القتال ، لتحصيل الشهادة .

وقال القرطبي : الصحيح في الآية انها عامة في كل مجلس ، اجتمع فيه المسلمون للخير والأجر ، سواء كان مجلس حرب أو ذكر أو يوم جمعة وأن

كل واحد أحق بمكانه الذي يسبق اليه ، ولكن يوسع لأخيه ما لم يتأذ بذلك فيخرجه الضيق عن موضعه .

ويؤيد هذا حديث « ابن عمر عند مسلم والبخاري وغيرهما عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن تفسحوا وتوسعوا » .

﴿ فافسحوا يفسح الله لكم ﴾ أي فوسعوا يوسع الله لكم في الجنة أو في كل ما تريدون التفسيح فيه من المكان والرزق وغيرهما .

« عن مقاتل بن حيان قال أنزلت هذه الآية يوم جمعة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، يومئذ في الصفة ، وفي المكان ضيق ، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار فجاء ناس من أهل بدر وقد سبقوا الى المجالس ، فقاموا حيال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، فرد النبي صلى الله عليه وسلم عليهم ، ثم سلموا على القوم بعد ذلك فردوا عليهم . فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم فعرف النبي صلى الله عليه وسلم ما يحملهم على القيام فلم يفسح لهم فشق ذلك عليه ، فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر قم أنت يا فلان وأنت فلم يزل يقيمهم بعدة النفر الذين هم قيام من أهل بدر ، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه ، فنزلت هذه الآية .

﴿ وإذا قيل انشزوا فانشزوا ﴾ قرأ الجمهور بكسر الشين فيهما ، وقرىء بضمها فيهما ، وهما لغتان بمعنى واحد ، وقراءتان سبعيتان ، يقال : نشز أي ارتفع ينشز وينشز كعكف يعكف ويعكف قال جمهور المفسرين : أي انهضوا الى الصلاة والجهاد وعمل الخير ، وبه قال ابن عباس ، وقال عكرمة ومجاهد والضحاك : كان رجال يتثاقلون عن الصلاة فقيل لهم إذا نودي للصلاة فانهضوا وقال الحسن : انهضوا الى الحرب ، وقال ابن زيد : هذا في بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، كان كل رجل منهم يحب أن يكون آخر عهده بالنبي صلى

الله عليه وسلم ، فأمر الله تعالى أنه إذا قيل : انشزوا عن النبي فانشزوا ، فان له حوائج فلا تمكثوا، قال قتادة : المعنى أجيبوا إذا دعيتم إلى أمر بمعروف ، والظاهر حمل الآية على العموم ، والمعنى إذا قيل لكم انهضوا إلى أمر من الأمور الدينية فانهضوا ولا تتثاقلوا ولا يمنع من حملها على العموم كون السبب خاصاً ، فإن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو الحق ، ويندرج ما هو سبب النزول فيها إندراجاً أولياً وهكذا يندرج ما فيه السياق وهو التفسيح في المجلس اندراجاً أولياً .

وقد قدمنا أن معنى نشز ينشز ارتفع ، وهكذا نشز ينشز إذا تنحى عن موضعه ، ومنه امرأة ناشزة أي متنحية عن زوجها ، وأصله مأخوذ من النشز وهو ما ارتفع من الأرض وتنحى ، ذكر معناه النحاس .

﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم ﴾ بطاعتهم لله ولرسوله وامتثال أوامره في قيامهم من مجالسهم وتوسعتهم لإخوانهم في الدنيا والآخرة بتوفير نصيبهم فيهما ﴿ والذين أوتوا العلم ﴾ أي ويرفع العالمين منهم خاصة ﴿ درجات ﴾ عالية في الكرامة في الدنيا والثواب في الآخرة ، ومعنى الآية أنه يرفع الذين آمنوا على من لم يؤمن درجات ، ويرفع الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم درجات ، فمن جمع بين الإيمان والعلم رفعه الله بإيمانه درجات ثم رفعه بعلمه درجات ، وقيل : المراد بالذين آمنوا من الصحابة وكذلك بالذين أوتوا العلم ، وقيل : المراد بالذين أوتوا العلم الذين قرأوا القرآن ، والأولى حمل الآية على العموم في كل مؤمن ، وكل صاحب علم من علوم الدين من جميع أهل هذه الملة ، ولا دليل يدل على تخصيص الآية بالبعض دون البعض .

وقال ابن عباس في الآية : يرفع الله الذين أوتوا العلم من المؤمنين على الذين لم يؤمنوا ، درجات وقال ابن مسعود : على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم درجات وعنه قال : ما خص الله العلماء في شيء من القرآن كما خصهم

في هـذه الآية ، وعنـه أنّه كـان إذا قرأهـا قال يـا أيها النـاس افهموا هـذه الآية لتـرغبكم في العلم ، والأحاديث والأخبـار والآيـات في فضيلة العلم والعلمـاء كثيرة جداً قد ذكرنا طرفاً منها في كتابنا الحطة في ذكر الصحاح الستة .

﴿ والله بمـا تعملون خبير ﴾ لا يخفى عليـه شيء من أعمـالكم من خيـر وشر فهو مجازيكم بالخير خيراً وبالشر شراً .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول ﴾ المناجـاة المساررة ، والمعنى إذا أردتم مساررة الرسول في أمر من أموركم ﴿ فقدموا بين يدي نجواكم ﴾ أي مسـاررتكم له ﴿ صـدقة ﴾ في هـذا الأمر تعـظيم لـرسـول الله صلى الله عليـه وسلم ، وانتفاع الفقراء والنهي عن الإفـراط في السؤال ، والميز بين المخلص والمنـافق ومحب الدنيـا والآخرة ، واختلف في أنـه للندب أو للوجـوب ، قـال الحسن : نـزلت بسبب أن قومـاً من المسلمين كانـوا يستخلون النبي صلى الله عليـه وسلم ، ينـاجـونـه فـظن بهم قـوم من المسلمين أنهم ينتقصـونهم في النجـوى ، فشق عليهم ذلك فـأمرهم الله بـالصدقـة عند النجـوى ليقطعهم عن استخلائه .

وقـال زيد بن أسلم : نـزلت بسبب أن المنافقين واليهـود كانـوا يناجـون النبي صلى الله عليه وسلم ، ويقولون : إنه أذن يسمع كل ما قيل له ، وكان لا يمنع أحداً من منـاجاتـه ، وكان ذلـك يشق على المؤمنين ، لأن الشيطان كـان يلقي في أنفسهم أنهم نـاجوه بـأن جموعـاً اجتمعت لقتالـه ، فـأنـزل الله الآيـة الأولى فلم ينتهوا ، فأنزل الله هذه الآية فانتهى أهل الباطل ، لأنهم لم يقدمـوا بين يدي نجواهم صدقة ، وشق ذلك على أهل الإيمان ، وامتنعوا عن النجوى لضعف كثير منهم عن الصدقة ، فخفف الله عنهم بالآية التي بعد هذه .

وقـال ابن عباس : إن المسلمين أكثـروا المسائـل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى شقوا عليه ، فأراد الله أن يخفف عن نبيه صلى الله عليه

وسلم ، فلما قال ذلك : ضن كثير من الناس وكفوا عن المسألة . فأنزل الله بعد هذا ﴿ أأشفقتم ﴾ الآية فوسع الله عليهم ولم يضيق .

« وعن علي بن أبي طالب قال : لما نزلت هذه الآية قال لي النبي صلى الله عليه وسلم : ما ترى ديناراً ؟ قلت : لا يطيقونه ، قال : فنصف دينار قلت : لا يطيقونه ، قال : فكم ؟ قلت : شعيرة قال إنك لزهيد ، قال : فنزلت ﴿ أأشفقتم ﴾ الآية في خفف الله عن هذه الأمة » والمراد بالشعيرة هنا وزن شعيرة من ذهب ، وليس المراد الواحدة من حب الشعير ، أخرجه الترمذي وحسنه أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وغيرهم .

وعنه رضي الله تعالى عنه قال ما عمل بها أحد غيري حتى نسخت ، وما كانت إلا ساعة يعنى آية النجوى ، وعنه رضي الله عنه قال : إن في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي ، ولا يعمل بها أحد بعدي ، آية النجوى كان عندي دينار فبعته بعشرة دراهم ، فكنت كلما ناجيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قدمت بين يدي نجواي درهما ، ثم نسخت فلم يعمل بها أحد فنزلت ﴿ أأشفقتم ﴾ الآية ، وعن سعد بن أبي وقاص قال : نزلت آية النجوى فقدمت شعيرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنك لزهيد ، فنزلت الآية الأخرى ﴿ أأشفقتم ﴾ الآية .

﴿ ذلك ﴾ أي ما تقدم من تقديم الصدقة بين يدي النجوى ﴿ خير لكم ﴾ لما فيه من طاعة الله ، وتقييد الأمر بكون امتثاله خيراً لهم من عدم الامتثال ﴿ وأطهر ﴾ لنفوسهم ، يدل على أنه أمر ندب لا أمر وجوب قوله : ﴿ فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم ﴾ يعني من كان منكم لا يجد تلك الصدقة المأمور بها بين يدي النجوى ، فلا حرج عليه في النجوى بدون صدقة.

﴿ أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات ﴾ أي أخفتم الفقر

والعيلة لأن تقدموا ذلك ؟ والإشفاق الخوف من المكروه ، والاستفهام للتقرير .

وقيل : المعنى أبخلتم ، وجمع الصدقات هنا باعتبار المخاطبين ، قال مقاتل بن حيان : إنما كان ذلك عشر ليال ثم نسخ ، وقال الكلبي : ما كان ذلك إلا ليلة واحدة وقيل إنه لم يبق إلا يوماً واحداً وقال قتادة : ما كان إلا ساعة من نهار .

﴿ فإذا لم تفعلوا ﴾ ما أمرتم به من الصدقة بين يدي النجوى ، وهذا خطاب لمن وجد ما يتصدق به ولم يفعل ، وأما من لم يجد فقد تقدم الترخيص له بقوله : ﴿ فإن لم تجدوا فان الله غفور رحيم ﴾ وإذ على بابها في الدلالة على المضي وقيل : هي بمعنى إذا وقيل : بمعنى إن ﴿ وتاب الله عليكم ﴾ رجع بكم عنها بأن رخص لكم في الترك ﴿ فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله ﴾ المعنى إذا وقع منكم التثاقل عن امتثال الأمر بتقديم الصدقة بين يدي النجوى فاثبتوا على إقامة الصلاة المفروضة وإيتاء الزكاة الواجبة وطاعة الله ورسوله فيما تؤمرون به وتنهون عنه .

﴿ والله خبير بما تعملون ﴾ لا يخفى عليه من ذلك شيء ، فهو مجازيكم وليس في الآية ما يدل على تقصير المؤمنين في الامتثال أما الفقراء منهم فالأمر واضح ، وأما من عداهم من المؤمنين فإنهم لم يكلموا بالمناجاة حتى تجب عليهم الصدقة ، بل أمروا بالصدقة إذا أرادوا المناجاة ، فمن ترك المناجاة فلا يكون مقصراً في امتثال الأمر بالصدقة على أن الآية ما يدل على أن الأمر للندب كما قدمنا ، وقد استدل بهذه الآية من قال بأنه يجوز النسخ قبل إمكان الفعل وليس هذا الاستدلال بصحيح ، فإن النسخ لم يقع إلا بعد إمكان الفعل ، وأيضاً قد فعل ذلك البعض فتصدق بين يدي نجواه كما تقدم .

﴿ ألم تر إلى الذين تولوا قوماً ﴾ أي والوهم ، قال قتادة : هم المنافقون

تولوا اليهود ، وقال السدي ومقاتل : هم اليهود تولوا المنافقين ، ويدل على الأول قوله ﴿ غضب الله عليهم ﴾ فإن المغضوب عليهم هم اليهود ويدل على الثاني قوله ﴿ ما هو منكم ولا منهم ﴾ فإن هذا صفة المنافقين كما قال الله فيهم : ﴿ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ﴾ والجملة في محل نصب على الحال أو هي مستأنفة ﴿ ويحلفون على الكذب ﴾ أي أنهم مسلمون أو يحلفون أنهم ما نقلوا الأخبار إلى اليهود ، والجملة عطف على تولوا ، داخلة في حكم التعجيب من فعلهم ﴿ و ﴾ الحال أن ﴿ هم يعلمون ﴾ بطلان ما حلفوا عليه ، وأنه كذب لا حقيقة له فيمينهم يمين غموس ، لا عذر لهم فيها .

﴿ أعد الله لهم عذاباً شديداً ﴾ بسبب هذا التولي ، والحلف على الباطل ﴿ إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ من الأعمال القبيحة في الزمان الماضي أو هي حكاية ما يقال لهم في الآخرة ﴿ اتخذوا أيمانهم جنة ﴾ قرأ الجمهور أيمانهم جمع يمين وهي ما كانوا يحلفون عليه من الكذب بأنهم من المسلمين ، توقياً من القتل ، فجعلوا هذه الأيمان وقاية وسترة دون دمائهم ، كما يجعل المقاتل الجنة وقاية له من أن يصاب بسهم أو رمح ، وقرىء إيمانهم بكسر الهمزة أي جعلوا تصديقهم جنة من القتل ، فآمنت ألسنتهم من خوف القتل ولم تؤمن قلوبهم .

﴿ فصدوا عن سبيل الله ﴾ أي منعوا الناس عن الإسلام بسبب ما يصدر عنهم من التثبيط ، وتهوين أمر المسلمين ، وتضعيف شوكتهم ، وقيل المعنى فصدوا المسلمين عن قتالهم بسبب إظهارهم الإسلام ﴿ فلهم عذاب مهين ﴾ أي يهينهم ويخزيهم ، قيل هو تكرير لقوله ﴿ أعد الله لهم عذاباً شديداً ﴾ للتأكيد ، وقيل الأول عذاب القبر ، وهذا عذاب الآخرة ، ولا وجه للقول بالتكرير فإن العذاب الموصوف بالشدة غير العذاب الموصوف بالإهانة .

لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

﴿ لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله ﴾ أي من عذابه ﴿ شيئاً ﴾ من الإغناء ، قال مقاتل : قال المنافقون : إن محمداً صلى الله عليه وسلم ، يزعم أنه ينصر يوم القيامة لقد شقينا إذاً فوالله لننصرن يوم القيامة بأنفسنا وأموالنا وأولادنا إن كانت قيامة ، فنزلت الآية ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بما ذكر أصحاب النار ﴾ لا يفارقونها ﴿ هم فيها خالدون ﴾ لا يخرجون منها .

﴿ يوم ﴾ أي اذكر يوم ﴿ يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له ﴾ أي لله يوم القيامة على أنهم مؤمنون ﴿ كما يحلفون لكم ﴾ في الدنيا ، وهذا من شدة شقاوتهم ومزيد الطبع على قلوبهم ، فإن يوم القيامة قدانكشفت فيه الحقائق ، وصارت الأمور معلومة بضرورة المشاهدة فكيف يجترئون ، على أن يكذبوا في ذلك الموقف ، ويحلفون على الكذب .

« عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جالساً في ظل حجرة من حجره وعنده نفر من المسلمين فقال : إنه سيأتيكم إنسان فينظر

إليكم بعين شيطان ، فإذا جاءكم فلا تكلموه ، فلم يلبثوا أن طلع عليهم رجل أزرق ، فقال حين رآه : علام تشتمني أنت وأصحابك ؟ فقال : ذرني آتيك بهم ، فحلفوا واعتذروا » ، فأنزل الله هذه الآية والتي بعدها .

﴿ ويحسبون ﴾ في الآخرة ﴿ أنهم ﴾ بتلك الأيمان الكاذبة ﴿ على شيء ﴾ مما يجلب نفعاً أو يدفع ضرراً ، كما كانوا يحسبون ذلك في الدنيا ﴿ ألا إنهم هم الكاذبون ﴾ أي الكاملون في الكذب المتهالكون عليه ، البالغون إلى حد لم يبلغ اليه غيرهم بإقدامهم عليه وعلى الأيمان الفاجرة ، في موقف القيامة بين يدي الرحمن .

﴿ استحوذ عليهم الشيطان ﴾ أي غلب عليهم واستعلى واستولى ، قال المبرد : استحوذ على الشيء حواه وأحاط به ، وقيل : قوي عليهم ، وقيل : جمعهم ، يقال : أحوذ الشيء أي جمعه وضم بعضه إلى بعض ، والمعاني متقاربة لأنه إذا جمعهم فقد قوي عليهم وغلبهم ، واستعلى عليهم واستولى وأحاط بهم ﴿ فأنساهم ذكر الله ﴾ أي أوامره والعمل بطاعاته ، فلم يذكروا شيئاً من ذلك وقيل : زواجره في النهي عن معاصيه ، وقيل : لم يذكروه بقلوبهم ولا بألسنتهم والإشارة بقوله ﴿ أولئك ﴾ الى المذكورين الموصوفين بتلك الصفات ﴿ حزب الشيطان ﴾ أي جنوده وأتباعه ورهطه .

﴿ ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾ أي الكاملون في الخسران ، حتى كأن خسران غيرهم بالنسبة إلى خسرانهم ليس بخسران ، لأنهم باعوا الجنة بالنار ، والهدى بالضلال وكذبوا على الله وعلى نبيه وحلفوا الأيمان الفاجرة في الدنيا والآخرة ، وفوتوا على أنفسهم النعيم المؤبد ، وعرضوها للعذاب المخلد .

﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله ﴾ قد تقدم معنى المحادة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، في أول هذه السورة والجملة تعليل لما قبلها ﴿ أولئك في الأذلين ﴾ أي أولئك المحادون لله ولرسوله المتصفون بتلك الصفات

المتقدمة من جملة من أذله الله من الأمم السابقة واللاحقة ، لا ترى أحداً أذل منهم لأنهم لما حادوا الله ورسوله صاروا من الذل بهذا المكان ، قال عطاء : يريد الذل في الدنيا والخزي في الآخرة .

﴿ كتب الله ﴾ مستأنفة لتقرير ما قبلها من كونهم في الأذلين ، أي كتب في اللوح المحفوظ ، وقضى في سابق علمه ، وقال الفراء : كتب بمعنى قال ﴿ لأغلبن أنا ورسلي ﴾ بالحجة والسيف أو بأحدهما ، قال الزجاج : معنى غلبة الرسل على نوعين ، من بعث منهم بالحرب فهو غالب في الحرب ، ومن بعث منهم بغير الحرب فهو غالب بالحجة ﴿ إن الله قوي ﴾ على نصر أوليائه ﴿ عزيز ﴾ غالب لأعدائه لا يغلبه أحد .

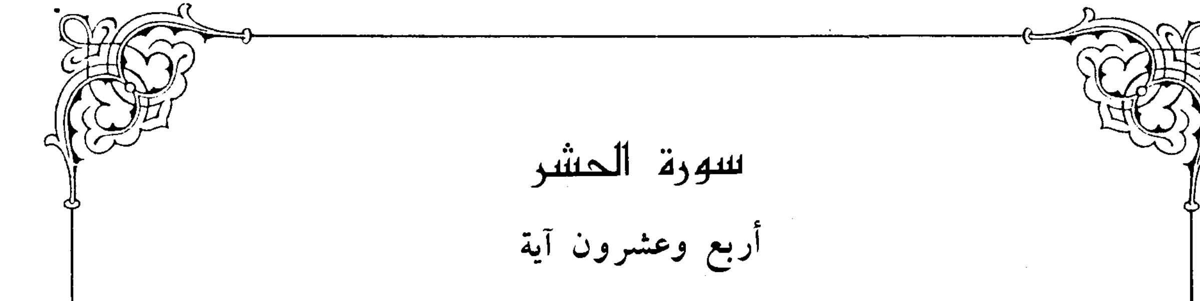
﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ إيماناً صحيحاً ، بحيث يتوافق فيه الظاهر مع الباطن ﴿ يوادون من حاد الله ورسوله ﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو لكل من يصلح له ، أي يحبون ويوالون من عادى الله ورسوله وشاقهما ، أي من الممتنع أن تجد قوماً من المؤمنين يوالون المشركين ، والمراد أنه لا ينبغي أن يكون ذلك وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال مبالغة في التوصية بالتصلب في مجانبة أعداء الله ومباعدتهم ، والاحتراز عن مخالطتهم ومعاشرتهم « عن عبد الله بن شوذب قال : جعل والد أبي عبيدة بن الجراح يتقصد لأبي عبيدة يوم بدر ، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه ، فلما أكثر قصده أبو عبيدة فقتله ، فنزلت هذه الآية » ، أخرجه البيهقي في سننه والحاكم والطبراني وغيرهم ثم زاد ذلك تأكيداً وتشديداً بقوله :

﴿ ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴾ أي ولو كان المحادون لله ورسوله آباء الموادين الخ ، فإن الإيمان يزجر عن ذلك ويمنع منه ورعايته أقوى من رعاية الأبوة والنبوة والأخوة والعشيرة ، وقدم أولاً الآباء لأنهم يجب طاعتهم ، ثم ثنى بالأبناء لأنهم أعلق بالقلب ، ثم ثلث بالإخوان لأنهم الناصرون بمنزلة العضد من الذراع ، ثم ربّع بالعشيرة لأن بها يستغاث وعليها يعتمد أفاده السمين ، روي عن ابن مسعود في هذه الآية قال : ولو كانوا

آباءهم يعني أبا عبيدة بن الجراح قتل أباه الجراح ، أو أبناءهم يعني أبا بكر الصديق دعا ابنه يوم بدر للبراز ، وقال : يا رسول الله دعني أكن في الرعلة الأولى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : متعنا بنفسك يا أبا بكر أو إخوانهم يعني مصعب بن عمير ، قتل أخاه عبيد بن عمير يوم أحد ، أو عشيرتهم يعني عمر بن الخطاب قتل خاله العاصي بن هشام بن المغيرة يوم بدر وعلي بن أبي طالب وحمزة وأبو عبيدة قتلوا بني عمهم عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر .

﴿ أولئك ﴾ يعني الذين لا يوادون من حاد الله ورسوله ﴿ كتب ﴾ أي خلق ، وقيل : أثبت وقيل : جعل ، وقيل : حكم والمعاني متقاربة ﴿ في قلوبهم الإيمان ﴾ وإنما ذكر القلوب لأنها موضعه ﴿ وأيدهم بروح منه ﴾ أي قواهم بنصر منه على عدوهم في الدنيا ، وسمى نصره لهم روحاً لأن به يحيي أمرهم ، وقيل : هو نور القلب ، وقال الربيع بن أنس : بالقرآن والحجة ، وقيل : بجبريل ، وقيل : بالإيمان ، وقيل : برحمة ، وقيل : بكتاب أنزله فيه حياة لهم ، وقيل : بروح من الإيمان على أنه في نفسه روح لحياة القلوب ، وعن الثوري أنه قال : كانوا يرون أنها نزلت فيمن يصحب السلطان ، وعن عبد العزيز بن رواد أنه لقيه المنصور فلما عرفه هرب منه وتلاها ، وقيل : هي في أهل البدع والأهواء .

﴿ ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾ على الأبد ﴿ رضي الله عنهم ﴾ أي قبل أعمالهم ، وأفاض عليهم آثار رحمته العاجلة والآجلة ﴿ ورضوا عنه ﴾ أي فرحوا بما أعطاهم عاجلاً وآجلاً ﴿ أولئك حزب الله ﴾ أي جنده الذين يمتثلون أوامره ، ويقاتلون أعداءه ، وينصرون أولياءه ، وفي إضافتهم الى الله سبحانه تشريف لهم وتعظيم ، وتكريم فخيم ﴿ ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ أي الفائزون بسعادة الدنيا والآخرة ، الكاملون في الفلاح الذين صار فلاحهم هو الفرد الكامل حتى كأن فلاح غيرهم بالنسبة إلى فلاحهم كَلا فلاح .



سورة الحشر

أربع وعشرون آية

وهي مدنية . قال القرطبي : في قول الجميع . قال ابن عباس : نزلت بالمدينة وعن ابن الزبير مثله . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما .

« عن سعد بن جبير قال قلت لابن عباس : سورة الحشر قال : سورة النضير . يعني أنها نزلت في بني النضير » . كما صرح بذلك في بعض الروايات .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ
حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ
يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَنْ
كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾

﴿ سبح لله ما في السموات وما في الأرض ﴾ أي نزهه ، فاللام مزيدة ، وفي الإتيان بـ ﴿ ما ﴾ تغليب للأكثر ﴿ وهو العزيز الحكم ﴾ في ملكه وصنعه ﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ﴾ اللام متعلقة بأخرج ، وهي لام التوقيت ، كقوله ﴿ لدلوك الشمس ﴾ ، أي عند أول الحشر ، قال الزمخشري : وهي كاللام في قوله تعالى ﴿ يا ليتني قدمت لحياتي ﴾ وقولك جئت لوقت كذا ، والمراد من أهل الكتاب هم بنو النضير ، وهم رهط من اليهود من ذرية هرون نزلوا المدينة في فتن بني أسرائيل انتظاراً منهم لمحمد صلى الله عليه وسلم ، فغدروا بالنبي صلى الله عليه وسلم ، بعد أن عاهدوه وصاروا عليه مع المشركين ، فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى رضوا بالجلاء قال الكلبي : كانوا أول من أجلي من أهل الذمة من جزيرة العرب ، ثم أجلى آخرهم في زمن عمر بن الخطاب ، وكان جلاؤهم أول حشر من المدينة ، وآخر حشر إجلاء عمر لهم .

وقيل : إن أول الحشر إخراجهم من حصونهم الى خيبر ، وآخر الحشر إخراجهم من خيبر إلى الشام ، وقيل : آخر الحشر هو حشر جميع الناس إلى أرض المحشر وهي الشام ، قال عكرمة : من شك أن الحشر يوم القيامة في

الشام فليقرأ هذه الآية ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال لهم : اخرجوا ، قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى أرض المحشر ، وعن ابن عباس مثله ، قال ابن العربي : للحشر أول وأوسط وآخر ، فالأول إجلاء بني النضير ، والأوسط إجلاء أهل خيبر ، والآخر حشر يوم القيامة . وقد أجمع المفسرون على أن هؤلاء المذكورين في الآية هم بنو النضير ، ولم يخالف في ذلك إلا الحسن البصري فقال : هم بنو قريظة وهو غلط ، فإن بني قريظة ما حشروا ، بل قتلوا بحكم سعد بن معاذ لما رضوا بحكمه ، فحكم عليهم بأن يقتل مقاتلتهم ، وتسبى ذراريهم ، وتغنم أموالهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد : لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة .

وقد أخرج الحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي في الدلائل ؛

« عن عائشة قالت كانت غزوة بني النضير ، وهم طائفة من اليهود ، على رأس ستة أشهر من وقعة بدر ، وكان منزلهم ونخلهم في ناحية المدينة ، فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على الجلاء ، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من الأمتعة والأموال إلا الحلقة ، يعني السلاح ، فأنزل الله فيهم : ﴿ سبح لله ﴾ الى قوله ﴿ لأول الحشر ﴾ ، فقاتلهم النبي صلى الله عليه وسلم حتى صالحهم على الإجلاء وأجلاهم الى الشام ، وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء فيما خلا ، وكان الله قد كتب عليهم ذلك ، ولولا ذلك لعذبهم في الدنيا بالقتل والسبي »[1] ، وأما قوله ﴿ لأول الحشر ﴾ فكان إجلاؤهم ذلك أول حشر في الدنيا الى الشام .

وعن ابن عباس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم فد حاصرهم حتى بلغ منهم كل مبلغ فأعطوه ما أراد منهم ، فصالحهم على أن يحقن لهم

---

(١) رواه الحاكم .

دماءهم ، وأن يخرجهم من أرضهم وأوطانهم ، وأن يسيروا الى أذرعات الشام ، وجعل لكل ثلاثة منهم بعيراً وسقاء ﴿ ما ظننتم أن يخرجوا ﴾ هذا خطاب للمسلمين أي ما ظننتم أيها المسلمون أن بني النضير يخرجون من ديارهم لعزتهم ومنعتهم ، وذلك أنهم كانوا أهل حصون مانعة ، وعقار ونخيل واسعة ، وأهل عدد وعدة .

﴿ وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ﴾ أي وظن بنو النضير أن حصونهم تمنعهم من بأس الله ، والفرق بين هذا التركيب ، وبين النظم الذي جاء عليه ، أن في تقديم الخبر على المبتدأ دليلاً على فرط وثوقهم بحصانتها ، ومنعها إياهم ، وفي تصيير ضميرهم اسماً لأن وإسناد الجملة إليه دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة ، لا يبالي معها بأحد يتعرض لهم أو يطمع في مغارتهم ، وليس ذلك في قولك : وظنوا أن حصونهم تمنعهم .

﴿ فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ﴾ أي أتاهم أمر الله من حيث لم يخطر ببالهم أنه يأتيهم أمره من تلك الجهة ، وهو أنه سبحانه أمر نبيه صلى الله عليه وسلم ، بقتالهم وإجلائهم ، وكانوا لا يظنون ذلك وقيل : هو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف قاله ابن جريج والسدي وأبو صالح ، فإن قتله أضعف شوكتهم ، وقيل : إن الضمير في أتاهم ولم يحتسبوا للمؤمنين أي فأتاهم نصر الله من حيث لم يحتسبوا والأول أولى لقوله ﴿ وقذف في قلوبهم الرعب ﴾ فإن قذف الرعب كان في قلوب بني النضير ، لا في قلوب المسلمين ، قال أهل اللغة : الرعب الخوف الذي يرعب الصدر ، أي يملأه ، وقذفه إثباته فيه ، قيل : وكان قذف الرعب في قلوبهم بقتل سيدهم كعب بن الأشرف والأولى عدم تقييده بذلك وتفسيره به ، بل المراد بالرعب الذي قذفه الله في قلوبهم هو الذي ثبت في الصحيح .

« من قوله صلى الله عليه وسلم : نصرت بالرعب مسيرة شهر » .

﴿ يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين ﴾ وذلك أنهم لما أيقنوا بالجلاء حسدوا المسلمين أن يسكنوا منازلهم ، فجعلوا يخربونها من داخل ، والمسلمون من خارج ، قال قتادة والضحاك : كان المؤمنون يخربون من خارج ليدخلوا ، واليهود من داخل ليبنوا به ما خرب من حصنهم ، قال الزجاج : معنى تخريبها بأيدي المؤمنين أنهم عرضوها لذلك ، قرأ الجمهور يخربون بالتخفيف ، وقرىء بالتشديد ، قال أبو عمرو : وإنما اخترت القراءة بالتشديد لأن الإخراب ترك الشيء خراباً ، وإنما خربوها بالهدم ، وليس ما قاله بمسلم ، فإن التخريب والإخراب عند أهل اللغة بمعنى واحد ، قال سيبويه : إن معنى فعلت وأفعلت يتعاقبان نحو أخربته وخربته ، وأفرحته وفرحته ، واختار الأولى أبو عبيد وأبو حاتم .

قال الزهري وابن زيد وعروة بن الزبير : لما صالحهم النبي صلى الله عليه وسلم على أن لهم ما أقلت الإبل ، كانوا يستحسنون الخشبة أو العمود ، فيهدمون بيوتهم ويحملون ذلك على إبلهم ، ويخرب المؤمنون بالمقاتلة ، وقال أبو عمرو : بأيديهم في تركهم لها وبأيدي المؤمنين في إجلائهم عنها ، والجملة مستأنفة لبيان ما فعلوه ، أو في محل نصب على الحال .

﴿ فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴾ أي اتعظوا وتدبروا ، وانظروا فيما نزل بهم يا أهل العقول والبصائر ، قال الواحدي : ومعنى الاعتبار النظر في الأمور ليعرف بها شيء آخر من جنسها ، قال النسفي : وهو دليل على جواز القياس انتهى . والاعتبار مأخوذ من العبور ، والمجاوزة من شيء الى شيء ، ولهذا سميت العبرة عبرة لأنها تنتقل من العين إلى الخد ، وسمي علم التعبير لأن صاحبه ينقل من المتخيل إلى المعقول ، وسميت الألفاظ عبارات لأنها تنقل المعاني من لسان القائل الى عقل المستمع ، ويقال : السعيد من اعتبر بغيره ، لأنه ينقل بواسطة عقله من حال ذلك الغير إلى حال نفسه ومن لم يعتبر بغيره

اعتبر به غيره ، ولهذا قال القشيري : الاعتبار هو النظر في حقائق الأشياء وجهات دلالتها ليعرف بالنظر فيها شيء آخر .

﴿ ولـولا أن كتب الله عليهم الجـلاء ﴾ أي الخـروج من أوطـانهم على ذلـك الوجـه مع الأهـل والولد، وقضى بـه عليهم ﴿ لعذبهم ﴾ بـالقتـل والسبي ﴿ في الـدنيا ﴾ كمـا فعل ببني قـريظة ، والجـلاء مفارقـة الوطن ، يقـال : جلا بنفسه جلاء ، وأجـلاه غيره إجـلاء ، والفرق بين الجـلاء والإخراج ـ وإن كـان معناهما في الابعاد واحداً ـ من جهتين إحـداهما أن الجـلاء ما كـان مع الأهـل والولد ، والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد ، الثاني أن الجلاء لا يكـون إلا لجماعة والإخراج يكون لجماعة ولواحد كذا قال الماوردي .

﴿ ولهم في الآخـرة عذاب النـار ﴾ مستأنفـة غير متعلقـة بجواب لـولا ، متضمنـة لبيان مـا يحصل لهم في الآخـرة من العذاب ، وإن نجـوا من عذاب الدنيا .

﴿ ذلك ﴾ أي ما تقـدم ذكره من الجـلاء في الدنيـا والعذاب في الآخـرة ﴿ بأنهم شاقوا الله ورسوله ﴾ أي بسبب المشاقة منهم لله ولرسوله لعدم الطاعـة والميـل مع الكفـار ونقض العهد ﴿ ومن يشـاق الله فإن الله شـديـد العقـاب ﴾ اقتصر ههنا على مشاقة الله لأن مشاقته شاقة لرسوله قرأ الجمهور يشاق بـالإدغام وقرىء يشاقق بالفك .

مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾

﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله ﴾ قال مجاهد : إن بعض المهاجرين وقعوا في قطع النخل ، فنهاهم بعضهم وقالوا إنما هي مغانم المسلمين ، وقال الذين قطعوا بل هو غيظ للعدو فنزل القرآن بتصديق من نهى عن قطع النخل وتحليل من قطعه من الإثم فقال ﴿ ما قطعتم من لينة ﴾ قال قتادة والضحاك : إنهم قطعوا من نخيلهم وأحرقوا ست نخلات ، وقال محمد بن اسحق إنهم أحرقوا نخلة وقطعوا نخلة فقال بنو النضير وهم أهل الكتاب يا محمد ألست تزعم أنك نبي تريد الصلاح ؟ أفمن الصلاح قطع النخل وحرق الشجر ؟ وهل وجدت فيما أنزل عليك إباحة الفساد في الأرض ؟ فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووجد المسلمون في أنفسهم فنزلت الآية ومعنى الآية أي شيء قطعتم من ذلك أو تركتم فبإذن الله ، والضمير في تركتموها عائد الى (ما) لتفسيرها باللينة وكذا في قوله ﴿ قائمة على أصولها ﴾ ومعنى على أصولها أنها باقية على ما هي عليه .

واختلف المفسرون في تفسير اللينة فقال الزهري ومالك وسعيد بن جبير وعكرمة والخليل : إنها النخل كله ، إلا العجوة ، وقال مجاهد : إنها النخل كله ولم يستثن عجوة ولا غيرها ، وقال الثوري : هي كرام العجل وقال أبو

عبيدة ؛ إنها جميع ألوان التمر سوى العجوة والبرني وقال جعفر بن محمد : إنها العجوة خاصة ، وقيل : هي ضرب من النخل يقال لثمره : اللون ، تمره أجود التمر ، وقال الأصمعي : هي الدقل وأصل اللينة لونه فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها ، وجمع اللينة لين ، وقيل : ليان ، وقرأ ابن مسعود : ولا تركتم قوماً على أصولها ، أي قائمة على سوقها ، وقرىء على أصلها ، وقائماً على أصوله ، وفي البخاري ومسلم وغيرهما :

« عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حرق نخل بني النضير ، وقطع وهي البويرة » ، ولها يقول حسان رضي الله تعالى عنه :

وهان على سراة بني لؤي حريق بالبويرة مستطير

فأنزل الله ما قطعتم الآية ، وأخرج الترمذي وحسنه والنسائي وابن أبي حاتم وابن مردويه :

« عن ابن عباس في الآية قال : اللينة النخلة ، قال : استنزلوهم من حصونهم ، وأمروا بقطع النخل فحك في صدورهم ، فقال المسلمون : قد قطعنا بعضاً وتركنا بعضاً ، فلنسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هل لنا فيما قطعنا من أجر ؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر ؟ فأنزل الله ﴿ ما قطعتم من لينة ﴾ الآية » ، وفي الباب أحاديث ، والكلام في صلح بني النضير مبسوط في كتب السير .

﴿وليخزي الفاسقين ﴾ أي ليذل الخارجين عن الطاعة ، وهم اليهود ، ويغيظهم ، في قطعها وتركها لأنهم إذا رأوا المؤمنين يتحكمون في أموالهم كيف شاؤوا من القطع والترك ازدادوا غيظاً ، قال الزجاج : وليخزي الفاسقين بأن يريهم أموالهم يتحكم فيها المؤمنون كيف أحبوا من قطع وترك ، والتقدير وليخزي الفاسقين ، أذن في ذلك ، يدل على المحذوف قوله : ﴿ فبإذن الله ﴾ ، وقد استدل بهذه الآية على أن حصون الكفار وديارهم لا بأس أن تهدم وتحرق وترمى بالمجانيق ، وكذلك قطع أشجارهم ونحوها ، وعلى

جواز الاجتهاد ، وعلى تصويب المجتهدين ، والبحث مستوفى في كتب الأصول .

﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم ﴾ أي ما رده عليه من أموال الكفار ، يقال : فاء يفيء إذا رجع ، والضمير في منهم راجع الى بني النضير ﴿ فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ﴾ يقال : وجف الفرس والبعير يجف وجفاً وهو سرعة السير ، وأوجفه صاحبه إذا حمله على السير السريع ، و ﴿ما﴾ في ﴿ما أوجفتم﴾ نافية ، والفاء جواب الشرط إن كانت ﴿ما﴾ في ﴿ما أفاء الله﴾ شرطية ، وإن كانت موصولة فالفاء زائدة و ﴿من﴾ في ﴿من خيل﴾ زائدة للتأكيد ، والركاب ما يركب من الابل خاصة ، قال الرازي : العرب لا يطلقون لفظ الراكب إلا على راكب البعير ، ويسمون راكب الفرس فارساً ، والمعنى أن ما رد الله على رسوله من أموال بني النضير لم تركبوا لتحصيله خيلاً ولا إبلاً ، ولم تقطعوا اليها مسافة ، ولا تجشمتم لها شقة ، ولا لقيتم بها حرباً ولا مشقة ، وإنما كانت من المدينة على ميلين ، قاله الفراء ، فجعل الله سبحانه أموال بني النضير لرسوله صلى الله عليه وسلم ، خاصة لهذا السبب فإنه افتتحها صلحاً ، وأخذ أموالها ، وقد كان يسأله المسلمون أن يقسم لهم فنزلت الآية .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما :

« عن عمر بن الخطاب قال : كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومما لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب ، وكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، خاصة ، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنة ، ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدة في سبيل الله » .

« وعن ابن عباس قال : جعل ما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحكم فيه ما أراد ولم يكن يومئذ خيل ولا ركاب يوجف بها ، قال : والإيجاف أن يوضعوا السير وهي لرسول الله فكان من ذلك خيبر وفدك ، وقرى عرينة ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعمد لينبع فأتاها

رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحتواها كلها ، فقال ناس : هلا قسمها الله ؟ فأنزل الله عذره ، فقال : ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ﴾ الآية » وفي الكرخي : وهذا وإن كان كالغنيمة لأنهم خرجوا أياماً وقاتلوا وصالحوا ، لكن لقلة تعبهم أجراه الله تعالى مجرى الفيء .

﴿ ولكن الله يسلط رسله على من يشاء ﴾ أي سنته تعالى جارية على أن يسلطهم على من يشاء من أعدائه تسلطاً غير معتاد ، من غير أن يقتحموا مضايق الخطوب ، ويقاسوا شدائد الحروب ، وفي هذا بيان أن تلك الأموال كانت خاصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم دون أصحابه ، لكونهم لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب ، بل مشوا اليها مشياً ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ يسلط من يشاء على من أراد . ويعطي من يشاء ويمنع من يشاء ، ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ ، فلا حق لكم فيه ويختص به النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن ذكر معه في الآية الثانية من الأصناف الأربعة على ما كان يقسمه .

﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ﴾ هذا بيان لمصارف الفيء بعد بيان أنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، خاصة ، والتكرير لقصد التقرير والتأكيد ، ووضع أهل القرى موضع منهم أي من بني النضير للإشعار بأن هذا الحكم لا يختص ببني النضير وحدهم بل هو حكم على كل قرية يفتحها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صلحاً ولم يوجف عليها المسلمون بخيل ولا ركاب قيل : والمراد بالقرى بنو النضير وقريظة وهما بالمدينة وفدك وهي على ثلاثة أميال من المدينة وخيبر وقرى عرينة وينبع وقد تكلم أهل العلم في هذه الآية والتي قبلها هل معناهما متفق أو مختلف ؟ فقيل : متفق ، كما ذكرنا وقيل : مختلف ، وفي ذلك كلام طويل لأهل العلم .

قال ابن العربي : لا إشكال أنها ثلاثة معان في ثلاث آيات ، أما الآية الأولى وهي قوله : ﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم ﴾ فهي خاصة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، خالصة له وهي أموال بني النضير ، وما كان مثلها وأما

الآية الثانية وهي ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ﴾ فهذا كلام مبتدأ غير الأول لمستحق غير الأول وإن اشتركت هي والأولى في أن كل واحدة منهما تضمنت شيئاً أفاءه الله على رسوله واقتضت الآية الأولى أنه حاصل بغير قتال ، واقتضت آية الأنفال وهي الآية الثالثة أنه حاصل بقتال ، وعريت الآية الثانية وهي ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى عن ذكر حصوله بقتال أو بغير قتال ، فنشأ الخلاف من ههنا ، فطائفة قالت : هي ملحقة بالأولى وهي مال الصلح ، وطائفة قالت : هي ملحقة بالثالثة وهي آية الأنفال ، والذين قالوا إنها ملحقة بآية الأنفال اختلفوا هل هي منسوخة أو محكمة ؟ هذا حاصل كلامه .

وقال مالك : إن الآية الأولى من هذه السورة خاصة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، والآية الثانية هي في بني قريظة ، ويعني أن معناها يعود إلى آية الأنفال ، ومذهب الشافعي أن سبيل خمس الفيء سبيل خمس الغنيمة ، وأن أربعة أخماسه كانت للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهي بعده لمصالح المسلمين .

﴿ فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ المراد بقوله : ﴿ لله ﴾ أنه يحكم فيه بما يشاء للرسول يكون ملكاً له ، ﴿ ولذي القربى ﴾ وهم بنو هاشم وبنو المطلب ، لأنهم قد منعوا من الصدقة ، فجعل لهم حقاً في الفيء قيل : تكون القسمة في هذا المال على أن تكون أربعة أخماسه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخمسه يقسم أخماساً للرسول خمس ، ولكل صنف من الأصناف الأربعة المذكورة خمس ، وقيل : يقسم أسداساً ، السادس سهم الله سبحانه ، ويصرف إلى وجه القرب ، كعمارة المساجد ونحو ذلك .

وعن ابن عباس قال : كان ما أفاء الله على رسوله من خيبر نصف لله ورسوله ، والنصف الآخر للمسلمين فكان الذي لله ورسوله من ذلك الكتبة والوطيح والسلالم ووحدوه وكان الذي للمسلمين الشق ، والشق ثلاثة عشر سهماً ، ونطاة خمسة أسهم ، ولم يقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من خيبر لأحد من المسلمين إلا لمن شهد الحديبية ولم يأذن رسول الله صلى الله

عليه وسلم لأحد من المسلمين تخلف عنه عند مخرجه الحديبية أن يشهد معه خيبر إلا جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري .

وأخرج أبو داود عن عمر بن الخطاب قال : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، صفايا في النضير وخيبر وفدك ، فأما بنو النضير فكانت حبساً لنوائبه ، وأما فدك فكان لابن السبيل . وأما خيبر فجزأها ثلاثة أجزاء ، قسم منها جزءين بين المسلمين ، وحبس جزءاً لنفسه ولنفقة أهله ، فما فضل عن نفقة أهله رده على فقراء المهاجرين » ، قال البقاعي : ومن زعم أن شيئاً مما في هذه السورة نسخ بشيء مما في سورة الأنفال فقد أخطأ ، لأن الأنفال نزلت في بدر ، وهي قبل هذه بمدة .

﴿ كيلا يكون ﴾ الفيء ﴿ دولة بين الأغنياء منكم ﴾ دون الفقراء ، والدولة اسم لشيء يتداوله القوم بينهم ، يكون لهذا مرة ، ولهذا مرة ، قال مقاتل : المعنى أنه يغلب الأغنياء الفقراء فيقسمونه بينهم ، قرأ الجمهور يكون بالتحتية ، ودولة بالنصب ، وقرىء بالفوقية ودولة بالرفع ، أي كيلا تقع أو توجد دولة ، وكان تامة ، وقرأ الجمهور دولة بضم الدال ، وقرىء بفتحها ، قال عيسى بن عمر ، ويونس ، والأصمعي : هما لغتان بمعنى واحد ، وقال أبو عمرو بن العلاء : الدولة بالفتح الذي يتداول من الأموال ، وبالضم الفعل وكذا قال أبو عبيدة وجمع المفتوح دول مثل قطعة وقصع ، وجمع المضموم دول مثل غرفة وغرف ، وقيل : بالضم في المال ، وبالفتح في الحرب ، ودالت الأيام تدول مثل دارت الأيام تدور وزناً ومعنى ، وقيل : بالفتح من الملك بضم الميم ، وبالضم من الملك بكسر الميم ، قال عمر بن الخطاب ما على وجه الأرض مسلم إلا وله حق في هذا الفيء ، إلا ما ملكت أيمانكم .

ثم لما بين سبحانه مصارف هذا المال أمرهم بالاقتداء برسوله صلى الله عليه وسلم فقال :

﴿ وما آتاكم الرسول ﴾ أي ما أعطاكم من مال الغنيمة والفيء ﴿ فخذوه وما نهاكم عنه ﴾ أي عن أخذه ﴿ فانتهوا ﴾ عنه ولا تأخذوه ، قال الحسن والسدي : ما أعطاكم من مال الفيء فاقبلوه ، وما منعكم منه فلا تطلبوه ، وقال

ابن جريج : ما أعطاكم من طاعتي فافعلوه ، وما نهاكم من معصيتي فاجتنبوه والحق أن هذه الآية عامة في كل شيء يأتي به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من أمر أو نهي ، أو قول أوفعل ، وإن كان السبب خاصاً فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وكل شيء أتانا به من الشرع فقد أعطانا إياه وأوصله إلينا ، وما أنفع هذه الآية وأكثر فائدتها ، قال الماوردي : إنه محمول على العموم في جميع أوامره ونواهيه ، لا يأمر إلا بإصلاح ، ولا ينهي إلا عن فساد قال المهدوي : هذا يوجب أن كل ما أمر به النبيّ صلى الله عليه وسلم أمر من الله تعالى ، وإن كانت الآية خاصة بالغنائم : فجميع أوامره ونواهيه داخلة فيها ، ذكره القرطبي .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما .

عن « ابن مسعود قال : لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات لخلق الله ، فبلغ ذلك امرأة من بني أُسد يقال لها أم يعقوب فجاءت إليه فقالت : بلغني أنك لعنت كيت وكيت ، قال :وما لي لا ألعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو في كتاب الله قالت : لقد قرأت ما بين الدفتين فما وجدت فيه شيئاً من هذا ، قال : لئن كنت قرأته لقد وجدته ، أما قرأت﴿ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾؟ قالت : بلى ، قال : فإنه قد نهى عنه » . ثم لما أمرهم بأخذ ما أمرهم بأخذه الرسول ، وترك ما نهاهم عنه ، أمرهم بتقواه ، وخوفهم شدة عقوبته ، فقال :

﴿ واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ فهو معاقب من لم يأخذ ما أتاه الرسول ، ولم يترك ما نهاه عنه .

« عن أبي رافع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا ألقين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه أمر مما أمرت به ، أو نهيت عنه فيقول : لا أدري ، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه » ، أخرجه ابو داود والترمذي وقال : هذا حديث حسن ، والأريكة كل ما اتكىء عليه من سرير او فراش او منصة او نحو ذلك ، وفي الباب أحاديث ، ثم بين من له الحق في الفيء فقال :

لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾

﴿ للفقراء ﴾ قيل : بدل من لذي القربى وما عطف عليه ، قاله أبو البقاء ، ومقتضاه اشتراط الفقر فيه ، وهو مذهب الإمام أبي حنيفة ، ومن ثم جعله الزمخشري كذلك ، وأطال الكلام فيه ولا يصح أن يكون بدلاً من الرسول وما بعده ، لئلا يستلزم وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بالفقر ، وقيل : التقدير لكيلا يكون دولة ، ولكن يكون للفقراء وقيل : التقدير اعجبوا للفقراء ، وبه فسر المحلي ، وهو موافق لمذهب إمامه الشافعي وأصحابه من الاستحقاق بالقرابة ، ولم يشترط الحاجة ، فاشتراطها وعدم اعتبار القرابة يضاده ويخالفه ، ولأن الآية نص في ثبوت الاستحقاق تشريفاً لهم ، فمن علله بالحاجة فوت هذا المعنى والذي يؤيد تقدير فعل التعجب كما ذكره أبو البقاء وتبعه الكواشي مجيء قوله : ﴿ ألم تر الى الذين نافقوا يقولون ﴾ الآيات مصدراً بألم تر ، وهي كلمة تعجب ، لكون ذكرهم جاء مقابلاً لذكر أضدادهم ، وقيل : التقدير : والله شديد العقاب للفقراء ، أي للكفار بسبب الفقراء ، وقيل : هو عطف ما مضى بتقدير الواو كما تقول : المال لزيد لعمرو لبكر .

﴿ المهاجرين ﴾ أي الذين هاجروا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم رغبة في الدين ونصرة له ، قال قتادة : هؤلاء المهاجرون هم الذين تركوا الديار والأموال والأهلين كما قال تعالى : ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ﴾ أي حيث أخرجهم كفار مكة منها ، واضطروهم الى الخروج وكانوا مائة رجل ، قال النسفي : وفيه دليل على أن الكفار يملكون بالاستيلاء أموال المسلمين ، لأن الله سمى المهاجرين فقراء مع أنه كانت لهم ديار وأموال .

﴿ يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ﴾ أي حال كونهم يطلبون منه أن يتفضل عليهم بالرزق في الدنيا وبالرضوان في الآخرة ﴿ وينصرون الله ورسوله ﴾ بالجهاد للكفار بأنفسهم وأموالهم ، والمراد نصر دينه وإعلاء كلمته ، وهذا حال مقدرة أي ناوين نصرتهما إذ وقت خروجهم لم تكن نصرة بالفعل .

﴿ أولئك ﴾ المتصفون بتلك الصفات ﴿ هم الصادقون ﴾ أي الكاملون في الصدق ، الراسخون فيه ، قال قتادة : هم المهاجرون الذين تركوا الديار والأموال والعشائر ، وخرجوا حباً لله ولرسوله ، واختاروا الإسلام على ما كانوا فيه من شدة ، حتى ذكر لنا أن الرجل كان يعصب الحجر على بطنه ليقيم به صلبه من الجوع ، وكان الرجل يتخذ الحفيرة في الشتاء ما له دثار غيرها « وعن سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبشروا صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة ، يدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم ، وذلك خمسمائة سنة » أخرجه أبو داود ثم لما فرغ من مدحهم مدح الأنصار بخصال حميدة فقال :

﴿ والذين تبوأوا الدار والإيمان ﴾ وهو كلام مستأنف ، والمراد بالدار المدينة ، وهي دار الهجرة ومعنى تبوّئهم أنهم اتخذوهما مباءة أي تمكنوا منهما تمكناً شديداً والتبوؤ في الأصل إنما يكون للمكان ، ولكنه جعل الإيمان مثله

لتمكنهم فيه تنزيلاً للحال منزلة المحل ، وقيل : التقدير واعتقدوا الإيمان أو أخلصوا الإيمان كذا قال أبو علي الفارسي أو تبوأوا الدار وموضع الإيمان ، ويجوز أن يكون تبوّأوا مضمناً معنى لزموا ، أي لزموا الدار والإيمان ومعنى ﴿ من قبلهم ﴾ أسلموا في ديارهم ، وآثروا الإيمان وابتنوا المساجد قبل هجرة المهاجرين ، وقبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم بسنتين ، فلا بد من تقدير مضاف ، لأن الأنصار إنما آمنوا بعد إيمان المهاجرين ، وقيل : من قبل المهاجرين لأنهم سبقوهم في تبوّىء الدار .

وقد أخرج البخاري .

« عن عمر بن الخطاب أنه قال : أوصي الخليفة بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ، ويحفظ لهم حرمتهم ، وأوصيه بالأنصار الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم ، أن يقبل من محسنهم ، ويتجاوز عن مسيئهم »[1] .

﴿ يحبون من هاجر اليهم ﴾ وذلك أنهم أحسنوا الى المهاجرين ، وأشركوهم في أموالهم ومساكنهم ﴿ ولا يجدون ﴾ أي لا يجد الأنصار ﴿ في صدورهم حاجة ﴾ أي حسداً وغيظاً وحزازة فالمراد بالحاجة هذه المعاني ، وإطلاق لفظ الحاجة عليها من إطلاق الملزوم على اللازم على سبيل الكناية ، لأن هذه المعاني لا تنفك عن الحاجة غالباً ، وفي الكلام مضاف محذوف ، أي لا يجدون في صدورهم من حاجة أو أثر حاجة ، وكل ما يجده الإنسان في صدره مما يحتاج اليه فهو حاجة .

﴿ مما أوتوا ﴾ أي مما أوتي المهاجرون دونهم من الفيء بل طابت أنفسهم

---

(١) رواه البخاري .

بذلك ، وكان المهاجرون في دور الأنصار ، فلما غنم النبي صلى الله عليه وسلم بني النضير دعا الأنصار وشكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين ، من إنزالهم إياهم في منازلهم ، وإشراكهم في أموالهم ، ثم قال : إن أحببتم قسمت ما أفاء الله عليّ من بني النضير بينكم وبين المهاجرين ، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في مساكنكم ، والمشاركة لكم في أموالكم ، وإن أحببتهم أعطيتهم ذلك ، وخرجوا من دياركم ، فرضوا بقسمة ذلك في المهاجرين ، وطابت أنفسهم .

﴿ ويؤثرون على أنفسهم ﴾ أي في كل شيء من أسباب المعاش ، والإيثار تقديم الغير على النفس في حظوظ الدنيا ، رغبة في حظوظ الآخرة ، وذلك ينشأ عن قوة اليقين ، ووكيد المحبة ، والصبر على المشقة ، يقال : آثرته بكذا أي خصصته به وفضلته ، والمعنى ويقدمون المهاجرين على أنفسهم في حظوظ الدنيا ﴿ ولو كان بهم خصاصة ﴾ أي حاجة وفقر ، والخصاصة مأخوذة من خصاص البيت وهي الفروج التي تكون فيه وقيل : مأخوذة من الاختصاص وهو الانفراد بالأمر ، فالخصاصة الإنفراد بالحاجة .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما :

« عن أبي هريرة قال : أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، أصابني الجهد ، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً فقال : ألا رجل يضيف هذا الليلة رحمه الله ؟ فقال رجل من الأنصار ، وفي رواية : فقال أبو طلحة الأنصاري : أنا يا رسول الله ، فذهب به الى أهله فقال لامرأته أكرمي ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تدخريه شيئاً ، قالت : والله ما عندي إلا قوت الصبية ، قال : فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم ، وتعالي فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليل لضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ففعلت ، ثم غدا الضيف على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لقد عجب الله من فلان وفلانة وأنزل الله فيها « هذه الآية »[1] .

---

(١) رواه البخاري .

وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب :

عن « ابن عمر قال أُهدي الى رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة فقال : إن أخي فلاناً وعياله أحوج الى هذا ، فبعث به إليه ، فلم يزل يبعث به واحد الى آخر حتى تداولها أهل سبعة أبيات حتى رجعت الى الأول فنزلت فيهم هذه الآية .

﴿ ومن يوق شح نفسه ﴾ قرأ الجمهور يوق بسكون الواو وتخفيف القاف من الوقاية ، وقرىء بفتح الواو وتشديد القاف ، وقرأوا شح بضم الشين ، وقرىء بكسرها ، وهذا كلام عام ، (ومن) شرطية ، ويوق فعل الشرط ، والشح البخل مع الحرص كذا في الصحاح ، وقيل : الشح أشد من البخل ، قال مقاتل : شح نفسه حرص نفسه . قال سعيد بن جبير : شح النفس هو أخذ الحرام ومنع الزكاة ، قال ابن زيد : من لم يأخذ شيئاً نهاه الله عنه ولم يمنع شيئاً أمره الله بأدائه فقد وقى شح نفسه ، قال طاوس : البخل أن يبخل الإنسان بما في يده والشح أن يشح بما في أيدي الناس يُحبُّ أن يكون له ما في أيديهم بالحلال والحرام ؛ لا يقنع . وقال ابن عيينة : الشح الظلم وقال الليث : ترك الفرائض وانتهاك المحارم .

﴿ فأولئك هم المفلحون ﴾ جزاء الشرط المتقدم ، وفيه رعاية معنى من بعد رعاية لفظها ، والفلاح الفوز والظفر بكل مطلوب ، أي الفائزون بما أرادوا والظاهر من الآية أن الفلاح مترتب على عدم شح النفس بشيء من الأشياء التي يقبح الشح بها شرعاً ، من زكاة أو صدقة أو صلة رحم أو نحو ذلك ، كما تفيده إضافة الشح الى النفس ، عن ابن مسعود أن رجلاً قال : إني أخاف أن أكون قد هلكت ، قال : وما ذاك ؟ قال : إني سمعت الله يقول ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ ، وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج مني شيء ، فقال له ابن مسعود : ليس ذلك بالشح ، ولكنه البخل ،

ولا خير في البخل ، وإن الشح الذي ذكره الله في القرآن أن تأكل مال أخيك ظلماً .

وعن ابن عمر في الآية قال : ليس الشح أن يمنع الرجل ماله ، ولكنه البخل وإنه لشر ، إنما الشح أن تطمح عين الرجل الى ما ليس له ، وعن علي ابن ابي طالب قال : من أدى زكاة ماله فقد وقي شح نفسه .

« وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما محق الإسلام محق الشح شيء قط » أخرجه أبو يعلى وابن مردويه ، وأخرج أحمد والبخاري في الأدب ومسلم والبيهقي :

« عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم »[1] .

« وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً » . رواه النسائي ، وفي الجامع الصغير :

« الشحيح لا يدخل الجنة » رواه الخطيب في كتاب البخلاء عن ابن عمر ، وقد وردت أحاديث في ذم الشح كثيرة .

ثم لما فرغ سبحانه من الثناء على المهاجرين والأنصار ، ذكر ما ينبغي أن يقوله من جاء بعدهم فقال :

﴿ والذين جاؤوا من بعدهم ﴾ وهم التابعون بإحسان الى يوم القيامة ، وقيل : هم الذين هاجروا بعد ما قوي الإسلام والظاهر شمول الآية لمن جاء بعد السابقين من الصحابة ، المتأخر إسلامهم في عصر النبوة ، ومن تبعهم من المسلمين بعد عصر النبوة الى يوم القيامة ، لأنه يصدق على الكل أنهم جاؤوا

---

(١) مسلم .

بعد المهاجرين الأولين والأنصار ، عن سعد بن ابي وقاص قال : الناس على ثلاث منازل ، قد مضت منزلتان وبقيت منزلة ، فأحسن ما أنتم كائنون عليه أن تكونوا بهذه المنزلة التي بقيت ، ثم قرأ : ﴿ والذين جاؤوا من بعدهم ﴾ الآية .

﴿ يقولون : ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ﴾ المراد بالأُخوّة هنا أخوة الدين ، أمرهم الله أن يستغفروا لأنفسهم ، ولمن تقدمهم من المهاجرين والأنصار ، قال في المصباح : الأخ لامه محذوفة ، وهي واو ، وترد في التثنية على الأشهر ، فيقال : أخوان ، وفي لغة يستعمل منقوصاً فيقال : أخان وجمعه إخوة وإخوان بكسر الهمزة فيهما ، وضمها لغة ، وقيل : جمعه بالواو والنون ، وعلى آخاء وزن آباء أقل : والأنثى أخت ، وجمعها أخوات ، وهو جمع مؤنث سالم .

﴿ ولا تجعل في قلوبنا غلاً ﴾ أي غشاً وحقداً وبغضاً وحسداً ﴿ للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ أي كثير الرأفة والرحمة ، بليغهما لمن يستحق ذلك من عبادك ، أمر الله سبحانه بعد الاستغفار للمهاجرين والأنصار أن يطلبوا من الله سبحانه أن ينزع من قلوبهم الغل للذين آمنوا على الإطلاق ، فيدخل في ذلك الصحابة دخولاً أولياً ، لكونهم أشرف المؤمنين ، ولكون السياق فيهم، فمن لم يستغفر للصحابة على العموم ويطلب رضوان الله لهم فقد خالف ما أمره الله به في هذه الآية ، فإن وجد في قلبه غلاً لهم فقد أصابه نزغ الشيطان ، وحل به نصيب وافر من عصيان الله بعداوة أوليائه ، وخير أمة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وانفتح له باب من الخذلان يفد به على نار جهنم ، إن لم يتدارك نفسه بالالتجاء أو باللجإ[1] إلى الله سبحانه ، والاستغاثة به بأن ينزع عن قلبه ما طوّقه من الغل لخير القرون ، وأشرف هذه الأمة ، فإن جاوز

(١) لجأ من باب منع وفرح ؟ .

ما يجده من الغل الى شتم أحد منهم فقد انقاد للشيطان بزمام ، ووقع في غضب الله وسخطه .

وهذا الداء العضال إنما يصاب به من ابتلى بمعلم من الرافضة ، أو صاحب من أعداء خير الأمة ، الـذين تلاعب بهم الشيـطان ، وزين لهم الأكاذيب المختلفة ، والأقاصيص المفتراة ، والخرافات الموضوعة ، وصرفهم عن كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وعن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم المنقولة إلينا بروايات الأئمة الأكابر في كل عصر من العصور ، فاشتروا الضلالة بالهدى ، واستبدلوا الخسران العظيم ، بالـربح الوافر ، وما زال الشيطان الرجيم ينقلهم من منزلة الى منزلة ، ومن رتبة الى رتبة ، حتى صاروا أعداء كتاب الله وسنة رسوله ، وخير أمته وصالحي عباده ، وسائر المؤمنين ، وأهملوا فرائض الله ، وهجروا شعائر الدين ، وسعوا في كيد الإسلام وأهله كل السعي ، ورموا الدين وأهله بكل حجر ومدر ، والله من ورائهم محيط .

قالت عائشة رضي الله تعالى عنها في الآية : أمروا أن يستغفروا لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فسبوهم ، ثم قرأت هذه الآية ، وقيل لسعيد بن المسيب : ما تقول في عثمان وطلحة والزبير ؟ قال : أقول ما قولنيه الله ، وتلا هذه الآية ، وأخرج ابن مردويه ؛

« عن ابن عمر أنه سمع رجلاً وهو يتناول بعض المهاجرين فقرأ عليه : ﴿ للفقراء والمهاجرين ﴾ ، ثم قال : هؤلاء المهاجرون أفمنهم أنت ؟ قال : لا ثم قرأ عليه ﴿ والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم ﴾ الآية ثم قال : هؤلاء الأنصار أفأنت منهم ؟ قال : لا . ثم قرأ عليه : ﴿ والذين جاؤوا من بعدهم ﴾ الآية ، ثم قال : أفمن هؤلاء أنت؟قال : أرجو ، قال : ليس من هؤلاء من سبب هؤلاء .

ولما فرغ سبحانه من ذكر الطبقات الثلاث من المؤمنين ذكر ما جرى بين المنافقين واليهود من المقاولة لتعجيب المؤمنين من حالهم فقال :

۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾

﴿ ألم تر الى الذين نافقوا ؟ ﴾ هم عبد الله بن أبيّ وأصحابه وقال ابن عباس : ورفاعة بن تابوت وعبد الله بن نبتل وأوس بن قيظي وإخوانهم بنو النضير ، والخطاب لرسول الله صلى عليه وسلم أو لكل من يصلح له ﴿ يقولون لإخوانهم ﴾ اللام لام التبليغ ﴿ الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ مستأنفة لبيان المتعجب منه ، والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة ، أو للدلالة على الاستمرار ، وجعلهم إخواناً لهم لكون الكفر قد جمعهم ، وإن اختلف نوع كفرهم فهم إخوان في الكفر ، وقيل : هو من قول بني النضير لبني قريظة ، والأول أولى لأن بني النضير وبني قريظة هم يهود ، والمنافقون غيرهم .

﴿ لئن أخرجتم ﴾ اللام هي الموطئة للقسم ، وتسمى المؤذنة أيضاً ، أي والله لئن أخرجتم من دياركم ﴿ لنخرجن معكم ﴾ من ديارنا في صحبتكم وهذا جواب القسم ﴿ ولا نطيع فيكم ﴾ أي في شأنكم ومن أجلكم ﴿ أحداً ﴾ ممن يريد أن يمنعنا من الخروج معكم وإن طال الزمان ، وهو معنى قوله : ﴿ أبداً ﴾ وهو ظرف للنفي لا للمنفي ، ثم لما وعدوهم بالخروج معهم

وعدوهم بالنصرة لهم ، فقالوا : ﴿ وإن قوتلتم ﴾ حذف منه اللام الموطئة ، وهو قليل في كلام العرب ، والكثير إثباتها ﴿ لننصرنكم ﴾ على عدوكم ثم كذبهم الله سبحانه فقال :

﴿ والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾ فيما وعدهم به من الخروج معهم ، والنصر لهم ، وفيه دليل على صحة النبوة ، ولأنه إخبار بالغيب ، ووقع كما أخبر وهذا مبني على تقدم نزول الآية على الواقعة ، وعليه يدل النظم ، فإن كلمة إن للاستقبال وإعجاز القرآن من حيث الإخبار عن الغيب ، عن ابن عباس قال : إن رهطاً من بني عوف بن الحرث منهم عبد الله بن أبيّ ابن سلول ، ووديعة بن مالك ، وسويد ، وداعس ، بعثوا الى بني النضير أن اثبتوا وتمنعوا فإننا لا نسلمكم ، وإن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم ، فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا ، وقذف الله في قلوبهم الرعب ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل الى الحلقة ففعل فكان الرجل منهم يهدم بيته فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به فخرجوا الى خيبر ، ومنهم من سار الى الشام .

ثم لما أجمل سبحانه كذبهم فيما وعدوا به ، فصل ما كذبوا فيه فقال :

﴿ لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ﴾ هذا تكذيب للمقالة الأولى وقوله : ﴿ ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ﴾ تكذيب للمقالة الثالثة ، وأما الثانية فلم يذكر لها تكذيب في التفصيل ، وقد كان الأمر كذلك ، فإن المنافقين لم يخرجوا مع من أخرج من اليهود ، وهم بنو النضير ، ومن معهم ، ولم ينصروا من قوتل من اليهود وهم بنو قريظة وأهل خيبر ﴿ ولئن نصروهم ﴾ أي جاؤوا لنصرهم قاله المحلي او لو قدر وجود نصرهم إياهم ، لأن ما نفاه الله لا يجوز وجوده ، قال الزجاج : معناه لو قصدوا نصر اليهود وهذا من تمام تكذيبهم في المقالة الثالثة ﴿ ليولن الأدبار ﴾ منهزمين .

﴿ ثم لا ينصرون ﴾ يعني اليهود ، ولا يصيرون منصورين إذا انهزم

ناصرهم وهم المنافقون ، وقيل : يعني لا يصير المنافقون منصورين بعد ذلك ، بل يذلهم الله ولا ينفعهم نفاقهم ، وقيل : معنى الآية لا ينصرونهم طائعين ، ولئن نصروهم مكرهين ليولن الأدبار ، وقيل : معنى لا ينصرونهم لا يدومون على نصرهم ، والأول أولى ، ويكون من باب قوله : ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ﴾ .

﴿ لأنتم أشد رهبة في صدورهم ﴾ أي لأنتم يا معاشر المسلمين أشد خوفاً وخشية في صدور المنافقين أو صدور اليهود ، او صدور الجميع ﴿ من الله ﴾ أي من رهبة الله ، والرهبة هنا بمعنى المرهوبية ، لأنها مصدر من المبني للمفعول وفيه دلالة على نفاقهم ، يعني أنهم يظهرون لكم في العلانية خوف الله ، وأنتم أهيب في صدورهم منه ﴿ ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ أي ما ذكر من الرهبة الموصوفة بسبب عدم فقههم بشيء من الأشياء ، ولو كان لهم فقه لعلموا أن الله سبحانه هو الذي سلطكم عليهم ، فهو أحق بالرهبة منه دونكم ، ثم أخبر سبحانه بمزيد فشلهم وضعف نكايتهم فقال :

﴿ لا يقاتلونكم جميعاً ﴾ يعني لا يبرز اليهود والمنافقون مجتمعين لقتالكم ، ولا يقدرون على ذلك ﴿ إلا في قرى محصنة ﴾ بالدروب والدور والخنادق ﴿ أو من وراء جدر ﴾ أي من خلف الحيطان التي يستترون بها لجبنهم ورهبتهم قرأ الجمهور جدر بالجمع ، وقرىء جدار بالإفراد ، واختار الأولى أبو عبيد وأبو حاتم ، لأنها موافقة لقوله : ﴿ قرى محصنة ﴾ ، وهما سبعيتان وقرىء جدر بفتح الجيم وإسكان الدال ، وهي لغة في الجدار .

﴿ بأسهم بينهم شديد ﴾ أي بعضهم فظ غليظ على بعض ، وقلوبهم مختلفة ، ونياتهم متباينة ، قال السدي : المراد اختلاف قلوبهم حتى لا يتفقوا على أمر واحد ، وقال مجاهد : ﴿ بأسهم بينهم شديد ﴾ بالكلام والوعيد ، لنفعلن كذا ، والمعنى أنهم إذا انفردوا نسبوا أنفسهم الى الشدة والبأس ، وإذا لاقوا عدواً ذلوا وخضعوا وانهزموا ، وقيل : المعنى أن بأسهم بالنسبة الى أقرانهم شديد ، وإنما ضعفهم بالنسبة إليكم لما قذف الله في قلوبهم من

الرعب ، والأول أولى لقوله : ﴿ تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ﴾ فإنه يدل على أن اجتماعهم إنما هو في الظاهر مع تخالف قلوبهم في الباطن ، وهذا التخالف هو البأس الذي بينهم ،الموصوف بالشدة ، والجملة حالية أو مستأنفة للإخبار بذلك .

والعامة على أن شتى بلا تنوين لأنها ألف تأنيث ، ومعنى شتى متفرقة ، قال مجاهد : يعني اليهود والمنافقين ، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، أي لافتراق عقائدهم ، واختلاف مقاصدهم ، وروي عنه أيضاً أنه قال : المراد المنافقون ، وقال الثوري : هم المشركون وأهل الكتاب ، قال قتادة : ﴿ تحسبهم جميعاً ﴾ أي مجتمعين على أمر ، ورأي ، وقلوبهم متفرقة ، فأهل الباطل مختلفة آراؤهم ، مختلفة شهادتهم ، مختلفة أهواؤهم ، وهم يجتمعون في عداوة أهل الحق ، وقرأ ابن مسعود وقلوبهم أشت أي أشد اختلافاً ، قال ابن عباس في الآية : هم المشركون ، وهذا تجسير للمؤمنين ، وتشجيع لقلوبهم على قتالهم .

﴿ ذلك بأنهم ﴾ أي ذلك الاختلاف والتشتت بسب أنهم ﴿ قوم لا يعقلون ﴾ شيئاً مما فيه صلاحهم ، فإن تشتيت القلوب يوهن قواهم ، ولو عقلوا لعرفوا الحق واتبعوه﴿ كمثل ﴾ أي أن مثل المنافقين واليهود أي بني النضير كمثل ﴿ الذين من قبلهم ﴾ من كفار المشركين وأهل مكة ﴿ قريباً ﴾ يعني في زمان قريب وقيل . يشبهونهم في زمن قريب ، وقيل العامل فيه : ﴿ ذاقوا ﴾ أي ذاقوا في زمن قريب ، أي بين وقعة بدر ووقعة بني النضير نحو سنة ونصف ، لأنها كانت في ربيع الأول من الرابعة ، وبدر كانت في رمضان من الثانية .

﴿ وبال أمرهم ﴾ أي سوء عاقبة كفرهم في الدنيا ، بقتلهم يوم بدر . وكان ذلك قبل غزوة بني النضير بستة أشهر ، قاله مجاهد وغيره ، وقيل : المراد بنو النضير حيث أُمكن الله منهم ، قاله قتادة : وقيل : قتل بني قريظة ، قاله الضحاك ، وقيل : هو عام في كل من انتقم الله منه بسبب كفره ، والأول أولى (ولهم) مع ذلك ﴿ عذاب أليم ﴾ في الآخرة ، ثم ضرب لليهود والمنافقين مثلاً آخر فقال :

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٧) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ (٢٠)﴾

﴿ كمثل الشيطان ﴾ وقيل : المثل الأول خاص باليهود ، والثاني بالمنافقين أي مثل المنافقين في إغراء اليهود على القتال ، أو تخاذلهم وعدم تناصرهم ، كمثل الشيطان ، والمراد به حقيقته لا شيطان الإنس ، وقيل : الثاني بيان للأول ، ثم بين سبحانه وجه الشبه فقال : ﴿ إذ قال للإنسان اكفر ﴾ اي أغراه بالكفر : وزينه له وحمله عليه ، والمراد بالإنسان هنا جنس من أطاع الشيطان من نوع الإنسان ، كما قال مجاهد : المراد بالإنسان هنا جميع الناس في غرور الشيطان إياهم ، وقيل : هو أبو جهل ، وقيل : هو عابد كان في بني اسرائيل حمله الشيطان على الكفر فأطاعه وهو برصيصاً والأول أولى .

« عن علي بن أبي طالب أن رجلاً كان يتعبد في صومعة ، وأن امرأة كان لها إخوة فعرض لها شيء فأتوه بها ، فزينت له نفسه فوقع عليها ، فحملت ، فجاءه الشيطان فقال : اقتلها فإنهم إن ظهروا عليك افتضحت ، فقتلها ودفنها ، فجاؤوه فأخذوه فذهبوا به ، فبينما هم يمشون إذ جاءه الشيطان فقال : إني أنا الذي زينت لك فاسجد لي سجدة أنجيك فسجد له ، فذلك قوله : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان : اكفر ﴾ الآية أخرجه أحمد في الزهد ، والبخاري في تاريخه ، والحاكم وصححه ، والبيهقي وغيرهم ، قلت : وهذا لا يدل على أن هذا الإنسان هو المقصود بالآية ، بل يدل على أنه من جملة من

تصدق عليه ، وقد اخرجه ابن ابي حاتم عن ابن عباس بأطول من هذا ، وليس فيه ما يدل على أنه المقصود بالآية ، وأخرجه بنحوه ابن جرير عن ابن مسعود ، وعنه قال : ضرب الله مثل الكفار والمنافقين الذين كانوا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر . ﴾

﴿ فلما كفر ﴾ أي الانسان مطاوعة للشيطان وقبولاً لتزيينه ﴿ قال ﴾ الشيطان ﴿ إني بريء منك ﴾ إن أريد بالإنسان الجنس فهذا التبرؤ من الشيطان يكون يوم القيامة ، يتبرأ منه مخافة أن يشاركه في العذاب كما ينبىء عنه قوله : ﴿ إني اخاف الله رب العالمين ﴾ وإن أريد به أبو جهل فقوله : اكفر عبارة عن قول إبليس يوم بدر : ﴿ لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم ﴾ وتبرؤه قوله : يومئذ ﴿ إني بريء منكم ، إني أرى ما لا ترون إني اخاف الله ﴾ الآية وهذا تعليل لبراءته من الانسان بعد كفره ، قيل : وليس قول الشيطان : إني أخاف الله على حقيقته ، إنما هو على وجه التبرؤ من الإنسان كذباً ورياءً ، وإلا فهو لا يخاف الله ، فهو تأكيد لقوله : ﴿ إني بريء منك ﴾ قرىء إني بإسكان الياء وبفتحها .

﴿ فكان عاقبتهما أنهما في النار ﴾ أي فكان عاقبة الشيطان وذلك الإنسان الذي كفر أنهما صائران الى النار ﴿ خالدين فيها ﴾ وقرىء خالدان على أنه خبر أن ﴿ وذلك ﴾ أي الخلود في النار ﴿ جزاء الظالمين ﴾ ويدخل هؤلاء فيهم دخولاً أولياً ، ثم رجع سبحانه الى خطاب المؤمنين بالموعظة الحسنة لأن الموعظة بعد المصيبة أوقع في النفس ، لرقة القلوب والحذر مما يوجب العقاب ، فقال :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ أي اتقوا عقابه بفعل ما أمركم به ، وترك ما نهاكم عنه ﴿ ولتنظر نفس ما قدمت لغد ﴾ أي لتنظر أي شيء قدمت من الأعمال ليوم القيامة ، والعرب تكني عن الزمان المستقبل بالغد ، وهو في الأصل عبارة عن يوم بينك وبينه ليلة ، وإنما أطلق اسم الغد على يوم القيامة تقريباً له ، كقوله تعالى : ﴿ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر ﴾ فكأنه لقربه

شبه بما ليس بينك وبينه إلا ليلة واحدة ، أو لأن الدنيا أي زمانها كيوم والآخرة كغده ، لاختصاص كل منهما بأحكام وأحوال متشابهة ، وتعقيب الثاني للأول ، فلفظ الغد حينئذ استعارة ، وفائدة تنكير النفس بيان ، ان الأنفس الناظرة في معادها قليلة جداً ، كأنه قيل : ولتنظر نفس واحدة في ذلك ، واين تلك النفس ؟ وفائدة تنكير الغد تعظيمه ، وإبهام أمره ، كأنه قيل : لغد لا تعرف النفس كنه عظمته ، وهوله . فالتنكير فيه للتعظيم ، وفي النفس للتقليل أو للتعريض بغفلة كلهم عن هذا النظر الواجب أفاده الكرخي .

﴿ واتقوا الله ﴾ كرر الأمر بالتقوى للتأكيد او الأول في أداء الواجبات لأنه مقرون بالعمل ، فإن ما قدمت لغد عبارة عن أعمال الخير ، والثاني في ترك المحارم ، لاقترانه بقوله : ﴿ إن الله خبير بما تعملون ﴾ ورجح هذا الوجه بفضل التأسيس على التأكيد ، وأنت خبير بأن التقوى تشمل كليهما فإنها على ما مر في أول البقرة هي التجنب عن كل ما يؤثم من فعل او ترك ، ولا وجه للتوزيع ، بل المقام مقام الاهتمام بأمر التقوى ، فالتأكيد أولى وأقوى ، ذكره الكرخي ، والمعنى لا تخفى عليه من ذلك خافية ، فهو مجازيكم بأعمالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله ﴾ أي تركوا أمره وطاعته ، أو ما قدروه حق قدره أو لم يخافوه او جميع ذلك ﴿ فأنساهم أنفسهم ﴾ أي جعلهم ناسين لها بسبب نسيانهم له ، فلم يشتغلوا بالأعمال التي تنجيهم من عذاب الله ولم يكفوا عن المعاصي التي توقعهم فيه ، ففي الكلام مضاف محذوف ، أي أنساهم حظوظ أنفسهم أو تقديم خير لأنفسهم قال سفيان : نسوا حق الله فأنساهم حق أنفسهم وقيل : نسوا الله في الرخاء فأنساهم في الشدائد وقيل نسوا الله بترك شكره وتعظيمه فأنساهم أنفسهم أن يذكر بعضهم بعضاً حكاه ابن عيسى وقال سهل ابن عبد الله : نسوا الله عند الذنوب فأنساهم أنفسهم

عند التوبة ونسب الله تعالى الفعل الى نفسه في أنساهم إيذاناً بأن ذلك بسبب أمره ونهيه كقوله : أحمدت الرجل اذا وجدته محموداً وأصل نسوا نسيوا يقال نسي ينسى كرضي يرضى ﴿ أولئك هم الفاسقون ﴾ أي الكاملون في الخروج عن طاعة الله .

﴿ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة ﴾ في الفضل والرتبة والمراد الفريقان على العموم فيدخل في فريق اهل النار من نسي الله منهم دخولاً اولياً ويدخل في فريق اهل الجنة الذين اتقوا دخولاً أولياً لأن السياق فيهم ، وقد تقدم الكلام في معنى مثل هذه الآية في سورة المائدة وفي سورة السجدة وفي سورة صٓ وفيه مزيد الترغيب فيما يزلفهم الى الله ويدخلهم دار كرامته ويجعلهم من أصحابها ومن ثم دق ولطف استدلال الشافعية بهذه الآية على ان المسلم لا يقتل بالكافر ، وأن الكافر لا يملك مال المسلم بالاستيلاء ، وحسن كلام القاضي حيث قال : لا يستوي الذين استكملوا نفوسهم فاستأهلوا الجنة ، والذين استمهنوا نفوسهم اي استعملوها في المهنة والشهوات ، فاستحقوا النار ، قاله الكرخي .

ثم اخبر سبحانه وتعالى عن اصحاب الجنة ، بعد نفي التساوي بينهم وبين اهل النار ، فقال :

﴿ اصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ اي الظافرون بكل مطلوب ، الناجون من كل مكروه ، وفي الآية تنبيه للناس وإيذان بأنهم لفرط غفلتهم ، وقلة فكرهم في العاقبة ، وتهالكهم على إيثار العاجلة ، واتباع الشهوات ، كأنهم لا يعرفون الفرق بين الجنة والنار والبون العظيم بين أصحابهما ، وأن الفوز العظيم مع اصحاب الجنة ، والعذاب الأليم مع اصحاب النار فمن حقهم أن يعلموا ذلك وينبهوا عليه ، ولما فرغ سبحانه من ذكر أهل الجنة وأهل النار ، وبين عدم التساوي بينهم في شيء من الأشياء ، ذكر تعظيم كتابه الكريم وأخبر عن جلالته ، وأنه حقيق بأن تخشع له القلوب ، وترق له الأفئدة فقال :

لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل ﴾ أي من شأنه وعظمته ، وجودة الفاظه ، وقوة مبانيه وبلاغته ، واشتماله على المواعظ التي تلين لها القلوب ، أنه لو أُنزل على جبل من الجبال الكائنة في الأرض ، وجعل فيه تمييز كالإنسان على قساوته ، ثم أنزلنا عليه القرآن ﴿ لرأيته ﴾ مع كونه في غاية القسوة وشدة الصلابة ، وضخامة الجرم ﴿ خاشعاً متصدعاً ﴾ أي متشققاً .

﴿ من خشية الله ﴾ سبحانه حذراً من عقابه ، وخوفاً من أن يؤدي ما يجب عليه من تعظيم كلام الله ، وهذا تمثيل وتخييل ، يقتضي علو شأن القرآن ، وقوة تأثيره في القلوب ، قال ابن عباس قي الآية : يقول : لو أني أنزلت هذا القرآن على جبل وحملته إياه لتصدع وخشع من ثقله ، ومن خشية الله ، فأمر الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديد ، والتخشع والخاشع الذليل المتواضع .

« وعن علي وابن مسعود مرفوعاً في الآية قال : هي رقية الصداع » ورواه الديلمي بإسنادين لا ندري كيف رجالهما ، وأخرج الخطيب في تاريخه بإسناده الى إدريس بن عبد الكريم الحداد مسلسلاً الى ابن مسعود مرفوعاً ، قاله الذهبي : هو باطل ، قيل : الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم اي لو أنزلنا هذا القرآن يا محمد على جبل لما ثبت ، ولتصدع من نزوله عليه وقد

أنزلناه عليك وثبتناك له وقويناك عليه ، فيكون على هذا من باب الامتنان على النبي صلى الله عليه وسلم ، لأن الله سبحانه ثبته لما لا تثبت لـه الجبال الرواسي ، وقيل الخطاب للأمة .

﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ فيما يجب عليهم التفكر فيه ليتعظوا بالمواعظ ، وينزجروا بالزواجر ،. وفيه توبيخ وتقريع للكفار حيث لم يخشعوا للقرآن ، ولا اتعظوا بمواعظه ، ولا انزجروا بزواجره ، ثم أخبر سبحانه بربوبيته وعظمته فقال :

﴿ هو ﴾ اي الذي وجوده من ذاته فلا عدم له بوجه من الوجوه ، فلا شيء يستحق الوصف بِهُوَ غيره ، لأنه الموجود دائماً أزلاً وأبداً ، فهو حاضر في كل ضمير ، غائب بعظمته عن كل حس ، فلذلك تصدع الجبل من خشيته ، ولما عبر عنه بأخص أسمائه أخبر عنه لطفاً بنا ، وتنزيلاً لنا بأشهرها الذي هو مسمي الأسماء كلها بقوله : ﴿ الله ﴾ أي المعبود الذي لا تنبغي العبادة والألوهية إلا له ﴿ الذي لا إلٓه إلا هو ﴾ فإنه لا مجانس له ولا يليق ولا يصح ولا يتصور ان يكافئه او يدانيه شيء .

﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أي عالم ما غاب عن الإحساس وما حضر ، وقيل : عالم السر والعلانية وقيل : ما كان وما يكون ، وقيل : الآخرة والدنيا ، وقيل : المعدوم والموجود ، وقدم الغيب على الشهادة لكونه متقدماً وجوداً ﴿ هو الرحمن الرحيم ﴾ قد تقدم تفسير هذين الإسمين .

﴿ هو الله الذي لا إلٓه إلا هو ﴾ كرره للتأكيد والتقرير لكون التوحيد حقيقاً بذلك ﴿ الملك ﴾ الذي لا يزول ملكه المتصرف بالأمر والنهي في جميع خلقه ، المالك لهم فهم تحت ملكه وقهره وإرادته ﴿ القدوس ﴾ اي الطاهر من كل عيب المنزه عن كل نقص ، وقيل : هو الذي كثرت بركته ، والقدس بالتحريك في لغة اهل الحجاز السطل لأنه يتطهر به ، ومنه القادوس لواحد الأواني التي يستخرج بها الماء ، قرأ الجمهور القدوس بضم القاف ، وقرىء

بفتحها ، وكان سيبويه يقول : سبوح قدوس بفتح أولها ، وحكى ابو حاتم عن يعقوب أنه سمع عند الكسائي أعرابياً فصيحاً يقرأ القدوس بفتح القاف قال ثعلب : كل اسم على فعول فهو مفتوح الأول إلا السبوح والقدوس ، فإن الضم فيهما أكثر وقد يفتحان .

﴿ السلام ﴾ قال ابن العربي . إتفق العلماء على ان معنى قولنا في الله السلام النسبة ، تقديره : ذو السلامة ، ثم اختلفوا في ترجمة النسبة على ثلاثة أقوال :

الأول : معناه الذي سلم من كل عيب وبرىء من كل نقص .

الثاني : معناه ذو السلام اي المسلم على عباده في الجنة ، كما قال : ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ .

الثالث : أن معناه الذي سلم الخلق من ظلمه ، وهذا قول الخطابي ، وبه قال الأكثر وعليه والذي قبله يكون صفة فعل وعلى أنه البريء من العيوب والنقائص يكون صفة ذات وقيل : السلام معناه المسلم لعباده وهو مصدر وصف به للمبالغة .

﴿ المؤمن ﴾ أي الذي وهب لعباده الأمن من عذابه وقيل : المصدق لرسوله بإظهار المعجزات وقيل : المصدق للمؤمنين بما وعدهم به من الثواب والمصدق للكافرين بما أوعدهم به من العذاب وقيل : المؤمن الذي يأمن أولياؤه من عذابه ويأمن عباده من ظلمه يقال آمنه من الأمان الذي هو ضد الخوف كما قال تعالى : ﴿ وآمنهم من خوف ﴾ فهو مؤمن وقال مجاهد : المؤمن الذي وجد نفسه بقوله : ﴿ شهد الله أنه لا إلّه إلا هو ﴾ قرأ الجمهور المؤمن بكسر الميم اسم فاعل من آمن بمعنى أمن ، وقرىء بفتحها بمعنى المؤمن به على الحذف كقوله : ﴿ واختار موسى قومه ﴾ ، وقال ابو حاتم : لا تجوز هذه القراءة لأن معناه أنه كان خائفاً فأمنه غيره .

﴿ المهيمن ﴾ من هيمن يهيمن إذا كان رقيباً على الشيء ، اي الشهيد

على عباده بأعمالهم الرقيب عليهم ، كذا قال مجاهد وقتادة ومقاتل ، قال الواحدي : وذهب كثير من المفسرين الى أن أصله مؤيمن من آمن يؤمن فيكون بمعنى المؤمن ، والأول أولى ، وقيل : القائم على خلقه برزقه ، وقيل : هو الرقيب الحافظ ، وقيل : هو المصدق ، وقيل : هو القاضي ، وقيل : هو الأمين والمؤيمن ، وقيل . هو العلي ، وقيل : اسم من أسماء الله وهو أعلم بتأويله ، وقد قدمنا الكلام على المهيمن في سورة المائدة .

﴿ العزيز ﴾ الذي لا يوجد له نظير ، وقيل : القاهر . وقيل : الغالب غير المغلوب ، وقيل : القوي .

﴿ الجبار ﴾ جبروت الله عظمته ، فعلى هذا هو صفة ذات ، والعرب تسمي الملك الجبار ، ويجوز أن يكون من جبر اذا اغنى الفقير ، وأصلح الكسير ، وعلى هذا هو صفة فعل او من جبره على كذا اذا أكرهه على ما أراد ، فهو الذي جبر خلقه على ما اراد منهم ، وبه قال السدي ومقاتل واختاره الزجاج والفراء قال : هو من أجبره على الأمر أي قهره ، قال : ولم أسمع فعالاً من أفعل إلا في جبار من اجبر ، ودراك من أدرك ، قلت : وإنه يستعمل ثلاثياً أيضاً ، وقيل : الجبار الذي لا تطاق سطوته ، وقيل : هو القهار الذي إذا أراد أمراً فعله لا يحجزه عنه حاجز ، وقيل : الجبار هو الذي لا ينال ولا يدانى ، والجبر في صفة الله مدح ، وفي صفة الناس ذم .

﴿ المتكبر ﴾ اي الذي تكبر عن كل نقص ، وتعظم عما لا يليق به وأصل التكبر الامتناع وعدم الانقياد والكبر في صفات الله مدح لأن له جميع صفات العلو والعظمة والعز والكبرياء فإن أظهر ذلك كان ذلك ضم كمال الى كمال وفي صفات العلو والعظمة والعز والكبرياء فإن أظهر ذلك كان ذلك ضم كمال الى كمال وصفات المخلوقين ذم لأن المتكبر هو الذي يظهر من نفسه الكبر وذلك نقص في حقه لأنه ليس له كبر ولا علو بل له الحقارة والذلة فإذا أظهر الكذب كان كاذباً في فعله فكان مذموماً في حق الناس قال قتادة : هو الذي تكبر عن كل سوء قال ابن الأنباري : المتكبر ذو الكبرياء وهو الملك .

وقيل : هو الذي تكبر بربوبيته فلا شيء مثله وقيل هو المتعظم عما لا يليق بجلاله وجماله وقيل : هو المتكبر عن ظلم عباده .

ثم نزه سبحانه نفسه الكريمة عن شرك المشركين فقال ﴿ سبحانه الله عما يشركون ﴾ اي عما يشركونه او عن إشراكهم به .

﴿ هو الله الخالق ﴾ أصل الخلق التقدير يقال : خلقت الأديم للسقاء اذا قدرته له اي المقدر للأشياء ولما يوجده على مقتضى إرادته ومشيئته وهذا يرجع الى صفة الإرادة وتعلقها التنجيزي القديم ﴿ البارىء ﴾ اي المنشيء المبدع المخترع للأشياء والأعيان الموجد لها والمبرز من العدم الى الوجود فيرجع لتأثير القدرة الحادث لكن في خصوص الأعيان ، وقيل : المميز لبعضها من بعض .

﴿ المصور ﴾ أي الموجد للصور المركب لها على هيئات مختلفة فالتصوير آخراً والتقدير والبرء بينهما او تابع لهما ومعنى التصوير التخطيط والتشكيل وقرأ حاطب بن ابي بلتعة الصحابي ﴿ المصور ﴾ بفتح الواو ونصب الراء على انه مفعول به للبارىء ، اي الذي برأ المصور اي ميزه ﴿ له الأسماء الحسنى ﴾ قد تقدم بيانها والكلام فيها عند تفسير قوله ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها والحسنى مؤنث الأحسن الذي هو افعل تفضيل لا مؤنث أُحسن المقابل لامرأة حسناء ففي القاموس ولا تقل رجل أحسن في مقابلة امرأة حسناء وعكسه غلام أمرد ولا يقال جارية مرداء وإنما يقال هو الأحسن على إرادة أفعل التفضيل وجمعه أحاسن والحسنى بالضم ضد السوأى .

قال الزمخشري : ولله الأسماء الحسنى التي هي أحسن الأسماء لأنها تدل على معان حسنة من تحميد وتقديس وغير ذلك ووصف الجمع الذي لا يعقل بما توصف به الواحدة كقوله : ﴿ ولي فيها مآرب أخرى ﴾ وهو فصيح ولو جاء على المطابقة للجميع لكان التركيب الحسن على وزن الآخر كقوله : ﴿ فعدة من أيام أخر ﴾ لأن جمع ما لا يعقل يخبر عنه ويوصف بجمع المؤنثات وإن كان المفرد مذكراً .

﴿ يسبح له ما في السموات والأرض ﴾ اي ينطق بتنزيهه بلسان الحال او المقال كل ما فيهما ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ اي الغالب لغيره ، الذي لا يغالبه مغالب الحكيم في كل الأمور التي يقضي بها .

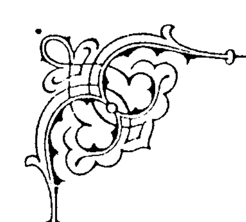
« عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر رجلاً اذا أوى الى فراشه أن يقرأ آخر سورة الحشر، وقال: إن مت مت شهيداً » أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة، وابن مردويه[1] .

« وعن ابي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من تعوذ بالله من الشيطان ثلاث مرات ثم قرأ آخر سورة الحشر بعث الله سبعين ملكاً يطردون عنه شياطين الإنس والجن إن كان ليلاً حتى يصبح ، وإن كان نهاراً حتى يمسي » ، أخرجه ابن مردويه .

« وعن معقل بن يسار عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من قال حين يصبح ثلاث مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، ثم قرأ الثلاث آيات من آخر سورة الحشر ، وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي ، وإن مات ذلك اليوم مات شهيداً ، ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة » أخرجه البيهقي والدارمي وأحمد والطبراني وابن الضريس والترمذي وقال : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

« وعن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ خواتيم الحشر في ليل او نهار فمات من يومه او ليلته أوجب الله له الجنة » أخرجه البيهقي في الشعب وابن عدي وابن مردويه والخطيب .

(١) رواه أحمد .

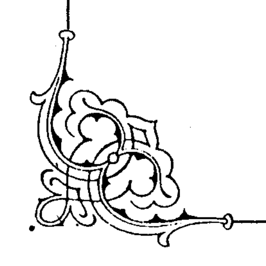


سورة الممتحنة



﴿ هي ثلاث عشرة آية وهي مدنية ﴾

قال القرطبي: في قول الجميع. قال ابن عباس: نزلت بالمدينة. وعن ابن الزبير مثله. والممتحنة بكسر الحاء اسم فاعل أي المختبرة أضيف الفعل اليها مجازاً كما سميت سورة براءة المبعثرة والفاضحة، لكشفها عن عيوب المنافقين وعلى هذا فالإضافة بيانية أي السورة الممتحنة. وقيل: بفتح الحاء اسم مفعول إضافة الى المرأة التي فيها، وهي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط. لقوله سبحانه: ﴿فامتحنوهن. الله أعلم بإيمانهن﴾. وهي امرأة عبد الرحمن بن عوف والدة إبراهيم بن عبد الرحمن. وعلى هذا فليست الإضافة بيانية. والمعنى سورة المرأة المهاجرة التي نزلت فيها آية الامتحان.





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذواعدوي وعدوكم أولياء ﴾ قال المفسرون : نزلت في حاطب بن أبي بلتعة حين كتب إلى مشركي قريش يخبرهم بمسير النبي (صلى الله عليه وسلم) إليهم ، وسيأتي ذكر القصة ، وأضاف سبحانه العدو إلى نفسه تعظيماً لجرمهم وتغليظاً فيه ، والعدو وصف يطلق على الواحد والاثنين والجماعة والآية تدل على النهي عن موالاة الكفار بوجه من الوجوه ، وفيه دليل على أن الكبيرة لا تسلب اسم الإيمان .

﴿ تلقون إليهم بالمودة ﴾ أي توصلون إليهم المودة على أن الباء زائدة أو هي سببية ، والمعنى تلقون إليهم أخبار النبي (صلى الله عليه وسلم) بسبب المودة التي بينكم وبينهم ، وقال الزجاج : تلقون إليهم أخبار النبي (صلى الله عليه وسلم) وسره بالمودة التي بينكم وبينهم ، والجملة في محل نصب على الحال من ضمير تتخذوا ، ويجوز أن تكون مستأنفة لقصد الإخبار بما تضمنته ، أو لتفسير موالاتهم إياهم ، او في محل نصب صفة لأولياء وجملة : ﴿ وقد كفروا بما جاءكم من الحق ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل تلقون ، أو من فاعل لا تتخذوا ، ويجوز أن تكون مستأنفة لبيان حال الكفار .

قرأ الجمهور بما جاءكم بالموحدة ، وقرىء لما جاءكم باللام أي لأجل ما جاءكم من الحق على حذف المكفور به ، أي كفروا بالله والرسول لأجل ما جاءكم من الحق ، أي دين الإسلام ، والقرآن ، أو على جعل ما هو سبب للإيمان سبباً للكفر توبيخاً لهم ﴿ يخرجون الرسول وإياكم ﴾ مستأنفة لبيان كفرهم أو حالية وقدم الرسول عليهم تشريفاً له ، وقد استدل به من يجوز انفصال الضمير مع القدرة على اتصاله ، إذ كان يجوز أن يقال : يخرجونكم والرسول .

﴿ أن تؤمنوا بالله ربكم ﴾ تعليل للإخراج ، أي يخرجونكم لأجل إيمانكم أو كراهة أن تؤمنوا ﴿ إن كنتم خرجتم ﴾ من مكة ﴿ جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي ﴾ جواب الشرط محذوف ، أي إن كنتم كذلك فلا تلقوا إليهم بالمودة ، فلا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ، وانتصاب جهاداً وابتغاء على العلة أي إن كنتم خرجتم للجهاد في سبيلي ، ولأجل ابتغاء مرضاتي ، أو حال كونكم مجاهدين ومبتغين .

﴿ تسرون إليهم بالمودة ﴾ مستأنفة للتقريع والتوبيخ ، أي تسرون إليهم الأخبار بسبب المودة ، وقيل : هي بدل من قوله : ﴿ تلقون ﴾ ، ثم أخبر سبحانه بأنه لا يخفى عليه من أحوالهم شيء فقال : ﴿ وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ﴾ أي بما أضمرتم في صدوركم ، وما أظهرتم وأعلنتم بألسنتكم ، والجملة في محل نصب على الحال ؛ والباء في بما زائدة يقال : علمت كذا وعلمت بكذا هذا على أن أعلم مضارع ، وقيل : هو أفعل تفضيل ، أي أعلم من كل واحد بما تخفون وما تعلنون .

﴿ ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾ أي من يفعل ذلك الاتخاذ لعدوي وعدوكم أولياء ، ويلقي إليهم بالمودة فقد أخطأ طريق الحق والصواب وضل عن قصد السبيل .

﴿ إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ﴾ أي إن يلقوكم ويصادفوكم يظهروا لكم ما في قلوبهم من العداوة ، ومنه المثاقفة وهي طلب مصادفة العزة في المسابقة ، يقال : ثقفت الشيء ثقفاً من باب تعب أخذته ، وثقفت الرجل في الحرب أدركته ، وثقفته ظفرت به ، وثقفت الحديث فهمته بسرعة ، والفاعل ثقيف ، وقيل : المعنى إن يظفروا بكم ويتمكنوا منكم ، والمعنيان متقاربان ﴿ ويبسطوا إليكم أيديهم ﴾ بالضرب ونحوه ﴿ وألسنتهم بالسوء ﴾ أي بالسب والشتم ﴿ وودوا لو تكفرون ﴾ معطوف على جواب الشرط ، أو على جملة الشرط والجزاء ، ورجحه أبو حيان على غيره من الاحتمالات ، والمعنى أنهم تمنوا ارتدادكم وودوا رجوعكم إلى الكفر .

﴿ لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم ﴾ أي لا ينفعكم القرابات على عمومها ولا الأولاد ، وخصهم بالذكر مع دخولهم في الأرحام لمزيد المحبة لهم والحنو عليهم ، والمعنى أن هؤلاء لا ينفعونكم شيئاً يوم القيامة حتى توالوا الكفار لأجلهم كما وقع في قصة حاطب بن أبي بلتعة ، بل الذي ينفعكم ما أمركم الله به من معاداة الكفار ، وترك موالاتهم ، وجملة : ﴿ يوم القيامة يفصل بينكم ﴾ مستأنفة لبيان عدم نفع الأرحام والأولاد في ذلك اليوم ، والمعنى يفرق بينكم فيدخل أهل طاعته الجنة وأهل معصيته النار ، وقيل : المراد بالفصل بينهم أنه يفر كل واحد منهم من الآخر من شدة الهول كما في قوله : ﴿ يوم يفر المرء من أخيه ﴾ الآية .

ويجوز أن يتعلق يوم القيامة ، أي لن ينفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة ، ويبتدأ بقوله : يفصل بينكم ، والأولى أن يتعلق يوم القيامة بما بعده ، كما ذكرنا قرأ الجمهور يفصل بالتخفيف وبضم الياء وفتح الصاد مبنياً للمفعول واختار هذه القراءة أبو عبيد ، وقرىء بفتح الياء وكسر الصاد مبنياً للفاعل . وقرىء بضم الياء وفتح الفاء وكسر الصاد مشددة من التفصيل ، وقرىء بضم الياء وكسر الصاد مخففة ، وقرىء بالنون وكلها سبعية .

﴿ والله بما تعلمون بصير﴾ لا يخفى عليه شيء من أقوالكم وأفعالكم ، فهو مجازيكم على ذلك ، وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما .

« عن علي بن أبي طالب قال : بعثني رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنا والزبير والمقداد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها فأتوني به ، فخرجنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة ، قلنا : أخرجي الكتاب ، قالت : ما معي من كتاب ، فقلنا ، لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب فأخرجته من عقاصها ، فأتينا النبي صلى الله عليه وسلم فإذا فيه : من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة ، يخبرهم ببعض أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما هذا يا حاطب ؟ قال لا تعجل عليّ يا رسول الله إني كنت امرأً ملصقاً في قريش ، ولم أكن من أنفسها ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم ، أن أصطنع إليهم يداً يحمون بها قرابتي ، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : صدق ، فقال عمر : دعني أضرب عنقه ، فقال : إنه شهد بدراً وما يدريك ؟ لعل الله أطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ، ونزلت هذه الآية[1] .

وفي الباب أحاديث مسندة ومرسلة ، متضمنة لبيان هذه القصة ، وأن هذه الآيات إلى قوله ، ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم ﴾ ، نازلة في ذلك ولما فرغ سبحانه من النهي عن موالاة المشركين ، والذم لمن وقع منه ذلك ضرب لهم إبراهيم مثلاً حين تبرأ من قومه فقال :

(١) رواه مسلم .

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَٰهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾

﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة ﴾ أي خصلة حميدة تقتدون بها ، يقال : لي به أسوة في هذا الأمر . أي اقتداء ، فأرشدهم سبحانه إلى الاقتداء بإبراهيم في ذلك إلا في استغفاره لأبيه ، قرأ الجمهور أسوة بكسر الهمزة ، وقرأ بضمها وهما لغتان ، وقراءاتان سبعيتان ، وأصل الأسوة بالضم والكسر القدوة ، ويقال : هو أسوتك أي مثلك وأنت مثله ﴿ في إبراهيم ﴾ أي في أفعاله وأقواله ، وفي متعلقة بأسوة ، ومنعه أبو البقاء ، أو بحسنة أو نعت ثان لأسوة أو حال من الضمير المستتر في حسنة أو خبر لكان ، ولكم تبيين ﴿ والذين معه ﴾ هم أصحابه المؤمنون ، وقال ابن زيد : هم الأنبياء قال الفراء : يقول : أفلا تأسيت يا حاطب بإبراهيم ؟ فتتبرأ من أهلك كما تبرأ إبراهيم من أبيه وقومه ؟

﴿ إذ قالوا لقومهم ﴾ خبر كان أو متعلق بخبرها قالهما أبو البقاء ، ومن جوز في كان أن تعمل في الظرف علقه بها ، هذا ما في السمين ، وقال الحفناوي : الظرف بدل اشتمال من إبراهيم والذين معه وهذا أحسن الأعاريب المذكورة هنا ، والمعنى وقت قولهم لقومهم الكفار وقد كانوا أكثر من عدوكم وأقوى ولهم فيهم أرحام وقرابات ، ومع ذلك لم يبالوا بهم ، بل قالوا :

﴿ إنا برآء منكم ﴾ أي من دينكم جمع بريء مثل شركاء جمع شريك ، وظرفاء جمع ظريف ، قرأ الجمهور بضم الباء وفتح الراء وألف بين همزتين ككرماء في كريم وقرىء بكسر الباء وفتح الراء ككرام في كريم وبضم الباء وهمزة بعد ألف .

﴿ ومما تعبدون من دون الله ﴾ وهي الأصنام ﴿ كفرنا بكم ﴾ أي بما آمنتم به من الأوثان أو بدينكم أو بأفعالكم أي لا نعتد بشأنكم ولا بشأن آلهتكم ﴿ وبدا بيننا وبينكم العداوة ﴾ بالأفعال ﴿ والبغضاء ﴾ بالقلوب ﴿ أبداً ﴾ أي هذا دأبنا معكم ما دمتم على كفركم ﴿ حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ وتتركوا ما أنتم عليه من الشرك ، فإذا فعلتم ذلك صارت تلك العداوة موالاة والبغضاء محبة ﴿ إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك ﴾ هو الاستثناء متصل من قوله في إبراهيم بتقدير مضاف محذوف ليصح الاستثناء أي قد كانت لكم أسوة حسنة في مقالات إبراهيم كلها ، إلا قوله لأبيه إلخ أو من أسوة حسنة ، وصح ذلك لأن القول من جملة الأسوة ، كأنه قيل : قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم في جميع أقواله وأفعاله ، إلا قوله لأبيه ، وهذا عندي واضح غير محوج إلى تقدير مضاف ، وغير مخرج للاستثناء من الاتصال الذي هو أصله ، إلى الانقطاع ، ولذلك لم يذكر الزمخشري غيره ، أو من التبري والقطيعة التي ذكرت أي لم يواصله إلا قوله ، ذكر هذا ابن عطية أو هو منقطع أي لكن قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن فلا تتأسوا به فتستغفرون للمشركين فإنه كان عن موعدة وعدها إياه أو أن ذلك إنما وقع منه لأنه ظن أنه قد أسلم ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، وقد تقدم تحقيق هذا في سورة براءة . قال ابن عباس في الآية : نهوا أن يتأسوا باستغفار إبراهيم لأبيه وهو مشرك .

﴿ وما أملك لك من الله من شيء ﴾ هذا من تمام القول المستثنى يعني ما أغني عنك وما أدفع عنك من عذاب الله وثوابه شيئاً والجملة في محل نصب على الحال من فاعل لأستغفرن ، فالاستثناء متوجه إلى الاستغفار لا إلى هذا

القيد ، فإنه إظهار للعجز ، وتفويض للأمر إلى الله ، وذلك من خصال الخير ﴿ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ﴾ هذا من دعاء إبراهيم وأصحابه ، ومما فيه أسوة حسنة يقتدي به فيها ، وقيل : هو تعليم للمؤمنين أن يقولوا هذا القول والتوكل هو تفويض الأمور إلى الله والإنابة الرجوع ، والمصير المرجع . وتقديم الجار والمجرور لقصر التوكل والإنابة والمصير على الله .

﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ﴾ الظاهر أنه دعاء متعدد لا ارتباط لِكُلٍّ بسابقة كالجمل المعدودة ، وليس هو وما بعده بدلاً مما قبله كما قيل ، لعدم اتحاد المعنيين لا كُلًّا ولا جزءاً ، ولا ملابسة بينهما سوى الدعاء قال الزجاج : لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على حق فيفتنوا بذلك ، وقال مجاهد : لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا : لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم ذلك ، وبه قال ابن عباس : وقال أيضاً : لا تسلطهم علينا فيفتنونا ﴿ واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز ﴾ أي الغالب الذي لا يغالب ﴿ الحكيم ﴾ ذو الحكمة البالغة في ملكه وصنعه .

﴿ لقد كان لكم فيهم ﴾ أي في إبراهيم والذين معه في التبري من الكفار ﴿ أسوة ﴾ أي قدوة ﴿ حسنة ﴾ كرر هذا للمبالغة في التحريض على الحكم والتأكيد على الائتساء بإبراهيم وقومه ، ولهذا جاء به مصدّراً بالقسم لأنه الغاية في التأكيد . وقيل : إن هذا نزل بعد الأولى بمدة ، قال ابن عباس : أي في صنيع إبراهيم كله إلا في الاستغفار لأبيه وهو مشرك .

﴿ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ﴾ أي إن هذه الأسوة إنما تكون لمن يخاف الله ويخاف عقاب الآخرة ، أو يطمع في الخير من الله في الدنيا والآخرة بدل اشتمال من كم بإعادة الجار ، قال المحلي : تبعاً للكواشي وقال أبو حيان وغيره : بدل بعض من كل ﴿ ومن يتول ﴾ أي يعرض عن التأسي بإبراهيم

وأمته ﴿ فإن الله هو الغني ﴾ عن خلقه ﴿ الحميد ﴾ إلى أوليائه لم يترك نوعاً من التأكيد إلا جاء به ولما نزلت هذه الآية وتشدد المؤمنون في عداوة آبائهم وأبنائهم وجميع أقربائهم من المشركين أطمعهم في تحول الحال إلى خلافة فقال :

﴿ عسى الله ﴾ وعسى وعد من الله على عادات الملوك ، حيث يقولون في بعض الحوائج : عسى أو لعل ، فلا تبقى شبهة المحتاج في تمام ذلك أو أريد به إطماع المؤمنين ﴿ أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ﴾ وذلك بأن يسلموا فيصيروا من أهل دينكم ، وقد أسلم قوم منهم بعد فتح مكة وحسن إسلامهم ، ووقعت بينهم وبين من تقدمهم في الإسلام مودة ، وجاهدوا وفعلوا الأفعال المقربة إلى الله ، وقيل : المراد بالمودة هنا تزويج النبي صلى الله عليه وسلم بأم حبيبة بنت أبي سفيان ، فصار معاوية خال المؤمنين ، قاله ابن عباس ، ولا وجه لهذا التخصيص ، وإن كان من جملة ما صار سبباً إلى المودة فإن أبا سفيان بعد ذلك ترك ما كان عليه من العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنها لم تحصل المودة إلا بإسلامه يوم الفتح وما بعده .

وعن أبي هريرة قال : أول من قاتل أهل الردة على إقامة دين الله أبو سفيان ابن حرب ، وفيه نزلت هذه الآية ، وعن الزهري أن الرسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل أبا سفيان بن حرب على بعض اليمن ، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل فلقي ذا الخمار مرتداً فكان أول من قاتل في الردة وجاهد عن الدين ، قال : وهو فيمن قال الله فيه ﴿ عسى الله أن يجعل ﴾ الآية .

وفي صحيح مسلم .

« عن ابن عباس أن أبا سفيان قال : يا رسول الله ثلاث أعطنيهن

قال : نعم قال : تُؤَمِّرُني حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين قال : نعم ، قال : ومعاوية تجعله كاتباً بين يديك قال نعم ، قال : وعندي أحسن العرب وأجمله أم حبيبة بنت أبي سفيان أزوجكها » الحديث[1] قال محمد بن إبراهيم الوزير في التنقيح ما لفظه : قال ابن حزم هذا موضوع لا شك في وضعه ، والآفة فيه عن عكرمة بن عمار ، قلت : قد رد الحفاظ على ابن حزم ما ذكره وجمع ابن كثير الحافظ جزءاً مفرداً في بيان ضعف كلامه ، وفي الحديث غلط ووهم في اسم المخطوب لها النبي صلى الله عليه وسلم : وهي عزة أخت أم حبيبة خطب أبو سفيان رسول الله صلى الله عليه وسلم وخطبته لها أختها أم حبيبة كما ثبت في الصحيحين فأخبرهما النبي صلى الله عليه وسلم بتحريم الجمع بين الأختين ، وقد ذكر له تأويلات كثيرة هذا أقربها والموجب للتأويل ما علم من تزويج النبي صلى الله عليه وسلم لأم حبيبة قبل إسلام أبي سفيان .

﴿ والله قدير ﴾ أي بليغ القدرة كثيرها على تقليب القلوب ، وتحويل الأحوال وتسهيل أسباب المودة ﴿ والله غفور رحيم ﴾ أي بليغهما كثيرهما لمن أسلم من المشركين ، ثم لما ذكر سبحانه ما ينبغي للمؤمنين من معاداة الكافرين وترك موادتهم فصل القول فيمن يجوز بره منهم ، ومن لا يجوز فقال .

---

(١) رواه مسلم .

لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ﴾ أي لا ينهاكم عن هؤلاء ﴿ أن تبروهم ﴾ وتكرموهم وتحسنوا إليهم قولاً وفعلاً ، وهذا بدل من الموصول بدل اشتمال .

« عن عبدالله بن الزبير قال : قدمت قتيلة بنت عبدالعزى على ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا ضباب وأقط وسمن وهي مشركة ، فأبت أسماء أن تقبل هديتها أو تدخلها بيتها ، حتى أرسلت إلى عائشة أن سلي عن هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته ، فأنزل الله هذه الآية فأمرها أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها ، » ، أخرجه[1] أحمد والبزار وأبو يعلى وغيرهم وزاد ابن أبي حاتم في المدة التي كانت بين قريش ورسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي البخاري ومسلم وغيرهما .

« عن أسماء بنت أبي بكر قالت : أتتني أمي راغبة وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألت النبي صلى الله عليه

(٢) رواه أحمد .

وسلم أأصلها ؟ فأنزل الله : ﴿ لا ينهاكم ﴾ الآية فقال : نعم صلي أمك » .

﴿ وتقسطوا إليهم ﴾ أي تفضوا إليهم بالقسط وتعدلوا فيهم بالإحسان إليهم ، والبر . يقال : أقسطت إلى الرجل إذا عاملته بالعدل ، قال الزجاج : المعنى وتعدلوا فيما بينكم وبينهم من الوفاء بالعهد ولا تظلموهم ، وإذا نهى من الظلم في حق المشرك فكيف في حق المسلم ؟

﴿ إن الله يحب المقسطين ﴾ أي العادلين ، ومعنى الآية أن الله سبحانه لا ينهى عن بر أهل العهد من الكفار الذين عاهدوا المؤمنين على ترك القتال وعلى أن لا يظاهروا الكفار عليهم ، ولا ينهى عن معاملتهم بالعدل ، قال ابن زيد كان هذا في أول الإسلام عند الموادعة وترك الأمر بالقتال ، ثم نسخ ، قال قتادة : نسخ بقوله : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ ، وقيل : هذا الحكم كان ثابتاً في الصلح بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين قريش ، فلما زال الصلح بفتح مكة نسخ الحكم ، وقيل : هي خاصة في حلفاء النبي صلى الله عليه وسلم ؛ من بينه وبينه عهد ، قاله الحسن وقال الكلبي : هم خزاعة وبنو الحارث بن عبد مناف ، وقال مجاهد : هي خاصة في الذين آمنوا ولم يهاجروا ، وقيل : هي خاصة بالنساء والصبيان ، وحكى القرطبي عن أكثر أهل التأويل أنها محكمة ، وهو الأولى لحديث أسماء المتقدم المتفق عليه .

ثم بيّن سبحانه من لا يحل بره ولا العدل في معاملته ، فقال :

﴿ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم ﴾ وهم صناديد الكفار من قريش وعتاة أهل مكة ﴿ وظاهروا على إخراجكم ﴾ أي عاونوا الذين قاتلوكم وأخرجوكم على ذلك ، وهم سائر أهل مكة ومن دخل معهم في عهدهم ﴿ أَنْ تولوهم ﴾ بدل اشتمال من الموصول كما سلف .

﴿ ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾ أي الكاملون في الظلم ، لأنهم تولوا من يستحق العداوة لكونه عدواً لله ولرسوله ولكتابه ، وجعلوهم أولياء لهم ، وفيه مراعاة معنى من بعد مراعاة لفظها ، ولما ذكر سبحانه حكم فريقي

الكافرين في جواز البر والإقساط للفريق الأول دون الثاني ، ذكر حكم من يظهر الإيمان فقال :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات ﴾ سماهن مؤمنات لنطقهن بكلمة الشهادة أو لأنهن مشارفات لثبات إيمانهن بالامتحان ﴿ مهاجرات ﴾ من بين الكفار ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما صالح قريشاً يوم الحديبية على أن يرد عليهم من جاءهم من المسلمين ، فلما هاجر إليه النساء أبى الله أن يرددن إلى المشركين ، وأمر بامتحانهن فقال : ﴿ فامتحنوهن ﴾ أي فاختبروهن بالحلف أي هل هن مسلمات حقيقة أو لا .

وقد أخرج البخاري .

عن « المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية جاءه نساء مسلمات فأنزل الله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ حتى بلغ ﴿ ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾ فطلق عُمَر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك » وأخرجه أيضاً من حديثهما بأطول من هذا وعنه : وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ممن خرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي عاتق فجاء أهلها يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجعها إليهم حتى أنزل بالله في المؤمنات ما أنزل وقد اختلف فيما كان يمتحنهن به فقيل : كان يستحلفن بالله ما خرجن من بغض زوج ولا رغبة من أرض إلى أرض ولا لالتماس دنيا بل حباً لله ولرسوله ورغبة في دينه فإذا حلفت كذلك أعطى النبي صلى الله عليه وسلم زوجها مهرها وما أنفق عليها ولم يردها إليه .

« قال ابن عباس : كان إذا جاءت المرأة النبي صلى الله عليه وسلم حلفها عمر بن الخطاب بالله ما خرجت رغبة بأرض عن أرض ، وبالله ما خرجت من بغض زوج ، وبالله ما خرجت لالتماس دنيا ، وبالله ما خرجت إلا حباً لله ورسوله » أخرجه الطبراني وغيره بسند حسن ، وقيل : الامتحان هو

أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فإذا علموا أن ذلك حق منهن لم يرجعن إلى الكفار ، وأعطى بعلها في الكفار الذين عقد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم صداقها الذي أصدقها وأحلهن للمؤمنين إذا آتـوهن أجورهن ، قاله ابن عباس ، وقيل : ما كان الامتحان إلا بأن يتلو عليهن رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية ، وهي : ﴿ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات ﴾ إلى آخرها .

واختلف أهل العلم هل دخل النساء في عهد الهدنة أم لا على قولين ، فعلى القول بالدخول تكون هذه الآية مخصصة لذلك العهد ، وبه قال الأكثر ، وعلى القول بعدمه لا نسخ ولا تخصيص .

﴿ الله أعلم بإيمانهن ﴾ معترضة لبيان أن حقيقة حالهن لا يعلمها إلا الله سبحانه ، ولم يتعبدكم بذلك ، وإنما تعبدكم بامتحانهن ، حتى يظهر لكم ما يدل على صدق دعوتهن في الرغب في الإسلام ﴿ فإن علمتموهن مؤمنات ﴾ أي علمتم ذلك بحسب الظاهر بعد الامتحان الذي أمرتم به ، وهو الظن الغالب بظهور الأمارات ، وتسمية الظن علماً يؤذن بأن الظن الغالب ، وما يفضي إليه القياس ، جار مجرى العلم ، وصاحبه غير داخل في قوله : ﴿ لا تقف ما ليس لك به علم ﴾ ، وقال الكرخي : المراد بالعلم الظن ، وسمي علماً إيذاناً بأنه كالعلم في وجوب العمل به ، ففي الكلام استعارة تبعيةَ .

﴿ فلا ترجعوهن إلى الكفار ﴾ أي إلى أزواجهن الكافرين هذا ناسخ لشرط الرد بالنسبة للنساء ، على مذهب من يرى نسخ السنة بالقرآن ، وقال بعضهم : ليس من قبيل النسخ ، وإنما هو من قبيل التخصيص ، أو تقييد المطلق ، لأن العقد أطلق في رد من أسلم فكان ظاهراً في عموم الرجال مع النساء ، فبين الله خروجهن عن عمومه ، ويفرق بين الرجال والنساء بأن الرجل لا يخشى عليه من الفتنة في الرد ما يخشى على المرأة من إصابة المشرك إياها ، وأنه لا يؤمن عليها الردة إذا خوفت وأكرهت لضعف قلبها ، وقلة

هدايتها إلى الخروج منه بإظهار كلمة الكفر ، مع التورية ، وإضمار كلمة الإيمان طمأنينة القلب عليه ، ولا يخشى ذلك على الرجل لقوته وهدايته ، كذا في الخطيب .

﴿ لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن ﴾ تعليل للنهي عن إرجاعهن ، والتكرير لتأكيد الحرمة ، والجملة الأولى لنفي الحل حالاً ، والثانية لنفيه فيما يستقبل من الزمان ، وفيه دليل على أن المؤمنة لا تحل لكافر ، وأن إسلام المرأة يوجب فرقتها من زوجها لا مجرد هجرتها ﴿ وآتوهم ﴾ خطاب لولاة الأمور ، والأمر للوجوب ، فيكون منسوخاً ، أو للندب كما هو مذهب الشافعي فليس منسوخاً ، أي وأعطوا أزواج هؤلاء اللاتي هاجرن وأسلمن :

﴿ ما أنفقوا ﴾ أي مثل ما أنفقوا عليهن من المهور ، قال الشافعي : وإذا طلبها غير الزوج من قراباتها منع بلا عوض ، عن ابن عباس قال : نزلت سورة الممتحنة بعد ذلك الصلح ، فكان من أسلم من نسائهم تسأل . ما أخرجك ؟ فان كانت خرجت فراراً من زوجها ، ورغبة عنه ، ردت وإن كانت خرجت رغبة في الإسلام أمسكت ، ورد على زوجها مثل ما أنفق ، ووجوب الإيتاء أو ندبه إنما هو في نساء أهل الذمة ، كما هو مورد الآية ، فإنها وردت في شأن أهل مكة الذين هادنهم صلى الله عليه وسلم ، وأما نساء الحربيين الذين لم يعقد لهم عهد فلا يجب ولا يسن رد مهورهن اتفاقاً ، وبه قال قتادة ، والأمر كما قال ، ثم نفى عنهم الجناح في تزوج هؤلاء المهاجرات فقال :

﴿ ولا جناح عليكم أن تنكحوهن ﴾ بشرطه ، وهو انقضاء العدة فيما إذا كانت المسلمة مدخولاً بها ، والولي والشاهدان وبقية شروط الصحة في المدخول بها وغيرها ، لأنهن قد صرن من أهل دينكم ، وإن كان أزواجهن الكفار لم يطلقوهن لانفساخ العقد بالإسلام ﴿ إذا آتيتموهن أجورهن ﴾ أي

مهورهن ، لأن المهر أجر البضع ، وذلك بعد انقضاء عدتهن كما تدل عليه أدلة وجوب العدة ، وقال أبو حنيفة رحمه الله : لا عدة على المهاجرة ، واستدل بهذه الآية ، والأول أولى ، وبه قال الأوزاعي والليث والشافعي وأحمد ، والآية رد لما يتوهم من أن رد المهر إلى أزواجهن الكفار مغن عن تجديد مهر لهن إذا تزوجهن المسلمون ، فالمهر المدفوع للكفار لا يقوم مقام المهر الذي يجب على المسلم إذا تزوجهن ، والمراد بإيتاء المهر التزامه ، وإن لم يدفع بالفعل .

﴿ ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾ قرأ الجمهور بالتخفيف من الإمساك ، واختارها أبو عبيد لقوله : ﴿ فأمسكوهن بمعروف ﴾ وقرىء بالتشديد من التمسك وهما سبعيتان ، والعصم جمع عصمة وهي ما يعتصم به من عقد وسبب ، والمراد هنا عصمة عقد النكاح ، والكوافر جمع كافرة وهي التي بقيت في دار الحرب ، أو لحقت بدار الحرب مرتدة ، أي لا يكن بينكم وبينهن عصمة ولا علقة زوجية ، والمعنى أن من كانت له امرأة كافرة فليست له بامرأة لانقطاع عصمتها باختلاف الدين ، قال النخعي : هي المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر ، وكان الكفار يزوجون المسلمات ، والمسلمون يزوجون المشركات ، ثم نسخ ذلك بهذه الآية ، وهذه خاصة بالكوافر المشركات دون الكوافر من أهل الكتاب ، وقيل : عامة في جميع الكوافر مخصصة بإخراج الكتابيات منها .

وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى أنه إذا أسلم وثني أو كتابي لا يفرق بينهما إلا بعد انقضاء العدّة، وقال بعض أهل العلم : يفرق بينهما بمجرد إسلام الزوج ، وهذا إنما هو إذا كانت المرأة مدخولاً بها ، وأما إذا كانت غير مدخول بها فلا خلاف بين أهل العلم في انقطاع العصمة بينهما بالإسلام ، إذ لا عدة عليها ، عن ابن عباس قال : أسلم عمر بن الخطاب وتأخرت امرأته في المشركين ، فأنزل الله : ولا تمسكوا بعصم الكوافر .

﴿ واسألوا ما أنفقتم ﴾ أي اطلبوا مهور نسائكم اللاحقات بالكفار ممن تزوجها وليسألوا ﴿ما انفقوا ﴾ من مهور نسائهم المهاجرات ممن تزوجها منا ، قال الفسرون : كان من ذهب من المسلمات مرتدة إلى الكفار من أهل العهد ، يقال للكفار : هاتوا مهرها ، ويقال للمسلمين : إذا جاءت امرأة من الكفار إلى المسلمين وأسلمت : ردوا مهرها على زوجها الكافر ، قال الخطيب : وكان ذلك نصفاً وعدلاً بين الحالين وأطال سلمان الجمل في بيان ذلك .

﴿ ذلكم ﴾ المذكور من إرجاع المهور من الجهتين ﴿ حكم الله ﴾ وقوله : ﴿ يحكم بينكم ﴾ مستأنفة أو حالية ﴿ والله عليم حكيم ﴾ أي بليغ العلم ، لا تخفى عليه خافية ، بليغ الحكمة في أقواله وأفعاله ، قال القرطبي : وكان هذا مخصوصاً بذلك الزمان في تلك النازلة خاصة بإجماع المسلمين ، ولما نزلت الآية المتقدمة قال المسلمون : رضينا بحكم الله ، وكتبوا إلى المشركين فامتنعوا فنزل قوله ﴿ وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار ﴾ مما دفعتم إليهم من مهور النساء المسلمات ، وقيل : المعنى وإن انفلت منكم أحد من نسائكم إلى الكفار ، فارتدت المسلمة ، وإليه نحا الزمخشري .

﴿ فعاقبتم ﴾ أي فأصبتموهم في القتال بعقوبة قال الواحدي : قال المفسرون أي فغنمتم قال الزجاج : تأويله : وكانت العقبى لكم أي كانت الغنيمة لكم حتى غنمتم ، وقيل : معناه ظهرتم ، وكانت العاقبة لكم ﴿ فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا ﴾ من مهر المهاجرة التي تزوجتموها ، ولا تؤتوه زوجها الكافر سواء كانت الردة قبل الدخول أو بعده ، فكان الحكم أنه يجب للزوج من الغنمية جميع المهر ، قال قتادة ومجاهد : إنما أمروا أن يعطوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا من الفيء والغنيمة ، وهذه الآية منسوخة قد انقطع حكمها ، وارتفع بعد الفتح بشقيه ، فلا يجب دفع مهر من جاءت مسلمة للكفار ، ولا مهر من ارتدت لزوجها ، وبه قال عطاء ومجاهد وقتادة .

وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾

وقال قوم : الآية غير منسوخة ، ويرد عليهم ما أنفقوا ، وحاصل معناها أن من أزواجكم يجوز أن يتعلق بـ ﴿ فاتكم ﴾ أي من جهة أزواجكم ، ويراد بالشيء المهر الذي غرمه الزوج لأن التفسير ورد أن الرجل المسلم إذا فرت زوجته إلى الكفار ، أمر الله المؤمنين أن يعطوا ما غرمه ، وفعله النبي صلى الله عليه وسلم مع جمع من الصحابة المذكورين في التفاسير ، ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه صفة لشيء ، ثم يجوز في شيء أن يراد به المهر ، ولكن لا بد على هذا من مضاف محذوف ، أي من مهر أزواجكم ليتطابق الموصوف وصفته ، ويجوز أن يراد بشيء النساء أي نوع وصنف منهن ، وهو ظاهر قوله : ﴿ من أزواجكم ﴾ ، وقوله : ﴿ فآتوا الذين ذهبت أزواجهم ﴾ ، والمعنى أنهم يعطون من ذهبت زوجته إلى المشركين فكفرت ، ولم يرد عليه المشركون مهرها ، كما حكم الله مثل ذلك المهر الذي أنفقه عليها من الغنيمة .

﴿ واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ﴾ أي احذروا أن تتعرضوا لشيء مما يوجب العقوبة عليكم فإن الإيمان الذي أنتم متصفون به ، يوجب على صاحبه ذلك .

﴿ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك ﴾ أي قاصدات لمبايعتك على

الإسلام ، أخرج البخاري والترمذي وغيرهما .

« عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية إلى قوله : ﴿ غفور رحيم ﴾ ، فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات ، قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد بايعتك ـ كلاماً ـ والله ما مست يده يد امرأة قط من المبايعات ، ما بايعهن إلا بقوله قد بايعتك على ذلك » ، وظاهر هذا التركيب أن النساء طلبن المبايعة مع أن المقرر في السير أنه صلى الله عليه وسلم ابتدأهن بالمبايعة شارطاً عليهن الشروط الآتية ، وبعد أن بايعهن التزمنها ، ويمكن على بعد أن يقال : التقدير في الآية : إذا جاءك المؤمنات يبايعنك فبايعهن .

﴿ على أن لا يشركن بالله شيئاً ﴾ من الأشياء كائناً ما كان ، وهذا كان يوم فتح مكة ، فإن نساء أهل مكة أتين رسول الله صلى الله عليه وسلم يبايعنه فأمره الله تعالى أن يأخذ عليهن أن لا يشركن به ﴿ ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ﴾ هو ما كانت تفعله الجاهلية من وأد البنات أي دفنهن أحياء لخوف العار والفقر .

﴿ ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ﴾ أي لا يلحقن بأزواجهن ولداً ليس منهم ، قال الفراء كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها . هذا ولدي منك ، فذلك البهتان المفتري بين أيديهن وأرجلهن ، وذلك أن الولد إذا وضعته الأم سقط بين يديها ورجليها ، وليس المراد هنا أنها تنسب ولدها من الزنا إلى زوجها ، لأن ذلك قد دخل تحت النهي عن الزنا ، قال ابن عباس : كانت الحرة تولد لها الجارية فتجعل مكانها غلاماً وعنه قال في الآية لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم .

﴿ ولا يعصينك في معروف ﴾ أي في كل أمر هو طاعة لله ، وإحسان إلى الناس ، وكل ما أمر به الشرع ونهى عنه ، والمعروف ما عرف حسنه من قبل الشرع ، قال عطاء : في كل بر وتقوى ، قال ابن عباس : إنما هو شرط

شرطه الله النساء ، وقال المقاتلان : عنى بالمعروف النهي على النوح ، وتمزيق الثياب ، وجز الشعر ، وشق الجيوب ، وخمش الوجوه ، والدعاء بالويل ، وكذا قال قتادة وسعيد بن المسيب ومحمد بن السائب وزيد بن أسلم ، ومعنى القرآن أوسع مما قالوه مع دخول النوح فيه ، قيل : ووجه التقييد بالمعروف مع كونه صلى الله عليه وسلم لا يأمر إلا به التنبيه على أنه لا يجوز طاعة مخلوق في معصية الخالق .

أخرج أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجة .

« عن أميمة بنت رقيقة قالت : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في نساء لنبايعه ، فأخذ علينا ما في القرآن أن لا نشرك بالله شيئاً ، حتى بلغ ﴿ولا يعصينك في معروف﴾ ، فقال فيما استطعتن وأطقتن ، فقلنا : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا يا رسول الله ، ألا تصافحنا ؟ قال : إني لا أصافح النساء إنما قولي لمائة امرأة كقولي لامرأة واحدة »، وفي الباب أحاديث ، وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما :

« عن عبادة بن الصامت قال : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا وقرأ آية النساء ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فهو إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له » .

وأخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن ماجة وغيرهم :

« عن أم سلمة الأنصارية قالت : قالت امرأة من النسوة : ما هذا المعروف الذي لا ينبغي لنا أن نعصيك فيه ؟ قال : لا تنحن ، قلت : يا رسول الله إن بني فلان أسعدوني على عمي لا بد لي من قضائهن ، فأبى عليّ ، فعاودته مراراً فأذن لي بقضائهن ، فلم أنح بعد ، ولم يبق من النسوة امرأة إلا وقد ناحت غيري » .

وأخرج البخاري ومسلم وعيرهما :

« عن أم عطية قالت : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ علينا أن لا نشرك بالله شيئاً ونهانا عن النياحة ، فقبضت امرأة منا يدها فقالت : يا رسول الله إن فلانة أسعدتني وأنا أريد أن أجزيها ، فلم يقل لها شيئاً . فذهبت ثم رجعت ، فقالت : ما وفت منا امرأة إلا أم سليم وأم العلاء وبنت أبي سبرة امرأة معاذ أو بنت أبي سبرة وامرأة معاذ » ، وقد وردت أحاديث كثيرة في النهي عن النوح .

﴿ فبايعهن ﴾ هذا جواب إدا ، والمعنى إذا بايعنك على هذه الأمور فبايعهن أي التزم لهن ما وعدناهن على ذلك من إعطاء الثواب في مقابلة ما ألزمن أنفسهن به من الطاعات ، فهو بيع لغوي ، والبيع في اللغة مقابلة شيء بشيء على وجه العوضية ، وسميت المعاهدة مبايعة تشبيهاً لها بها ، كأن كل واحد منهم باع ما عنده بما عند الآخر ، ذكر الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم في صفة البيعة خصالاً ستاً صرح فيهن بأركان النهي في الدين ، ولم يذكر في بيعتهن أركان الأمر وهي ستة أيضاً : الشهادتان والصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، والاغتسال من الجنابة لوضوح كون هذه الأمور ونحوها من أركان الدين وشعائر الإسلام ولأن النهي دائم في كل الأزمان وكل الأحوال ، فكان الاشتراط للتنبيه على الدائم آكد .

وقيل : إنما خص الأمور المذكورة لكثرة وقوعها من النساء ، ولا يحجزهن عنها شرف النسب ، قال ابن الجوزي : وجملة من أحصى من المبايعات إذ ذاك أربعمائة وسبعة وخمسون امرأة ، ولم يصافح في البيعة امرأة وإنما بايعهن بالكلام بهذه الآية انتهى .

« وعن أسماء بنت يزيد بن السكن أنها قالت : كنت في النسوة المبايعات فقلت : يا رسول الله أبسط يدك نبايعك ، فقال : إني لا أصافح النساء ،

ولكن آخذ عليهن ما أخذ الله عليهن » ، رواه البخاري وقيل : صافحهن بحائل أي ثوب .

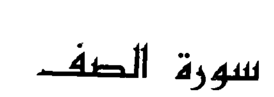
وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا بايع النساء دعا بقدح من ماء ، ثم غمس يده فيه فغمسن أيديهن فيه ، والأول أولى وأصح ، وهذا هو البيعة الثانية بالسنة في دين الإسلام ، والتي أحدثها الصوفية والمشايخ وجهلة المتصوفة ، فلا تثبت بدليل شرعي ، ولا اعتداد بها ، بل هي مصادمة لما ثبت بالكتاب والسنة كما ترى .

﴿ واستغفر لهن الله ﴾ أي اطلب من الله المغفرة لهن بعد هذه المبايعة لهن منك مما سلف ، ومما يقع منهن ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ أي بليغ المغفرة بتمحيق ما سلف ، وكثير الرحمة لعباده بتوفيق ما ائتنف .

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ لما افتتح السورة بالنهي عن اتخاذ الكفار أولياء ، ختمها بمثل ذلك تأكيداً لعدم موالاتهم ، وتنفيراً للمسلمين عنها ، قاله أبو حيان وهذا على منوال رد العجز على الصدر من حيث المعنى ﴿ لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم ﴾ هم جميع طوائف الكفر ، وقيل : اليهود خاصة وقيل : المنافقون خاصة ، وقال الحسن : اليهود والنصارى ، والأول أولى ، لأن جميع طوائف الكفر تتصف بأن الله سبحانه غضب عليها ، قال ابن عباس في الآية : كان عبدالله بن عمر وزيد بن الحرث يوادان رجلاً من اليهود فأنزل الله هذه الآية .

﴿ قد يئسوا من الآخرة ﴾ يرد على هذا أنهم طامعون في ثواب الآخرة ، لأنهم يعتقدون أنهم على حق وأن تمسكهم بشريعة موسى ينفعهم فلا يكونوا آيسين ، ويمكن أن يقال : المراد باليأس الحرمان أي قد حرموا من ثواب الآخرة و﴿من﴾ لابتداء الغاية أي أنهم لا يوقنون بالآخرة البتة بسبب كفرهم ، قال ابن مسعود : أي لا يؤمنون بها ولا يرجونها ﴿ كما يئس الكفار من أصحاب القبور ﴾ أي كيأسهم من بعث موتاهم ، لاعتقادهم عدم البعث .

وقيل : كما يئس الكفار الذين قد ماتوا منهم من خير الآخرة لأنهم قد وقفوا على الحقيقة ، وعلموا أنه لا نصيب لهم في الآخرة ، فيكون (من) على الوجه الأول ابتدائية ، وعلى الثاني بيانية ، والأول أولى ، وقيل : تبعيضية أي حال كونهم بعض أصحاب القبور ، إذ المقبورون فيهم المؤمن والكافر ، قال ابن مسعود : كما يئس الكافر إذا مات وعاين ثوابه ، واطلع عليه ، وقال ابن عباس : هم الكفار أصحاب القبور الذين يئسوا من الآخرة ، وعنه قال : من مات من الذين كفروا فقد يئس الأحياء من الذين كفروا أن يرجعوا إليهم أو يبعثهم الله تعالى .



﴿ هي أربع عشرة آية وهي مدنية ﴾

وهو المختار، ونسبه إلى الجمهور. قال ابن عباس: نزلت بالمدينة، وعن ابن الزبير مثله. وعن ابن عباس أيضاً نزلت بمكة. ولعل هذا لا يصح عنه. وبه قال عكرمة والحسن وقتادة، وجزم به الزمخشري ويؤيد كونها مدنية ما أخرجه أحمد:

« عن عبد اللّه بن سلام قال: تذاكرنا أيكم يأتي رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فيسأله: أي الأعمال أحب إلى اللّه؟ فلم يقم أحد منا فأرسل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلينا رجلاً، فجمعنا وقرأ علينا هذه السورة يعني سورة الصف كلها » وأخرجه[1] ابن أبي حاتم، وقال في آخره فنزلت فيهم هذه السورة. وأخرجه أيضاً الترمذي وابن حبان والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين. والبيهقي في الشعب والسنن.

---

(١) رواه الحاكم.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي اسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِالْبَيِّنَٰتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾

﴿ سبح لله ما في السموات وما في الأرض ﴾ قد تقدم الكلام على هذا ، ووجه التعبير في بعض السور بلفظ الماضي كهذه السورة ، وفي بعضها بالمضارع ، وفي بعضها بلفظ الأمر ، الإرشاد إلى مشروعية التسبيح في كل الأوقات ماضيها ومستقبلها وحالها ، وقد قدمنا نحو هذا في أول سورة الحديد ، وأعاد الموصول هنا وفي الحشر والجمعة والتغابن جرياً على الأصل ، وأسقطه في الحديد موافقة لقوله فيها : له ملك السموات والأرض .

وقوله : هو الذي خلق السموات والارض ، ولم يقل : سبح لله السموات والأرض وما فيها ، فيكون أكثر مبالغة لأن المراد بالسماء جهة العلو فيشمل السماء وما فيها ، وبالأرض جهة السفل فيشمل الأرض وما فيها ﴿ وهو العزيز ﴾ أي الغالب الذي لا يغالب ﴿ الحكيم ﴾ في أفعاله وأقواله .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟ ﴾ هذا الاستفهام للتقريع والتوبيخ على جهة الإنكار ، أي لم تقولون من الخير ما لا تفعلونه ؟ ولم مركبة من اللام الجارة وما الاستفهامية . وحذفت ألفها تخفيفاً لكثرة استعمالها ، كما

في نظائرها قال النسفي : وهي لام الاضافة داخلة على ما الاستفهامية ، كما دخل عليها غيرها من حروف الجر في قولك فيم وفيم ومم وعم وإلام وعلام ، وإنما حذفت الألف لأن ما وحرف الجر كشيء واحد ، ووقع استعمالهما كثيراً في كلام المستفهم محذوفة الألف ، وقد جاء استعمال الأصل قليلاً كقول الشاعر :

على ما قام يشتمني جرير

عن ابن عباس قال : كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون وددنا لو أن الله أخبرنا بأحب الأعمال فنعمل به فأخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم ، بأن أحب الأعمال إيمان بالله لا شك فيه ، وجهاد أهل معصية الذين خالفوا الإيمان . ولم يقروا به ، فلما نزل الجهاد كره ذلك أناس من المؤمنين ، وشق عليهم أمره ، فقال الله ﴿ لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ ؟ قال النخعي : ثلاث آيات في كتاب الله منعتني أن أقضي على الناس ، ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ﴾ ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ ، وهذه الآية ، ثم ذمهم سبحانه على ذلك فقال :

﴿ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ أي عظم ذلك في المقت ، وهو أشد البغض ، والمقت ، والمقاية مصدران يقال : مقيت ومقوت إذا لم يحبه الناس ، قال الكسائي : أن تقولوا في موضع رفع لأن كبر فعل بمعنى بئس ، ومقتاً منتصب على التمييز ، وعلى هذا فيكون في كبر ضمير مبهم مفسر بالنكرة . وأن تقولوا هو المخصوص بالذم ، وقيل : إنه قصد بقوله كبر التعجب ، وقد عده ابن عصفور من أفعال التعجب المبوب لها في النحو وإليه نحا الزمخشري . وقال : هذا من أفصح الكلام وأبلغه ، ومعنى التعجب تعظيم الأمر في قلوب السامعين ، لأن التعجب لا يكون إلا من شيء خارج عن نظائره وأشكاله ، قال السمين : وهذه قاعدة مطردة ، وهي أن كل فعل يجوز التعجب منه ، يجوز أن يبنى على فعل بضم العين ويجري مجرى نعم وبئس في جميع الأحكام . وقيل : إنه ليس من أفعال الذم ولا من أفعال

التعجب ، بل هو مسند إلى ﴿ أن تقولوا ﴾ ومقتاً تمييز محول عن الفاعل .

قال ابن عباس : هذه الآية في القتال وحده ، وهم قوم كانوا يأتون النبي صلى الله عليه وسلم ، فيقول الرجل : قاتلت وضربت بسيفي ولم يفعل فنزلت :

﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً ﴾ قال المفسرون : إن المؤمنين قالوا : وددنا أن الله يخبرنا بأحب الأعمال اليه ، حتى نعمله ، ولو ذهبت فيه أموالنا وأنفسنا ، فأنزل الله هذه الآية ، وانتصاب صفاً على المصدرية والمفعول محذوف أي يصفون أنفسهم صفاً ، وقيل : هو مصدر في موضع الحال أي صافين أو مصفوفين قرأ الجمهور يقاتلون على البناء للفاعل ، وقرأ زيد بن علي على البناء للمفعول ، وقرىء يقتلون بالتشديد .

وجملة : ﴿ كأنهم بنيان مرصوص ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل يقاتلون أو من الضمير في صفاً على تقدير أنُه مؤول بصافين أو مصفوفين ، ومعنى مرصوص ملتزق بعضه ببعض ، يقال : رصصت البناء أرصه رصاً إذا ضممت بعضه إلى بعض ، وقال الفراء : مرصوص بالرصاص ، قال المبرد : هو مأخوذ من رصصت البناء إذا لا يمت بينه ، وقاربت حتى يصير كقطعة واحدة ، وقيل : هو من الرصيص وهو ضم الأشياء بعضها إلى بعض ، والتراص التلاصق ، وقيل : المتلائم الأجزاء المستويها ، وقال ابن عباس في الآية : مثبت لا يزول ، ملصق بعضه على بعض ، وقيل : أريد استواء نياتهم في حرب عدوهم ، حتى يكونوا في اجتماع الكلمة كالبنيان الذي رص بعضه إلى بعض ، والأول أولى .

ولما ذكر تعالى الجهاد المشتمل على المشاق وأنه يحب المقاتلين في سبيله ، ذكر قصتي موسى وعيسى تسلية لنبيه صلى الله عليه وسلم ، ليصبر على أذى قومه ، وبين أنهما أمرا بالتوحيد ، وجاهدا في سبيل الله ، وجعل العقاب لمن خالفهما مبتدئاً بقصة موسى لتقدمه في الزمان فقال :

﴿ وإذ قال موسى لقومه ﴾ أي أذكر يا محمد لهؤلاء المعرضين وقت قول موسى ، ويجوز أن يكون وجه ذكر قصة موسى وعيسى بعد محبة المجاهدين في سبيل الله التحذير لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أن يفعلوا مع نبيهم ما فعله قوم موسى وعيسى معهما ﴿ يا قوم لم تؤذونني ﴾ هذا مقول القول ، أي لم تؤذونني بمخالفة ما آمركم به من الشرائع التي افترضها الله عليكم ، أو بالشتم والانتقاص ومن ذلك رميه بالأدرة ، وقد تقدم بيان هذا في سورة الأحزاب .

وجملة : ﴿ وقد تعلمون أني رسول الله اليكم ﴾ في محل نصب على الحال ، وقد لتحقق العلم أو لتأكيده لا للتقريب ولا للتقليل ، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار ، والمعنى كيف تؤذونني مع علمكم بذلك ؟ والرسول يحترم ويعظم ، ولم يبق معكم شك في الرسالة لما قد شاهدتم من المعجزات التي توجب عليكم الاعتراف برسالتي ، وتفيدكم العلم بها علماً يقينياً .

﴿ فلما زاغوا ﴾ عن الإيمان وأصروا على الزيغ واستمروا عليه ﴿ أزاغ الله قلوبهم ﴾ عن الهدى وصرفها عن قبول الحق ، وقيل : صرفها عن الثواب قال مقاتل : لما عدلوا عن الحق أي بإيذاء نبيهم أمال الله قلوبهم عنه ، جزاء بما ارتكبوا ، أو المعنى لما تركوا أوامره نزع نور الإيمان من قلوبهم ، أو فلما اختاروا الزيغ أزاغ الله قلوبهم ، أي خذلهم وحرمهم توفيق اتباع الحق .

﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها ، قال الزجاج : لا يهدي من سبق في علمه أنه فاسق ، والمعنى أنه لا يهدي كل متصف بالفسق وهؤلاء من جملتهم وإن من أسلم منهم لم يكن كافراً في علمه ، أي محتوماً عليه بالكفر بحيث يموت عليه .

﴿ وإذ قال عيسى بن مريم ﴾ معطوف على وإذ قال موسى ، معمول لعامله ، أو معمول لعامل مقدر معطوف على عامل الظرف الأول ﴿ يا بني اسرائيل ﴾ ولم يقل : يا قوم كما قال موسى لأنه لا نسب ولا أب له فيهم

فيكونوا قومه ، وأمه مريم من أشرفهم نسباً ﴿ إني رسول الله اليكم ﴾ أي أرسلت إليكم بالوصف الذي وصفت به التوراة حال كوني ﴿ مصدقاً لما بين يدي من التوراة ﴾ لأني لم آتكم بشيء يخالف التوراة ، بل هي مشتملة على التبشير بي فكيف تنفرون عني وتخالفونني ؟ وذكر أشهر الكتب الذي حكم به النبيون ، وأشهر الرسل الذي هو خاتم المرسلين .

﴿ ومبشراً برسول يأتي من بعدي ﴾ وإذا كنت كذلك في التصديق والتبشير فلا مقتضى لتكذيبي ، وقرىء بعدي بفتح الياء وبإسكانها ﴿ اسمه أحمد ﴾ هو نبينا صلى الله عليه وسلم ، وهو علم منقول من الصفة وهي تحتمل أن تكون مبالغة من الفاعل ، فيكون معناها أنه أكثر حمد من غيره ، أو من المفعول ، فيكون معناها أنه يحمد بما فيه من خصال الخير أكثر مما يحمد غيره وبالاعتبار الأول قدم عيسى هذا الاسم على محمد ، لأن كونه حامداً لله سابق على حمد الخلق له لأنهم لم يحمدوه إلا بعد وجوده في الخارج ، وحمده لربه كان قبل حمد الناس له وقال الكرخي : إنه إنما خصه بالذكر لأنه في الإنجيل مسمى بهذا الاسم ولأنه في السماء أحمد فذكر باسمه السماوي لأنه أحمد الناس لربه ، لأن حمده لربه بما يفتحه الله عليه يوم القيامة من المحامد قبل شفاعته لأمته سابق على حمدهم له تعالى .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما :

« عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن لي أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الحاشر الذي يحشر الله الناس على قدمي ، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر ، وأنا العاقب والعاقب الذي ليس بعده نبي » ، وفي بعض حواشي البيضاوي أن له أربعة آلاف اسم ، وأن نحو سبعين منها من أسمائه تعالى انتهى ، والحق أن أسماء الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، توقيفية لا يزاد عليها ، ولا يدعى ولا يسمى بغيرها ، وفي الخازن تحت هذه الآية :

« عن أبي موسى قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أصحابه أن يأتوا النجاشي ، وذكر الحديث ، وفيه قال : سمعت النجاشي يقول : أشهد أن محمداً رسول الله ، وأنه الذي بشر به عيسى ، ولولا ما أنا فيه من الملك وما تحملت من أمر الناس ، لأتيته حتى أحمل نعليه » ، أخرجه أبو داود .

« وعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال : مكتوب في التوراة صفة محمد وعيسى ابن مريم يدفن معه ، قال أبو داود المدني : قد بقي في البيت موضع قبر » أخرجه الترمذي ، وعن كعب الأحبار أن الحواريين قالوا لعيسى : يا رسول الله هل بعدنا من أمة ؟ قال : نعم يأتي بعدكم أمة حكماء علماء أبرار أتقياء ، كأنهم في الفقه أنبياء ، يرضون من الله باليسير من الرزق ، ويرضى الله منهم باليسير من العمل انتهى . ومثله في الخطيب ، وقال مكان قوله : يأتي بعدكم أمة لفظ : أمة أحمد .

وقال : « روي أنه صلى الله عليه وسلم قال : اسمي في التوراة أحيد لأني أحيد أمتي عن النار ، واسمي في الزبور الماحي محا الله بي عبدة الأوثان ، واسمي في الإنجيل أحمد ، وفي القرآن محمد ، لأني محمود في أهل السماء والأرض » انتهى ، ولينظر في سند هذا الحديث ، قال القرطبي : واسم محمد مطابق لمعناه ، والله سبحانه وتعالى سماه قبل أن يسمي به نفسه ، فهذا علم من أعلام نبوته انتهى ، وذكره عيسى عليه السلام وقال : اسمه أحمد وذكره موسى عليه السلام حين قال له ربه تلك أمة أحمد فقال : اللهم اجعلني من أمة محمد فبأحمد ذكره قبل أن يذكره بمحمد ، لأن حمده لربه كان قبل حمد الناس له ، فلما وجد وبعث كان محمداً بالفعل انتهى من الخطيب .

﴿ تنبيه ﴾ قد راجعنا من التفاسير الموجودة عندنا الآن جلها كتفسير أبي السعود والمدارك للنسفي والبيضاوي وحاشيته من الخفاجي والجلالين وحاشية

سليمان الجمل عليه والخطيب والخازن وأمثال ذلك في هذا المقام تحت هذه الآية فلم نجد أحداً من هؤلاء الأعلام ذكر هذه البشارة نقلاً عن الإنجيل ، ولعل السبب في ذلك عدم رجوعهم الى الكتب العتيقة والجديدة وتراجمها بالألسنة المختلفة ، أو عدم وجودها في تلك الأزمنة أو لعدم الاعتماد عليها لما تطرق من التحريف اليها ، ولكنا أحببنا أن نذكر في هذا المقام من النصوص الإنجيلية وغيرها بعضاً من الأدلة الدالة على بشارة عيسى عليه السلام بإتيان رسول من بعده اسمه أحمد ، فإن من منن الله سبحانه على عباده المؤمنين ومن تمام حجته على أهل الكتاب أن الإخبارات والأمثلة والبشارات الواردة في حق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، الناصة على ثبوت نبوته العامة ، ورسالته الشاملة للخليقة ، كلها توجد كثيراً في تلك الكتب إلى هذا الآن ، مع ما وقع فيها من التحريفات اللفظية والمعنوية ، كما نطق به الأحاديث والقرآن .

ومن عرف طريق إخبار النبي المتقدم عن النبي المتأخر ، ونظر بعين الإنصاف إلى هذه البشارات ، وقابلها بالإخبارات التي نقلتها النصارى في عيسى ابن مريم عليهما السلام ، جزم بأن هذه الإخبارات عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، في غاية من القوة ، ونهاية من الصحة والشهرة والقبول ، وهذه جملة صالحة منها تذكر هنا ونتكلم عليها بما يكشف عن حالها ، والدلالة منها على هذا المقصود فأقول وبالله أجول وأصول : فمن تلك البشارات ما في الباب السابع عشر من سفر التكوين :

وعلى إسماعيل أستجيب لك هو ذا أباركه وأكبره ، وأكثره جداً ، فسيلد اثني عشر رئيساً ، وأجعله لشعب كبير انتهى ، فقوله : أجعله لشعب كبير مشير إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه لم يكن في ولد إسماعيل من كان لشعب كبير غيره وقد قال تعالى ناقلاً دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في كلامه المجيد : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

قال الرازي : وفي الإصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا هكذا : وأنا أطلب لكم إلى أبي حتى يمنحكم ويعطيكم الفارقليط حتى يكون معكم الى الأبد والفارقليط هو روح الحق اليقين : هذا لفظ الإنجيل المنقول الى العربي .

وذكر في الإصحاح الخامس عشر هذا اللفظ : وأما الفارقليط روح القدس يرسله أبي باسمي ويعلمكم ويمنحكم جميع الأشياء ، وهو يذكركم ما قلت لكم ، ثم ذكر بعد ذلك بقليل ، وإني قد أخبرتكم بهذا قبل أن يكون حتى إذا كان ذلك تؤمنون ، وذكر في الإصحاح السادس عشر هكذا ، ولكن أقول لكم الآن حقاً يقيناً انطلاقي عنكم خير لكم ، فإن لم أنطلق عنكم إلى أبي لم يأتكم الفارقليط وإن انطلقت أرسلته اليكم ، فإذا جاء هو يفيد أهل العالم ، ويدنيهم ويمنحهم ، ويوقفهم على الخطبة والبر والدين ، وذكر بعد ذلك بقليل هكذا فإن لي كلاما كثيراً أريد أن أقوله لكم ولكن لا تقدرون على قبوله والاحتفاظ له ، ولكن إذا جاء روح الحق اليكم يلهمكم ويؤيدكم بجميع الحق ، لأنه ليس يتكلم بدعة من تلقاء نفسه ، هذا ما في الإنجيل انتهى كلام الرازي .

وفي الزبور المائة والتاسع والأربعين : سبحوا الرب تسبيحاً جديداً سبحوه في مجمع الأبرار ، فليفرح إسرائيل بخالقه ، وبنو صهيون يبتهجون بملكهم ، فليسبحوا اسمه بالمصياف بالطبل والمزمار ، يرتلوا له لأن الرب يسر بشعبه ويشرف المتواضعين ، بالخلاص تفتخر الأبرار بالمجد ، ويبتهجون على مضاجعهم ترفيع الله في حلوقهم ، وسيوف ذات فمين في أياديهم ، ليضعوا انتقاما في الأمم وتوبيخات في الشعوب ، ليقيدوا ملوكهم بالقيود وأشرافهم بالأغلال من حديد ، ليضعوا بهم حكماً مكتوباً ، هذا المجد يكون لجميع الأبرار اهـ .

وهذا الزبور عبر عن المبشر به بالملك ، وعن مطيعيه بالأبرار ، وصدق

جميع هذه الصفات على محمد صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه رضي الله عنهم ، ولا ينكر ذلك إلا من عمى الله عين بصيرته : وخذله عن سبيل هدايته ، ومنها ما في إنجيل يوحنا وترجمته بالعربية : إن كنتم تحبوني فحافظوا على كلامي وأنا ألتمس الآب فيرسل إليكم فارقليطاء آخر ليمكث معكم إلى أبد الآبدين إنتهى ، وهذا من أعظم الدلائل الدالة على نبوته صلى الله عليه وسلم ، وقد أعرض عنه النصارى إعراضاً كلياً .

والفارقليطاء، عجمية يونانية معناه الشافع والواسطة والمسلي والممجد وهذه المعاني تدل على الممدوح ، بعضها بالمطابقة وبعضها بالتضمن وبعضها بالالتزام فإن التمجيد مرادف للحمد ، والثلاثة الأخر مما توجب الحمد . فهذا هو معنى قوله سبحانه ﴿ مبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾ ، والدليل على ذلك وصفه بالمكث إلى الأبد والدوام ، فإنه لم يأت بعد عيسى عليه السلام أحد يتصف بهذه الصفة غيره ، وفي التنكير دلالة على أن هذا الفارقليطاء ، الذي هو الآن معكم أي المسيح زمني ولا يبقى إلى الأبد والذي يأتي بعده أبدي .

وإن فسره النصارى بالروح القدس فهذا خطأ لأن الروح القدس لم يبق معهم بعد يوم الدار ولا يوجد معهم في زماننا هذا غير روح إبليس شيء فيكون عدولهم عن اتباع أمره هو محافظتهم عليه ، وإلا فإن كان الفارقليطاء عبارة عن الروح القدس الذي نزل على الحواريين يوم الدار لاستطاع أساقفة النصارى وقسوسهم أن يفعلوا الخوارق التي فعل المسيح ، لكنهم لا يستطيعون على شيء من ذلك ، فالفارقليطاء ليس بعبارة عن الروح القدس الذي نزل عليهم يوم الدار ، أما المقدم فلأن الحواريين كانوا يعملون الخوارق التي كان يفعلها المسيح ، وأما التالي فلأنه لم ينقل عنهم لا في الغابر ولا في الحال .

وأما قولنا : إن محمداً صلى الله عليه وسلم ، هو المتصف بالمكث إلى

الأبد فلأنه لم يأت بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، من يدعي النبوة ، ويظهر المعجزة ، فانحصرت فيه حتى يأتي غيره ، ومعنى الدوام هو بقاء ملته على دعائمها الأصلية ، وعدم تحريف كتابه العزيز ، بل وسنته المطهرة ، وعدم اختلال شريعته الحقة الصادقة ، ولا ينقض ذلك باختلاف المذاهب ، لأن هذا الاختلاف مما يتعلق بالفروع ، وفي رومية وأشعياء:ها أنا واضع في صهيون حجرة عثرة ، وصخرة شك ، وكل من يؤمن بها لا يخجل إنتهى . وتقييد عدم الخجالة بالإيمان بها فيه دلالة على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم ، وأخذه النصارى وأولوه على عادتهم ، واستدلوا به على ربوبية المسيح ، وليس بشيء وصهيون جبل في أورشليم ، وقيل : بل عقبة أسست عليها أورشليم ، والحجرة والصخرة والعثرة والشك من المترادفات .

وسياق الكلام في رومية أن بولوس كان يعظ بعيسى ، ويوبخ اليهود على عدم إيمانهم به وهو كلام طويل آخره قوله : وأما إسرائيل فإنه قد طلب شريعة العدل ، ولم يظفر بها ، ولم لم يظفر بها ؟ لأنهم لم يطلبوها بالإيمان ، بل بأعمال الشريعة ، وذلك لأنهم عثروا بحجرة كما حررها آنذا واضع حجرة تمعثر ، وصخرة شك ، وكل من يؤمن بها لا يخجل . يريد بذلك أن بني إسرائيل كانوا يطلبون الهدى فلم يصيبوه ، لأنهم كانوا يطلبونه بمحض الأعمال لا بالإيمان ، وهذا يدل على أن غاية شريعة عيسى لم تكن إلا بالقوة النظرية ، وسبب عدم صلبهم إياه بالإيمان لأنهم عثروا بعيسى لأنهم لم يعرفوه ، واستدل على عدم إيمانهم به بقول أشعياء ، وهذا لا يدل على ربوبيته ، بل ولا على نبوته .

وسياقه في أشعياء هو قوله : ألا لا تتكلموا على من تتكلم عليه هذه الأمة ، ولا تخشوا ما يخشونه ، ولا تخافوا ، وقدّسوا رب الجنود وحده ، واخشوه وخافوا منه ، لأنه هو المقدس ، وهو حجرة العثرة ، وصخرة الشك ، وهو لأهل بيت اسرائيل فخ ، ولكنه أورشليم مصيدة ، وسيعثرون ويسقطون وينكسرون ويقيدون ويؤسرون ، فاطووا الشهادة واختموا الصحف التي عند

تلاميذي ، وأنا سأنتظر الرب الذي يغطي وجهه عن أهل بيت اسرائيل وأترقبه ، وها أنا والأولاد الذين وهب لي ربي علامة عجيبة في إسرائيل لرب الجنود الذي يسكن في صهيون انتهى .

وهذا لا دلالة فيه على عيسى عليه السلام ، لأن أول صفاته رب الجنود ولم يكن المسيح كذلك ، والصفة الثانية كونه حجرة عثرة ولا تقل انهم قد عثروا بالمسيح أي شكوا فيه لأن مطلق الشك لا يكفي في صدقه عليه لقوله : يعثرون ويسقطون الخ والصفة الثالثة كونه يغطي وجهه عن إسرائيل وابن مريم كان مختصاً بدعوتهم ، كما صرح به في متى ، فلا يصدق عليه ، والصفة الرابعة كونه ناسخاً لما قبله من الشرائع كلها لقوله : اطووا الشهادة واختموا الصحف وعيسى بن مريم يقول كما في متّى : وهؤلاء الاثنا عشر أرسلهم عيسى وأمرهم وهو يقول : لا تنطلقوا الى طريق العوام ولا تدخلوا في أحد أمصار السامريين بل اذهبوا إلى غنم بيت إسرائيل الضالة ، ويقول كما في متى أيضاً ، لكنك إن أردت أن تلج الحياة فحافظ على الأحكام الخ ، وهذه كلها صريحة في خصوصية نبوته ، وعدم نسخ ناموس موسى ، فلا يصدق عليه ، فلا دلالة له عليه .

وإذا فهمت هذا فقد علمت أن غاية هذا الفصل التبشير ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، وتقدير كلام أشعياء لا تكلموا علي ، أي تسبوا وترفضوا من تتكلم عليه ، أي من تسبه وترفضه هذه الأمة أي اليهود ، ولا تخشوا من يخشوه ، أي لا تتولوا من يتولوه ولا تعادوا من يعادوه ، بل قدسوا استثناء منقطع من لا تتكلموا واخشوا رب الجنود وحده ، واخشوه وخافوا منه ، أي لا تحذروا سلاطين اليونانيين والفلسطينيين والرومانيين والمدينيين ولا تقدسوهم ، بل اجعلوا جميع اتكالكم على رب الجنود ، أي الملك العادل ، والنبي الأمي الكامل لأنه أي رب الجنود ، والرب بمعنى المربي والمولى ، يقال : هو رب النعمة أي مفيضها ، ورب البيت أي مولاه ، وإذا أضيف إلى الضمير المتصل لا يكون إلا بمعنى المعبود على الأصح هو المقدس فقط لا غيره ، لأن تعريف

الخير يفيد الحصر . وهو حجرة العثرة ، عطف على هو المقدس وخبر لأن وصخرة الشك خبر ثالث لأن أي رب الجنود هذا هو المنحصرة فيه هذه الصفات ولجميع الناس .

أما التقديس فلأنه لم يرتكب قبل نبوته ما يوجب الثلب ، وأما العثرة والشك فلأنه من أولاد هاجر ، ولم يبعث منهم قبله نبي ، وأما أيوب فمن أعراب مدين وأما خالد بن سنان عند من يقول بنبوته فمن أعراب سامرة ، وهو لأهل بيت إسرائيل فخ هذه صفة أخرى له صلى الله عليه وسلم ، وهي أنه فخ يصيدهم ويأسرهم ، فكما فعل بهم الفلسطينيون هكذا يفعل بهم هو أيضاً ، ولسكنة أورشليم مصيدة المصيدة هي الشبكة التي تصيد كل ما يوكر عليها مرة واحدة بخلاف الفخ فإنه لا يصيد مما يوكر عليه إلا ما ينقر العتلة ولا يكون إلا واحداً فكان مراد أشعياء عليه السلام أنه يتسلط على اليهود ويقهرهم واحداً بعد واحد ، لأنهم مشتتون .

وأما البلد فإنه يتسلط عليها مرة واحدة ، وسيعثرون أي يشكون فيه ويسقطون إذا شكوا وينكسرون إذا سقطوا ، ويقيدون إذا انكسروا إلا أنهم لا يستطيعون الفرار ويؤسرون إذا قيدوا فاطووا الشهادة التي عندكم أيها الأنبياء ، واختموا الصحف أي أسفار التوراة ، ونبوات الأنبياء التي عند تلاميذي أي بني إسرائيل لأنها ستنسخ وتترك إذا ظهر رب الجنود صلى الله عليه وسلم ، ولا يحتاج إليها بعد ، وأنا سأنتظر الرب الذي يغطي وجهه عن إسرائيل ، وأترقبه ، يعني به محمداً صلى الله عليه وسلم ، يقول : إني لا أنتظر من يأتي قبله يعني عيسى الذي أشار إليه في غير هذا المكان لأنه نبي لبني إسرائيل ، لكني أنتظر الذي يغطي وجهه عنهم وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا يقال : إن نبوته صلى الله عليه وسلم ، عامة ، والعامة تلزم منها دعوة الكل ، فكيف يغطي وجهه عنهم ؟

لأن المراد بتغطية الوجه عدم ظهوره منهم واستقامته في ملكهم ، ثم

قال : وها أنا والأولاد يعني الأتقياء من بني إسرائيل ، وإضافة الرب إلى الضمير المتصل إشارة الى المعبود جل اسمه الذين وهبهم لي ربي ، أي أعطاني إياهم ووفقهم لاتباع دعوتي علامة عجيبة في إسرائيل ، أي نكون نحن علامة لهم حتى يعرفوا ما ضلوا عنه ، ويندموا على ما فعلوه ، ولرب الجنود الذي يسكن في صهيون إشارة إلى المهدي لأنه وصف محمداً صلى الله عليه وسلم ، برب الجنود الذي يغطي وجهه عن إسرائيل فإذا كان كذلك لا يمكن أن يسكن في صهيون ، وإلى هذا ذهب أكثر العلماء وصرحوا بأن المهدي يستقر في أورشليم ويعمرها بأموال الهند وفي هذا البرهان إقناع كامل لليهود والنصارى والمسلمين جميعاً .

أو المراد بالسكون في صهيون سكون دينه واستقرار أهل ملته فيه ، وهذا أوضح مما قبله ، وفي سفر التكوين : وأما أنت يا يهوذا فإنك أنت الذي تمدحه إخوته وستكون يدك في عنق أعدائك وستجثو لك أولاد أبيك ألا فإن القضيب لن ينصرف عن يهوذا ، ولا واضعي الناموس من تحت قدميه حتى يأتي شيلو ، وتصير إليه عوام الناس ، وأبطأ إلى الجفن جحشه ، وإلى منتخب الكروم أتانه غاسلاً بالخمر قميصه ، وبدم الكرم لباسه ، وسوف تكون عيناه أحمر من الخمر وأسنانه أبيض من اللبن.ا هـ .

وهذا نص على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأوله النصارى وقالوا : إن شيلو هو المسيح ابن مريم ، وقال اليهود : بل هو في شأن المسيح المزمع بالإتيان ، وسياق دعوى النصارى هو أن هذا الفصل في سفر التكوين يتضمن دعاء يعقوب لبنيه ، وأنه تنبأ لكل واحد منهم بما يناسب شأنه ، وتنبأ ليهوذا بأن السلطنة ستستقر في أولاده حتى يخرج شيلو ، ووصفه بهذه الصفات التي أشار إليها في غير هذا المكان ، والحق أنه يجيز صحة النهوض ، وليس فيه ريبة إلا أن غايته ظهور محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه قيد زوال الملك والنبوة من بني إسرائيل بظهور عيسى ، ومن بعد ظهوره إلى هذا الآن لم

يستقـل منهم ملك ، ولم يـظهـر فيهم نبي ، وانتقلت السلطنـة والنبـوة إلى إسماعيل .

وقال اليهود : إن شيلو الذي هو عبارة عن المسيح المزمع بالإتيان ، وأنه لم يأت بعد لعدم وقوع الشرط لأن شرط ظهوره زوال السلطنة والنبوة منهم وقد زالت النبوة ، لكن السلطنة لم تزل لأن بعض الممالك البعيدة عنا يوجد فيها منهم ملوك لم تبلغ إلينا أخبارهم ، وأجيب بأن الواو في قوله : لا تـزول السلطنة ولا واضعي الناموس للجمعية ، فلا يمكن زوال أحدهما وبقاء الثاني وأن الأرض كلها محددة من مجاري ٦٥ درجة من الجنوب إلى جزيرة مندوسة ومن ٨١ درجة من الشمال من جزيرة سلامة إلى آخر ممالك الفرنج ، وليس فيها بقعة مجهولة ، وكذا الجزائر فالاعتراف بأن فيها مملكة تكون فيها ملوك وأمم مجهولة محمولة على الجهالة وهو ممنوع .

فمن أين حصل لكم العلم بهذا المجهول ؟ فينتقض اعتراضهم ، وإذا تحقق لك ذلك ، فاعلم أنه عليه السلام قيد زوال السلطنة والنبوة لظهور شيلو وصيرورة عوام الناس إليه وقوله حتى يأتي شيلو يدل على أنه لا بد للملك والنبوة بعد ظهوره أن تزولا من اليهود وتنتقلا إلى غيرهم وهم العرب ، وقال اليهود : إن كان صحة ظهور شيلو التجاء عوام الناس إليه فلا يمكن أن يظهر شيلو ، ولا تلجىء عوام الناس إليه ، لكن عيسى ابن مريم قد خرج ولم تلتجىء عوام الناس إليه ، فعيسى ابن مريم ليس بشيلو .

وأجيب عن ذلك بمنع الصغرى ، لأن قوله : وتصير عوام الناس إليه أي إلى أمره وكلامه ، وقد اتبع عوام الناس أمره في تبشيره بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وفيه إشارة إلى أن الذين ينقادون إلى شريعته صلى الله عليه وسلم ، هم عوام الناس ، أي ليسوا بيهود كالعرب والفرس والروم والهنود والسنود وحبشة وبعض أهل الصين ، وأما اليهود فمنهم من يؤمن به ، ويصير إلى كلامه ، ويتبع محمداً صلى الله عليه وسلم ، ومنهم من يمكث راكساً في

بحيرة جهله وهواه ، لأن إثبات الشيء لا ينفي ما عداه ، فخلاصة هذا أن موسى عليه السلام قد نقل عن يعقوب أنه قال : لا تزول السلطنة والنبوة عن أولاد يهودا حتى يخرج شيلو ويبشر بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ويؤمن به عوام الناس ، ويستعبروا كلامه ، وبعد ذلك تستقر المملكة والنبوة المتباينتان في قبيلة أخرى ، وهي العرب ، لما مر في هذا البرهان ، وفي اجتماع كلتا الصفتين في ذاته صلى الله عليه وسلم إشارة إلى تبجيله .

وفي نشيد الإنشاد : هذا صوت محبوبي فإنه أتى يقفز على الجبال ويظفر على الأتلال ، إن محبوبي كالغزال ، أو كخشف الأوعال ، هذا هو واقف خلف جدارنا يطل من الكوة ، ويظهر نفسه من الشباك ، فكلمتني محبوبتي وقالت لي : قم يا محبوبي وجميلي ، وتعال ، فإن الشتاء قد مضى ، والمطر قد انقضى ، وظهر الزهر على الأرض ، وقرب زمان الترنم ، وقد سمع صوت اليمامة في أرضنا ، وأبدت الظمخة تبنها ، والكرمة عنبها الغض ، فقم يا محبوبي وجميلي وتعال . انتهى .

وهذا من عمدة الأمثال التي تخص محمداً صلى الله عليه وسلم ، وتبشر به ، وقد غفل عنه اليهود والنصارى ولم يتوجهوا له ولا لما قبله وبعده من هذا السفر ، والحق أحق أن يعترف به ، فإن جميع آياته تتعلق بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ولكني اكتفيت منه بهذا المثال ونقلت لفظة محبوبي من الأصل الانكتاري على ما كانت عليه ، وهو لفظ لو بفتح اللام وسكون الواو الانكتارية الساكنة وهي تارة تطلق على العشق وتارة على المعشوق ، وكان الكاتودكيون قد ترجموها بابن أخي وأجمعوا على ذلك امتثالاً لأمر البابا سركيس ، وهي في الأصل العبراني دوو كفلس بإمالة الواو ، ومعناها العم أخو الأب كما ورد في أشمويل ، وبنو العم كما ورد في الخروج ، وابن العم ، كما ورد في أرميا ، ولم يفسرها أحد من اليهود بابن الأخ فعلى ترجمة الانكتاريين يكون محبوب سليمان عليه السلام محمداً صلى الله عليه وسلم ، لأنه تنبىء عليه ولأنه خاتم الرسل ، وعلى ترجمة الباب سركيس يكون ابن أخيه لأن محمداً صلى الله

عليه وسلم من أولاد إسماعيل ، وسليمان من أولاد إسحاق وهما ابنا إبراهيم عليهم السلام ، فيكون كل واحد من محمد وسليمان عليهما السلام ابن أخ لصاحبه ، وعلى لغة اليهود فعلى الأول فيكون سليمان قد عبر بنفسه عن بني إسرائيل وعن محمد صلى الله عليه وسلم بنفس إسماعيل فيكون عمه ، وعلى الثاني يكون قد عبر عن نفسه ببني إسرائيل وعن محمد صلى الله عليه وسلم ببني إسماعيل فيكون قد عبر عنه بأولاد عمه ، وعلى الثالث يكون قد عبر عن نفسه ببني إسرائيل ، وعن محمد صلى الله عليه وسلم بابن إسماعيل فيكون ابن عمه ، وتأنيث الضمير لأنه عبر عن نفسه بالقبيلة .

والمعنى أن هذا صوت محبوبي يسمع فاسمعوه ، فإنه أتى يقفز على الجبال لأنه تولد في الحجاز ، وهي أرض وعرة كثيرة الجبال ، ويظفر على الأتلال لأنه ربي في البر مع بني تميم ، إن محبوبي كالغزال ، جملة استئنافية تتضمن بعض صفاته صلى الله عليه وسلم ، وذلك إشارة إلى أنه كان طويل العنق أسمر العينين ، أو كخشف الأوعال عطف على كالغزال وتأكيد لها ، هذا هو واقف خلف جدارنا ، هذا للتحضيض في الاصطفاء لكلامه ، وخلف جدارنا إشارة إلى قرب زمانه أو إلى ضرورة إتيانه ، يطل من الكوة ويظهر نفسه من الشباك ، إشارة إلى علو مكانه وسمو مقامه ، وإلى أنه يأتي إلى بلدهم لكن لا يتوقف فيها ، بل يكون فيها كالذي ينظر من الشباك ، وفيه إشارة إلى المعراج الجسماني لأن قوله : يطل وينظر فيهما إشارة إلى غاية انتهاء النظر ، وهو يدل على التحدُّد الجسماني وعلى ارتفاع مكان الناظر ، وفيه رد على من ينكر معراجه بالجسم .

فتكلمت محبوبتي وقالت ، اطراد من المتكلم إلى المخاطب ، والتأنيث باعتبار القبيلة أو البلد ، قم يا محبوبي وجميلي وتعال ، إظهار للرغبة في ظهوره صلى الله عليه وسلم ، فإن الشتاء قد مضى ، يريد بالشتاء مدة ما بينهما من الزمان ، أو زمان الفترة بينه وبين عيسى عليه السلام ، والمطر قد انقضى ،

يريد به الحاجب عن الظهور إما ما هو من جهة غلبة الجهل والفساد ، أو ما هو من جهة تغير أحوال الخلق وانتقالهم من العيافة إلى السذاجة ، وذلك لأن المطر يمنع الرجل من الخروج من كنه ، وظهر الزهر على الربى ، ترغيب له في الإتيان ، وبيان نهي القوم لقبول دعوته ، وقرب زمان الترنم ، تأكيد لقوله : ظهر الزهر إلخ ، وفيه إشارة إلى بيان رغبة الناس في تلاوة المصحف ، وذلك مما لم يتفق لأحد من الأنبياء ، فإني لم أر أمة من الأمم يتعاطون حفظ ناموسهم على الخاطر كما يفعل المسلمون من حفظ القرآن ، وقد سمع صوت اليمامة في أرضنا الخ ، هذا كله ماض بمعنى المستقبل الضروري الوقوع ، فقم يا محبوبي وجميلي وتعال .

هذا كله ظاهر الدلالة على الطلب ، فإن قلت : يمكن أن لا يكون مطلب سليمان من هذا التنبيء محمداً صلى الله عليه وسلم ، قلت : فحينئذ إما أن يكون كلامه يخص نبياً آخر أو معشوقا مجازياً أو يكون مهملاً ، ولا سبيل إلى كل واحد منها أما إلى الشق الأخير فلأنه كلام الله أو كلام النبي ، والإهمال ممتنع عليهما أما على الأول فظاهر ، وأما على الثاني فلأن النبي رجل يختصه الله بتبليغ كلامه من بين أهل عصره ، فيجب أن يكون عاقلاً ، والعاقل لا يتكلم بالمهمل ، وإلا فإذا حصل الشك في صحة بعض أنبائه يفسد اليقين بها في الكل ، ولأن أكثر القوم ذهبوا إلى عصمة الأنبياء مما هو يخل بالعصمة ، وأما أنه لا سبيل إلى كونه معشوقاً مجازيا ، فلأنه لا يجوز للنبي أن يدخل سائر كلامه في الوحي ، وإن فعله فقد عصى ، ولأنه إما أن يكون ذكراً أو أنثى وعلى كلا الوجهين يلزم منه تفسيق النبي وهو باطل .

وأما أنه لا سبيل إلى كونه نبياً آخر فلوجوه :

الأول أن النصوص المشتبهة قد أخذها القوم من اليهود والنصارى ، ولم يبق إلا ما شبهة فيه .

والثاني أنه لم يتنبأ إلا على اثنين فقط ، وهما يحيى بن زكريا وعيسى ابن

مريم ، والمثال لا يصدق على كل واحد منهما ، لأن صفاته لا توجد فيهما ، فلا يكون إلا محمداً صلى الله عليه وسلم ، جعلني الله وإياك ممن يقتص آثاره ، ويتمسك بأخباره .

وفي سفر الرؤيا ما ترجمته : من كانت له أذن سامعة فليستمع ما تقول الروح للكنائس ، إني سأطعم المظفر من شجرة الحياة التي هي في جنة الله ، وفيه : من كانت له أذن سامعة فليستمع ما تقول الروح للكنائس ، فإن المظفر لا تظهره الموتة الثانية ا هـ .

وفيه أيضاً : من كانت له أذن سامعة فليستمع ما تقول الروح للكنائس إني سأطعم المظفر من المن المكنون ، وأعطيه حجرة بيضاء مكتوباً عليها اسم مرتجل لا يفهمه إلا من يناله ، وفيه أيضاً : وسأعطي المظفر الذي يحفظ جميع أفعالي سلطاناً على الأمم فيرعاهم بقضيب من حديد ،ويسحقهم كآنية الفخار كما أخذت أنا من أبي وأعطيه أيضاً نجمة الصبح ، فمن كانت له أذن سامعة فليستمع ما تقول الروح للكنائس . وفيه : المظفر يلبس ثياباً بيضاء ، ولا أمحو اسمه من سفر الحياة ، وأُعترف باسمه أمام أبي وأمام ملائكته ، فمن كانت له أذن سامعة فليستمع ما تقول الروح للكنائس . وفيه : المظفر أجعله عموداً في هيكل الإلهي ، ولا يخرج خارجاً ، وأكتب عليه اسم إلهي واسم مدينة إلهي أورشليم الجديدة التي نزلت من السماء من عند إلهي ، وأكتب عليه اسمي الجديد فمن كانت له أذن سامعة فليستمع ما تقول الروح للكنائس . وفيه : المظفر أهب له الجلوس معي على كرسي كما ظفرت أنا أيضاً ، وجلست مع أبي على كرسيه ، فمن كانت له أذن سامعة فليستمع ما تقول الروح للكنائس.أ هـ .

وهذه سبعة بشارات متواترة مترادفة في الاصحاح الأولى والثانية من رؤيا يوحنا بن زبدي تدل دلالة صريحة على بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وعلى

نبوته العامة وقبلته الجديدة وعلو درجته ، تغافل النصارى عنها وأولوها تأويلات سخيفة ، وتسويلات واهية ، لا تستقيم على شيء منها حجة ولا يثبت برهان ، وكان الأحرى بها أن يكتب كل واحد منها على حدة . لكني أعرضت عن ذلك وكتبتها في موضع واحد ، روماً للاختصار ، وأحلت تفصيلها على الكتب الكبار .

وقوله : فمن كانت له أذن سامعة الخ مثل قوله سبحانه وتعالى في سورة المرسلات : ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ حيث تكررت مرات ، وكان يوحنا في جزيرة أطموس في يوم الأحد فأتاه الوحي وحل عليه روح القدس ، وسمع صوتاً عظيماً يقول له : إني أنا الألف والياء الأول والآخر ، فاكتب ما تراه وأرسله إلى الكنائس السبع المشهورة . أعني كنيسة أفسيس وكنيسة سيمرنا وبيرغاموس وشاتيرا وسارديس دفيلا ولفية ولاذقية ، وفي آخر كل كتاب كتب إلى الكنائس السبع قوله : فمن كانت له أذن سامعة الخ ، وهذا ملخص الفصول المشتملة على الحجج ، وإن أردت الاطلاع على العبارة جميعها فارجع الى سفر الرؤيا وهذه الرؤيا هي ما يعتقده النصارى رؤيا رآها يوحنا تشتمل على الأخبار التي حدثت في العالم من ارتفاع المسيح إلى بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، بل من وفاته إلى ظهور المهدي ، ومن وفاة المهدي إلى قيام الساعة ، ولا شك أنها تدل على ذلك وأنها كلام الله لكني لست بمطمئن من تحريفها ، ومع ذلك لا شك أن أماكن الاستدلال فيها قائمة على دعائمها الأصلية .

فمن جملة ذلك هذه الآيات الشريفة ولفظ المظفر في الأصل اليوناني يدل على الغالب والغازي والقاهر في الحرب ، والموتة الثانية عبارة عند النصارى عن موت الإنسان في الذنب ، أي انهماكه فيه لا غير ، وأما البعث فانهم يعترفون بقيام جميع الناس عند ظهور المسيح ، وبخلود أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار ، ولم يتعرضوا للبحث في هذا المقام ، وعند اليهود

عبارة عن الموتة التي لا تكون بعدها موتة ، وأورشليم الجديدة عبارة عن مكة المعظمة على بادىء الرأي ، لقوله : النازلة من السماء لأن أهل الإسلام قد ذهبوا إلى أن قوله أم القرى ومن حولها يفيد العموم ، وقالوا : إن الحجر الأسود كان قد نزل من السماء أشد بياضاً من اللبن فسودته خطايا بني آدم ، وقد رواه الترمذي وصححه ، فيكون قوله : أورشليم الجديدة النازلة من السماء كناية عن مكة ، وهذا من قبيل إقامة الظرف مقام المظروف ، وهي في جزيرة العرب قريبة من ساحل البحر الأحمر في مجاري طول ٤٠ درجة من الطول الجديد وعرض ٢٠ درجة من الشمال .

وفي سفر الرؤيا : ورأيت سماء جديدة وأرضاً جديدة لأن السماء الأولى والأرض الأولى قد جازتا ، والبحر لن يوجد بعد ، وأنا يوحنا رأيت المدينة المقدسة أورشليم الجديدة ، نازلة من السماء ، مهيأة كعروس مزينة لزوجها انتهى .

وهذا من أجل البشارات الدالة على نبوته صلى الله عليه وسلم ، لأن جدة الأرض والسماء تدل على تحول الأحوال ، وتبدل الأمثال ، وإلا فلا معنى لزوالهما قبل يوم القيامة ، ولا معنى لوجود غيرهما وأما البحر فانه قد كنى به عن الضلال الذي كان يعرض في ذلك الزمان من بعض كهنة اليهود ، فإنهم لم يزالوا يدعون النبوة بالكذب وهم أول من خاض في ذلك البحر . وقوله : كالعروس الخ بيان لحسن انتظام مكة شرفها الله وزوجها هو رب الجنود صلى الله عليه وسلم .

وفي أشعيا : وستخرج من قنس الأسى عصى ، وينبت من عروقه غصن وستستقر عليه روح الرب أعني روح الحكمة والمعرفة والروح الشورى والعدل وروح العلم وخشية الله وتجعله ذا فكرة وقادة مستقياً في خشية الرب فلا يقضي بمحاباة الوجوه ولا يدين بمجرد السمع·انتهى.وهذه صفات رب

الجنود صلى الله عليه وسلم ، بأبي هو وأمي .

وفي سفر الرؤيا : فأخذتني الروح الى جبل عظيم شامخ وأرتني المدينة العظيمة أورشليم المقدسة نازلة من السماء من عند الله وفيها مجد الله وضوؤها كالحجر الكريم كحجر اليشم والبلور وكان لها سور عظيم عال واثنا عشر باباً وعلى الأبواب اثنا عشر ملكاً وكان قد كتب عليها أسماء أسباط إسرائيل الاثني عشر انتهى .

ولا تأويل لهذا النص بحيث أن يدل على غير مكة شرفها الله تعالى ، والمراد بمجد الله بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، وفيه أيضاً : ولسور المدينة اثنا عشر أساساً وعليها أسماء رسل الحمل الاثني عشر انتهى . وهذا تأكيد صريح لما قبله والاثنا عشر الأساس لعلهم الخلفاء الاثنا عشر من قريش ، وفيه إشارة إلى انقياد جميع المذاهب العيسوية لشريعة خير البرية صلى الله عليهم وسلم ، ولو بعد حين ، وبعد ظهور المهدي ، ونزول عيسى عليه السلام ، وهذه الرؤية طويلة جداً وفيها دلائل على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأحوال أمته المرحومة ، ولكل جملة منها تأويل حسن ، ومحمل صريح ، ومعنى صحيح ، بحيث لا تدل إلا على هذه الأمة ونبيها صلى الله عليه وسلم .

وقد أنزل بعضهم هذه الرؤيا على ما يوافق مذاهب الإمامية ولا عبرة به ، لأن التبشير إنما وقع في الكتب القديمة ببعثة محمد النذير البشير صلى الله عليه وسلم ، لا بغيره من عترته صلى الله عليه وسلم الكائنة إلى يوم القيامة إلا ما ورد في القرآن الكريم من كون مثل أصحابه عموماً في التوراة والإنجيل ، لا على الخصوص ، فلا دلالة لها على شيء من ذلك في تلك النصوص ، وقد بلغ بعض الناس هذه البشارات إلى ثلاث وعشرين بشارة ، وفي بعضها نظر واضح ، وبعضهم الى ثمان عشرة بشارة منها ما تقدم في هذا المقام ، وفي

غيره من هذا التفسير ، وجلها صحيحة ، ويظهر من الرجوع إلى أصول الكتب نقادة ألفاظ تراجمها نقادة عظيمة لا ينبغي مثلها في الكتب الآلهية المقدسة ، ولذلك لا ترى نسخة من نسخ التوراة والإنجيل المطبوعة لهذا العهد أو لما قبله من الزمان الكثير إلا وهي مختلفة العبارة عربية كانت أو افرنجية أو فارسية أو هندية أو تركية وهذا التفاوت والاختلاف يقضي بالتحريف والتصحيف ، ويقضي منه العجب ، ولا عجب على الحقيقة فإن الله سبحانه ، وتعالى قد أخبرنا بذلك من قبل أن نقف عليه وننظر فيه بعين الإمعان .

وقد مَنَّ الله سبحانه وتعالى في هذا الزمان على عباده المؤمنين حيث انتهض عصابة منهم للرد على النصارى باللسان والبيان ،والعمل بالأركان ،وأفحموهم إفحاماً يبقى عاراً عليهم إلى آخر الدهر إن شاء الله تعالى ، ومن البشارات أيضاً ما في ترجمة القرآن المجيد للقسيس سيل نقله من إنجيل برنابا ولفظه : اعلم يا برنابا أن الذنب وإن كان صغيراً يجزي الله عليه ، لأن الله غير راض عن الذنب ، ولما حبتني أمي وتلاميذي لأجل الدنيا أسخط الله لأجل هذا الأمر ، وأراد باقتضاء عدله أن يجزيهم في هذا العالم على هذه العقيدة غير اللائقة ، ليحصل لهم النجاة من عذاب جهنم ، ولا يكون لهم أذية هناك . وإني وإن كنت بريئاً لكن بعض الناس لما قالوا في حقي : إنه الله وابن الله هذا القول ، واقتضت مشيئته بأن لا تضحك الشياطين يوم القيامة علي ، ولا يستهزئون بي ، فاستحسن بمقتضى لطفه ورحمته أن يكون الضحك والاستهزاء في الدنيا بسبب موت يهوذا ، ويظن كل شخص أني صلبت لكن هذه الإهانة والاستهزاء تبقيان إلى أن يجيء محمد رسول الله ، فإذا جاء في الدنيا ينبه كل مؤمن على هذا الغلط ، وترتفع هذه الشبهة من قلوب الناس انتهى .

وهذه بشارة صريحة عظيمة ، وإن قال النصارى : إن هذا الإنجيل رده مجالس علمائنا المتقدمين ، وفي ترجمة كتاب أشعياء باللسان الأرمني :

سبحـوا الله تسبيحاً جـديداً وأثـر سلطنته على ظهـره واسمه أحمـد ، وفي سفر الاستثنـاء قال : جـاء الرب من سينـاء ، وأشرق لنـا من ساعيـر ، واستعلن من جبل فاران ومعه ألوف الأطهار في يمينه سنة من نار ا هـ .

وفاران جبل بمكة وبحيئه من سيناء إعطاؤه التوراة لموسى ، وإشراقه من ساعير إعطاؤه الإنجيل لعيسى ، واستعلانه من جبـل فاران إنـزاله القـرآن على محمـد صلى الله عليه وسلم ، ويؤيـده ما في سفـر التكوين في حـال إسماعيل عليه السلام : وسكن برية فاران وأخذت لـه أمه امـرأة من أرض مصر انتهى . ولا شك أن إسماعيل كان ساكنا بمكة المكرمة ، زاد الله شرفها ، الى غير ذلك من الأدلة الصريحة التي ينكرها النصارى ، ويؤولونها على غير محاملهـا ، وكل من أسلم من علماء أهل الكتاب اليهود والنصارى في القرون الأولى ، بـل إلى الآن شهد بوجود البشارات المحمدية على صاحبها أفضـل الصلاة والتحيـة في كتب العهدين العتيق والجديد .

وهكذا اعترف بصحة نبوته صلى الله عليه وسلم وعموم رسالته من حمله الشقاء على عدم الإسلام ، وقبول الإيمان ، كهرقل عظيم الروم ، ومقوقس صاحب مصر ، وابن صوريا ، وحُيَيّ بن أخطب ، وأبو ياسر بن أخطب ، وأضرابهم ، والله سبحانه وتعالى يتم نوره ولو كـره الكافرون وفي هذا المقدار كفاية لمن له هداية .

﴿ فلما جاءهم ﴾ عيسى ﴿ بالبينات ﴾ أي بالمعجزات والآيات ﴿ قالوا : هذا ﴾ الذي جاءنا به ﴿ سحر مبين ﴾ أي واضح ظاهر ، وقيل : المراد محمد صلى الله عليه وسلم لما جاءهم بذلك ، قالوا هذه المقالة والأول أولى ، بل هو المتبادر من السياق ، وهما قولان حكاهما المفسرون قرأ الجمهـور : سحر ، وقرىء ساحر ، وهما سبعيتان .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب ﴾ أي لا أحد أكثر ظلماً منه حيث يفتري على الله الكذب بنسبة الشريك والولد إليه ووصف آياته بالسحر ﴿ وهو يدعى إلى الإسلام ﴾ أي والحال أنه يدعى أي يدعوه ربه على لسان نبيه إلى دين الإسلام الذي هو خير الأديان وأشرفها ، وفيه سعادة الدارين ، لأن من كان كذلك فحقه أن لا يفتري على غيره الكذب ، فكيف يفتريه على ربه ؟ قرأ الجمهور يدعى من الدعاء مبنياً للمفعول ، وقرىء يدعى من الادعاء مبنياً للفاعل ، وإنما عدي بإلى لأنه ضمن معنى الانتهاء والإنتساب ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ جملة مقررة لمضمون ما قبلها ، والمعنى لا يهدي من اتصف بالظلم ، والمذكورون من جملتهم .

﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ﴾ الإطفاء الإخماد ، وأصله في النار . واستعير لما يجري مجراها من الظهور ، والمراد بالنور القرآن أي يريدون إبطاله وتكذيبه بالقول ، قاله ابن زيد ، أو المراد الإسلام قاله السدي أو محمد صلى الله عليه وسلم ، يريدون هلاكه بالأراجيف قاله الضحاك ، أو الحجج والدلائل قاله ابن بحر ، فنور الله استعارة تصريحية والإطفاء ترشيح ،

وقوله : ﴿ بأفواههم ﴾ فيه تورية وكذا قوله : ﴿ نوره ﴾ ، ولكن قوله : ﴿ متم ﴾ تجريد لا ترشيح ، أو المراد بالنور جميع ما ذكره ، ومعنى بأفواههم بأقوالهم الخارجة من أفواههم التي لا منشأ لها غير الأفواه ، دون الاعتقاد في القلوب ، المتضمنة للطعن ، مثلت حالهم بحال من ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئه ، تهكماً بهم وسخرية .

قال ابن عطية : اللام في ﴿ ليطفئوا ﴾ لام مؤكدة مزيدة دخلت على المفعول ، لأن التقدير يريدون أن يطفئوا ، وأكثر ما تلزم هذه اللام المفعول إذا تقدم كقولك : لزيد ضربت ولرؤيتك قصدت ، وقيل : هي لام العلة ، والمفعول محذوف ، أي يريدون إبطال القرآن ، أو دفع الإسلام ، أو هلاك الرسول ليطفئوا ، وقيل إنها بمعنى أن الناصبة ، وأنها ناصبة بنفسها ، قال الفراء : العرب تجعل لام كي في موضع أن في أراد وأمر ، وإليه ذهب الكسائي ، ومثل هذا قوله : يريد الله ليبين لكم .

﴿ والله متم نوره ﴾ بإظهاره في الآفاق وسائر في البلاد من المشارق إلى المغارب ، وإعلائه على غيره ، ومتم الحق ، ومبلغه غايته ، قرىء متم نوره بالإضافة سبعية وبتنوين ﴿ ولو كره الكافرون ﴾ ذلك فإنه كائن لا محالة .

﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ﴾ أي البيان الشافي بالقرآن أو المعجزات ﴿ ودين الحق ﴾ أي الملة الحقة ، وهي ملة الإسلام ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ أي ليجعله ظاهراً على جميع الأديان المخالفة لها ، عالياً عليها ، غالباً لها ، قال الخطيب : فإن قيل : قال أولاً : ﴿ ولو كره الكافرون ﴾ ، وقال ثانيا : ﴿ ولو كره المشركون ﴾ ، فما الحكمة في ذلك ؟ أيقول بأنه تعالى أرسل رسوله ، وهو من نعم الله تعالى ، والكافرون كلهم في كفران النعم سواء ، فلهذا قال : ﴿ ولو كره الكافرون ﴾ ، لأن لفظ الكافر أعم من لفظ المشرك ، فالمراد من الكافرين هنا اليهود والنصارى والمشركون ، فلفظ الكافر

أليق به ، وأما قوله ﴿ ولو كره المشركون ﴾ ، فذلك عند إنكارهم التوحيد ، وإصرارهم عليه ، لأنه صلى الله عليه وسلم في ابتداء الدعوة أمر بالتوحيد بلا إله إلا الله فلم يقولوا فلهذا قال :

﴿ ولو كره المشركون ﴾ ذلك فإنه كائن لا محالة ، ولعمري لقد فعل فما بقي دين من الأديان إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام ، وقال مجاهد : ذلك إذا نزل عيسى ، لم يكن في الأرض دين إلا دين الإسلام ، والدين مصدر يعبر به عن الأديان المتعددة ، وجواب لو في الموضعين محذوف ، أي أتمه وأظهره ، والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها .

﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم ؟ ﴾ الاستفهام إيجاب وإخبار في المعنى وذكر بلفظه تشريفاً لكونه أوقع في النفس ، وقيل : المعنى سأدلكم ، وهذا خطاب لجميع المؤمنين ، وقيل لأهل الكتاب ﴿ على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ﴾ جعل العمل المذكور بمنزلة التجارة لأنهم يربحون فيه كما يربحون فيها ، وذلك بدخولهم الجنة ونجاتهم من النار ، قرأ الجمهور تنجيكم من الإنجاء ، وقرىء من التنجية ، وهما سبعيتان .

« عن أبي هريرة قال : قالوا لو كنا نعلم أي الأعمال أحب إلى الله ؟ فنزلت هذه الآية فكرهوا فنزلت : ﴿ لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ إلى قوله ﴿ بنيان مرصوص ﴾ أخرجه ابن مردويه ، قال مقاتل : نزلت في عثمان بن مظعون قال : وددت يا نبي الله أعلم أي التجارات أحب إلى الله فأتجر فيها ؟ ثم بين سبحانه هذه التجارة التي دل عليها فقال :

﴿ تؤمنون بالله ورسوله ﴾ أي تدومون على الايمان لأن الخطاب مع المؤمنين ، وتؤمنون خبر بمعنى الأمر للإيذان بوجوب الامتثال ، فكأنه قد وقع ، فأخبر بوقوعه ، وقرأ ابن مسعود آمنوا وجاهدوا على الأمر ، وقرىء تؤمنوا وتجاهدوا على إضمار لام الأمر ، قال الأخفش تؤمنون عطف بيان لتجارة ، والأولى أن تكون الجملة مستأنفة مبينة لما قبلها .

﴿ وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ﴾ قدم ذكر الأموال على الأنفس لأنها هي التي يبدأ بها في الإنفاق والتجهز إلى الجهاد ، أو لعزتها في ذلك الوقت ، أو لأنها قوام النفس ، وهذا بمنزلة الثمن الذي يدفعه المشتري ﴿ ذلكم ﴾ أي ما ذكر من الإيمان والجهاد ﴿ خير لكم ﴾ أي هذا الفعل خير لكم من أموالكم وأنفسكم ، أو من كل شيء ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ أي إن كنتم ممن يعلم ، فإنكم تعلمون أنه خير لكم إلا إذا كنتم من أهل الجهل فإنكم لا تعلمون ذلك .

﴿ يغفر لكم ذنوبكم ﴾ هذا بمنزلة المبيع الذي يأخذه المشتري من البائع في مقابلة الثمن المدفوع له ، وهذا جواب الأمر المدلول بلفظ الخبر ، ولهذا جزم . وقال الزجاج والمبرد : ﴿ تؤمنون ﴾ في معنى آمنوا ، ولذلك جاء ﴿ يغفر لكم ﴾ مجزوماً ، وقال الفراء ؛ هذا جواب الاستفهام فجعله مجزوماً لكونه جوابه ، وقد غلطه بعض أهل العلم ، قال الزجاج : ليسوا إذا دلهم على ما ينفعهم يغفر لهم ، إنما يغفر لهم ، إذا آمنوا وجاهدوا ، وقال الرازي في توجيه قول الفراء : إن ﴿ هل أدلكم ﴾ في معنى الأمر عنده ، يقال : هل أنت ساكت؟أي: أسكت؟وبيانه أن هل بمعنى الإستفهام ، ثم يتدرج إلى أن يصير عرضاً وحثاً ، والحث كالإغراء ، والإغراء أمر ، وقيل : ﴿ يغفر لكم ﴾ مجزوم بشرط مقدر أي إن تؤمنوا يغفر لكم ، وقرىء بالإدغام في يغفر لكم ، والأولى تركه لأن الراء حرف متكرر فلا يحسن إدغامه في اللام .

﴿ ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ قد تقدم بيان كيفية جري الأنهار من تحت الجنات مراراً ، والمعنى :

من تحت أشجارها وغرفها ﴿ ومساكن طيبة ﴾ أي قصوراً من لؤلؤة في ذلك القصر سبعون داراً من ياقوته حمراء ، في كل دار سبعون بيتاً من زبرجدة خضراء ، في كل بيت سبعون سريراً في كل سرير سبعون فراشاً ، من

كل لون ، على كل فراش سبعون إمرأة من الحور العين ، في كل بيت سبعون مائدة ، على كل مائدة سبعون لوناً من الطعام ، في كل بيت سبعون وصيفاً أو وصيفة ، فيعطي الله المؤمن من القوة في غداة واحدة يأتي على ذلك كله » رواه الحسن عن عمران بن حصين وأبي هريرة مرفوعاً ذكره الخطيب ولينظر في سنده وصحته .

﴿ في جنات عدن ﴾ أي في جنات إقامة وخلود ﴿ ذلك ﴾ المذكور من المغفرة وإدخال الجنات الموصوفة بما ذكر هو ﴿ الفوز العظيم ﴾ الذي لا فوز بعده والظفر الذي لا ظفر يماثله .

﴿ و ﴾ يؤتكم نعمة ﴿ أخرى تحبونها ﴾ وقال الأخفش والفراء : معطوفة على تجارة فهي في محل خفض ، أي وهل أدلكم على خصلة أخرى تحبونها في العاجل مع ثواب الآخرة ؟ وقيل : هي في محل رفع أي ولكم خصلة أخرى وقيل : في محل نصب أي ويعطيكم خصلة أخرى وفي ﴿ تحبونها ﴾ شيء من التعريض بأنهم يؤثرون العاجل على الآجل ، ففيه شيء من التوبيخ على محبة العاجل ، ثم بين سبحانه هذه الأخرى فقال :

﴿ نصر ﴾ أي هي نصر ﴿ من الله ﴾ لكم ﴿ وفتح قريب ﴾ يفتحه عليكم وقيل : نصر بدل من أخرى ، على تقدير كونها في محل رفع ، وقيل : التقدير ولكم نصر وفتح قريب ، قال الكلبي : يعني النصر على قريش وفتح مكة ، وقال عطاء : يريد فتح فارس والروم ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ معطوف على محذوف ، أي قل يا أيها الذين آمنوا وبشر ، أو على تؤمنون لأنه في معنى الأمر ، والمعنى آمنوا وجاهدوا أيها المؤمنون ، وبشرهم يا محمد بالنصر والفتح وهذا ما جرى عليه في الكشاف ، أو وبشرهم بالنصر في الدنيا والفتح وبالجنة في الآخرة ، أو وبشرهم بالجنة في الآخرة ، ووضع الإظهار موضع الإضمار للإشعار بأن صفة الإيمان هي التي تقتضي هذه البشارة ، ثم حض سبحانه المؤمنين على نصرة دينه فقال :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾

﴿ يا أيها آمنوا كونوا أنصار الله ﴾ أي دوموا على ما أنتم عليه من نصرة الدين ، قرىء أنصاراً لله بالتنوين ، وبالإضافة ، والرسم يحتمل القراءتين معاً ، واختار أبو عبيدة الإضافة لقوله : ﴿ نحن أنصار الله ﴾ بالإضافة وهي سبعية ، واللام يحتمل أن تكون مزيد في المفعول لزيادة التقوية ، أو غير مزيدة والأول أظهر قال قتادة قد كان ذلك بحمد الله جاءه سبعون رجلاً فبايعوه عند العقبة وآووه ونصروه حتى أظهر الله دينه .

﴿ كما قال عيسى ابن مريم للحواريين : من أنصاري إلى الله ؟ ﴾ أي انصروا دين الله مثل نصرة الحواريين ، لما قال لهم عيسى : من أنصاري إلى الله ؟ فقالوا نحن أنصار الله والكاف في كما نعت مصدر محذوف ، أي كونوا كوناً كما قال ، قاله مكي ، وفيه نظر ، إذ لا يؤمرون بأن يكونوا كوناً ، وقيل : الكاف في محل نصب على إضمار القول أي قلنا لهم ذلك كما قال عيسى ، وقيل : هو كلام محمول على معناه دون لفظة وإليه نحا الزمخشري والمعنى كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار عيسى حين قال لهم من أنصاري إلى الله وإلى بمعنى مع أي مع الله وقيل : التقدير من أنصاري فيما يقرب إلى الله ؟ قيل التقدير من أنصاري متوجهاً إلى نصرة الله وقد تقدم الكلام على هذا في سورة آل عمران .

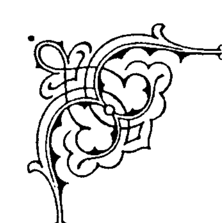
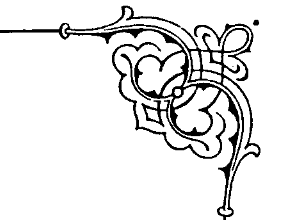
﴿ قال الحواريون ﴾ هم أنصار المسيح وخلص أصحابه وأول من آمن به وكانوا اثني عشر رجلاً ، وحواري الرجل صفيه وخالصه من الحور وهو البياض الخالص وقيل : كانوا قصارين يحورون الثياب أي يبيضونها وفي المختار التحوير تبييض الثياب .

﴿ نحن أنصار الله ﴾ من إضافة الوصف إلى مفعوله أي نحن الذين ننصر الله أي ننصر دينه .

« عن عبدالله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للنفر الذين لقوه بالعقبة : أخرجوا إليّ اثني عشر منكم يكونون كفلاء على قومهم كما كفلت الحواريون بعيسى بن مريم » أخرجه ابن سعد وابن إسحاق و« عن محمود بن لبيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للنقباء : إنكم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم وأنا كفيل قومي قالوا : نعم » أخرجه ابن سعد .

﴿ فآمنت طائفة من بني إسرائيل ﴾ بعيسى عليه السلام ﴿ وكفرت طائفة ﴾ به وذلك لأنهم لما أختلفوا بعد رفعه تفرقوا وتقاتلوا فرقة قالت : كان الله فارتفع وفرقة قالت : كان ابن الله فرفعه إليه وفرقة قالت : كان عبدالله ورسوله فرفعه إليه وهم المؤمنون واتبع كل فرقة طائفة من الناس فاقتتلوا ، وظهرت الفرقتان الكافرتان حتى بعث الله محمّداً صلى الله عليه وسلم فظهرت الفرقة المؤمنة على الكافرة فذلك قوله تعالى : ﴿ فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم ﴾ أي قوينا المحقين منهم على المبطلين وقال ابن عباس : أي أيدنا الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وأمته على عدوهم وقيل : المعنى فأيدنا الآن المسلمين على الفرقتين جميعاً .

﴿ فأصبحوا ظاهرين ﴾ أي صاروا بعدما كانوا فيه من الذل غالبين قاهرين في أقوالهم وأفعالهم لا يخافون أحداً ولا يستخفون منه .

سورة الجمعة

﴿ إحدى عشرة آية بلا خلاف ، وهي مدنية ﴾

قال القرطبي : في قول الجميع . قال ابن عباس : نزلت بالمدينة . وعن ابن الزبير مثله . وأخرج مسلم وأهل السنن .

« عن أبي هريرة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في الجمعة سورة الجمعة . و ﴿اذا جاءك المنافقون ﴾ » . وأخرجوا عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن حبان والبيهقي في سننه .

« عن جابر بن سمرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في صلاة المغرب ليلة الجمعة : ﴿قل يا أيها الكافرون ﴾ . و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ . وكان يقرأ في صلاة العشاء الآخرة ليلة الجمعة سورة الجمعة والمنافقون » .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾

﴿ يسبح لله ما في السموات وما في الأرض ﴾ أي ينزهه فاللام زائدة ، وفي ذكر ﴿ ما ﴾ تغليب للأكثر وهو ما لا يعقل، وقال النسفي رحمه الله : التسبيح إما أن يكون تسبيح خلقه ، يعني إذا نظرت إلى كل شيء دلتك خلقته على وحدانية الله وتنزيهه عن الأشياء ، أو تسبيح معرفة بأن يجعل الله بلطفه في كل شيء ما يعرف به الله تعالى وينزهه ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ ؟ أو تسبيح ضرورة بأن يجري الله التسبيح على كل جوهر من غير معرفة له بذلك .

﴿ الملك القدوس العزيز الحكيم ﴾ قرأ الجمهور بالجر في هذه الصفات الأربع على أنها نعت لله ، وقيل : على البدل ، والأول أولى ، وقرىء بالرفع على إضمار مبتدأ ، وقرأوا القدوس بضم القاف وقرىء بفتحها ، وقد تقدم تفسيره عن ميسرة أن هذه الآية يعني أول سورة الجمعة مكتوبة في التوراة بسبعمائة آية .

﴿ هو الذي بعث ﴾ أرسل ﴿ في الأميين ﴾ أي إليهم والمراد بهم العرب من كان يحسن الكتابة منهم ، ومن لا يحسنها لأنهم لم يكونوا أهل كتاب ، والأمي في الأصل الذي لا يكتب ولا يقرأ المكتوب ، وكان غالب العرب

كذلك ، وقال النسفي : الأمي منسوب إلى أمة العرب لأنهم كانوا لا يكتبون ولا يقرأون من بين الأمم ، وقيل : بدأت الكتابة بالطائف وهم أخذوها من أهل الحيرة ، وأهل الحيرة من أهل الأنبار انتهى .

و «عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب» أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما .

﴿ رسولاً منهم ﴾ أي من أنفسهم ومن جنسهم ومن جملتهم ، كما قوله : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ وما كان حي من أحياء العرب إلا ولرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيهم قرابة ، وقد والوه ، ووجه الامتنان بكونه منهم أن ذلك اقرب إلى الموافقة لأن الجنس أميل إلى جنسه وأقرب إليه ، وقيل : أمياً مثلهم وإنما كان أمياً لأن نعته في كتب الأنبياء النبي الأمي وكونه بهذه الصفة أبعد من توهم الاستعانة بالكتابة على ما أتى به من الوحي ، والحكمة ، ولكون حاله مشاكلة لحال أمته الذين بحث فيهم ، وذلك أقرب إلى صدقه ، والاقتصار هنا في المبعوث إليهم على الأميين لا ينافي أنه مرسل إلى غيرهم لأن ذلك مستفاد من دليل آخر كقوله : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس ﴾ .

﴿ يتلو عليهم آياته ﴾ يعني القرآن مع كونه أمياً لا يقرأ ولا يكتب . ولا تعلم ذلك من أحد والجملة حال أو نعت لـ﴿رسولاً﴾ وكذا قوله: ﴿ ويزكيهم ﴾ أي يطهرهم من دنس الكفر والذنوب قاله ابن جريج ومقاتل ، وقيل : من الشرك وخبائث الجاهلية ، وقال السدي : يأخذ زكاة أموالهم ، وقيل : يجعلهم أزكياء القلوب بالإيمان ، وقال الكرخي : يحملهم على ما يصيرون به أزكياء من حيث العقائد .

﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ الجملة صفة ثالثة لـ﴿رسولاً﴾ ، والمراد

بالكتاب القرآن وبالحكمة السنة كذا قال الحسن وقيل : الكتاب الخط بالقلم والحكمة الفقه في الدين ، كذا قال مالك بن أنس ، وقيل : المراد بالكتاب الفرائض ﴿ وإن كانوا من قبل ﴾ أي من قبل بعثته فيهم ، ومجيئه إليهم ﴿ لفي ضلال مبين ﴾ أي في شرك وذهاب عن الحق وكفر وجهالة ، وإن مخففة من الثقيلة واللام دليل عليها أي كانوا في ضلال واضح لا ترى ضلالاً أعظم منه .

﴿ وآخرين منهم ﴾ مجرور عطفاً على الأميين ، أي بعثه في الأميين الذين على عهده ، وبعثه في آخرين منهم ، أو منصوب عطفاً على الضمير المنصوب في يعلمهم ، أي ويعلم آخرين ، وكل من يعلم شريعة محمد صلى الله عليه وسلم إلى آخر الزمان ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم معلمه بالقوة لأنه أصل ذلك الخير العظيم ، والفضل الجسيم ، أو عطفا على مفعول يزكيهم أي يزكيهم ويزكي آخرين والمراد بالآخرين من جاء بعد الصحابة إلى يوم القيامة ، وقيل : المراد بهم من أسلم من غير العرب ، وقال عكرمة : هم التابعون ، وقال مجاهد : الناس كلهم وكذا قال ابن زيد والسدي .

﴿ لما يلحقوا بهم ﴾ ذلك الوقت وسيلحقون بهم من بعد ، وقيل : في السبق إلى الإسلام والشرف والدرجة وهذا النفي مستمر دائماً لأن الصحابة لا يلحقهم ولا يساويهم في شأنهم أحد من التابعين ، ولا ممن بعدهم ، فالمنفي هنا غير متوقع الحصول ، ولذلك لما ورد عليه أن لما تنفي ما هو متوقع الحصول ، والمنفي هنا ليس كذلك ، فسرها المحلي بلم التي منفيها أعم من أن يكون متوقع الحصول أولاً فـ﴿ لما ﴾ هنا ليست على بابها ، والضمير في بهم ومنهم راجع إلى الأميين ، وهذا يؤيد أن المراد بالآخرين هم من يأتي بعد الصحابة من العرب خاصة إلى يوم القيامة ، وهو صلى الله عليه وسلم وإن كان مرسلاً إلى جميع الثقلين فتخصيص العرب هنا لقصد الامتنان عليهم ، وذلك لا ينافي عموم الرسالة ويجوز أن يراد بالآخرين العجم لأنهم

وإن لم يكونوا من العرب فقد صاروا بالإسلام مثلهم ، والمسلمون كلهم أمة واحدة ، وإن اختلفت أجناسهم .

و « عن أبي هريرة قال كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم حين نزلت سورة الجمعة فتلاها ، فلما بلغ ﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم﴾ قال له رجل : يا رسول الله من هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا ؟ فوضع يده على سلمان الفارسي وقال : والذي نفسي بيده لو كان الإيمان بالثريا لناله رجال من هؤلاء » أخرجه البخاري وغيره ، وأخرجه أيضاً مسلم من حديثه مرفوعاً بلفظ : لو كان الإيمان عند الثريا لذهب به رجال من فارس أو قال من أبناء فارس .

وعن قيس بن سعد بن عبادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لو كان الإيمان بالثريا لناله ناس من أهل فارس» ، أخرجه سعيد بن منصور وابن مردويه .

و« عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن في أصلاب أصلاب رجال من أصحابي رجالاً ونساء من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب ، ثم قرأ ﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ﴾ » .

﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ أي بليغ العزة والحكمة ، في تمكينه رجلاً أمياً من ذلك الأمر العظيم ، وتأييده عليه ، واختياره إياه من بين كافة البشر .

﴿ ذلك ﴾ أي ما تقدم ذكره أو الإسلام قاله الكلبي أو الوحي والنبوة قاله قتادة أو إلحاق العجم بالعرب أو الدين قاله ابن عباس ، والفضل الذي أعطاه محمداً صلى الله عليه وسلم وهو أن يكون نبي أبناء عصره ، ونبي أبناء العصور الغوابر قاله النسفي ﴿ فضل الله يؤتيه ﴾ أي يعطيه ﴿ من يشاء ﴾ إعطاءه ، وتقتضيه حكمته ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ الذي لا يساويه فضل ولا يدانيه ، ولما ترك اليهود العمل بالتوراة ، ولم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ضرب الله لهم مثلاً فقال :

﴿ مثل الذين حملوا التوراة ﴾ أي كلفوا القيام بها والعمل بما فيها ، وقال الجرجاني : حملوا من الحملة بمعنى الكفالة ، لا من الحمل على الظهر ، والحميل هو الكفيل أي ضمنوا أحكام التوراة ﴿ ثم لم يحملوها ﴾ أي لم يعملوا بموجبها ، ولا أطاعوا ما أمروا به فيها ، ولم يؤدوا حقها ﴿ كمثل الحمار ﴾ الذي هو أبلد الحيوان فخص بالذكر ، لأنه في غاية الغباوة .

﴿ يحمل أسفاراً ﴾ حال أو صفة للحمار ، إذ ليس المراد به حماراً معيناً ، فهو حكم النكرة ، إذ المراد به الجنس ، وقرأ المأمون بن هرون الرشيد يحمل مشدداً مبنياً للمفعول ، والأسفار جمع سفر ، وهو الكتاب الكبير ، لأنه يسفر عن المعنى إذا قرىء قال ابن عباس : أسفاراً كتباً أي كباراً من كتب العلم ، قال ميمون بن مهران : الحمار لا يدري أسفر على ظهره أم زبل ، فهكذا اليهود ، وكل من علم ولم يعمل بعلمه فهذا مثله ، وهذا المثل يلحق من لم يفهم معاني القرآن ولم يعمل بما فيه وأعرض عنه إعراض من لا يحتاج إليه ، ولهذا قال ميمون بن مهران : يا أهل القرون اتبعوا القرآن قبل أن يتبعكم ، ثم تلا هذه الآية ثم ذم هذا المثل ، والمراد منه ذمهم فقال :

﴿ بئس ﴾ مثلاً ﴿ مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ﴾ على أن التمييز محذوف والفاعل المفسر به مضمر ، ومثل القوم هو المخصوص بالذم، أو مثل القوم فاعل بئس ، والمخصوص بالذم الموصول بعده على حذف المضاف ، أي مثل الذين كذبوا ويجوز أن يكون الموصول صفة للقوم ، فيكون في محل جر ، والمخصوص بالذم محذوف ، والتقدير بئس مثل القوم المكذبين ، مثل هؤلاء والمراد بالآيات محمد صلى الله عليه وسلم ، وما أتى به من آيات القرآن وقيل : المراد آيات التوراة لأنهم كذبوا بها حين تركوا الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ يعني الكافرين على العموم ، فيدخل فيهم اليهود دخولاً أولياً والمراد بهم الذين سبق في علمه أنهم لا يؤمنون ، وإلا فقد هدى كثيراً من الكفار .

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾

﴿ قل يا أيها الذين هادوا ﴾ المراد بهم الذين تهودوا وتدينوا باليهودية ، وهي ملة موسى عليه السلام ، وذلك أن اليهود ادعوا الفضيلة على الناس ، وقالوا : إنهم أولياء الله من دونهم ، كما في قولهم : ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ وقولهم : ﴿ لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ﴾ ، فأمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم لما ادعوا هذه الدعوى الباطلة ؛ ﴿ إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس ﴾ والولي يؤثر الآخرة ومبدأها وطريقها الموت .

﴿ فتمنوا الموت ﴾ لتصيروا إلى ما تصيرون إليه من الكرامة في زعمكم ، قرأ الجمهور بضم الواو وقرىء بفتحها تخفيفاً ، وحكى الكسائي : إبدال الواو همزة ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في هذا الزعم فإن من علم أنه من أهل الجنة أحب الخلوص من هذه الدار ثم أخبر سبحانه بما سيكون منهم في المستقبل من أنهم لا يفعلون ذلك أبداً بسبب ذنوبهم ، فقال :

﴿ ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم ﴾ أي بسبب ما عملوا من الكفر

والمعاصي ، الموجبة لدخول النار والتحريف والتبديل ، قال الزمخشري : ولا فرق بين لا ولن في أن كل واحدة منهما نفي للمستقبل ، إلا أن في لن تأكيداً وتشديداً ليس في لا فأتى مرة بلفظ التأكيد في ﴿ ولن يتمنوه ﴾ ، ومرة بغير لفظه في ﴿ ولا يتمنونه ﴾ قال أبو حيان : وهذا رجوع منه عن مذهبه وهو أن لن تقتضي النفي على التأبيد إلى مذهب الجماعة ، وهو أنها لا تقتضيه ، قلت : ليس فيه رجوع ، غاية ما فيه أنه سكت عنه ، وتشريكه بين لا ولن في نفي المستقبل لا ينفي اختصاص لن بمعنى آخر .

﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ يعني على العموم ، وهؤلاء اليهود داخلون فيهم دخولا أولياً ، ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يقول لهم : إن الفرار من الموت لا ينجيهم ، وأنه نازل بهم فقال :

﴿ قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ﴾ لا محالة ، ونازل بكم بلا شك ، والفاء في فإنه داخلة لتضمن الاسم معنى الشرط ، قال الزجاج : لا يقال إن زيداً فمنطلق ، وههنا قال : فإنه ملاقيكم لما في معنى الذي من الشرط والجزاء ، أي إن فررتم منه فإنه ملاقيكم ، ويكون مبالغة في الدلالة على أنه لا ينفع الفرار منه ، وقيل : إنها مزيدة محضة لا للتضمن المذكور ، وقيل : إن الكلام قد تم عند قوله : ﴿ تفرون منه ﴾ ثم ابتدأ فقال : ﴿ فإنه ملاقيكم ﴾ ، ولما كان المقام في البرزخ أمراً مهولاً لا بد منه نبه عليه وعلى طوله ، بأداة التراخي فقال :

﴿ ثم تردون إلى عالم الغيب ﴾ السر ﴿ والشهادة ﴾ العلانية وذلك يوم القيامة ﴿ فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ من الأعمال القبيحة ويجازيكم عليها ، وفيه وعيد وتهديد .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة ﴾ أي وقع النداء لها ، والمراد به الأذان إذا جلس الخطيب على المنبر يوم الجمعة ، لأنه لم يكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم نداء سواه ، ثم كان أبو بكر وعمر وعلى بالكوفة على

ذلك حتى كان عثمان وكثر الناس وتباعدت المنازل زاد أذانا آخر ، فأمر بالتأذين أولا على داره التي تسمى الزوراء ، فإذا سمعوا أقبلوا حتى إذا جلس على المنبر أذن المؤذن ثانياً ، ولم يخالفه أحد في ذلك الوقت .

« لقوله صلى الله عليه وسلم : عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي » .

﴿ من يوم الجمعة ﴾ بيان لإذا وتفسير لها قاله الزمخشري ، وقال أبو البقاء إن من بمعنى في كما في قوله : ﴿ أروني ماذا خلقوا من الأرض ﴾ أي في الأرض وجمع الكواشي بينهما ، وقرأ الجمهور الجمعة بضم الميم وقرىء بإسكانها تخفيفاً ، وهما لغتان ، وجمعها جمع وجمعات قال الفراء : يقال الجمعة بسكون الميم وبفتحها وبضمها ، وهي صفة لليوم ، أي يوم يجمع الناس وقال الفراء أيضاً وأبو عبيدة: التخفيف أخف وأقيس ، نحو غرفة وغرف ؛ وطرفة وطرف ، وحجرة وحجر وفتح الميم لغة عقيل ، وقيل : إنما سميت جمعة لأن الله سبحانه جمع فيها خلق آدم ، وقيل : لأن الله تعالى فرغ فيها من خلق كل شيء ، فاجتمعت فيها جميع المخلوقات وقيل : لاجتماع الناس فيها للصلاة .

« وعن أبي هريرة قال : قلت : يا رسول الله لأي شيء سمي يوم الجمعة ؟ قال لأن فيه جمعت طينة أبيكم آدم ، وفيه الصعقة والبعثة ، وفي آخره ثلاث ساعات منها ساعة من دعا الله فيها بدعوة استجاب له » ، أخرجه سعيد بن منصور ، وابن مردويه .

و« عن سلمان قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتدري ما يوم الجمعة ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قالها ثلاث مرات ، ثم قال في الثالثة : هو اليوم الذي جمع الله فيه أباكم آدم ، أفلا أحدثكم عن يوم الجمعة » ؟ الحديث رواه أحمد والنسائي وسعيد بن منصور وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه .

و« عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خير يوم

طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها ، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة » أخرجه أحمد ومسلم والترمذي وابن مردويه وفي الباب أحاديث مصرحة بأنه خلق فيه آدم ، وورد في فضل يوم الجمعة أحاديث كثيرة ، وكذلك في فضل صلاة الجمعة وعظيم أجرها ، وفي الساعة التي فيها وأنه يستجاب الدعاء فيها .

وقد أوضح شيخنا الشوكاني في شرحه المنتقى بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره .

وأول جمعة جمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم في دار لبني سالم بن عوف وذلك أنه لما قدم المدينة نزل بقباء ، وأنام بها إلى الجمعة ، ثم دخل المدينة وصلى الجمعة في تلك الدار ، والجمعة فريضة من فرائض الله بهذا النص من كتاب الله ، وبما صح في السنة المطهرة ، وهي الكثير الطيب ، وقد واظب عليها النبي صلى الله عليه وسلم من الوقت الذي شرعه الله تعالى فيه إلى أن قبضه ، وحكى ابن المنذر الإجماع على أنها فرض عين ، وزاد ابن العربي : ومن نازع في فرضية الجمعة فقد أخطأ ولم يصب ، وهي كسائر الصلوات لا يخالفها إلا في مشروعية الخطبتين قبلها ، ومن تأمل فيما وقع في هذه العبادة الفاضلة من الأقوال الساقطة ، والمذاهب الزائغة ، والاجتهادات الداحضة ، قضى من ذلك العجب .

ولا يوجد في كتاب الله ولا في سنة رسوله حرف واحد يدل على ما ادعوه من كون تلك الأمور كالمصر الجامع ، والعدد المخصوص ، والإمام الأعظم ، والحمام ونحوها ، شروطاً لصحة الجمعة أو فرضاً من فرائضها ، أو ركناً من أركانها فيالله العجب ما يفعل الرأي بأهله ، ومن يخرج من رؤوسهم هذه الخزعبيلات الشبيهة بالقصص ، والأحاديث الملفقة ، وهي عن الشريعة المطهرة بمعزل ، وكل من ثبت قدمه ولم يتزلزل عن طريق الحق بالقيل والقال يعرف هذا أحسن المعرفة ، ومن جاء بالغلط فغلطه رد عليه ، مضروب به في

وجهه ، وتفصيل ذلك في النيل والسيل للشوكاني .

هذا وقد قال الشيخ الرحماني في حاشيته على التحرير : إن أفضل الليالي ليلة المولد ، ثم ليلة القدر ثم ليلة الإسراء فعرفة ، فالجمعة ، فنصف شعبان ، فالعيد ، وأفضل الأيام يوم عرفة ، ثم يوم نصف شعبان ، ثم يوم الجمعة ، والليل أفضل من النهار.

﴿ فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ قال عطاء : يعني الذهاب والمشي إلى الصلاة ،، وقال الفراء · المضي والسعي والذهاب في معنى واحد ، ويدل على ذلك قراءة عمر بن الخطاب وابن مسعود رضي الله عنهما : فامضوا إلى ذكر الله ، كما سيجيء وقيل : المراد القصد ، قال الحسن : والله ما هو سعي على الأقدام ، ولكنه قصد بالقلوب والنيات . وقيل : المراد به السعي على الأقدام ، وذلك فضيلة وليس بشرط ، والأول أولى ، وقيل : هو العمل قال ابن عباس : يعني ليس المراد به السرعة في المشي ، كقوله : ﴿ من أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ﴾ وقوله : ﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ وقوله : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ ، وقول الداعي : وإليك نسعى ونحفد .

قال القرطبي : وهذا قول الجمهور ، أي فاعملوا على المضي إلى ذكر الله واشتغلوا بأسبابه من الغسل والوضوء والتوجه إليه ، وعن خرشة بن الحر قال رأى معي عمر بن الخطاب لوحاً مكتوباً فيه : ﴿ فامضوا إلى ذكر الله ﴾ فقال : من أملى عليك هذا ؟ قلت : أبيّ بن كعب قال : إن أبياً أقرأنا المنسوخ أقرأها فامضوا إلى ذكر الله؟رواه ابن المنذر وابن الأنباري وابن أبي شيبة وأبو عبيدة في فضائله وسعيد بن منصور .

وروى هؤلاء غير أبي عبيد .

« عن ابن عمر قال . لقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما نقرأ هذه الآية التي هي في سورة الجمعة إلا : فامضوا إلى ذكر الله » ، وأخرجه عنه أيضاً الشافعي في الأم ، وعبد الرزاق والفريابي وابن جرير وابن أبي حاتم ،

وأخرجوا كلهم أيضاً عن ابن مسعود أنه كان يقرأ : فامضوا إلى ذكر الله . قال : ولو كان فاسعوا لسعيت حتى يسقط ردائي ، وعن أبيّ أنه قرأ كذلك ، والمراد من ذكر الله هنا صلاة الجمعة ، وقيل : موعظة الإمام، والأول أولى ، وقال الجمهور : الخطبة . وبه استدل أبو حنيفة على أن الخطيب إذا اقتصر على الحمد لله جاز .

« وعن أبي هريرة قال : قال رسول لله صلى الله عليه وسلم : إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة ، وعليكم السكينة والوقار ، ولا تسرعوا ، فما أدركتم فصلوا ، وما فاتكم فأتموا » أخرجه البخاري ومسلم ، وهذا الحديث يعم كل صلاة ويدخل فيه صلاة الجمعة ، فهو كالتفسير للآية .

﴿ وذروا البيع ﴾ أي اتركوا المعاملة به ويلحق به سائر المعاملات أو اتركوا عقده بتمامه ، فالخطاب لكل من البائع والمشتري ، قال الحسن : إذا أذن المؤذن يوم الجمعة لم يحل الشراء والبيع .

« عن محمد بن كعب أن رجلين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانا يختلفان في تجارتهما إلى الشام ، فربما قدما يوم الجمعة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب ، فيدعونه ويقومون ، فنزلت الآية : ﴿ وذروا البيع ﴾ فحرم عليهم ما كان قبل ذلك » ، أخرجه عبد بن حميد ، والمراد بالآية ترك ما يذهل عن ذكر الله من شواغل الدنيا وإنما خص البيع من بينها لأن يوم الجمعة يتكاثر فيه البيع والشراء عند الزوال فقيل لهم : بادروا تجارة الآخرة واتركوا تجارة الدنيا واسعوا إلى ذكر الله الذي لا شيء أنفع منه وأربح وذروا البيع الذي نفعه يسير .

﴿ ذلكم ﴾ أي السعي إلى ذكر الله وترك البيع ﴿ خير لكم ﴾ من البيع والتكسب في ذلك الوقت لما في الامتثال من الأجر والجزاء وفي عدمه من عدم ذلك إذا لم يكن موجباً للعقوبة وتمسك بهذا الشافعية في أن البيع وقت أذان الخطبة إلى انقضاء الصلاة صحيح مع الحرمة ، قال في الكشاف : عامة العلماء

على أن ذلك لا يوجب الفساد ، لأن البيع لم يحرم لعينه بل لما فيه من التشاغل عن الصلاة ، فهو كالصلاة في الأرض المغصوبة ، وقال مالك : ما وقع في الوقت المذكور يفسخ ، وكذا سائر العقود ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ أي إن كنتم من أهل العلم ، فإنه لا يخفى عليكم أن ذلكم خير لكم من مصالح أنفسكم .

﴿ فإذا قضيت الصلاة ﴾ أي إذا فعلتم الصلاة وأديتموها ، وفرغتم منها ﴿ فانتشروا في الأرض ﴾ للتجارة فيما تحتاجون إليه من أمر معاشكم ، والأمر للإباحة ﴿ وابتغوا ﴾ أي اطلبوا ﴿ من فضل الله ﴾ أن من رزقه الذي يتفضل به على عباده ، بما يحصل لهم من الأرباح في المعاملات والمكاسب وقيل : المراد به ابتغاء ما عند الله من الأجر ، بعمل الطاعات ، واجتناب ما لا يحل ، وقيل : هو طلب العلم .

« عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الآية ليس بطلب دنيا ، ولكن عيادة مريض ، وحضور جنازة ، وزيارة أخ في الله أخرجه ابن جرير .

وعن ابن عباس قال : لم يؤمروا بشيء من طلب الدنيا ، إنما هو عيادة مريض ، وحضور جنازة وزيارة أخ في الله ، وعن عراك بن مالك : أنه كان إذا صلى الجمعة انصرف ، فوقف على باب المسجد وقال : أللهم أجبت دعوتك ، وصليت فريضتك ، وانتشرت كما أمرتني ، فارزقني من فضلك ، وأنت خير الرازقين .

﴿ واذكروا الله ﴾ ذكراً ﴿ كثيراً ﴾ بالشكر له على ما هداكم إليه من الخير الأخروي والدنيوي ، وكذا اذكروه بما يقربكم إليه من الأذكار ، كالحمد والتسبيح والتكبير والاستغفار ونحو ذلك ، ولا تقصروا ذكره على حالة الصلاة ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ أي لكي تفوزوا بخيري الدارين وتظفروا بهما .

﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها ﴾ سبب نزول هذه الآية أنه كان

بأهل المدينة فاقة وحاجة ، فأقبلت عير الشام ، وضرب لقدومها الطبل ، والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة ، فانفتل الناس إليها حتى لم يبق إلا اثنا عشر رجلاً في المسجد كما سيجيء ، قال قتادة : بلغنا أنهم فعلوا ذلك ثلاث مرات ، كل مرة تقدم العير من الشام ، ويوافق قدومها يوم الجمعة وقت الخطبة ، وقيل ضربه أهل المدينة على العادة في أنهم كانوا يستقبلونها بالطبل والتصفيق ، أو ضربه أهل القادم بها أقوال ثلاثة حكاها الخطيب .

ومعنى انفضوا تفرقوا خارجين إليها ، وقال المبرد : مالوا إليها والضمير للتجارة وخصت بإرجاع الضمير إليها دون اللهو ، لأنها كانت أهم عندهم ، وقيل : التقدير وإذا رأوا تجارة انفضوا إليها أو لهواً انفضوا إليه ، فحذف الثاني لدلالة الأول عليه ، وقيل : إنه اقتصر على ضمير التجارة لأن الانفضاض إليها إذا كان مذموماً مع الحاجة إليها فكيف بالانفضاض إلى اللهو ؟ وقيل غير ذلك .

﴿ وتركوك ﴾ في الخطبة ﴿ قائماً ﴾ على المنبر ، أخرج البخاري ومسلم وغيرهما .

« عن جابر بن عبد الله قال : بينما النبي صلى الله عليه وسلم ، يخطب يوم الجمعة قائماً إذ قدمت عير المدينة فابتدرها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى لم يبق منهم إلا اثنا عشر رجلاً أنا فيهم وأبو بكر وعمر ، فأنزل الله : ﴿ وإذا رأوا تجارة ﴾ إلى آخر السورة » ، « وعن ابن عباس في الآية قال جاءت عير عبد الرحمن بن عوف تحمل الطعام فخرجوا من الجمعة بعضهم يريد أن يشتري ، وبعضهم يريد أن ينظر إلى دحية بن خليفة الكلبي ، وتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً على المنبر ، وبقي في المسجد اثنا عشر رجلاً ، وسبع نسوة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لو خرج كلهم لاضطرم عليهم المسجد ناراً » أخرجه عبد بن حميد .

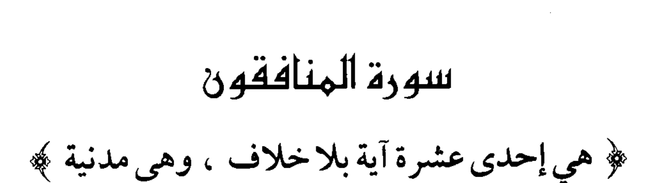
وفي الباب روايات متضمنة لهذا المعنى ، عن جماعة من الصحابة وغيرهم ، والذي سوغ لهم الخروج وترك رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب أنهم ظنوا أن الخروج بعد تمام الصلاة جائز لانقضاء المقصود وهو

الصلاة ، لأنه كان صلى الله عليه وسلم أول الإسلام يصلي الجمعة قبل الخطبة كالعيدين ، فلما وقعت هذه الوقعة ، ونزلت الآية قدم الخطبة وأخر الصلاة .

« وعن ابن عمر قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب خطبتين يقعد بينهما » أخرجه الشيخان ، وفيه دليل على أن الخطيب ينبغي أن يخطب قائماً ، واتفقوا على أن هذا القيام كان في الخطبة للجمعة .

ثم أمره الله سبحانه أن يخبرهم بأن العمل للآخرة خير من العمل للدنيا ، فقال : قل لهم تأديباً وزجراً لهم عن العود لمثل هذا الفعل : ﴿ ما عندالله ﴾ من الجزاء العظيم على الثبات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الجنة ﴿ خير من اللهو ومن التجارة ﴾ اللذين ذهبتم إليهما ، وتركتم البقاء في المسجد ، وسماع خطبة النبي صلى الله عليه وسلم لأجلها ، وإنما كان خيراً لأنه محقق مخلد ، بخلاف ما يتوهمونه من نفع التجارة واللهو ، إذ نفع اللهو ليس بمحقق ونفع التجارة ليس بمخلد ، ومنه يعلم وجه تقديم اللهو ، فإن الأعدام تقدم على الملكات .

﴿ والله خير الرازقين ﴾ فمنه اطلبوا الرزق ، وإليه توسلوا بعمل الطاعة فإن ذلك من أسباب تحصيل الرزق ، وأعظم ما يجلبه . وتعددهم إنما هو على سبيل المجاز ، من حيث إنه يقال : كل إنسان يرزق عائلته ، أي من رزق الله تعالى ، وإلا فالرازق بالحقيقة هو الله وحده .



قال القرطبي : في قول الجميع . قال ابن عباس : نزلت بالمدينة . وعن ابن الزبير مثله .

« وعن أبي هريرة قال : كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة ، فيحرض بها المؤمنين . وفي الثانية بسورة المنافقين فيقرع بها المنافقين . » أخرجه سعيد بن منصور والطبراني في الأوسط قال السيوطي : بسند حسن . وأخرج البزار والطبراني عن أبي عتبة الخولاني مرفوعاً نحوه .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾

﴿ إذا جاءك المنافقون ﴾ اي اذا وصلوا اليك وحضروا مجلسك ، قال ابن عباس : إنما سماهم الله منافقين لأنهم كتموا الشرك ، وأظهروا الإيمان ، والمراد بهم عبد الله بن أبيّ وأصحابه ﴿ قالوا ﴾ هذا جواب الشرط ، وقيل محذوف ، وقالوا : حال أي جاؤوك قائلين كيت وكيت ، فلا تقبل منهم وقيل : الجواب اتخذوا أيمانهم جنة ، وهو بعيد جداً كما لا يخفي ﴿ نشهد إنك لرسول الله ﴾ أكدوا شهادتهم بإن واللام للإشعار لأنها صادرة من صميم قلوبهم ، مع خلوص اعتقادهم ، ومعنى نشهد نحلف ، فهو يجري مجرى القسم ، ولذلك يتلقى بما يتلقى به القسم ، وإنما عبر عن الحلف بالشهادة لأن كل واحد من الحلف والشهادة إثبات لأمر معين ويحتمل أن يكون ذلك محمولاً على ظاهره نفياً للنفاق عن أنفسهم ، وهو الأشبه ، ومثل نشهد نعلم فإنه ايضاً يجري مجرى القسم ، كما في قول الشاعر :

ولقد علمت لتأتين منيتي إن المنايا لا تطيش سهامها

﴿ والله يعلم إنك لرسوله ﴾ جملة معترضة مقررة لمضمون ما قبلها ، وهو ما أظهروه من الشهادة ، وإن كانت بواطنهم على خلاف ذلك ﴿ والله يشهد

إن المنافقين لكاذبون ﴾ أي في شهادتهم التي زعموا أنها من صميم القلب ، وخلوص الاعتقاد ، لا في منطوق كلامهم ، وهو الشهادة بالرسالة ، فإنه حق يعني أنهم لكاذبون فيما تضمنه كلامهم ، من التأكيد الدال على أن شهادتهم بذلك صادرة عن خلوص اعتقاد ، وطمأنينة قلب ، وموافقة باطن لظاهر ، أو إنهم كاذبون عند أنفسهم ، لأنهم كانوا يعتقدون أن قولهم : إنك لرسول الله كذب ، وخبر على خلاف ما عليه حال المخبر عنه .

﴿ اتخذوا أيْمانهم جنة ﴾ أي جعلوا حلفهم الذي حلفوا لكم به إنهم لمنكم ، وإن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقاية تقيهم منكم ، وسترة يستترون بها من القتل والأسر ، قال النسفي : وفيه دليل على أن أشهد يمين ، قال ابن عباس : اجتنبوا بأيمانهم من القتل والحرب ، والجملة مستأنفة لبيان كذبهم وحلفهم عليه ، قرأ الجمهور أيمانهم بفتح الهمزة وقرىء بكسرها ، وقد تقدم تفسير هذا في سورة المجادلة ، والجنة الترس ونحوه ، وكل ما يقيك سوءاً ومن كلام الفصحاء جبة البرد جنة البرد .

﴿ فصدوا عن سبيل الله ﴾ اي منعوا الناس عن الإيمان والجهاد وأعمال الطاعة ، بسبب ما يصدر منهم من التشكيك ، والقدح في النبوة ، وهذا معنى الصد الذي بمعنى الصرف ، ويجوز ان يكون بمعنى الصدود ، اي أعرضوا عن الدخول في سبيل الله وإقامة أحكامه ﴿ إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ من النفاق والصد ،و﴿ساء﴾ هذه هي الجارية مجرى بئس ، في إفادة الذم ، ومع ذلك ففيها معنى التعجيب ، وتعظيم أمرهم عند السامعين .

﴿ ذلك ﴾ أي ما تقدم ذكره من الكذب والصد وقبح الأعمال ﴿ بأنهم ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ آمنوا ﴾ باللسان في الظاهر نفاقاً ﴿ ثم كفروا ﴾ بالقلب في الباطن ، فثم للترتيب الإخباري لا الإيجادي ، أو أظهروا الإيمان للمؤمنين وأظهروا الكفر للكافرين ، وهذا صريح في كفر المنافقين ، وقيل : نزلت الآية في قوم آمنوا ثم ارتدوا ، والأول أولى كما يفيده السياق .

﴿ فطبع على قلوبهم ﴾ اي ختم عليها بسبب كفرهم ، قرأ الجمهور طبع مبنياً للمفعول ، وقرىء مبنياً للفاعل ، والفاعل ضمير يعود الى الله سبحانه ،

ويدل عليه قراءة الأعمش فطبع الله على قلوبهم ﴿ فهم لا يفقهـون ﴾ ما فيه صلاحهم ورشادهم ، وهو حقيقة الإيمان ، ولا يعرفون صحته .

﴿ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ﴾ اي هيئاتهم ومناظرهم ، يعني أن لهم أجساماً يعجب من يراها لما فيها من النضارة والرونق ، قال ابن عباس : كان ابن أبيّ جسيماً صحيحاً فصيحاً ذلق اللسان ، وكان قوم من المنافقين مثله وهم رؤساء المدينة ، وكانوا يحضرون مجلس النبي صلى الله عليـه وسلم ، ويستندون فيه الى الجدر وكان النبي صلى الله عليه وسلم ومن حضر يعجبون بهياكلهم .

﴿ وإن يقولوا ﴾ اي يتكلموا في مجلسك ﴿ تسمع لقولهم ﴾ اي تستمع وتصغي وتميل ، فلذلك عُدي باللام ، والمعنى لتحسب أن قولهم حق وصدق لفصاحتهم وذلاقة ألسنتهم ، قال الكلبي : المراد عبد الله بن أبي وجد بن قيس ومعتب بن قشير ، كانت لهم أجسام ومنظر وفصاحة ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل : لكل من يصلح له ، ويدل عليه قراءة يسمع على البناء للمفعول .

وجملة ﴿ كأنهم خشب مسندة ﴾ خبر مبتدأ مضمر ، أي هم كأنهم ، أو مستأنفة لتقرير ما تقدم من أن أجسامهم تعجب الرائي وتروق الناظر ، قالها الزمخشري أو في محل نصب على الحال ، وصاحب الحال الضمير في قولهم ، قاله أبو البقاء شبهـوا في جلوسهم في مجالس النبي صـلى الله عليه وسلم مستندين بها بالخشب المنصوبة المسندة الى الحائط ، التي لا تفهم ولا تعلم ، وهم كذلك لخلوهم عن الفهم النافع ، والعلم الذي ينتفع به صاحبه ، قال الزجاج : وصفهم بتمام الصور ، ثم أعلم أنهم في ترك الفهم والاستبصار ، وعظم الأجسام ، بمنزلة الخشب قرأ الجمهور خشب بضمتين ، وقرىء بإسكان الشين لأن واحدتها خشبة كبدنة وبدن ، وهما سبعيتان ، وقرىء بفتحتين .

ومعنى مسندة أنها أسندت الى غيرها ، من قولهم : أسندت كذا الى كذا والتشديد للتكثير ، قال ابن عباس في الآية : كأنهم نخل قيـام ، وقيل : إنهم أشباح بلا أرواح وأجسام بلا أحلام وقد أخرج البخاري ومسلم وغيـرهـما « عن زيـد بن أرقم قـال : خـرجنـا مـع رسـول الله صـلى الله عليـه وسلم في سفـر

فأصاب الناس شدة ، فقال عبد الله بن أبيّ لأصحابه : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله ، وقال : لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته بذلك ، فأرسل الى عبد الله بن أبيّ فسأله فاجتهد يمينه ما فعل فقالوا : كذب زيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوقع في نفسي مما قالوا شدة ، حتى أنزل الله تصديقي في : إذا جاءك المنافقون ، فدعاهم النبي صلى الله عليه وسلم ليستغفر لهم ، فلووا رؤوسهم ، وهو قوله: ﴿كأنهم خشب مسندة﴾ قال : كانوا رجالاً أجمل شيء »[1] .

وأخرجه عنه بأطول من هذا ابن سعد ، وعبد بن حميد ، والترمذي وصححه ، وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي ، ثم عابهم الله سبحانه بالجبن فقال :

﴿ يحسبون كل صيحة ﴾ يسمعونها واقعة ﴿ عليهم ﴾ نازلة بهم لفرط جبنهم ورعب قلوبهم ، وفي المفعول الثاني للحسبان وجهان:

أولهما أنه عليهم ، ويكون جملة : ﴿ هم العدو ﴾ مستأنفة لبيان أنهم الكاملون في العداوة لكونهم يظهرون غير ما يبطنون .

والوجه الثاني أن المفعول الثاني للحسبان هو قوله : ﴿ هم العدو ﴾ ، ويكون قوله : ﴿ عليهم ﴾ متعلقاً بصيحة وإنما جاء بضمير الجماعة باعتبار الخبر ، وكان حقه أن يقال : هو العدو ، والوجه الأول أولى قال مقاتل والسدي : أي نادى مناد في العسكر ، أو انفلتت دابة ، أو أنشدت ضالة ، ظنوا أنهم المرادون لما في قلوبهم من الرعب ، وقيل : كان المنافقون على وجل من أن ينزل فيهم ما يهتك أستارهم ، ويبيح دماءهم وأموالهم .

ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يأخذ حذره منهم فقال : ﴿ فاحذرهم ﴾ أن يتمكنوا من فرصة منك ، أو يطلعوا على شيء من أسرارك ، لأنهم عيون لأعدائك من الكفار ، قال أبو السعود : الفاء لترتيب الأمر بالحذر على كونهم أعدى الأعداء ، وعلى هذا جعل قوله : ﴿ هم العدو ﴾ مفعولاً ثانياً مما لا يساعده النظم الكريم أصلاً ، ثم دعا عليهم بقوله :

(١) رواه البخاري.

﴿ قاتلهم الله ﴾ أي لعنهم الله ، وقد تقول العرب هذه الكلمة على طريق التعجب ، كقولهم : قاتله الله من شاعر ، أو ما أشعره ، وليس بمراد هنا ، بل المراد ذمهم وتوبيخهم ، وهو طلب من الله سبحانه طلبه من ذاته عز وجل أن يلعنهم ويخزيهم ، أو هو تعليم للمؤمنين أن يقولوا ذلك ، وقيل : معناه أهلكهم وهذا ما جرى عليه أبو عيسى ومعنى ﴿ أنىَّ يؤفكون ؟ ﴾ كيف يصرفون عن الحق ؟ ويميلون عنه الى الكفر بعد قيام البرهان على حقية الإيمان ؟ قال قتادة: يعدلون عن الحق ،وقال الحسن : معناه يصرفون عن الرشد .

﴿ واذا قيل لهم : تعالوا ﴾ أي إذا قال لهم القائل من المؤمنين : قد نزل فيكم ما نزل من القرآن فتوبوا الى الله ورسوله وتعالوا ﴿ يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ﴾ أي حركوها استهزاء بذلك ، قال مقاتل :عطفوا رؤوسهم رغبة عن الاستغفار ، وقيل : إعراضاً عنه واستكباراً ، قرأ الجمهور : لووا بالتشديد وقرىء بالتخفيف ، واختار الأولى أبو عبيد وهما سبعيتان .

﴿ ورأيتهم يصدون ﴾ أي يعرضون عن قول من قال لهم تعالوا إلخ ، أو يعرضون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجملة : ﴿ وهم مستكبرون ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل الحال الأولى ، وهي يصدون لأن الرؤية بصرية ، فيصدون في محل نصب على الحال ، والمعنى رأيتهم صادين مستكبرين عن الإعتذار والإستغفار ، ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب صلاحهم ، وأن يستغفر لهم ، وربما ندبه إلى ذلك بعض أقاربهم ، قال تعالى منبهاً له على أنهم ليسوا بأهل للاستغفار لأنهم لا يؤمنون : ﴿ سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ﴾ أي الاستغفار وعدمه سواء لا ينفعهم ذلك لإصرارهم على النفاق ، واستمرارهم على الكفر ، وهذا تيؤس له من إيمانهم .

﴿ ولن يغفر الله لهم ﴾ أي ما داموا على النفاق ﴿ إن الله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ أي الكاملين في الخروج عن الطاعة ، والانهماك في معاصي الله . ويدخل فيهم المنافقون دخولاً أولياً ثم ذكر سبحانه بعض قبائحهم فقال :

هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

﴿ هم الذين يقولون ﴾ استئناف جار مجرى التعليل لفسقهم او لعدم هداية الله لهم والمعنى يقولون لأصحابهم من الأنصار المخلصين في الإيمان وصحبتهم للمنافقين بحسب ظاهر الحال .

﴿ لا تنفقوا على من عند رسول الله ﴾ الظاهر أنه حكاية ما قالوه بعينه ، لأنهم منافقون مقرون برسالته ظاهراً ؛ ولا حاجة الى أنهم قالوه تهكماً او لغلبته عليه حتى صار كالعلم كما قيل ، ويحتمل أنهم عبروا بغير هذه العبارة فغيرها الله إجلالاً لنبيه صلى الله عليه وسلم .

﴿ حتى ينفضوا ﴾ أي لأجل أن يتفرقوا عنه بأن يذهب كل واحد منهم الى أهله وشغله الذي كان له قبل ذلك ، يعنون بذلك فقراء المهاجرين ، قرأ الجمهور ينفضوا من الانفضاض وهو التفرق ، وقرىء ينفضوا من انفض القوم اذا فنيت أزوادهم ، يقال : نفض الرجل وعاءه من الزاد فانفض ، قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في عسيف لعمر بن الخطاب ، وقرأ زيد بن أرقم

وابن مسعود : حتى ينفضوا من حوله ، ثم أخبر سبحانه بسعة ملكه فقال :

﴿ ولله خزائن السموات والأرض ﴾ اي أنه هو الرزاق لهؤلاء المهاجرين وغيرهم ، لأن خزائن الرزق له ، فيعطي من شاء ما شاء ، ويمنع من شاء ما شاء ، لا بأيديهم ، وهذا رد وإبطال لما زعموا من أن عدم إنفاقهم يؤدي الى انفضاض الفقراء من حوله ، والجملة حالية ، أي قالوا ما ذكر ، والحال أن الرزق بيده تعالى ، لا يقدر أحد على منع شيء من ذلك ، لا مما في يده ، ولا مما في يد غيره ﴿ ولكن المنافقين لا يفقهون ﴾ ذلك ، ولا يعلمون أن خزائن الأرزاق بيد الله عز وجل ، وأنه الباسط القابض ، المعطي المانع .

ثم ذكر سبحانه مقالة شنعاء قالوها فقال : ﴿ يقولون : لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ القائل لهذه المقالة هو عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين ، وعنى بالأعز نفسه ومن معه ، وبالأذل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه ، والمراد بالرجوع رجوعهم من تلك الغزوة ، وإنما أسند القول الى المنافقين مع كون القائل فرداً من افرادهم وهو ابن أبيّ لكونه رئيسهم ، وصاحب أمرهم ، وهم راضون بما يقوله السامعون له مطيعون .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما .

« عن جابر بن عبد الله قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزاة ، قال سفيان : يرون أنها غزوة بني المصطلق فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال المهاجري : يا للمهاجرين ، وقال الأنصاري : يا للأنصار ، فسمع ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ما بال دعوة الجاهلية ؟ قالوا : رجل من المهاجرين كسع رجلاً من الأنصار ، فقال النبي

صلى الله عليه وسلم : دعوها فإنها منتنة ، فسمع ذلك عبد الله بن أبيّ فقال : أوقد فعلوها ؟ والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، فقام عمر فقال : يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ، زاد الترمذي فقال له ابنه عبد الله بن عبد الله : والله لا تنقلب حتى تقرّ أنك الذليل ورسول الله العزيز ففعل »[1]

وكانت تلك الغزوة في السنة الرابعة ، وقيل في السادسة ، ثم رد الله سبحانه على قائل تلك المقالة فقال :

﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ الجملة حالية اي قالوا ما ذكر ، والحال أن كل من له نوع بصيرة يعلم ان القوة والغلبة لله وحده ، ولمن أفاضها عليه من رسله ، وصالحي عباده ، وعزة الله قهره وغلبته لأعدائه ، وعزة رسوله إظهار دينه على الأديان كلها ، وعزة المؤمنين نصر الله إياهم على أعدائهم ، عن بعض الصالحات وكانت في هيئة رثة ألست على الإسلام وهو العز الذي لا ذل معه ، والغنى الذي لا فقر معه ؟ وعن الحسن بن علي أن رجلاً قال له : إن الناس يزعمون أن فيك تيهاً ، قال : ليس بتيه ولكنه عزة ، وتلا هذه الآية اللهم كما جعلت العزة للمؤمنين على المنافقين ، فاجعل العزة للعادلين من عبادك ، وأنزل الذلة على الجائرين الظالمين .

﴿ ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ بما فيه النفع فيفعلونه ، وبما فيه الضر فيجتنبونه ، بل هم كالأنعام لفرط جهلهم ، ومزيد حيرتهم ، والطبع على قلوبهم ، ختم هذه الآية بلا يعلمون ، وما قبلها بلا يفقهون . لأن الأول متصل بقوله : ﴿ ولله خزائن السموات والأرض ﴾ ، وفي معرفتها غموض يحتاج الى فطنة وفقه ، فناسب نفي الفقه عنهم ، والثاني متصل بقوله : ﴿ ولله العزة ﴾ الخ وفي معرفتها غموض زائد يحتاج الى علم فناسب نفي العلم عنهم ، فالمعنى لا يعلمون ان الله معز أولياءه ومذل أعداءه ، قال الكرخي : والحاصل أنه لما أثبت المنافقون لفريقهم إخراج المؤمنين من المدينة أثبت الله

(١) رواخ البخاري ومسلم.

تعالى في الرد عليهم صفة العزة لغير فريقهم ، وهو الله ورسوله والمؤمنون .

وفي شرح جمع الجوامع : ومن قوادح العلة القول بالموجب بفتح الجيم ، وهو تسليم الدليل مع بقاء النزاع بأن يظهر المعترض عدم استلزام الدليل لمحل النزاع ، وشاهده : ﴿ولله العزة ولرسوله﴾ في جواب ﴿ليخرجن الأعز منها الأذل﴾ ولما ذكر سبحانه قبائح المنافقين ، رجع الى خطاب المؤمنين مرغباً لهم في ذكره فقال :

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم﴾ أي لا تشغلكم ﴿أموالكم﴾ بالتصرف فيها ، والسعي في تدبير أمرها بالنماء ، وطلب النتاج ، والاهتمام بها ﴿ولا أولادكم﴾ وسروركم بهم وشفقتكم عليهم ، والقيام بمؤنتهم ، حذرهم عن التشبه بالمنافقين في الاغترار عن أخلاق الذين ألهتهم أموالهم وأولادهم ﴿عن ذكر الله﴾ والمراد بالذكر فرائض الإسلام قاله الحسن ، وقال الضحاك : الصلوات الخمس ، وقيل : قراءة القرآن ، وقيل : الحج والزكاة ، وقيل : إدامة الذكر ، وقيل : هو خطاب للمنافقين ووصفهم بالإيمان لكونهم آمنوا ظاهراً ، والأول أولى .

« وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم في الآية قال : هم عباد من أمتي الصالحون منهم ، لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وعن الصلوات الخمس المفروضة » أخرجه ابن مردويه .

﴿ومن يفعل ذلك﴾ أي يَلْتَهِ بالدنيا عن الدين ، ويشتغل بها عما ذكر ﴿فأولئك هم الخاسرون﴾ اي الكاملو الخسران في تجارتهم ، حيث باعوا العظيم الباقي بالحقير الفاني .

« وهو عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الدنيا ملعونة : وملعون ما فيها ، إلا ذكر الله وما والاه ، وعالم ومتعلم » ، أخرجه الترمذي .

﴿ وأنفقوا مما رزقناكم ﴾ الظاهر أن المراد الإنفاق في الخير على عمومه ، وقيل : المراد الزكاة المفروضة ، ومن للتبعيض اي أنفقوا بعض ما رزقناكم في سبيل الخير ، وفي التبعيض بإسناد الرزق منه تعالى الى نفسه زيادة ترغيب في الامتثال ، حيث كان الرزق له تعالى بالحقيقة ، ومع ذلك اكتفى منهم ببعضه .

﴿ من قبل أن يأتي أحدكم الموت ﴾ بأن تنزل عليه مقدماته وأسبابه وأماراته ، ويشاهد حضور علاماته ودلائله ، ويتعذر عليه الإنفاق ، وقدم المفعول على الفاعل للإهتمام ﴿ فيقول رب لولا أخرتني ﴾ أي يقول عند نزول ما نزل به منادياً لربه : هلا أمهلتني وأخرت موتي ، فلولا بمعنى هلا التي معناها التحضيض وتختص بما لفظه ماض ، وهو في تأويل المضارع كما هنا ، إذ لا معنى لطلب التأخير في الزمن الماضي ، أو لا زائدة ، ولولا للتمني ، وقضية كلام الكشاف أن لولا بمعنى هل الاستفهامية والأولى أولى .

﴿ إلى أجل ﴾ أي زمن واحد ﴿ قريب ﴾ قصير قليل بقدر ما أستدرك فيه ما فاتني ﴿فأصدق﴾ أي فأتصدق بمالي ، أو بالزكاة ، قرأ الجمهور بإدغام التاء في الصاد ، وانتصابه على أنه جواب التمني ، وقيل : إن لا في لولا زائدة ، والأصل لو أخرتني ، وقرىء فأتصدق بدون إدغام على الأصل ﴿ وأكن ﴾ قرأ الجمهور بالجزم على محل فأصدق ، كأنه قيل : إن أخرتني أصدق وأكن ، قال الزجاج : معناه هلا اخرتني ؟ وجزم أكن على موضع فأصدق ، لأنه على معنى إن أخرتني أصدق وأكن ، وكذا قال أبو علي الفارسي وابن عطية وغيرهم ، وقال سيبويه حاكياً عن الخليل : إنه جزم على توهم الشرط الذي يدل عليه التمني ، وجعل سيبويه هذا نظير قول زهير :

بدا لي أني لست مدرك ما مضى   ولا سابق شيئاً إذا كان جائياً

فخفض ولا ﴿ سابق ﴾ عطفاً على ﴿مدرك ﴾ هو خبر ليس على توهم زيادة الباء فيه ، وقرىء وأكون بالنصب عطفاً على فأصدق ، ووجهها واضح ، ولكن

قال ابو عبيدة: رأيت في مصحف عثمان وأكن بغير واو ، وقرىء بالرفع على الاستئناف أي وأنا أكون .

﴿ من الصالحين ﴾ أي من المؤمنين ، قال ابن عباس : أحج ، وقال الضحاك : لا ينزل الموت بأحد لم يحج ولم يؤد زكاة إلا سأل الرجعة ، وقرأ هذه الآية .

« وقال ابن عباس . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من كان له مال يبلغه حج بيت الله ، أو تجب عليه فيه الزكاة ، فلم يفعل سأل الرجعة عند الموت فقال له رجل : يا ابن عباس اتق الله فإنما يسأل الكافر فقال : سأتلو عليكم بذلك قرآناً : يا أيها الذين آمنوا الى آخر السورة » أخرجه الترمذي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن ابي حاتم والطبراني وابن مردويه والحسن ابن ابي الحسن في كتاب منهاج الدين الى قوله الموت مرفوعاً ثم أجاب الله عن هذا المتمني فقال :

﴿ ولن يؤخر الله نفساً ﴾ أية نفس كانت عن الموت ﴿ إذا جاء أجلها ﴾ أي آخر عمرها المكتوب في اللوح المحفوظ ومن جملة النفوس التي شملها النفي نفس هذا القائل فلا يؤخر ايضاً ﴿ والله خبير بما تعملون ﴾ قرىء بالتاء والياء ولكل وجه يعني أنه لو رد الى الدنيا وأجيب الى ما يسأل ما حج ، وما زكّى وقيل : هو خطاب شائع لكل عامل عملاً من خير أو شر ، وهو الأولى .

واعلم أنه قد وقع الخلاف بين أهل العلم وطالت ذيوله وتشعبت أبحاثه في التعارض بين ما ورد من أن القضاء الأزلي من الله عز وجل لا يتغير ولا يتبدل ، وهو المعبر عنه بأم الكتاب ، وبقوله : تعالى : ﴿ لا معقب لحكمه ﴾ وقوله : ﴿ ما يبدل القول لدي ﴾ وبين ما ورد من الإرشاد الى الأدعية وطلب الخير من الله عز وجل وسؤاله أن يدفع الشر ويرفع الضر ، وسائر المطالب التي يطلبها العباد من ربهم سبحانه .

« كقوله صلى الله عليه وسلم : لا يرد القضاء إلا الدعاء ، ولا يزيد في

العمر إلا البر » أخرجه الترمذي من حديث سلمان وحسنه ، وأبو حيان وصححه ، والحاكم وصححه ، والطبراني في الكبير ، والضياء في المختارة .

ومثله حديث ثوبان مرفوعاً بلفظ : لا يرد القدر إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البر ، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه .

« وكقوله صلى الله عليه وسلم لا يغني حذر من قدر ، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان الى يوم القيامة » أخرجه الحاكم في المستدرك والبزار والطبراني في الأوسط والخطيب قال الحاكم : صحيح الإسناد من حديث عائشة مرفوعاً وقال في مجمع الزوائد : رواه أحمد وأبو يعلى بنحوه والبزار والطبراني في الأوسط ورجال أحمد وأبي يعلى وأحد إسنادي البزار رجاله رجال الصحيح غير علي بن علي الرفاعي وهو ثقة وقد ضعف هذا الحديث بزكريا بن منصور كما ذكره الشوكاني في شرحه للعدة .

ومن ذلك ما أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجة وابن حبان وصححه « عن سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن ربكم حي كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه أن يردهما صفراً » وأخرجه أيضاً الحاكم وقال : حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وله شاهد صحيح ثم رواه من « حديث أنس مرفوعاً : إن ربكم رحيم حي كريم يستحي من عبده أن يرفع اليه يديه ثم لا يضع فيهما خيراً » وأخرجه الطبراني وأبو يعلى ومن ذلك :

« قوله صلى الله عليه وسلم : لا تعجزوا في الدعاء فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد » أخرجه ابن حبان من حديث أنس والحاكم في المستدرك وقال : صحيح الإسناد والضياء في المختارة وقد رد الشوكاني في شرحه للعمدة على من ضعفه .

ومن ذلك ما أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة والحاكم في المستدرك

وقال صحيح الإسناد وأقره الذهبي وأخرجه ايضاً من حديث سلمان وقال : صحيح الإسناد ومن ذلك ما أخرجه الحاكم في المستدرك .

« من حديث ابي هريرة وقال صحيح الإسناد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السموات والأرض »[١] وأخرجه ابو يعلى .

« من حديث علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أدلكم على ما ينجيكم من عدوكم ويدر لكم أرزاقكم ؟ تدعون الله في ليلكم ونهاركم فإن الدعاء سلاح المؤمن »[٢] .

وأخرج احمد في المسند من « حديث ابي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من مسلم ينصب وجهه لله في مسألة إلا أعطاه إياها إما أن يعجلها له وإما أن يدخرها له »[٣] قال المنذري في الترغيب والترهيب : لا بأس بإسناده وأخرجه البخاري في الأدب المفرد والحاكم وشهد لمعناه ما أخرجه احمد والبزار وابو يعلى قال المنذري : بأسانيد جيدة .

« من حديث ابي سعيد الخدري أن النبي (صلى الله عليه وسلم) **قال:** ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث إما أن يعجل له دعوته وإما أن يدخرها له في الآخرة وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها »[٤] .

وأخرج ابن ابي شيبة في مصنفه وأبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان « قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الدعاء هو العبادة ثم تلا : ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتي ﴾ « الآية وصححه الترمذي وابن حبان والحاكم في المستدرك .

---

(١) رواه الحاكم .
(٢) رواه مسلم .
(٣) رواه أحمد .
(٤) رواه أحمد .

« من حديث أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الدعاء مخ العبادة »[١] وأخرج الترمذي والحاكم في المستدرك :

« من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من لم يسأل الله يغضب عليه »[٢] وفي لفظ : من لم يدع الله يغضب عليه أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف والحاكم في المستدرك وصححه . ومن ذلك .

« استعاذته صلى الله عليه وسلم من سوء القضاء » كما في صحيح مسلم وغيره .

« ومن ذلك ما ثبت في قنوت الوتر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال فيه : وقني شر ما قضيت » ، وهو حديث صحيح ، وإن لم يخرجه الشيخان ، وفيهما الاستعاذة من القضاء المشتمل على الشر والسؤ ومن ذلك الأحاديث الواردة في صلة الرحم وأنها تزيد في العمر وهي أحاديث صحيحة ومن ذلك الأحاديث الواردة في إجابة دعاء المظلوم على ظالمه والأحاديث الواردة في دعاء الوالدين لولدهما والأحاديث الواردة في دعوة الإمام العادل والأحاديث الواردة في إجابة دعوة من دعا ربه باسمه الأعظم وغير ذلك كثير .

وجميع ذلك على اختلاف دلالته متواتر فليت شعري كيف ذهب جماعة من أهل العلم الى مخالفة ذلك كله ، وقالوا : إن أُحكام الله وقضاءه في سابق علمه لا تغير أصلاً فإن استدلوا بمثل قوله تعالى : ﴿ ما يبدل القول لدي ﴾ ، وما ورد في اللوح المحفوظ ، وما كنب فيه ، وأنه قد جف القضاء ، ونحو ذلك ، فأي فائدة في مثل قوله عز وجل : ﴿ أدعوني أستجب لكم ﴾ ؟ فإن هذا أمر منه عز وجل لعباده بدعائه ، وأي فائدة في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يخبر عباده أنه قريب مجيب يجيب دعوة الداعي اذا دعاه ؟ وأي فائدة في قوله عز وجل ، مخبراً لعباده ﴿ يمحو ما يشاء ويثبت وعنده ام

---

(٥) رواه الحاكم .
(٦) رواه الحاكم .

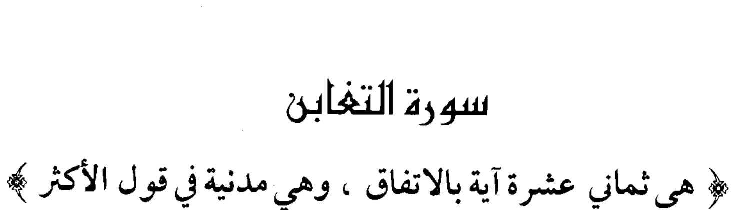
الكتاب ﴾ وعلمنا سبحانه كيف ندعو في نحو قوله : ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ الى آخر الآية .

« وحكى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ثبت في الصحيح أن الله عز وجل قال عند هذه الدعوات : قد فعلت » ، وكذلك سائر ما قصه الله علينا في كتابه من إجابته لدعوة أنبيائه كما في قوله : ﴿ حتى اذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا ﴾ ، وفي مثل : ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ، ويثبت أقدامكم ﴾ وما شابه ذلك من الآيات ، وما شوهد من نبينا صلى الله عليه وسلم من إجابة دعواته في مواطن يتعسر إحصاؤها ، وما شوهد من صالحي هذه الأمة في كل قرن من القرون من إجابة دعواتهم في الحال .

ومن جهل هذا أو بعضه نظر في مثل حلية الأولياء ، ومثل رسالة القشيري ، ومثل صفوة الصفوة لابن الجوزي ، وغير ذلك مما يكثر تعداده ، بل ينظر في الدعوات المجابة من الصحابة رضي الله عنهم ، وكما وقع من جماعة كثيرة من السلف رحمهم الله تعالى أنهم كانوا يقولون في أدعيتهم : اللهم إن كنت قد كتبتني في ديوان الأشقياء فانقلني الى ديوان السعداء بعبارات مختلفة هذه إحداها ، وبالجملة فالكتاب العزيز والسنة المتواترة ترد عليهم رداً أوضح من شمس النهار .

وطائفة قالت : إن الأقضية نوعان مطلقة ومقيدة ، فالمطلقة ما لم تكن مشروطة بشروط واقعة ، وإلا فلا ، وهذا القول وإن كان مردوداً مثل الأول إلا أنه أقل مفسدة منه ، وإن كان رأياً بحتاً ليس عليه دليل ، وبالجملة فالبحث يطول فلنقتصر على هذا المقدار ، والحمد لله أولاً وآخراً ، واستنبط بعضهم من هذه الآية عمر النبي صلى الله عليه وسلم ، لأن السورة رأس ثلاث وستين سورة ، وعقبت بالتغابن إشارة لظهور التغابن بوفاته صلى الله عليه وسلم ، ذكره الكرخي ، وليس هذا من تفسير الكتاب في شيء ، بل من لطائف الكلام وتفنن المرام .





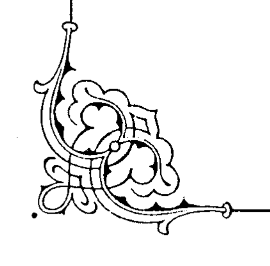
سورة التغابن

﴿ هي ثماني عشرة آية بالاتفاق ، وهي مدنية في قول الأكثر ﴾

وقال الضحاك ، هي مكية ، وقال الكلبي : هي مدنية ومكيّة ، وقال ابن عباس : نزلت بالمدينة ، وعن ابن الزبير مثله ، وعن ابن عباس ايضا قال : نزلت بمكة الا آيات من آخرها نزلن بالمدينة في عوف بن مالك الأشجعي شكا الى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم جفاء أهله وولده ، فأنزل اللّه : ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم﴾ الى آخر السورة ، وعن عطاء ابن يسار نحوه .

أخرج البخاري في تاريخه .

« عن عبد اللّه بن عمرو قال : ما من مولود يولد الا مكتوب في تشبيك رأسه خمس آيات من أول سورة التغابن »[1] ، وأخرجه ابن حبان في الضعفاء والطبراني وابن مردويه وابن عساكر مرفوعاً عنه ، قال ابن كثير : وهو غريب جداً بل منكر.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾

﴿ يسبح لله ما في السموات وما في الأرض ﴾ أي ينزهه سبحانه جميع مخلوقاته التي في سمواته وأرضه ، عن كل نقص وعيب ، وكررت ﴿ما﴾ هنا ، وفي قوله : ﴿ وما تعلنون ﴾ تأكيداً وتعميماً ، وللاختلاف لأن تسبيح ما في السموات مخالف لتسبيح ما في الأرض كثرة وقلة ، وأسرارنا مخالفة لعلانيتنا ، ولم تكرر في قوله : ﴿ يعلم ما في السموات والأرض ﴾ لعدم اختلاف علمه تعالى ، إذ علمه بما تحت الأرض كعلمه بما فوقها وعلمه بما كان كعلمه بما يكون .

﴿ له الملك وله الحمد ﴾ أي يختصان به ليس لغيره منهما شيء ، وما كان لعباده منهما فهو من فيضه ، وراجع اليه وتقديم الظرف يفيد الاختصاص به تعالى من حيث الحقيقة لأنه مبدىء كل شيء ومبدعه فكان الملك له حقيقة دون غيره ، ولأن أصول النعم وفروعها منه تعالى ، فالحمد له بالحقيقة ، وحمد غيره إنما يقع من حيث ظاهر الحال ، وجريان النعم على يديه ، والملك هو الاستيلاء ، والتمكن من التصرف في كل شيء على حسب ما أراد في الأزل ، قال الرازي . الملك تمام القدرة واستحكامها ، يقال : ملك بين الملك

بالضم ومالك بين الملك بالكسر ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ لا يعجزه شيء .

﴿ هو الذي خلقكم ﴾ اي قدر خلقكم في الأزل ، وكذا قوله : ﴿ فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ اي مقضي بكفره وإيمانه أزلًا ، وقيل : إنه خلق الخلق ، ثم كفروا وآمنوا ، والتقدير هو الذي خلقكم ثم وصفكم فقال : ﴿ فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ كقوله : ﴿ والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشي على بطنه ﴾ الآية ، قالوا : فإنه خلقهم والمشي فعلهم وهذا اختيار الحسين بن الفضيل قال : لو خلقهم مؤمنين وكافرين لما وصفهم بفعلهم في قوله ﴿ فمنكم كافر ﴾ إلخ واحتجوا :

« بقوله صلى الله عليه وسلم : كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » ، ذكره الخطيب ، قال الضحاك : فمنكم كافر في السر مؤمن في العلانية كالمنافق ، ومنكم مؤمن في السر وكافر في العلانية ، كعمار ابن ياسر ونحوه مما أكره على الكفر .

وقال عطاء : فمنكم كافر بالله مؤمن بالكواكب ومنكم مؤمن بالله ، كافر بالكواكب . قال الزجاج : إن الله خلق الكافر ، وكفره فعل له وكسب ، مع أن الله خالق الكفر ، وخلق المؤمن ، وإيمانه فعل له وكسب ، مع أن الله خالق الإيمان ، والكافر يكفر ويختار الكفر بعد خلق الله إياه ، لأن الله تعالى قدر ذلك عليه وعلمه منه ، لأن وجود خلاف المقدر عجز ، ووجود خلاف المعلوم جهل ، هذا طريق أهل السنة ، فمن سلك هذا أصاب الحق وسلم من مذهب الجبرية والقدرية ، قال القرطبي : وهذا أحسن الأقوال ، وهو الذي عليه جمهور الأمة وقدم الكافر على المؤمن لأنه الأغلب عند نزول القرآن ، وفيه رد لقول من يقول بالمنزلة بين المنزلتين .

﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية ، فهو مجازيكم بأعمالكم .

«عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: العبد يولد مؤمناً، ويعيش مؤمناً، ويموت مؤمناً، والعبد يولد كافراً، ويعيش كافراً، ويموت كافراً، وإن العبد يعمل برهة من دهره بالسعادة، ثم يدركه ما كتب له، فيموت شقياً وإن العبد يعمل برهة من دهره بالشقاء، ثم يدركه ما كتب له فيموت سعيداً»، أخرجه ابن مردويه، ثم لما ذكر سبحانه خلق العالم الصغير اتبعه بخلق العالم الكبير فقال:

﴿خلق السموات والأرض﴾ خلقاً متلبساً ﴿بالحق﴾ أي بالحكمة البالغة، وقيل: خلق ذلك خلقاً يقينياً لا ريب فيه، وقيل. الباء بمعنى اللام، أي خلق ذلك لإظهار الحق، وهو أن يجزي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ثم رجع سبحانه الى خلق العالم الصغير كذا قال مقاتل، وقيل: المراد جميع الخلائق وهو الظاهر، اي أنه سبحانه خلقهم في اكمل صورة وأحسن تقويم، وأجمل شكل وأبهاه، لا يتمنى الإنسان أن تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصور قال بعض الحكماء شيئان لا غاية لهما، الجمال والبيان، والتصوير والتخطيط والتشكيل. قرأ الجمهور صوركم بضم الصاد وقرىء بكسرها.

﴿وإليه المصير﴾ في الدار الآخرة لا الى غيره.

«وعن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اذا مكث المني في الرحم أربعين ليلة أتاه ملك النفوس، فعرج به الى الرب فيقول: يا رب أذكر أم أنثى؟ فيقضي الله ما هو قاض، فيقول: أشقي أم سعيد؟ فيكتب ما هو لاق، وقرأ أبو ذر من فاتحه التغابن خمس آيات الى قوله: ﴿وإليه المصير﴾» أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

﴿ يعلم ما في السموات والأرض ﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية ﴿ ويعلم ما تسرون وما تعلنون ﴾ اي ما تخفونه وما تظهرونه ، والتصريح به مع اندراجه فيما قبله لمزيد التأكيد في الوعد والوعيد ﴿ والله عليم بذات الصدور ﴾ جملة مقررة لما قبلها من شمول علمه لكل معلوم ، وهي تذييلية ، وقال الخطيب : كل واحدة من هذه الثلاث أخص مما قبلها وجمع بينها إشارة الى أن علمه تعالى محيط بالجزئيات والكليات لا يعزب عنه شيء من الأشياء .

﴿ ألم يأتكم ؟ ﴾ استفهام توبيخ او تقرير ﴿ نبأ الذين كفروا من قبل ﴾ اي من قبلكم ، وهم كفار الأمم الماضية ، كقوم نوح وعاد وثمود والخطاب لكفار العرب ، وقوله : ﴿ فذاقوا وبال أمرهم ﴾ معطوف عليه كفروا ، عطف المسبب على السبب ، وعبر عن العقوبة بالوبال إشارة الى أنها كالشيء الثقيل المحسوس ، وذلك لأن الوبال في الأصل الثقل والشدة ، ومنه الوبيل للطعام الذي يثقل على المعدة ، والوابل المطر الثقيل القطر ، والمراد بأمرهم هنا ما وقع منهم من الكفر والمعاصي ، والوبال ما أصيبوا به من عذاب الدنيا ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ في الآخرة وهو عذاب النار .

﴿ ذلك ﴾ أي ما ذكر من العذاب في الدارين وهو مبتدأ وخبره ﴿ بأنه ﴾ اي بسبب أنها ﴿ كانت تأتيهم رسلهم ﴾ اي الرسل المرسلة إليهم ﴿ بالبينات ﴾ أي بالحجج الباهرة والمعجزات الظاهرة ﴿ فقالوا : أبشر يهدوننا ﴾ اي قال قوم منهم لرسولهم هذا القول ، منكرين أن يكون الرسول من جنس البشر ، متعجبين من ذلك ، كما قالت ثمود : ﴿ أبشراً منا واحداً نتبعه ﴾ ، ومن غباوتهم أنهم أنكروا أن يكون الرسول بشراً وسلموا واعتقدوا أن الإله يكون حجراً ، وأراد بالبشر الجنس ولهذا قال : يهدوننا وقد أجمل في الحكاية فأسند القول الى جميع الأقوام كما أجمل الخطاب والأمر في قوله : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً ﴾

﴿ فكفروا ﴾ بالرسل وبما جاؤوا به وقيل : كفروا بسبب هذا القول الذي

قالوه للرسـل ، فالفاء للسببية لا للتعقيب ﴿ وتولوا ﴾ اي اعرضوا عنهم ، ولم يتدبروا فيما جاؤوا به ﴿ واستغنى الله ﴾ أي أظهر غناه عن إيمانهم وعبادتهم حيث لم يلجئهم ولم يضطرهم اليه مع قدرته على ذلك ، وقال مقاتل : استغنى الله بما أظهره لهم من البرهان ، وأوضحه من المعجزات ، وقيل : استغنى بسلطانه عن طاعة عباده ، وقال الزمخشري : أي ظهر غناه فالسين ليست للطلب ﴿ والله غني حميد ﴾ أي غير محتاج الى العالم ولا إلى عبادتهم له ، محمود من كل مخلوقاته بلسان المقال والحال .

﴿ زعم الذين كفروا ﴾ الزعم هو القول بالظن ، وادعاء العلم ، ويطلق على الكذب ، قال شريح : لكل شيء كنية وكنية الكذب زعموا ، وهو يتعدى الى مفعولين ، وقوله : ﴿ أن لن يبعثوا ﴾ ساد مسدهما والمعنى زعم كفـار العرب وهم أهل مكة كما قاله ابو حيان : أن الشأن لن يبعثوا أبداً .

« عن ابن مسعود أنه قيل له : ما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول في ﴿ زعموا ﴾ ؟ قال : سمعته يقول : بئس مطية الرجل » ، أخرجه أحمد والبيهقي وغيرهما ، وعنه أنه كره زعموا ، ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يرد عليهم ، ويبطل زعمهم فقال :

﴿ قل بلى ﴾ هي لإيجاب النفي ، فالمعنى بلى تبعثون ، ثم أقسم على ذلك بقوله ﴿ وربي ﴾ وجواب القسم ﴿ لتبعثن ﴾ اي لتخرجن من قبوركم ، اكد الإخبار باليمين ، فإن قلت : ما معنى اليمين على شيء أنكروه ، قلت : هو جائز لأن التهدد به أعظم موقعاً في القلب ، فكأنه قيل لهم : ما تنكرونه كائن لا محالة ﴿ ثم لتنبؤن بما عملتم ﴾ اي لتخبرن بذلك إقامـة للحجة عليكم ، ثم تجزون به ﴿ وذلك ﴾ البعث والجزاء ﴿ عن الله يسير ﴾ إذ الإعادة أيسر من الابتداء .

فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾

﴿ فآمنوا بالله ورسوله ﴾ الفاء هي الفصيحة الدالة على شرط مقدر، اي اذا كان الأمر هكذا فصدقوا يا كفار مكة بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يقل باليوم الآخر على ما هو المناسب لقوله: ﴿ زعم الذينَ كفروا ﴾ اكتفاء بقوله: ﴿ والنور الذي أنزلنا ﴾ فإنه مشتمل على البعث والحساب، وهو القرآن، لأنه نور يهتدى به من ظلمة الضلال ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ لا يخفى عليه شيء من أقوالكم وأفعالكم، فهو مجازيكم على ذلك:

﴿ يوم يجمعكم ﴾ العامل في الظرف لتنبؤن قاله النحاس، وقال غيره: هو خبير، وقيل: محذوف هو أذكر، وقال أبو البقاء: هو ما دل عليه الكلام اي تتفاوتون يوم يجمعكم، قرأ الجمهور بفتح الياء وضم العين وروي إسكانها ولا وجه لذلك إلا التخفيف وإن لم يكن هذا موضعاً له كما قرىء في ﴿ وما يشعركم ﴾ بسكون الراء، وقرىء نجمعكم بالنون ومعنى ﴿ ليوم الجمع ﴾ ليوم القيامة، فإنه يجمع فيه أهل المحشر للجزاء، ويجمع فيه بين كل عامل وعمله، وبين كل نبي وأمته، وبين كل ظالم ومظلومه، وبين الأولين

والآخرين من الإنس والجن وجميع أهل السماء ، وأهل الأرض .

﴿ ذلك ﴾ يعني أن يوم القيامة هو ﴿ يوم التغابن ﴾ وذلك أنه يغبن فيه بعض أهل المحشر بعضاً فيغبن فيه أهل الحق أهل الباطل ، ويغبن فيه أهل الإيمان أهل الكفر ، وأهل الطاعة أهل المعصية ، ولا غبن اعظم من غبن أهل الجنة أهل النار عند دخول هؤلاء الجنة وهؤلاء النار ، فتركوا منازلهم التي كانوا يستنزلونها ، لو لم يفعلوا ما يوجب النار ، فكأن أهل النار استبدلوا الخير بالشر ، والجيد بالرديء ، والنعيم بالعذاب ، وأهل الجنة على العكس من ذلك يقال : غبنت فلاناً اذا بايعته او شاركته ، فكان النقص عليه ، والغلبة والغبن فوت الحظ ، كذا قال المفسرون ، فالمغبون من غبن أهله ومنازله في الجنة ، فإطلاق التغابن على ما يكون فيها إنما هو بطريق الاستعارة ، وان التفاعل ليس من اثنين ، وكذا المغابنة على سبيل التجريد ، قال ابن عباس يوم التغابن من أسماء يوم القيامة ، وعنه قال : غبن أهل الجنة أهل النار .

﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئآته ﴾ اي من وقع منه التصديق مع العمل الصالح استحق تكفير سيئآته ﴿ ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ قرأ الجمهور يكفر ويدخله بالتحتية وقرىء بالنون وفيه التفات من الغيبة الى التكلم ﴿ خالدين فيها ابداً ﴾ حال مقدرة فيه مراعاة معنى من ﴿ ذلك ﴾ اي ما ذكر من التكفير والإدخال ﴿ الفوز العظيم ﴾ اي الظفر الذي لا يساويه ظفر ، والعظيم أعلى حالاً من الكبير الذي ذكر في سورة البروج ، لأن ما فيها قد رتب على إدخال الجنات فقط ، وما هنا قد رتب على الأمرين المذكورين ، فهو جامع للمصالح من دفع المضار وجلب المنافع .

﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير ﴾ المراد بالآيات إما التنزيلية او ما هو أعم منها ، ذكر سبحانه حال السعداء وحال الأشقياء هنا لبيان ما تقدم من التغابن ، وأنه يكون سبب التكفير وإدخال الجنة للطائفة الأولى ، وسبب إدخال الطائفة الثانية النار وخلودهم فيها .

﴿ ما أصاب ﴾ كل أحد ﴿ من مصيبة ﴾ من المصائب ﴿ إلا بإذن الله ﴾ أي بقضائه وقدره قال الفراء : اي بأمر الله وقيل : بعلم الله وقيل وسبب نزولها أن الكفار قالوا : لو كان ما عليه المسلمون حقاً لصانهم الله عن المصائب في الدنيا ، قال ابن مسعود في الآية : هي المصيبات تصيب الرجل فيعلم أنها من عند الله فيسلم لها ويرضى ﴿ ومن يؤمن بالله ﴾ أي من يصدق ويعلم أنه لا يصيبه إلا ما قدره الله عليه ﴿ يهد قلبه ﴾ للصبر والرضاء بالقضاء ، قال مقاتل بن حيان : يهد قلبه عند المصيبة فيعلن أنها من الله فيسلم لقضائه ، ويسترجع عند حلوله .

وقال سعيد بن جبير : يهد قلبه عند المصيبة فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون وقال الكلبي : هو إذا ابتلى صبر ، وإذا أنعم عليه شكر ، وإذا ظلم غفر . وقال ابن عباس في الآية : يعني يهد قلبه لليقين ، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه . قرأ الجمهور يهد بفتح الياء وكسر الدال اي يهده الله وقرىء بضم الياء وفتح الدال على البناء للفعول ونهد بالنون ويهدأ بهمزة ساكنة ورفع قلبه اي يطمئن ويسكن ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ أي بليغ العلم لا تخفى عليه من ذلك خافية .

﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ أي هونوا على أنفسكم المصائب واشتغلوا بطاعة الله وطاعة رسوله في جميع الأوقات ، والعمل بكتابه العزيز وسنة رسوله المطهرة ﴿ فإن توليتم ﴾ اي أعرضتم عن الطاعة ﴿ فإنما على رسولنا البلاغ المبين ﴾ وليس عليه غير ذلك ، وقد فعل ، وجواب الشرط محذوف ، والتقدير فلا بأس أو فلا ضرر على الرسول ، وهذه الجملة تعليل للجواب المحذوف ، ثم أرشد الى التوحيد والتوكل فقال :

﴿ الله لا إله إلا هو ﴾ اي هو المستحق للعبودية دون غيره فوحدوه ولا تشركوا به ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ اي فليفوضوا أموركم اليه ويعتمدوا عليه لا على غيره ، حث للرسول على التوكل على الله ، والتقوى به حتى ينصره على من كذبه ، وتولى عنه .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم ﴾ يدخل فيها الذكر والأنثى ﴿ وأولادكم عدواً لكم ﴾ يعني أنهم يعادونكم ويشغلونكم عن الخير وعن طاعة الله ، أو يخاصمونكم في أمر الدين والدنيا ، ويدخل في ذلك سبب النزول دخولاً أولياً ﴿ فاحذروهم ﴾ أن تطيعوهم في التخلف عن الخير كالجهاد والهجرة ، فإن سبب نزول الآية الإطاعة في ذلك ، والضمير يعود الى العدو ، وإنما جاز جمع الضمير لأن العدو يطلق على الواحد والاثنين والجماعة ، او الى الأزواج والأولاد ، ولكن لا على العموم ، بل الى المتصفين بالعداوة منهم ، قال مجاهد : والله ما عادوهم في الدنيا ولكن حملتهم مودتهم على أن اتخذوا لهم الحرام فأعطوهم إياه ، ثم أرشدهم الى التجاوز فقال :

﴿ وإن تعفوا ﴾ عن ذنوبهم التي ارتكبوها بترك المعاقبة ﴿ وتصفحوا ﴾ بالإعراض وترك التثريب عليها ﴿ وتغفروا ﴾ بإخفائها وتمهيد معذرتهم فيها وتستروها ﴿ فإن الله غفور رحيم ﴾ بالغ المغفرة والرحمة لكم ولهم يعاملكم بمثل ما عملتم ويتفضل عليكم .

« عن ابن عباس قال : هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة وأرادوا أن يأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم الى أن

يـأتـوا النبي صـلى الله عليـه وسلم ، فلما أتـوا رسـول الله صلى الله عليه وسلم رأوا الناس قد فقهوا في الدين ، فهموا أن يعاقبوهم ، فأنزل الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ الآية أخرجه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح ، ثم أخبر سبحانه بأن الأموال والأولاد فتنة فقال :

﴿ إنمـا أموالكم وأولادكم فتنـة ﴾ أي بلاء واختبـار وشغل عن الآخـرة ومحنة ، يحملونكم على كسب الحرام وتناوله ، ومنع حق الله ، والوقوع في العظائم ، وغصب مال الغـير ، وأكل البـاطـل ونحـو ذلـك ، فـلا تـطيعـوهم في معصيـة الله ، ولم يـذكـر من هنا كما ذكر في :إن مِنْ أزواجكم ، لأنهما لا يخلوان من الفتنة واشتغال القلب بهما ، وقدم الأموال على الأولاد لأن فتنة المال أكثر ، وترك ذكر الأزواج في الفتنة قال البقاعي : لأن منهن من تكون صلاحاً وعوناً على الآخرة .

« وعن ابي بريدة قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب فأقبل الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنبر فحملهما واحداً من ذا الشق وواحداً من ذا الشق ، ثم صعد المنبر فقال صدق الله : إنما أموالكم وأولادكم فتنة ، إني لما نظرت الى هذين الغلامين يمشيان ويعثران لم أصبر أن قطعت كلامي ونزلت اليهما »[1] أخرجه أحمد وابو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة والحاكم وصححه وابن مردويه وابن ابي شيبة .

﴿ والله عنده اجر عظيم ﴾ اي الجنة ، وهي لمن آثر طاعة الله وترك معصيته في محبة ماله وولده ، ثم أمرهم سبحانه بالتقوى والطاعة فقال :

﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ اي ما أطقتم وبلغ اليه جهدكم وقد ذهب جماعة من أهل العلم منهم قتادة والربيع بن أنس والسدي وابن زيد الى أن

هذه الآية ناسخة لقوله سبحانه : ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ ، لأن معناه أن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر ، فخفف الله عنهم وأنزل هذه الآية ، وقال ابن عباس : هي محكمة ولا نسخ فيها ، ولكن حق تقاته أن يجاهدوا فيه حق جهاده ، ولا تأخذهم في الله لومة لائم ، ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم ، وقد أوضحنا الكلام على هذا في قوله : ﴿ فاتقوا الله حق تقاته ﴾ .

﴿واسمعوا﴾ ما تؤمرون به سماع قبول لأنه لا فائدة في مجرد السماع ﴿ وأطيعوا ﴾ الأوامر قال مقاتل : اسمعوا اي اصغوا الى ما ينزل عليكم وأطيعوا الرسول فيما يأمركم وينهاكم ﴿ وأنفقوا ﴾ من أموالكم التي رزقكم الله إياها في وجوه الخير والطاعة ولا تبخلوا بها . وقوله : ﴿ خيراً لأنفسكم ﴾ منتصب بفعل مضمر دل عليه اتقوا ، كأنه قال : ائتوا في الإنفاق خيراً لأنفسكم ، او قدموا خيراً لها ، كذا قال سيبويه وقال الكسائي والفراء ؛ هو نعت لمصدر محذوف ، أي إنفاقاً خيراً وقال ابو عبيدة: هو خبر لكان المقدرة اي يكن الإنفاق خيراً لكم ، وقال اهل الكوفة : نصبه على الحال ، وقيل : هو مفعول به لأنفقوا اي فأنفقوا مالاً خيراً ، والظاهر في الآية الإنفاق مطلقاً من غير تقييد بالزكاة الواجبة ، وقيل : المراد زكاة الفريضة ، وقيل : النافلة وقيل النفقة في الجهاد .

﴿ ومن يوق شح نفسه ﴾ فيفعل في ماله جميع ما أمر به من الإنفاق موقناً به مطمئناً اليه ، ولم يمنعه ذلك منه ﴿ فأولئك هم المفلحون ﴾ اي الظافرون بكل خير ، الفائزون بكل مطلوب ، وقد تقدم تفسير هذه الآية مراراً .

﴿ إن تقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾ فتصرفون أموالكم في وجوه الخير بإخلاص نية ، وطيب نفس وسماه قرضاً من حيث التزام الله المجازاة عليه ، وفي ذكر القرض ايضاً تلطف في الاستدعاء ، وترغيب في الصدقة حيث جعلها

قرضاً لله ، مع ان العبد إنما يقرض نفسه ، لأن النفع عائد عليه قال القشيري : ويتوجه الخطاب بهذا إلى الأغنياء في بذل أموالهم ، وإلى الفقراء في عدم إخلاء أوقاتهم عن مراد الحق ومراقبته على مراد انفسهم ، فالغني يقال له : آثر حكمي على مرادك في مالك وغيره ، والفقير يقال له : آثر حكمي في نفسك وقلبك ووقتك ، ذكره الخطيب .

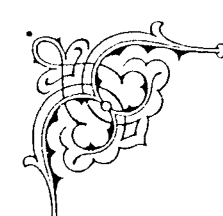
﴿ يضاعفه لكم ﴾ فيجعل الحسنة بعشر أمثالها الى سبعمائة ضعف ، وقد تقدم تفسير هذه الآية في البقرة والحديد .

« عن ابي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله استقرضت عبدي فأبى أن يقرضني ، ويشتمني عبدي وهو لا يدري ، يقول : وادهراه ، وادهراه ، وأنا الدهر ، ثم تلا ابو هريرة هذه الآية » أخرجه ابن جرير والحاكم وصححه ﴿ ويغفر لكم ﴾ اي يضم الى تلك المضاعفة غفران ذنوبكم ﴿ والله شكور حليم ﴾ يثيب من أطاعه بأضعاف مضاعفة ، ولا يعاجل من عصاه بالعقوبة .

﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ اي ما غاب وما حضر لا تخفى عليه منه خافية وقيل ما استتر من سرائر القلوب وما انتشر من ظواهر الخطوب ﴿ العزيز الحكيم ﴾ اي الغالب القاهر بإظهار السيوب[1] ذو الحكمة الباهرة في الإخبار عن الغيوب ، وفي صنعه ، وقال ابن الأنباري : الحكيم هو المحكم لخلق الأشياء .

---

(١) السيوب: الركاز.



سورة الطلاق

﴿ إحدى أواثنتا أو ثلاث عشرة آية ﴾

وهي مدنية . قال القرطبي : في قول الجميع . وعن ابن عباس قال : نزلت بالمدينة .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا (١) فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣)﴾

﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء ﴾ خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، بلفظ الجمع تعظيماً له ، أو خطاب له ولأمته ، والتقدير : يا أيها النبي وأمته ، فحذف المعطوف لدلالة ما بعده عليه ، أو خطاب لأمته فقط بعد ندائه عليه الصلاة والسلام ، وهو من تلوين الخطاب خاطب به أمته بعد أن خاطبه ، أو أنه على إضمار قول أي يا أيها النبي قل لأمتك ، أو خص النبي صلى الله عليه وسلم بالنداء وعم بالخطاب ، لأن النبي إمام أمته وقدوتهم ، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم : يا فلان افعلوا كيت وكيت اعتباراً لتقدمه وإظهاراً لترؤسه بكلام حسن قاله الزمخشري ، قال السمين : وهذا هو معنى القول الثالث الذي تقدم .

وقال المحلي . المراد أمته بقرينة ما بعده ، قال الحفناوي : فكأنه قيل : يا أيها الأمة إذا طلقتم إلخ .وهذا الأسلوب سلكه الكازروني ، وفي نسخة من تفسير المحلي المراد وأمته بزيادة الواو ، يعني أن في الكلام اكتفاء على حد قوله تعالى : ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ ، فعلى هذا لفظ النبي لا تجوز فيه ، بل هو منادى مع أمته ، وهذا الوجه قرره السمين كما تقدم ، والمعنى إذا أردتم

تطليقهن وعزمتهم عليه على تنزيل المقبل على الأمر المشارف له منزلة الشارع فيه ، وإنما احتيج لهذا التجوز ليصح قوله : ﴿ فطلقوهن لعدتهن ﴾ لأن الشيء لا يترتب على نفسه ، ولا يؤمر أحد بتحصيل الحاصل ، والمراد بالنساء ، المدخول بهن ذوات الأقراء ، أما غير المدخول بهن فلا عدة عليهن بالكلية ، وأما ذوات الأشهر فسيأتين في قوله ﴿ واللائي يئسن ﴾ الخ .

ومعنى لعدتهن مستقبلات لعدتهن ، أو في قبل عدتهن ، أو لقبل عدتهن ، أو لزمان عدتهن ، وهو الطهر . وقال الجرجاني : اللام بمعنى في أي في عدتهن ، وقال أبو حيان : أي لاستقبال عدتهن على حذف مضاف ، واللام للتوقيت نحو لقيته لليلة بقيت من شهر كذا ، والمراد أن يطلقوهن في طهر لم يقع فيه جماع ، ثم يتركن حتى تنقضي عدتهن ، فإذا طلقتموهن هكذا فقد طلقتموهن لعدتهن ، وسيأتي بيان هذا من السنة .

« عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ في قبل عدتهن » رواه عبدالرزاق في المصنف وابن المنذر والحاكم وابن مردويه ، وقرأ ابن عمر لقبل عدتهن ، وعن مجاهد أنه قرأ كذلك وعن ابن عباس مثله ، وقال في الآية : أي طاهراً من غير جماع ، وعن ابن مسعود من أراد أن يطلق للسنة كما أمره الله فليطلقها طاهراً في غير جماع .

« وعن أنس قال : طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حفصة فأتت أهلها فأنزل الله هذه الآية فقيل له : راجعها فإنها صوامة قوامة ، وهي من أزواجك في الجنة » أخرجه ابن أبي حاتم وأخرجه ابن جرير عن قتادة مرسلاً .

« وعن ابن عمر أنه طلق امرأته وهي حائض فذكر ذلك عمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتغيظ ، ثم قال : ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ، ثم تحيض وتطهر ، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها فتلك

العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء وقرأ النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن ﴾ في قبل عدتهن أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما .

« وروي عن ابن عباس أنها نزلت في قصة طلاق عبد يزيد وقد أخرجها ابن أبي حاتم أثراً طويلاً قال الذهبي : إسناده واه والخبر خطأ فإن عبد يزيد لم يدرك الإسلام وفي الباب أحاديث .

﴿ وأحصوا العدة ﴾ أي احفظوها واحفظوا الوقت الذي وقع فيه الطلاق ، حتى تتم العدة ، وهي ثلاثة قروء مستقبلات كوامل لا نقصان فيهن ، والخطاب للأزواج لغفلة النساء ، وقيل : للزوجات ، وقيل : للمسلمين على العموم ، والأول أولى لأن الضمائر كلها لهم ، ولكن الزوجات داخلات في هذا الخطاب بالإلحاق بالأزواج ، لأن الزوج يحصي ليراجع وينفق أو يقطع ويسكن أو يخرج ويلحق نسبه أو يقطع . وهذه كلها أمور مشتركة بينه وبين المرأة ، وقيل : أمر بإحصاء العدة لتفريق الطلاق على الإقراء إذا أراد ان يطلق ثلاثاً . وقيل : للعلم ببقاء زمان الرجعة ومراعاة أمر النفقة والسكنى .

﴿ واتقوا الله ربكم ﴾ في تطويل العدة عليهن والإضرار بهن وفي وصفه تعالى بربوبيته لهم تأكيد للأمر ، ومبالغة في إيجاب الاتقاء ﴿ لا تخرجوهن من بيوتهن ﴾ أي التي كن فيها عند الطلاق ما دمن في العدة وأضاف البيوت إليهن وهي لأزواجهن لتأكيد النهي وبيان كمال استحقاقهن للسكنى في مدة العدة ومثله قوله : ﴿ واذكرن ما يتلى في بيوتكن ﴾ وقوله : ﴿ وقرن في بيوتكن ﴾ ثم لما نهى الأزواج عن إخراجهن من البيوت التي وقع الطلاق وهن فيها نهى الزوجات عن الخروج أيضاً فقال :

﴿ ولا يخرجن ﴾ من تلك البيوت ما دمن في العدة إلا لأمر ضروري كما

سيأتي بيان ذلك ، قال أبو السعود : ولو بإذن من الأزواج فإن الإذن بالخروج في حكم الإخراج ، وقال الخطيب : لأن في العدة حقاً لله تعالى ، فلا يسقط بتراضيهما ، وقيل : المراد لا يخرجن من أنفسهن إلا إذا أذن لهن الأزواج فلا بأس ، والأول أولى ، وهذا كله عند عدم العذر ، أما إذا كان لعذر كشراء من ليس لها على المفارق نفقة فيجوز لها الخروج نهاراً ، قاله الخطيب ، وإذا خرجت من غير عذر فإنها تعصي ولا تنتقض عدتها قاله القرطبي .

﴿ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ بفتح الياء وكسرها سبعيتان ، وهذا الاستثناء هو من الجملة الأولى ، قال الواحدي : أكثر المفسرين على أن المراد بالفاحشة هنا الزنا ، وبه قال ابن عباس ، وذلك أن تزني فتخرج لإقامة الحد عليها ، ثم ترد إلى منزلها ، وقال الشافعي وغيره : هي البذاء في اللسان والاستطالة بها على من هو ساكن معها في ذلك البيت ، وعن ابن عباس : الفاحشة المبينة أن تبذو المرأة على أهل الرجل ، فإذا بذت عليهم بلسانها فقد حل لهم إخراجها لسوء خلقها ، ويؤيد هذا ما قال عكرمة : إن في مصحف أبيّ إلا أن يفحشن عليكم ، وقيل : الاستثناء من الجملة الثانية للمبالغة في النهي عن الخروج ببيان أن خروجها فاحشة قال الشوكاني رحمه الله : هو بعهد ، قال ابن عمر : خروجها قبل انقضاء العدة من بيتها هي الفاحشة المبينة ، وقيل : الفاحشة النشوز .

﴿ وتلك ﴾ أي ما ذكر من الأحكام وما في اسم الإشارة من معنى البعد مع قرب العهد المشار إليه للإيذان بعلو درجتها وبعد منزلتها ﴿ حدود الله ﴾ يعني أن هذه الأحكام التي بينها لعباده هي حدوده التي حدها لهم لا يحل لهم أن يتجاوزها إلى غيرها ، ﴿ ومن يتعد حدود الله ﴾ أي يتجاوزها إلى غيرها أو يخل بشيء منها ،

﴿ فقد ظلم نفسه ﴾ بإيرادها موارد الهلاك وأوقعها في مواقع الضرر

بعقوبة الله على مجاوزته لحدوده وتعديه لرسمه ، وقال البيضاوي : أي بأن عرضها للعقاب ، وقال أبو السعود : تفسير الظلم بتعريضها للعقاب يأباه قوله : ﴿ لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ﴾ فإنه استئناف مسوق لتعليل مضمون الشرطية ، وقد قالوا : إن الأمر الذي يحدثه الله تعالى أن يقلب قلبه عما فعله بالتعدي إلى خلافه ، فلا بد أن يكون الظلم عبارة عن ضرر دنيوي يلحقه بسبب تعديه ، ولا يمكن تداركه ، أو عن مطلق الضرر الشامل للدنيوي والأخروي ، ويخص التعليل بالدنيوي لكون احتراز الناس منه أشد ، واهتمامهم بدفعه أقوى والخطاب للمتعدي بطريق الالتفات لمزيد الاهتمام بالزجر عن التعدي لا للنبي عليه الصلاة والسلام كما توهم ، فالمعنى ومن يتعد حدود الله فقد أضر نفسه ، فإنك لا تدري أيها المتعدي عاقبة الأمر لعل الله يحدث في قلبك بعد ذلك الذي فعلت من التعدي أمراً يقتضي خلاف ما فعلته ، فيبدل ببغضها محبة وبالإعراض عنها إقبالاً إليها ويتسنى تلافيه رجعة واستئناف نكاح .

قال القرطبي : قال جميع المفسرين : أراد بالأمر هنا الرغبة في الرجعة ، والمعنى التحريض على طلاق الواحدة أو الاثنتين ، والنهي عن الثلاث ، فإنه إذا طلق ثلاثاً أضر بنفسه عند الندم على الفراق ، والرغبة في الارتجاع . فلا يجد إلى المراجعة سبيلاً ، وقال مقاتل : بعد ذلك أي بعد طلقة أو طلقتين أمراً بالمراجعة ، قال الواحدي : الأمر الذي يحدث أن يوقع في قلب الرجل المحبة لرجعتها بعد الطلقة والطلقتين . قال الزجاج : إذا طلقها ثلاثاً في وقت واحد فلا معنى لقوله : ﴿ لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ﴾ قالت فاطمة بنت قيس في الآية هي الرجعة .

« عن محارب بن دثار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما أحل الله شيئاً أبغض إليه من الطلاق » أخرجه أبو داود مرسلاً .

« وروى الثعلبي من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن من أبغض الحلال إلى الله الطلاق » .

« وعن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ؛ تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتز منه العرش » .

« وعن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تطلقوا النساء إلا من ريبة فإن الله عز وجل لا يحب الذواقين ولا الذواقات » .

« عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما حلف بالطلاق ولا استحلف به إلا منافق » أ هـ .

أقول أما حديث ابن عمر فقد رواه أبو داود وابن ماجة عن عبدالله بن عمر بن الخطاب موصولاً وصححه الحاكم وغيره ، ورواه أبو داود أيضاً والبيهقي مرسلاً عن محارب بن دثار وليس فيه ابن عمر ، ورجح أبو حاتم والدارقطني والبيهقي إرساله . وقال الخطابي : إنه المشهور ، ورواه الدارقطني عن معاذ بلفظ : ما خلق الله شيئاً أبغض إليه من الطلاق ، قال الحافظ ابن حجر : وإسناده ضعيف ومنقطع أ هـ، وأما حديث علّي فرواه ابن عدي في كتابه الكامل في معرفة الضعفاء عنه رضي الله عنه بإسناده ضعيف . بل قيل : موضوع ورواه الخطيب عن علي أيضاً مرفوعاً ، وفي إسناده عمر بن جميع يروي الموضوعات عن الأثبات .

وأما حديث أبي موسى فقد رواه الطبراني عنه رضي الله عنه مرفوعاً ، وكذا الدارقطني في الأفراد ، ورواه الطبراني في الكبير أيضاً عن عبادة بلفظ إن الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات ، وفي سنده راو لم يسم ، وبقية رجال إسناده ثبات ، وأما حديث أنس فرواه ابن عساكر في تاريخه عن أنس رضي الله عنه وسنده ضعيف جداً .

« وعن ثوبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أيما امرأة سألت

زوجها الطلاق من غير بأس به حرام عليها رائحة الجنة » أخرجه أبو داود والترمذي .

﴿ فإذا بلغن أجلهن ﴾ أي قاربن انقضاء أجل العدة وشارفن آخرها ﴿ فأمسكوهن بمعروف ﴾ أي راجعوهن بحسن معاشرة ، وإنفاق مناسب ، ورغبة فيهن من غير قصد إلى مضارة لهن بطلاق آخر ، لأجل إيجاب عدة أخرى ، وغير ذلك ﴿ أو فارقوهن بمعروف ﴾ أي اتركوهن حتى تنقضي عدتهن ، فيملكن نفوسهن مع إيفائهن بما هو لهن عليكم من الحقوق ، وترك المضارة لهن بالفعل والقول ، فقد ضمنت الآية بإفصاحها الحث على فعل الخيرات وبإفهامها اجتناب المنكرات .

﴿ وأشهدوا ذويْ عدل منكم ﴾ أي صاحبي عدالة ، فإن العدل ضد الجور وهو يرجع إلى معنى العدالة ، وهذه شهادة على الرجعة ، وقيل : على الطلاق ، وقيل : عليهما قطعاً للتنازع وحسماً لمادة الخصومة ، والأمر للندب لئلا يقع بينهما التجاحد ، كما في قوله : ﴿ وأشهدوا إذا تبايعتم ﴾ وقيل : إنه للوجوب وإليه ذهب الشافعي ، قال : الإشهاد واجب في الرجعة مندوب إليه في الفرقة ، وإليه ذهب أحمد بن حنبل ، وفي قول الشافعي : إن الرجعة لا تفتقر إلى الإشهاد كسائر الحقوق ، وروي نحو هذا عن أبي حنيفة وأحمد ، وعن ابن سيرين أن رجلاً سأل عمران بن حصين عن رجل طلق ولم يشهد ، قال : بئسما صنع طلق في بدعة وارتجع في غير سنة ، فيشهد على طلاقه وعلى مراجعته ويستغفر الله .

﴿ وأقيموا الشهادة لله ﴾ هذا أمر للشهود بأن يأتوا بما شهدوا به تقرباً إلى الله . وإنما حث على أداء الشهادة لما فيه من العسر على الشهود ، لأنه ربما يؤدي إلى أن يترك الشاهد مهماته ولما فيه من عسر لقاء الحاكم الذي يؤدي عنده ، وربما بعد مكانه ، وكان للشاهد عوائق ، وقيل : الأمر للأزواج بأن يقيموا الشهادة أي الشهود عند الرجعة فيكون قوله : ﴿ وأشهدوا ذوي عدل

منكم ﴾ أمراً بنفس الإشهاد ، ﴿ وأقيموا الشهادة ﴾ أمر بأن تكون خالصة لله لا لمشهود عليه ، أوْ لَهُ ، ولا لغرض من الأغراض سوى إقامة الحق ودفع الضرر .

﴿ ذلكم ﴾ أي ما تقدم من الأمر بالإشهاد وإقامة الشهادة لله ، أو ما ذكر من أول السورة إلى هنا ﴿ يوعظ به ﴾ أي يلين ويرقق به ﴿ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ خص المؤمن لأنه المنتفع بذلك دون غيره .

﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ﴾ مما وقع فيه من الشدائد والمحن ، والجملة اعتراضية مؤكدة لما سبق من إجراء أمر الطلاق على السنة ، والمعنى ومن يتق الله فطلق للسنة ولم يضار المعتدة ، ولم يخرجها من مسكنها ، واحتاط فأشهد ، يجعل الله له مخرجاً مما في شأن الأزواج من الغموم والوقوع في المضايق ، ويفرج عنه ويعطيه الخلاص . قال ابن مسعود : مخرجه أن يعلم أنه من قبل الله ، وأن الله هو الذي يعطيه ، وهو يمنعه ، وهو يبتليه ، وهو يعافيه ، وهو يدفع عنه .

وقال ابن عباس ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة .

« وعن جابر قال : نزلت هذه الآية في رجل من أشجع كان فقيراً خفيف ذات اليد كثير العيال ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله فقال : اتق الله واصبر ، فلم يلبث إلا يسيراً حتى جاء ابن له بغنم كان العدو أصابوه فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عنها وأخبره خبرها فقال : كلها فنزلت : ﴿ ومن يتق الله الآية ﴾ » أخرجه[1] الحاكم وصححه وضعفه الذهبي .

« وعن ابن عباس قال : جاء عوف بن مالك الأشجعي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إن ابني أسره العدو ، وجزعت أمه

---

(١) رواه الحاكم .

فما تأمرني ؟ قال : آمرك وإياها أن تستكثرا من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فقالت المرأة : نعم ما أمرك ، فجعلا يكثران منها فتغفل عنه العدو فاستاق غنمهم ، فجاء بها إلى أبيه فنزلت هذه الآية » أخرجه[1] ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عنه ، وفي الباب روايات تشهد لهذا ، وعن عائشة في الآية قالت : يكفيه هم الدنيا وغمها .

« وعن أبي ذر قال : جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو هذه الآية فجعل يرددها حتى نعست ، ثم قال : يا أبا ذر لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم » ، وفي الباب أحاديث ، وقال الكلبي : ومن يتق الله بالصبر عند المصيبة يجعل له مخرجاً من النار إلى الجنة ، وقال الحسن . مخرجاً مما نهى الله عنه ، قال أبو العالية مخرجاً من كل شيء ضيق على الناس ، قال الشعبي والضحاك : هذا في الطلاق خاصة أي من طلق كما أمره الله يكن له مخرجاً في الرجعة في العدة ، وأنه يكون كأحد الخطاب بعد العدة .

﴿ ويرزقه ﴾ فرجاً وخلفاً ﴿ من حيث لا يحتسب ﴾ قال ابن مسعود : أي من حيث لا يدري ، يعني من وجه لا يخطر بباله ، ولا يكون في حسابه وقال الحسين بن الفضل : ومن يَتّق الله في أداء الفرائض يجعل له مخرجاً من العقوبة ، ويرزقه الثواب من حيث لا يحتسب ، أي يبارك له فيما آتاه وقال سهل بن عبدالله : ومن يتق الله في اتباع السنة يجعل له مخرجاً من عقوبة أهل البدع ، ويرزقه الجنة من حيث لا يحتسب ، وقيل غير ذلك ، وظاهر الآية العموم ، ولا وجه للتخصيص بنوع خاص . ويدخل في ذلك ، ما فيه السياق دخولاً أولياً ، فإن قيل : نرى كثيراً من الأتقياء مضيقاً عليه في الرزق ، أجيب بأنه لا يخلو عن رزق ، والآية لم تدل على أن المتقي يوسع له في الرزق ، بل دلت على أنه يرزق من حيث لا يحتسب ، وهذا أمر مطرد في الأتقياء أفاده الكرخي .

---

(١) رواه مسلم

﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ أي ومن وثق بالله فيما نابه كفاه ما أهمه ، قال ابن مسعود في الآية : ليس المتوكل الذي يقول تقضي حاجتي ، وليس كل من يتوكل على الله كفاه ما أهمه ، ودفع عنه ما يكره ، وقضى حاجته ، ولكن الله جعل فضل من توكل على من لم يتوكل أن يكفر عنه سيئآته ويعظم له أجراً .

﴿ إن الله بالغ أمره ﴾ فلا بد من كونه ينفذه ، سواء حصل توكل أو لا قال ابن مسعود ، قاضٍ أمره على من توكل وعلى من لم يتوكل ، ولكن المتوكل يكفر عن سيئآته ويعظم له أجراً قرأ الجمهور بتنوين بالغ ونصب أمره وقرىء بالإضافة وهي سبعية ، وقرىء بتنوين بالغ ورفع أمره ، لأنه فاعل بالغ ، أو على أن أمره مبتدأ مؤخر وبالغ خبر مقدم ، قال الفراء في توجيه هذه القراءة : أي أمره بالغ ، وقرىء بالغاً بالنصب على الحال ، ويكون خبر إن قوله : ﴿ قد جعل الله لكل ﴾ الخ ، والمعنى على الأولى والثانية أن الله سبحانه بالغ ما يريده من الأمر لا يفوته شيء ولا يعجزه مطلوب ، وعلى الثالثة أن الله نافذ أمره لا يرده شيء .

﴿ قد جعل الله لكل شيء قدراً ﴾ أي تقديراً وتوقيتاً أو مقداراً لا يتعداه وإن اجتهد جميع الخلائق في أن يتعداه فقدسجل سبحانه للشدة أجلاً تنتهي إليه ، وللرخاء أجلاً ينتهي إليه ، وهذا بيان لوجوب التوكل على الله وتفويض الأمر إليه ، لأنه إذا علم أن كل شيء من الرزق ونحوه لا يكون إلا بتقديره وتوقيته لم يبق إلا التسليم للقدر والتوكل ، قال السدي : هو قدر الحيض والعدة ، وقال ابن مسعود : يعني أجلاً ومنتهى ينتهي إليه .

« وعن عمر بن الخطاب قال : قال صلى الله عليه وسلم : لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقتم كما ترزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً » أخرجه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة والحاكم وصححه وغيرهم .

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴿٥﴾ أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ﴿٧﴾﴾

﴿ واللائي يئسن من المحيض من نسائكم ﴾ وهن الكبار اللاتي قد انقطع حيضهن وأيسن منه عن أبيّ بن كعب أن ناساً من أهل المدينة لما نزلت هذه الآية في البقرة في عدة النساء قالوا : لقد بقي من عدة النساء عدد لم يذكر في القرآن الصغار والكبار اللاتي قد انقطع حيضهن ، وذوات الحمل ، فأنزل الله هذه الآية .

﴿ إن ارتبتم ﴾ أي شككتم وجهلتم كيف عدتهن وما قدرها ، وقيل معناه إن تيقنتم ، ورجح ابن جرير أنه بمعنى الشك وهو الظاهر ، قال الكرخي صفة كاشفة لأن عدتهن ذلك ، سواء وجد شك أم لا ، قال الزجاج : إن ارتبتم في حيضها وقد انقطع عنها الحيض وكانت ممن تحيض مثلها ، وقال مجاهد : إن ارتبتم يعني لم تعلموا عدة الآيسة والتي لم تحض .

﴿ فعدتهن ثلاثة أشهر ﴾ وقيل : المعنى إن ارتبتم في الدم الذي يظهر منها هل هو حيض أم لا ؟ بل استحاضة ؟ فالعدة هذه ، وقيل : إن ارتبتم في دم البالغات مبلغ اليأس ، وقد قدروه بستين سنة أو بخمس وخمسين ، فعدتهن هذه ، وهذا قول عثمان وعلي وزيد بن ثابت وعبدالله بن مسعود وبه

قال عطاء وإليه ذهب الشافعي وأصحاب الرأي ، وقال عمر : إنها تتربص تسعة أشهر ، وقال الحسن سنة فإن لم تحض فتعتد بثلاثة أشهر فإذا كانت هذه عدة المرتاب بها فغير المرتاب بها أولى بذلك .

﴿ واللائي لم يحضن ﴾ لصغرهن وعدم بلوغهن سن المحيض ، أو لأنهن لا حيض لهن أصلاً وإن كن بالغات ، قاله الخطيب . أي فعدتهن ثلاثة أشهر أيضاً ، وحذف هذا لدلالة ما قبله عليه ، والأولى أن يقدر مفرداً أي فكذلك أو مثلهن ، ولو قيل : إنه معطوف على اللائي يئسن عطف المفردات وأخبر عن الجميع بقوله : فعدتهن لكان وجهاً حسناً وأكثر ما فيه توسط الخبر بين المبتدأ وما عطف عليه ، وهذا ظاهر قول الشيخ أبي حيان .

﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ أي انتهاء عدتهن وضع الحمل وظاهر الآية أن عدة الحوامل بالوضع سواء كن مطلقات أو متوفي عنهن أزواجهن ، وعمومها باق فهي مخصصة لآية يتربصن بأنفسهن ، أي ما لم يكن حوامل ، وإنما لم يعكس لأن المحافظة على عموم هذه الآية أولى من المحافظة على عموم تلك ، لأن أزواجاً في آية البقرة عمومه بدلي ، لا يصلح لجميع الأفراد في حال واحد ، لأنه جمع منكر في سياق الإثبات ، وأما أولات الأحمال فعمومه شمولي ، لأن الموصول من صيغ العموم ، وأيضاً الحكم هنا معلل بوصف الحملية بخلاف ما هناك ، وأيضاً هذه الآية متأخرة في النزول عن آية البقرة فتقديمها على تلك تخصيص ، وتقديم تلك فيها لو عمل بعمومها رفع لما في الخاص من الحكم ، فهو نسخ ، والتخصيص أولى منه ، وقد تقدم الكلام على هذا في سورة البقرة مستوفى ، وحققنا البحث في هذه الآية وفي الآية الأخرى : ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً . ﴾

« عن أبيّ بن كعب في الآية قال : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم : أهي المطلقة ثلاثاً ؟ أو المتوفى عنها ؟ قال هي المطلقة ثلاثاً والمتوفى عنها » .

أخرجه عبدالله بن أحمد في زوائد المسند ، وأبو يعلى وغيرهما .

« وروي بوجه آخر مرفوعاً عنه ، وعن ابن مسعود أنه بلغه أن علياً قال : تعتد آخر الأجلين فقال : من شاء لاعنته إن الآية التي في سورة النساء القصري نزلت بعد سورة البقرة ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ بكذا وكذا شهراً وكل مطلقة أو متوفى عنها زوجها فأجلها أن تضع حملها » ، وروي منه نحو هذا من طرق ، وبعضها في صحيح البخاري ، وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما .

« من حديث أم سلمة أن سبيعة الأسلمية توفي عنها زوجها وهي حبلى فوضعت بعد موته بأربعين ليلة ، فخطبت فأنكحها صلى الله عليه وسلم » وفي الباب أحاديث .

﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً ﴾ أي من يتقه في امتثال أوامره واجتناب نواهيه ، يسهل عليه أمره في الدنيا والآخرة ، وقال الضحاك : من يتق الله في اجتناب معاصيه يجعل له من أمره يسراً في توفيقه للطاعة ﴿ ذلك ﴾ أي ما ذكر من الأحكام وتفاصيل العدة ﴿ أمر الله ﴾ أي حكمه الذي حكم به بين عباده وشرعه الذي شرعه لهم ومعنى : ﴿ أنزله إليكم ﴾ أنزله في كتابه على رسوله ، وبينه لكم ، وفصل أحكامه وأوضح حلاله وحرامه .

﴿ ومن يتق الله ﴾ بترك ما لا يرضاه ﴿ يكفر عنه سيئآته ﴾ التي اقترفها لأن التقوى من أسباب المغفرة للذنوب ﴿ ويعظم له أجراً ﴾ أي يعطيه من الأجر في الآخر أجراً عظيماً وهو الجنة ﴿ اسكنوهن من حيث سكنتم ﴾ هذا كلام مبتدأ يتضمن بيان ما يجب للنساء المطلقات وغيرهن من المفارقات من السكنى ، ومن للتبغيض أي بعض مكان سكناكم قاله الزمخشري ، وقال الكسائي والرازي : من زائدة ، وقال الحوفي وأبو البقاء : إنها لابتداء الغاية .

﴿ من وجدكم ﴾ أي من سعتكم وطاقتكم ، وقال ابن عباس : من سعيكم والوجد بالحركات الثلاث ، والمشهور باتفاق القراء بالضم بمعنى المقدرة ، قال الفراء : يقول : على من يجد فإن كان موسعاً وسع عليها في المسكن والنفقة ، وإن كان فقيراً فعلى قدر ذلك ، قال قتادة : إن لم تجد إلا ناحية بيتك فأسكنها فيه وقد اختلف أهل العلم في المطلقة ثلاثاً هل لها سكنى ونفقة أم لا ؟ فذهب مالك والشافعي إلى أن لها سكنى ولا نفقة لها ، وذهب أبو حنيفة وأصحابه إلى أن لها النفقة والسكنى ، وذهب أحمد واسحق وأبو ثور إلى أنه لا نفقة لها ولا سكنى ، وهذا هو الحق وقد قرره الشوكاني في شرحه للمنتقي بما لا يحتاج الناظر فيها إلى غيره ، وأوضحاه في الروضة الندية شرح الدرر البهية .

﴿ ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن ﴾ نهى سبحانه عن مضارتهن بالتضييق عليهن في المسكن والنفقة ، وقال مجاهد : في المسكن ، وبه قال ابن عباس ، وقال مقاتل : في النفقة ، وقال أبو الضحى : هو أن يطلقها فإذا بقى يومان من عدتها راجعها ثم طلقها ﴿ وإن كن ﴾ أي المطلقات الرجعيات أو البائنات دون الحوامل المتوفي عنهن .

﴿ أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن ﴾ أي إلى غاية هي وضعهن للحمل ولا خلاف بين العلماء في وجوب النفقة والسكنى للحامل المطلقة ، فأما الحامل المتوفى عنها زوجها فقال علي وابن عمر وابن مسعود وشريح والنخعي والشعبي وحماد وابن أبي ليلى وسفيان وأصحابه : ينفق عليها من جميع المال حتى تضع ، وقال ابن عباس وابن الزبير وجابر بن عبدالله ومالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابه : لا ينفق عليها إلا من نصيبها ، وهذا هو الحق للأدلة الواردة في ذلك من السنة المطهرة ، قال ابن عباس في الآية : فهذه في المرأة يطلقها زوجها وهي حامل فأمره الله أن يسكنها وينفق عليها حتى تضع ، وإن أرضعت حتى تفطم فإن أبان طلاقها وليس لها حمل فلها السكنى

حتى تنقضي عدتها ولا نفقة لها .

﴿ فإن أرضعن لكم ﴾ أولادكم بعد ذلك ﴿ فآتوهن أجورهن ﴾ أي أجور إرضاعهن ، والمعنى أن المطلقات إذا أرضعن أولاد الأزواج المطلقين لهن منهن ، فلهن أجورهن على ذلك .

﴿ وائتمروا بينكم بمعروف ﴾ هو خطاب للأزواج والزوجات ، يعني تشاوروا بينكم بما هو معروف غير منكر ، وليقبل بعضكم من بعض المعروف والجميل ، قال الكسائي : ائتمروا تشاوروا ، وتلا قوله تعالى : ﴿ إن الملأ يأتمرون بك ﴾ وأصل معناه ليأمر بعضكم بعضاً بما هو متعارف بين الناس غير منكر عندهم ، قال مقاتل : المعنى ليتراض الأب والأم على أجر مسمى ، قيل : والمعروف الجميل من الزوج أن يوفر لها الأجر ، والمعروف الجميل منها أن لا تطلب ما يتعاسره الزوج من الأجر .

﴿ وإن تعاسرتم ﴾ في حق الولد وأجر الرضاع فأبى الزوج أن يعطي الأم الأجر وأبت الأم أن ترضعه إلا بما تريد من الأجر ﴿ فسترضع له أخرى ﴾ أي يستأجر مرضعة أخرى ترضع ولده ، ولا يجب عليه أن يسلم ما تطلبه الزوجة ، ولا يجوز له أن يكرهها على الإرضاع بما يريد من الأجر ، وقال الضحاك : إن أبت الأم أن ترضع استأجر لولده أخرى ، فإن لم تقبل أجبرت أمه على الرضاع بالأجر ، وهو خبر بمعنى الأمر ، والظاهر أنه على بابه ، وفيه معاتبة للأم على المعاسرة ، لأن المبذول من جهتها اللبن ، وهو غير متمول ، ولا يضن به لا سيما على الولد بخلاف ما يبذل من الأب فإنه مال يضن به عادة .

﴿ لينفق ذو سعة من سعته ﴾ فيه الأمر لأهل السعة بأن يوسعوا على المرضعات من نسائهم على قدر سعتهم ﴿ ومن قدر عليه رزقه ﴾ أي كان رزقه بمقدار القوت أو مضيق ليس بموسع ﴿ فلينفق مما آتاه الله ﴾ أي مما أعطاه من الرزق ليس عليه غير ذلك ، وفي الخطيب يقدر القاضي النفقة بحسب حال

المنفق والحاجة من المنفق عليه بالإجتهاد على مجرى العادة ، قال تعالى : ﴿ وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ﴾ ، ولكن نفقة الزوجة مقدرة عند الشافعي محدودة ، فلا اجتهاد للحاكم ولا للمفتي فيها ، وتقديرها هو بحسب حال الزوج وحده من عسره ويسره ، ولا اعتبار بحالها ، فيجب لابنة الخليفة ما يجب لابنة الحارث ، فيلزم الزوج الموسر مدان والمتوسط مد ونصف ، والمعسر مد لظاهر قوله تعالى : ﴿ لينفق ذو سعة من سعته ﴾ فجعل الاعتبار بالزوج في العسر واليسر ، ولأن الاعتبار بحالها يؤدي إلى الخصومة لأن الزوج يدعي أنها تطلب فوق كفايتها ، وهي تزعم أنها تطلب قدر كفايتها فقدرت قطعاً للخصومة انتهى .

والتقدير المذكور مسلم في نفقة الزوجة ونفقة المطلقة ، إذا كانت رجعية مطلقاً أو بائناً حاملاً ، بخلاف المرضعة ، قاله سليمان الجمل . عن أبي سنان قال : سأل عمر بن الخطاب عن أبي عبيدة فقيل : إنه يلبس الغليظ من الثياب ، ويأكل أخشن الطعام ، فبعث إليه بألف دينار وقال للرسول : انظر ماذا يصنع بها إذا أخذها ، فما لبث أن لبس ألين الثياب وأكل أطيب الطعام ، فجاء الرسول فأخبره فقال : رحمه الله تأول هذا الآية ﴿ لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ﴾ .

﴿ لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها ﴾ أي ما أعطاها من الرزق ، فلا يكلف الفقير بأن ينفق ما ليس في وسعه ، بل عليه ما يقدر عليه ، وتبلغ إليه طاقته مما أعطاه الله من الرزق ﴿سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾ أي بعد ضيق وشدة سعة وغنى ، وهذا وعد لذي العسر باليسر ، وقد صدق الله وعده فيمن كانوا موجودين عند نزول الآية ، ففتح عليهم جزيرة العرب ، ثم فارس والروم ، حتى صاروا أغنى الناس ، وصدق الآية دائم غير أنه في الصحابة أتم لأن إيمانهم أقوى من غيرهم ولما ذكر سبحانه ما تقدم من الأحكام حذر من مخالفتها وذكر عتو قوم خالفوا أوامره فحل بهم عذابه فقال :

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾

﴿ وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله ﴾ يعني وكم من أهل قرية عصوا أمر الله ورسله وأعرضوا عن أمرهما على تضمين عتت معنى أعرضت أو خرجت ، وقد قدمنا الكلام في كأين في آل عمران وغيرهما ﴿ فحاسبناها حساباً شديداً ﴾ أي شددنا على أهلها في الحساب بما عملوا بالمناقشة والاستقصاء ، قال مقاتل : حاسبها الله بعملها في الدنيا فجازاها بالعذاب ، وهو معنى قوله : ﴿ وعذبناها عذاباً نكراً ﴾ أي عذبنا أهلها عذاباً عظيماً منكراً في الآخرة ، وقيل : في الكلام تقديم وتأخير أي عذبنا أهلها عذاباً نكراً في الدنيا بالجوع والقحط والسيف والخسف والمسخ ، وحاسبناهم في الآخرة حساباً شديداً . قال ابن عباس : يقول لم ترحم ، والنكر المنكر قرىء نكراً بسكون الكاف وضمها وهما سبعيتان .

﴿ فذاقت وبال أمرها ﴾ أي عاقبة كفرها ﴿ وكان عاقبة أمرها خسراً ﴾ أي هلاكاً في الدنيا وعذاباً في الآخرة ، وجيء به على لفظ الماضي ، لأن المنتظر من وعد الله ووعيده ملقى في الحقيقة وما هو كائن فكأن قد كان ﴿ أعد الله لهم عذاباً شديداً ﴾ في الآخرة وهو عذاب النار والتكرير للتأكيد .

﴿ فاتقوا الله يا أولي الألباب ﴾ أي يا أصحاب العقول الراجحة وقوله :

﴿ الذين آمنوا ﴾ في محل نصب بتقدير أعني ، بياناً للمنادى ، أو عطف بيان له ، او نعت ﴿ قد أنزل الله إليكم ذكراً رسولاً ﴾ فيه أوجه .

أحدها : وإليه ذهب الزجاج والفارسي أنه منصوب بالمصدر المنون قبله ، لأنه ينحل بحرف مصدري وفعل ، كأنه قيل : إن ذكر رسولاً .

الثاني ؛ أنه جعل نفس الذكر مبالغة فأبدل منه .

الثالث : أنه بدل منه على حذف مضاف من الأول تقديره أنزل ذا ذكر رسولاً .

الرابع: كذلك إلا أن رسولاً نعت لذلك المحذوف .

الخامس : أنه بدل منه على حذف مضاف من الثاني ، أي ذكراً ذا رسول .

السادس : أن يكون رسولاً نعتاً لذكراً على حذف مضاف ، أي ذكراً للرسول ، فذا رسول نعت لذكراً .

السابع : أن يكون رسولاً بمعنى رسالة ، فيكون رسولاً بدلاً صريحاً من غير تأويل ، أو بياناً عند من يرى جريانه في النكرات كالفارسي ، إلا أن هذا يبعده قوله الآتي : ﴿ يتلو عليكم ﴾ لأن الرسالة لا تتلو إلا بمجاز .

الثامن : أن يكون رسولاً منصوباً بفعل مقدر أي أرسل رسولاً .

قال الزجاج : إنزال الذكر دليل على إضمار أرسل .

التاسع : أن يكون منصوباً على الإغراء أي اتبعوا والزموا رسولاً ، ذكره السمين . وقيل إن الذكر ههنا بمعنى الشرف كقوله : ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم ﴾ ، وقوله : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ ، ثم بين هذا الشرف فقال : ﴿ رسولاً ﴾ ، واختلف الناس في رسولاً ، هل هو النبي صلى الله عليه وسلم ؟ أو القرآن نفسه ؟ أو جبريل ؟ فقد ذهب الأكثر ومنهم ابن عباس « إلى

أن المراد بالرسول هنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال الكلبي : هو جبريل ، وبه قال الزمخشري ، والمراد بالذكر القرآن ، ويختلف المعنى باختلاف وجوه الإعراب السابقة كما لا يخفى ، ثم نعت سبحانه الرسول المذكور بقوله :

﴿ يتلو عليكم آيات الله مبينات ﴾ أي حال كونها واضحات ظاهرات قرأ الجمهور على صيغة اسم المفعول أي بينها الله وأوضحها ، وقرىء على صيغة اسم الفاعل ، أي الآيات تبين للناس ما يحتاجون إليه من الأحكام ، ورجح الأول أبو حاتم وأبو عبيدة، لقوله : ﴿ قد بينا لكم الآيات ﴾ ﴿ ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ بعد مجيء الذكر والرسول ﴿ من الظلمات إلى النور ﴾ اللام متعلقة بيتلو أي ليخرج الرسول الذي يتلو الآيات إياهم من ظلمات الضلالة إلى نور الهداية ، أو من الجهل إلى العلم ، أو من الكفر إلى الإيمان ، أو متعلقة بأنزل فيكون المخرج هو الله سبحانه .

﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً ﴾ أي يجمع بين التصديق والعمل بما فرضه الله عليه مع اجتناب ما نهاه عنه ﴿ يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ قرأ الجمهور يدخله بالتحتية وقرىء بالنون وهي سبعية وعليها ففي الكلام التفات من الغيبة إلى التكلم وجمع الضمير في قوله : ﴿ خالدين فيها أبداً ﴾ باعتبار معنى ﴿ من ﴾ ووحدة في ﴿ ندخله ﴾ باعتبار لفظها ﴿ قد أحسن الله له رزقاً ﴾ أي وسع له رزقه في الجنة التي لا ينقطع نعيمها ، وقيل : يرزقون طاعة في الدنيا وثواباً في الآخرة ، وقال القشيري : الحسن ما كان على حد الكفاية لا نقصان فيه يتعطل عن أموره بسببه ، ولا زيادة تشغله عن الاستمتاع بما رزق لحرصه ، كذلك أرزاق القلوب أحسنها أن يكون له من الأحوال ما يستقل بها من غير نقصان ، ولا زيادة لا يقدر على الاستمرار عليها ، ذكره الخطيب .

﴿ الله الذي خلق ﴾ أي أوجد وحده من العدم بقدرته على وفق ما دبر بعلمه ، على هذا المنوال الغريب البديع ﴿ سبع سموات ﴾ يعني بعضها فوق

بعض ، قال النسفي : أجمع المفسرون على أن السموات سبع ، وقال الخطيب : لا خلاف فيه لحديث الإسراء وغيره ﴿ ومن الأرض مثلهن ﴾ في العدد يعني سبعاً ، قرأ الجمهور مثلهن بالنصب على أنه عطف على سبع سموات ، قاله الزمخشري ، أو على تقدير فعل أي وخلق من الأرض مثلهن ، وقرىء بالرفع على الابتداء ، والجار والمجرور قبله خبره ، قيل : ما في القرآن آية تدل على أن الأرضين سبع إلا هذه الآية ، واختلف الناس في المثلية وكيفية طبقات الأرض على قولين .

أحدهما : وهو قول الجمهور : إنها سبع أرضين طباقاً بعضها فوق بعض ، بين كل أرض وأرض مسافة كما بين السماء والأرض ، وفي كل أرض سكان من خلق الله ، وقال الضحاك : إنها مطبقة بعضها على بعض من غير فتوق ، بخلاف السموات ، قال القرطبي : والأول أصح لأن الأخبار دالة عليه في البخاري والترمذي وغيرهما .

وفي صحيح مسلم :

« عن سعيد بن زيد قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: من أخذ شبراً من الأرض ظلماً فإنه يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين إلى آخر كلامه[1] » .

« وفي الحديث لم ير قرية يريد دخولها إلا قال حين يراها : اللهم رب السموات السبع وما أظللن ، ورب الأرضين السبع ، وما أقللن الحديث » ، وقد مضى في سورة البقرة قول الماوردي وعلى أنها سبع أرضين تختص دعوة الإسلام بأهل الأرض العليا ، ولا نلزم في غيرها من الأرضين ، وإن كان فيها من يعقل من خلق مميز وفي مشاهدتهم السماء واستمدادهم الضوء منها قولان أحدهما أنهم يشاهدون السماء من كل جانب من أرضهم ، ويستمدون الضياء منها ، قال ابن عادل : وهذا قول من جعل الأرض مبسوطة ، والثاني أنهم لا

---

(١) رواه مسلم .

يشاهدون السماء وأن الله خلق لهم ضياء يشاهدونه ، قال ابن عادل : وهذا قول من جعل الأرض كرويّة.

وعن ابن عباس أنها سبع أرضين منبسطة ليس بعضها فوق بعض تفرق بينها البحار ، وتظل جميعها السماء حكاه الكلبي عن أبي صالح عنه ، فعلى هذا إن كان لقوم منهم وصول إلى أرض أخرى احتمل أن تلزمهم دعوة الإسلام لإمكان الوصول إليهم ، واحتمل أن لا تلزمهم لأنها لو لزمتهم لكان النص بها وارداً ، ولكان النبي صلى الله عليه وسلم بها مأموراً ذكره الخطيب في تفسيره ، وقال بعض العلماء : السماء في اللغة عبارة عما علاك فالأولى بالنسبة الى السماء الثانية أرض وكذلك السماء الثانية بالنسبة الى السماء الثالثة أرض ، وكذا البقية بالنسبة إلى ما تحته سماء ، وبالنسبة إلى ما فوقه أرض ، فعلى هذا تكون السموات السبع وهذه الأرض الواحدة سبع سموات وسبع أرضين انتهى .

« وعن ابن عباس أنه قال له رجل : ﴿ الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ﴾ إلى آخر السورة ، فقال ابن عباس : ما يؤمنك أن أخبرك بها فتكفر ؟ » أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر من طريق سعيد بن جبير .

« وعنه في قوله : ومن الأرض مثلهن قال : سبع أرضين في كل أرض نبي كنبيكم وآدم كآدم ونوح كنوح وإبراهيم كإبراهيم وعيسى كعيسى » أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب من طريق أبي الضحى ، قال البيهقي : هذا إسناد صحيح ، وهو شاذ بمرة لا أعلم لأبي الضحى عليه متابعاً .

« وعنه قال : في كل أرض مثل إبراهيم ونحو ما على الأرض من الخلق» أخرجه ابن جرير الطبري من طريق شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي الضحى قال الحافظ في الفتح : هكذا أخرجه مختصراً وإسناده صحيح .

وقال ابن كثير : هذا وأمثاله إذا لم يصح سنده إلى معصوم فهو مردود على قائله انتهى ، وتصحيح الحاكم له ليس بذاك قال السيوطي : ولم أزل أتعجب من تصحيح الحاكم له حتى رأيت البيهقي قال : إسناده صحيح ، لكن شاذ بمرة انتهى ، ولا يلزم من صحة الإسناد صحة المتن فقد يصح الإسناد ويكون في المتن علة وشذوذ تقدح في صحته ، قاله القسطلاني ، وقال في البداية ؛ هذا محمول إن صح نقله على أن ابن عباس أخذه من الإسرائيليات ونحوه ، قال السخاوي في المقاصد الحسنة : ومثله في تفسير روح البيان وزاد نقلاً عن السيوطي أنه قال : يمكن أن يؤول على أن المراد بهم الذين كانوا يبلغون الجن عن أنبياء البشر ، ولا يبعد أن يسمى كل منهم باسم النبي الذي يبلغ عنه انتهى ونحوه في إرشاد الساري والحاصل أن الأثر المذكور وإن صح فهو موقوف شاذ ، والشاذ لا يحتج به كما قال الطيبي في الخلاصة وغيره في غيرها ولفظها ، والموقوف هو مطلق ما روي عن الصحابي من قول أو فعل متصلاً كان أو منقطعاً ، وهو ليس بحجة على الصحيح ، وقال النووي في شرح مسلم : الموقوف ليس بحجة على المختار عند الغزالي وهو الصحيح انتهى .

قال الخفاجي : الذي نعتقد أن الأرض سبع ولها سكان من خلقه يعلمهم الله تعالى انتهى ، وهذا أعدل الأقوال وأحوطها ، وقال النيسابوري : ذكر الثعالبي في تفسيره فصلاً في خلق السموات والأرض وأشكالهم وأسمائهم أضربا عن إيرادها لعدم الوثوق بمثل تلك الروايات انتهى ، وما جاء عن كعب ووهب وأمثالهما في هذا الباب فكلها لا يعتد به لأنهم أخذوه من الإسرائيليات .

« وعن جابر بن عبدالله في حديث طويل يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم : ثم قال : يا محمد ما تحت هذه؟ يعني الأرض قال : خلق ، قال : فما تحت الأرض؟ قال : الماء قال : فما تحت الماء؟ قال : ظلمة قال : فما تحت الظلمة؟ قال: الهواء ، قال : فما تحت الهواء؟ ففاضت عينا رسول الله

صلى الله عليه وسلم وقال : انقطع علم الخلائق أيها السائل ، فقال : صدقت أشهد أنك رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتدرون من هذا ؟ قالو : الله ورسوله أعلم قال : هذا جبريل » الحديث مختصراً أخرجه الحافظ ابن كثير بسنده ، وأخرجه ابن مردويه أيضاً عنه بطوله ، وهذا الحديث يرد ما قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنه إن كان قد صح قوله .

وبسط الكلام على هذا لا يأتي بفائدة يعتد بها ، ويكفي الإعتقاد بكون السموات سبعاً والأرضين سبعاً كما ورد به الكتاب العزيز والسنة المطهرة ، ولا ينبغي الخوض في خلقهما وما فيهما فإنها شيء استأثر الله سبحانه وتعالى بعلمه . لا يحيط به أحد سواه ولم يكلفنا الله تعالى بالخوض في أمثال هذه المسائل والتفكير فيها والكلام عليها وبالله التوفيق .

« وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الأرضين بين كل أرض والتي تليها مسيرة خمسمائة عام ، والعليا منها على ظهر حوت قد التقى طرفاه في السماء ، والحوت على صخرة ، والصخرة بيد ملك ، والثانية تسجل الريح ، والثالثة فيها حجارة جهنم ، والرابعة فيها كبريت جهنم الحديث بطوله » وتفصيله قال الذهبي : متعقباً للحاكم : هو حديث منكر ، قال بعض أهل العلم : لا ينبغي لأحد لأن يغتر بتصيحح الحاكم للأحاديث حتى ينظر في تعقبات الذهبي له ، أو كما قال ، وعن ابن عباس قال : سيد السموات السماء التي فيها العرش وسيد الأرضين الأرض التي نحن فيها .

﴿ يتنزل الأمر بينهن ﴾ مستأنفة أو صفة لما قبلها ، قرأ الجمهور يتنزل من التنزل ، ورفع الأمر على الفاعلية ، وقرىء ينزل من الإنزال ونصب الأمر على المفعولية والفاعل الله سبحانه ، والأمر الوحي ، وقيل : القضاء والقدر ، والضمير عائد على السموات والأرضين عند الجمهور ، أو على السموات والأرض عند من يقول إنها أرض واحدة قاله السمين ، قال المحلي في

تفسيره : ينزل به جبريل من السماء السابعة إلى الأرض السابعة انتهى ، قال علي القاري: لم نجد هذا القول لغيره من المفسرين إذ غاية من فسر الأمر بالوحي قال في تفسير قوله : ﴿ بينهن ﴾ أي بين هذه الأرض العليا التي هي أولاها ، وبين السماء السابعة التي هي أعلاها انتهى ، قال سليمان الجمل : وهذا التوقف من القاري مبني على أن المراد بالوحي وحي التكليف بالأحكام ، وليس بلازم لإمكان حمله على وحي التصرف في الكائنات ، وعبارة الخطيب والأكثرون على أن الأمر هو القضاء والقدر فعلى هذا يكون المراد بقوله : ﴿بينهن﴾ إشارة إلى ما بين الأرض السفلى التي هي أقصاها وبين السماء السابعة التي هي أعلاها ، فيجري أمر الله وقضاؤه بينهن ، وينفذ حكمه فيهن انتهى .

وعن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله هل تحت الأرضين خلق ؟ قال: نعم قال : فما الخلق ؟ قال: إما ملائكة أو جن قال مجاهد : يتنزل الأمر من السموات السبع إلى الأرضين السبع ، وقال الحسن : بين كل سماءين أرض ، وأمر ، وقال قتادة : في كل أرض من أرضه وسماء من سمائه خلق من خلقه ، وأمر من أمره ، وقضاء من قضائه . وقيل : يتنزل الأمر بينهن بحياة بعض وموت بعض ، وغنى قوم وفقر قوم ، وقيل هو ما يدبر فيهن من عجيب تدبيره فينزل المطر ويخرج النبات ويأتي بالليل والنهار ، والصيف والشتاء ، ويخلق الحيوانات على اختلاف أنواعها وهيأتها فينقلهم من حال إلى حال ، قال ابن كيسان : وهذا على مجال اللغة واتساعها كما يقول للموت : أمر الله ، وللريح والسحاب ونحوهما .

﴿ لتعلموا ﴾ اللام متعلقة بخلق او بيتنزل او بمقدر اي فعل ذلك لتعلموا ﴿ أن الله على كل شيء قدير ﴾ من غير هذا العالم يمكن أن يدخل تحت المشيئة ﴿ قدير ﴾ اي بالغ القدرة فيأتي بعالم آخر مثل هذا العالم وأبدع منه وأبدع من ذلك الى ما لا نهاية له ، بالاستدلال بهذا العالم ، فإن من قدر

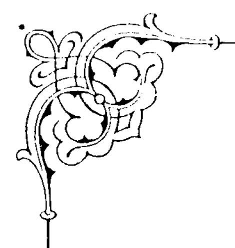
على إيجاد ذرة من العدم قدر على إيجاد ما هو دونها ومثلها وفوقها الى ما لا نهاية له ، لأنه لا فرق في ذلك بين قليل وكثير ، وجليل وحقير ، ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت قاله الخطيب .

وفي حاشية سليمان الجمل هذا كله بالنظر للإمكان العقلي وهذا لا يخالف ما نقل عن الغزالي من قوله : ليس في الإمكان أبدع مما كان ، لأن معناه أنه قد تعلق علم الله في الأزل بأنه لا يخلق عالماً غير هذا العالم ، وإن كان خلقه جائزاً ممكناً ، فمن حيث تعلق العلم بعدمه صار غير ممكن لأنه لو وقع لخالف مقتضى العلم الأزلي ، فيلزم إنقلاب العلم جهلاً فصار إيجاد عالم آخر محالاً عرضياً ، وإن كان ممكناً ذاتياً فهذا معنى قول الشيخ : ليس في الإمكان أبدع مما كان ، اي لا يمكن أن يخلق الله عالماً غير هذا العالم ، ونفي الإمكان هو الإستحالة فكأنه قال هو محال أن يخلق عالماً غير هذا العالم ، وقد عرفت أن هذه الاستحالة عرضية لا ذاتية ، وبهذا نعرف سقوط ما نقل عن البقاعي هنا تأمل انتهى .

أقول: وهذا كله ليس بالنظر للإمكان العقلي فقط كما قال سليمان الجمل ، بل الكتاب العزيز والسنة المطهرة يدلان على عموم قدرته وكمال قوته على إيجاد كل شيء فيدخل فيه إيجاد مثل هذا العالم دخولاً أولياً ، وإن لم يوجد على مقتضى العلم الأزلي ، وقول الغزالي عبارة ساقطة ونفس فلسفية لا يليق التفوه بمثلها ، وإن كان معناه صحيحاً بالتأويل البعيد الفاسد ، والتوجيه البارد الكاسد ، ونظم الكتاب العزيز العالي يغني عن مثل عبارة كلام الغزالي .

﴿ وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ﴾ فلا يخرج عن علمه شيء منها كائناً ما كان وانتصاب علماً على المصدرية لأن أحاط بمعنى علم أو هو صفة لمصدر محذوف اي أحاط إحاطة علماً ، ويجوز أن يكون تمييزاً محولاً عن الفاعل من غير لفظ الأول .





سورة التحريم

﴿ وقال القرطبي : وتسمى سورة النبي صلى الله عليه وسلم اثنتا عشرة آية ﴾

وهي مدنية قال القرطبي في قول الجميع قال ابن عباس : نزلت بالمدينة وعن ابن الزبير نحوه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ (٣) إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ (٤)

﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ المراد بالتحريم هنا الامتناع من الاستمتاع لا اعتقاد كونه حراماً بعد ما أحله الله له ، فإن هذا الاعتقاد لا يصدر منه صلى الله عليه وسلم ، لأنه كفر قاله الخطيب ﴿ تبتغي مرضاة أزواجك ﴾ استئناف او تفسير لقوله : تحرم او حال ، والمرضاة اسم مصدر وهو الرضا ، وأصله مرضوة ، وهو مضاف الى المفعول اي أن ترضي أزواجك او الى الفاعل ، اي أن يرضين هن ، والمعنى لا ينبغي منك أن تشتغل بما يرضي الخلق بل اللائق أن أزواجك وسائر الخلق تسعى في رضاك ، وتتفرغ انت لما يوحى اليك من ربك ، قال الخطيب : وفيه تنبيه على أن ما صدر منه لم يكن على ما ينبغي ، وقيل : كان ذلك ذنباً من الصغائر ، فلذا عاتبه الله عليه ، وقيل : إنها معاتبة على ترك الأولى ، وقال النسفي : كان هذا زلة منه .

﴿ والله غفور رحيم ﴾ اي بليغ المغفرة ،والرحمة لما فرط منك من تحريم ما أحل الله لك ، واختلف في سبب نزول هذه الآية على أقوال ، الأول قول أكثر المفسرين : قال الواحدي : قال المفسرون : كان النبي صلى الله عليه وسلم في بيت حفصة فزارت أباها ، فلما رجعت أبصرت مارية القبطية في بيتها

مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم تدخل حتى خرجت مارية ، ثم دخلت فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم في وجه حفصة الغيرة والكآبة ، قال لها : لا تخبري عائشة ، ولك علي أن لا أقربها أبداً ، فأخبرت حفصة عائشة ، وكانتا متصافيتين فغضبت عائشة ، ولم تزل بالنبي صلى الله عليه وسلم حتى حلف أن لا يقرب مارية فأنزل الله هذه السورة[1] ، وبه قال المحلي ، وقال القرطبي : أكثر المفسرين على أن الآية نزلت في حفصة ، وذكر القصة وقال ابو السعود والنسفي روي أن النبي صلى الله عليه وسلم ، خلا بمارية في يوم عائشة ، وعلمت بذلك حفصة . فقال لها اكتمي علي فقد حرمت مارية على نفسي ، وأبشرك أن أبا بكر وعمر يملكان بعدي أمر أمتي ، فأخبرت به عائشة وكانتا متصافيتين إنتهى .

« عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت له امة يطؤها فلم تزل عائشة وحفصة حتى جعلها على نفسه حراماً ، فأنزل الله هذه الآية » أخرجه النسائي والحاكم وصححه وابن مردويه .

« وعن ابن عباس قال : قلت لعمر بن الخطاب . من المرأتان اللتان تظاهرتا ؟ قال : عائشة وحفصة ، وكان بدء الحديث في شأن مارية القبطية ام إبراهيم ، أصابها النبي صلى الله عليه في بيت حفصة في يومها فوجدت حفصة فقالت : يا رسول الله لقد جئت الي بشيء ما جئته الى أحد من ازواجك في يومي ، وفي دوري على فراشي ، قال : ألا ترضين أن أحرمها فلا أقربها ابداً ؟ قالت : بلى ، فحرمها وقال : لا تذكري ذلك لأحد فذكرته لعائشة فأظهره الله عليه فأنزل الله ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ﴾ الآيات كلها فبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كفَّر عن يمينه وأصاب مارية » أخرجه البزار والطبراني قال السيوطي بسند صحيح .

وأخرجه ابن سعد وابن مردويه عنه بأطول من هذا وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عنه بأخصر منه ، وأخرجه ابن المنذر والطبراني وابن مردويه عنه

(١) ضعيف الجامع ـ ١٧٠٤ .

مختصراً بلفظ : قال حرم سريته ، وجعل ذلك سبب النزول في جميع ما روي من هذه الطرق .

« وعن ابن عمر قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم لحفصة لا تحدثي احداً ، وإن أم إبراهيم عليّ حرام ، قالت : أتحرم ما أحل الله لك ؟ قال : فوالله لا أقربها فلم يقربها حتى أخبرت عائشة ، فأنزل الله ﴿ قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ﴾ » ، أخرجه الهيثم بن كليب في مسنده والضياء المقدسي في المختارة من طريق نافع .

« وعن أبي هريرة أن سبب النزول تحريم مارية كما سلف » ، أخرجه الطبراني في الأوسط وابن مردويه وسنده ضعيف .

الثاني قيل : السبب انه كان صلى الله عليه وسلم يشرب عسلاً ، وهو الذي رواه الشيخان ، والتي شرب عندها هي زينب بنت جحش فتواطأت عائشة وحفصة ان يقولا له اذا دخل عليهما : إنا نجد منك ريح مغافير فحرم العسل فنزلت هذه الآية ، أخرج البخاري وغيره :

« عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها لبناً او عسلاً فتواصيت أنا وحفصة أن أيتنا دخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم فلتقل : إني أجد منك ريح مغافير فدخل على إحداهما فقالت ذلك له ، فقال : لا بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ، ولن أعود ، فنزلت ﴿ يا أيها النبي ﴾ الى قوله ﴿ إن تتوبا الى الله ﴾ لعائشة وحفصة ، ﴿ وإذ أسر النبي الى بعض أزواجه حديثاً ﴾ **لقوله** : بل شربت عسلاً » .

وقيل : هي سودة كما روي :

« عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم شرب من شراب عند سودة من العسل ، فدخل على عائشة فقالت : إني أجد منك ريحاً فدخل على حفصة فقالت : إني أجد منك ريحاً ، **فقال** : أراه من شراب

شربته عند سودة ، والله لا أشربه ابداً فأنزل الله هذه الآية » أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه ، قال السيوطي : بسند صحيح ، وقيل : هي أم سلمة كما روي :

« عن عبد الله بن رافع قال : سألت أم سلمة عن هذه الآية يا أيها النبي لم تحرم ؟ قالت كانت عندي عكة من عسل أبيض فكان النبي صلى الله عليه وسلم يلعق منها ، وكان يحبه فقالت له عائشة نحلها تجرس عرفطاً فنزلت هذه الآية » أخرجه ابن سعد وذكره الخطيب والخازن ، وقيل : هي حفصة فواطأت عائشة وسودة وصفية فقلن له إنا نشم منك ريح المغافير ، فحرم العسل فنزلت الآية، قاله البيضاوي .

الثالث قيل : السبب المرأة التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم فالأولان سببان صحيحان لنزول الآية والجمع ممكن بوقوع القصتين ، قصة مارية وقصة العسل ، وأن القرآن نزل فيهما جميعاً ، وفي كل واحد منهما انه أسر الحديث الى بعض أزواجه ، وأما الثالث فقال شيخنا الشوكاني : أنه ليس في ذلك إلا ما روى ابن ابي حاتم وابن مردويه .

« عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية للمرأة التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم » ، قال السيوطي : وسنده ضعيف ، ويرد هذا ايضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقبل تلك الواهبة نفسها ، فكيف يصح أن يقال : إنه نزل في شأنها ؟ فإن من رد ما وهب له لم يصح أن يقال : أنه حرم على نفسه ، وأيضاً لا ينطبق على هذا السبب قوله : وإذ أسر النبي الى بعض أزواجه حديثاً الى آخر ما حكاه الله .

وأما ما ثبت في الصحيحين وغيرهما أن ابن عباس سأل عمر بن الخطاب عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره أنهما عائشة وحفصة ثم ذكر قصة الإيلاء كما في الحديث الطويل ، فليس في هذا نفي كون السبب هو ما قدمنا من قصة العسل والسرية ، لأنه إنما أخبره

بالمتظاهرتين ، وذكر فيه أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يراجعنه وتهجره إحداهن من اليوم الى الليل ، وأن ذلك سبب الاعتزال ، لا سبب نزول : يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ؟ ويؤيد هذا ما قدمنا عن ابن عباس أنه قال لعمر بن الخطاب : من المرأتان اللتان تظاهرتا فأخبره بأنهما حفصة وعائشة وبيّن له أن السبب قصة مارية ، هذا ما تيسر من تلخيص سبب نزول الآية ، ودفع الاختلاف في شأنه ، فاشدد عليه يديك لتنجو به من الخبط والخلط الذي وقع للمفسرين .

﴿ قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ﴾ اي شرع لكم تحليل أيمانكم ، وبيّن لكم الخروج والخلاص منها بالكفارة ، وقول النسفي : أو شرع لكم الاستثناء في أيمانكم من قولك حلل فلان في يمينه اذا استثنى فيها ، وذلك أن يقول : إن شاء الله عقيبها حتى لا يحنث ، وتحريم الحلال يمين عندنا انتهى ، وتحلة أصلها تحللة فأُدغمت وهي من مصادر التفعيل كالتوصية والتسمية ، فكأن اليمين عقد والكفارة حل لأنها تحل للحالف ما حرمه على نفسه ، قال مقاتل : المعنى قد بيّن الله كفارة أيمانكم في سورة المائدة ، أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يكفر يمينه ، ويراجع وليدته ، فأعتق رقبة ،

وعن الحسن أنه لم يكفر لأنه صلى الله عليه وسلم مغفور له ذكره المحلي والنسفي ، قال الزجاج : وليس لأحد أن يحرم ما أحل الله وهذا هو الحق ، إن تحريم ما أحل الله لا ينعقد ولا يلزم صاحبه ، فالتحليل والتحريم هو الى الله سبحانه لا الى غيره ، ومعاتبته لنبيه صلى الله عليه وسلم في هذه السورة أبلغ دليل على ذلك ، والبحث طويل ، والمذاهب فيه كثيرة ، والمقالات فيه طويلة وقد حققه الشوكاني في مؤلفاته بما يشفي ، وذكر رضي الله عنه في شرحه للمنتقي خمسة عشر قولاً ، واختلف العلماء هل مجرد التحريم يمين توجب الكفارة أم لا ؟ وفي ذلك خلاف ، وليس في الآية ما يدل على أنه يمين ، لأن الله سبحانه عاتبه على تحريم ما أحله له ، ثم قال : قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ، وقد ورد في القصة التي ذهب أكثر المفسرين الى أنها هي

سبب نزول الآية حرم أولاً ثم حلف ثانياً ، كما قدمنا .

عن ابن عباس قال : في الحرام يكفر ، وقال : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة ﴾ ، وعنه أنه جاءه رجل فقال : إني جعلت امرأتي عليّ حراماً فقال كذبت ليست عليك بحرام ، ثم تلا ﴿ لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ ؟ قال : عليك أغلظ الكفارات عتق رقبة .

« وعن عائشة قالت لما حلف ابو بكر أن لا ينفق على مسطح فأنزل الله ﴿ قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ﴾ فأحل يمينه ، وأنفق عليه » أخرجه الحرث ابن أسامة .

﴿ والله مولاكم ﴾ اي وليكم وناصركم ، والمتولي لأموركم ، وقيل : مولاكم أولى بكم من أنفسكم ، فكانت نصيحته أنفع لكم من نصائحكم أنفسكم ذكره النسفي ﴿ وهو العليم ﴾ بما فيه صلاحكم وفلاحكم ﴿ الحكيم ﴾ في أقواله وأفعاله .

﴿ وإذ أسر النبي الى بعض أزواجه حديثاً ﴾ قال أكثر المفسرين ومنهم النسفي والمحلي والخازن : هي حفصة كما سبق ، والحديث هو تحريم مارية او العسل او تحريم التي وهبت نفسها له ، والعامل في الظرف فعل مقدر ، أي واذكر إذ أسر ، وقال الكلبي : أسر إليها أن أباك وأبا عائشة يكونان خليفتي على أمتي من بعدي .

وأخرج ابن عدي وابن عساكر .

« عن عائشة في الآية قالت : أُسر اليها أَن ابا بكر خليفتي من بعدي » . وأخرج ابن عدي وأبو نعيم في الصحابة والعشاري في فضائل الصديق وابن مردويه وابن عساكر من طرق :

«عن علي وابن عباس قالا : والله إن إمارة أبي بكر وعمر لفي الكتاب . ﴿ وإذ أسر النبي الى بعض أزواجه حديثاً ﴾ ، قال لحفصة أبوك وأبو عائشة واليا الناس بعدي ، فإياك أن تخبري احداً بهذا » ، قال الشوكاني رحمه الله : وهذا ليس فيه أنه سبب نزول قوله : يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ، بل فيه أن الحديث الذي أسره النبي هو هذا فعلى فرض أن له إسناداً يصلح للاعتبار هو معارض بما سبق من تلك الروايات الصحيحة ، وهي مقدمة عليه ومرجحة بالنسبة اليه .

﴿ فلما نبأت به ﴾ اخبرت به غيرها ظناً منها أن لا حرج في ذلك فهو باجتهاد منها ، وهي مأجورة فيه ، وذلك لأن الاجتهاد جائز في عصره صلى الله عليه وسلم على الصحيح ، كما في جمع الجوامع وأصل نبأ وأنبأ وخبر وأخبر وحدث أن تتعدى لاثنين الى الأول بنفسها ، وإلى الثاني بحرف الجر ، وقد يحذف الجار تخفيفاً ، وقد يحذف الأول للدلالة عليه ، وقد جاءت الاستعمالات الثلاث في هذه الآية ،فقوله:﴿فلما نبأت به﴾تعدى لاثنين حذف أولهما ، والثاني مجرور بالباء ، وقوله : ﴿ فلما نبأها به ﴾ ذكرهما ، وقوله : ﴿ من أنبأك هذا ﴾ ؟ ذكرهما وحذف الجار .

﴿ وأظهره الله عليه ﴾ اي أطلع الله نبيه على ذلك الواقع منها من الإخبار لغيرها على لسان جبريل ﴿ عرف بعضه ﴾ اي بعض ما أخبرت به وهو تحريم مارية او العسل قرأ الجمهور : عرف مشدداً من التعريف ، ومعناه عرف حفصة بعض الحديث ، وأخبرها ببعض ما كان منها ، وقرىء بالتخفيف اي عرف بعض الذي فعلته حفصة واختار ابو عبيد وابو حاتم الأولى لقوله : ﴿ وأعرض عن بعض ﴾ ولو كان مخففاً لقال في ضده : وأنكر بعضاً ، والمعنى لم يعرفها إيّاه ولم يخبرها به تكرماً منه وحياء وحسن عشرة .

قال الحسن : ما استقصى كريم قط ، وقال سفيان : ما زال التغافل من

فعل الكرام ، وقيل : أعرض عن تعريف بعض ذلك كرامة أن ينتشر في الناس وقيل : الذي أعرض عنه هو حديث مارية ، وقيل : هو أن أباها وأبا بكر يكونان خليفتين بعده وللمفسرين ههنا خلط وخبط وكل جماعة منهم ذهبوا الى تفسير التعريف والإعراض بما يطابق بعض ما ورد في سبب النزول ، وقد أوضحنا ذلك من قبل .

﴿ فلما نبأها به ﴾ أي أخبرها بما أفشت من الحديث ﴿ قالت من أنبأك هذا ؟ ﴾ اي من أخبرك به ﴿ قال : نبأني العليم الخبير ﴾ اي أخبرني الذي لا تخفى عليه خافية ﴿ إن تتوبا ﴾ الخطاب لعائشة وحفصة على طريقة الالتفات ليكون أبلغ في معاتبتهما ،وجواب الشرط محذوف اي ان تتوبا ﴿ الى الله ﴾ فهو الواجب ودل على المحذوف قوله :﴿ فقد صغت قلوبكما ﴾ اي زاغت وأثمت ومالت عن الواجب في مخالصة رسول الله صلى الله عليه وسلم من حب ما يحبه ، وكراهة ما يكرهه ، ووجد منكما ما يوجب التوبة ، وهو أنهما أحبتا ما كره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو إفشاء الحديث ، وقيل : المعنى فقد مالت قلوبكما الى التوبة ، وقال : ﴿ قلوبكما ﴾ ولم يقل قلباكما لأن العرب تستكره الجمع بين تثنيتين في لفظ واحد ، ومجموع المضاف والمضاف اليه كالشيء الواحد من تمام العلقة والنسبة بينهما .

﴿ وإن تظاهرا عليه ﴾ قرأ الجمهور بحذف إحدى التاءين ، وقرىء على الأصل ، وقرىء تظهر بتشديد الظاء والهاء بدون ألف ، وهي سبعية والمراد بالتظاهر التعاضد والتعاون ، والمعنى وإن تعاضدا وتعاونا بما يسوءه من الإفراط في الغيرة وإفشاء سره وقيل : كان التظاهر بين عائشة وحفصة في التحكم على النبي صلى الله عليه وسلم في النفقة .

﴿ فإن الله هو ﴾ ضمير متصل ضمير منفصل ﴿ مولاه ﴾ تعليل لجواب

الشرط المحذوف تقديره فلا يعدم ناصراً ولا معيناً ، فإن الله يتولى نصره بذاته ﴿ و ﴾ كذلك ﴿ جبريل ﴾ أيضاً وليه ﴿ وصالح المؤمنين ﴾ اي من صلح من عباده المؤمنين وقيل : من بريء من النفاق ، وقيل : الصحابة ، وقيل : واحد اريد به الجمع وقيل : أصله صالحو المؤمنين فحذفت الواو من الخط موافقة للفظ قال بريدة : ابو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما وعن ابن مسعود مثله .

« وعن ابي أمامة مرفوعاً مثله » أخرجه الحاكم ،

« وعن علي بسند ضعيف قال : هو علي بن ابي طالب كرم الله وجهه » .

« وعن أسماء بنت عميس قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : وصالح المؤمنين علي بن ابي طالب » أخرجه ابن مردويه .

﴿ والملائكة ﴾ على تكاثر عددهم ﴿ بعد ذلك ﴾ اي بعد نصر الله والمذكورين ﴿ ظهير ﴾ اي أعوان يظاهرونه ، قال ابو علي الفارسي : قد جاء فعيل للكثرة كقوله : ﴿ ولا يسأل حميم حميماً ﴾ ، قال الواحدي : وهذا من الواحد الذي يؤدي عن معنى الجمع كقوله : ﴿ وحسن أُولئك رفيقاً ﴾ وقد تقرر في علم النحو أن مثل جريح وصبور وظهير يوصف به الواحد والمثنى والجمع ، وإنما عدل عن عطف المفرد الى عطف الجملة ليؤذن بالفرق فإن نصرة الله هي النصرة في الحقيقة ، وأنه تعالى إنما ضم إليها المظاهرة بجبريل وبصالح المؤمنين وبالملائكة للتتميم ، تطبيباً لقلوب المؤمنين ، وتوقيراً للنبي الرسول وإظهاراً للآيات البينات ، كما في يوم بدر وحنين . قال تعالى : ﴿ وما جعله الله إلا بشرى لكم ، ولتطمئن قلوبكم بـه وما النصر إلا من عنـد الله ﴾ .

عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾

﴿ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله ﴾ بالتخفيف والتشديد سبعيتان ، اي يعطيه بدلكن ﴿ أزواجاً خيراً ﴾ اي أفضل ﴿ منكن ﴾ وقد علم الله سبحانه انه لا يطلقهن ، ولكن أخبر عن قدرته على أنه إن وقع منه الطلاق أبدله خيراً منهن تخويفاً لهن ، وهو كقوله : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ﴾ فإنه إخبار عن القدرة ، وتخويف لهم ، والممتنع بمقتضى الآية إنما هو تطليق الكل ، فلا ينافي أنه طلق واحدة ، وأنها لم تبدل ، لأن التبديل إنما هو للكل ، وإنما هو مرتب على تطليق الكل ، وفي الخطيب قيل : كل ﴿ عسى ﴾ في القرآن واجب الوقوع إلا هذه الآية ، وقيل : هي من الواجب ايضاً ، ولكن الله علمه بشرط وهو التطليق للكل ، ولم يطلقهن وفي الكرخي ، قال ابن عرفة : عسى هنا للتخويف لا للوجوب .

ثم نعت سبحانه الأزواج بقوله : ﴿ مسلمات ﴾ اي قائمات بفرائض الإسلام إما نعت او حال أو منصوب على الاختصاص وقال سعيد بن جبير

مسلمات اي مخلصات مقرات ، وقيل : معناه مسلمات لأمر الله ورسوله ﴿ مؤمنات ﴾ اي مصدقات بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والقدر خيره وشره ﴿ قانتات ﴾ مطيعات لله ، والقنوت الطاعة ، وقيل : مصليات بالليل ، وقيل : داعيات ، وقيل : طائعات .

﴿ تائبات ﴾ يعني كثيرات التوبة من الذنوب ، تاركات لها ، راجعات الى الله والى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم عن الهفوات والزلات ﴿ عابدات ﴾ لله متذللات له قال الحسن وسعيد بن جبير : كثيرات العبادة ﴿ سائحات ﴾ اي صائمات قاله ابن عباس ، وقال زيد بن أسلم والحسن : مهاجرات ، وليس في أمة محمد صلى الله عليه وسلم سياحة الا الهجرة ، قال ابن قتيبة والفراء وغيرهما : وسمي الصيام سياحة لأن السائح لا زاد معه ، وقيل : المعنى ذاهبات في طاعة الله من ساح الماء اذا ذهب ، وأصل السياحة الجولان في الأرض ، وقيل : يسحن معه حيث ساح وقد مضى الكلام على السياحة في سورة براءة .

﴿ ثيبات وأبكاراً ﴾ اي بعضهن كذا وبعضهن كذا ووسط بينهما العاطف لتنافيهما دون سائر الصفات . والثيبات جمع ثيب لا ينقاس ، لأنه اسم جنس مؤنث ووزنها فيعل من ثاب يثوب اي رجع ، وهي المرأة التي قد تزوجت ثم ثابت عن زوجها فعادت كما كانت غير ذات زوج ، وقيل : لأنها ثابت الى بيت أبويها وهذا صح : لأنه ليس كل ثيب تعود الى زوجها ، والأبكار جمع بكر وهي العذراء سميت بذلك لأنها على أول حالها التي خلقت عليها ، عن بريدة في الآية قال : وعد الله نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية أن يزوجه بالثيب آسية امرأة فرعون وبالبكر مريم بنت عمران . ولا يقال : اي مدح في كونهن ثيبات لأن الثيب قد تمدح من جهة أنها أكثر تجربة وعقلاً ، وأسرع حبلاً غالباً ، والبكر تمدح من جهة أنها أطهر وأطيب وأكثر مداعبة وملاعبة غالباً ،

﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم ﴾ بفعل ما أمركم به ، وترك ما نهاكم عنه اي اجعلوا لها وقاية بالتأسي به صلى الله عليه وسلم في ترك المعاصي ،

وفعل الطاعات ﴿ وأهليكم ﴾ من النساء والولدان ، وكل من يدخل في هذا الاسم بأمرهم بطاعة الله ، ونهيهم عن معاصيه ، وبأن تأخذوهم بما تأخذون به أنفسكم نصحاً وتأديباً .

﴿ ناراً وقودها الناس والحجارة ﴾ اي ناراً عظيمة ، تتوقد بالناس الكفار والحجارة ، كالأصنام منها ، كما يتوقد قد غيرها بالحطب ، وقيل : الكبريت لأنه أشد الأشياء حراً وأسرع إيقاداً ، وقد تقدم بيان هذا في سورة البقرة ، قال مقاتل بن سليمان : قوا أنفسكم وأهليكم بالأدب الصالح النار في الآخرة وقال قتادة ومجاهد . قوا أنفسكم بأفعالكم ، وقوا أهليكم بوصيتكم ، قال ابن جرير : فعلينا أن نعلم أولادنا الدين والخير ، وما لا يستغنى عنه من الأدب ، ومن هذا قوله : ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ ، وقوله : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ ، وعن علي بن ابي طالب في الآية قال : علموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدبوهم ، وعن ابن عباس قال : اعملوا بطاعة الله واتقوا معاصي الله وأمروا أهليكم بالذكر ينجيكم الله من النار ، وعنه قال : أدبوا أهليكم .

﴿ عليها ملائكة ﴾ اي على النار خزنة من الملائكة يولون أمرها وتعذيب أهلها ، وهم الزبانية ﴿ غلاظ ﴾ على أهل النار ﴿ شداد ﴾ عليهم لا يرحمونهم اذا استرحموهم ، لأن الله سبحانه وتعالى خلقهم من غضبه ، وحبب اليهم تعذيب خلقه ، وقيل : غلاظ الأقوال شداد الأفعال ، وقيل : الغلاظ ضخام الأجسام والشداد الأقوياء ، وقيل : المراد غلاظ القلوب شداد الأبدان ، من غلظ القلب اي قسوته ، لا من غلظ الجسم ولا من غلظ القول .

«عن ابي عمران الجوني قال : بلغنا أن خزنة النار تسعة عشر ما بين منكب أحدهم مسيرة مائة خريف ، ليس في قلوبهم رحمة إنما خلقوا للعذاب يضرب الملك منهم الرجل من أهل النار الضربة فيتركه طحناً من لدن قرنه الى قدمه » أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد .

﴿ لا يعصون الله ما أُمرهم ﴾ اي لا يخالفونه في أمره وما موصولة ، والعائد محذوف ، اي لا يعصون الله الذي امرهم به ، او مصدرية اي لا يعصون الله أمره على أن يكون ما أمرهم بدل اشتمال من الاسم الشريف ، او على تقدير نزع الخافض ، اى لا يعصون الله في أمره ﴿ ويفعلون ما يؤمرون ﴾ به اي يؤدونه في وقته من غير تراخ ، لا يؤخرونه عنه ولا يقدمونه ، وليست الجملتان في معنى واحد إذ معنى الأولى أنهم يتقبلون اوامره ويلتزمونها ، ومعنى الثانية أنهم يؤدون ما يؤمرون به ولا يتثاقلون عنه ولا يتوانون فيه ، وقيل : الثانية تأكيد للأولى ، وبه قال المحلي لأن مفادها هو مفادها ، وقيل : الأولى فيما مضى ، والثانية فيما يستقبل ، وصرح بهذا البيضاوي ، والآية تخويف للمؤمنين عن الارتداد ، وللمنافقين المؤمنين بألسنتهم دون قلوبهم .

﴿ يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم ﴾ يقال لهم هذا القول عند إدخالهم النار تأييساً لهم وقطعاً لأطماعهم ، لأنه يوم الجزاء ، وقد فات زمان الاعتذار ، وصار الأمر الى ما صار ﴿ إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ من الأعمال في الدنيا ، ومثل هذا قوله : ﴿ فاليوم لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ، ولا هم يستعتبون ﴾ ﴿ يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحاً ﴾ قرأ الجمهور بفتح النون على الوصف للتوبة اي توبة بالغة في النصح ، وقرىء بضمها اي توبة نصح لأنفسكم ، ويجوز أن يكون جمع ناصح وأن يكون مصدراً ، تنصح صاحبها بترك العود الى ما ناب عنه ، وصفت بذلك على الإسناد المجازي ، وهو في الأصل وصف للتائبين أن ينصحوا بالتوبة أنفسهم بالعزم على الترك للذنب ، وترك المعاودة له .

قال قتادة : التوبة النَّصوح الصادقة ، وقيل : الخالصة ، وقال الحسن : التوبة النصوح أن يبغض الذنب الذي أحبه ويستغفر منه اذا ذكره ، وقال الكلبي : التوبة النصوح الندم بالقلب والاستغفار باللسان والإقلاع بالبدن ، والاطمئنان على أن لا يعود وقال سعيد بن جبير : هي التوبة المقبولة ، وعن

النعمان بن بشير أن عمر بن الخطاب سئل عن التوبة النصوح قال : أن يتوب الرجل من العمل السيء ، ثم لا يعود اليه ابداً ، وروي عن معاذ مرفوعاً هي أن لا يحتاج بعدها الى توبة أخرى .

« وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : التوبة من الذنب أن يتوب منه ثم لا يعود اليه ابداً[1] أخرجه أحمد وابن مردويه والبيهقي ، وفي إسناده ابراهيم بن مسلم الهجري وهو ضعيف ، والصحيح الموقوف كما أُخرجه موقوفاً عليه ابن ابي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير والبيهقي وابن المنذر .

« وعن ابن مسعود قال : التوبة النصوح تكفر كل سيئة ، وهو في القرآن ، ثم قرأ هذه الآية »[2] أخرجه الحاكم وصححه .

وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة ، وهي فرض على الأعيان في كل الأحوال ، وفي كل الأزمان ، واختلف في معناها ، وذكروا في تفسيرها ثلاثة وعشرين قولاً متقاربة المعنى لا يسعها هذا الموضع ، وملاك الأمر فيها أن يتوب ثم لا يعود الى الذنب ، كما لا يعود اللبن الى الضرع ، ولو حزبالسيفوأُحرق بالنار ، وهي واجبة من كل معصية كبيرة او صغيرة على الفور ، ولا يجوز تأخيرها ، وتجب من جميع الذنوب ، وإن تاب ، من بعضها صحت توبته عما تاب منه ، وبقي الذي لم يتب منه هذا مذهب أهل السنة والجماعة .

وقد أخرج مسلم :

---

(١) رواه أحمد .

(٢) رواه الحاكم .

« عن الأغر بن يسار المزني قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا ايها الناس توبوا الى الله فإني أتوب في اليوم مائة مرة[١] .

« وعن ابي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : والله إني لأستغفر الله وأتوب اليه في اليوم أكثر من سبعين مرة »[٢] أخرجه البخاري ، وأخرجا :

« عن انس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لله افرح بتوبة عبده المؤمن من أحدكم سقط على بعيره ، وقد أضله في أرض الفلاة » ، الحديث .

« وعن ابي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ، ليتوب مسيء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها » رواه مسلم .

« وعن ابن عمر عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » أخرجه الترمذي وحسنه .

﴿ عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئآتكم ويدخلكم ﴾ بسبب تلك التوبة ﴿ جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ معطوف على يكفر منصوب بناصبه ، وبالنصب قرأ الجمهور ، وقرىء بالجزم عطفاً على محل عيسى ، كأنه قال توبوا يوجب تكفير سيئآتكم ، ويدخلكم ، وعسى وإن كان أصلها للإطماع فهي من الله واجبة تفضلاً وتكرماً لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، وليس واجباً

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه البخاري .

عقلياً ﴿ يوم ﴾ اي يدخلكم يوم ﴿ لا يخزي الله النبي ﴾ او منصوب باذكر ﴿ والذين آمنوا معه ﴾ اي صاحبوه في وصف الإيمان معطوف على النبي ، وقيل : الموصول مبتدأ وخبره قوله : ﴿ نورهم يسعى بين أيديهم ﴾ يسعى ﴿ بأيمانهم ﴾ والأول أولى ، وفيه تعريض بمن أخزاهم الله من أهل الكفر والجملة حالية او مستأنفة لبيان حالهم .

وقد تقدم في سورة الحديد أن النور يكون معهم حال مشيهم على الصراط والمراد بأيمانهم جهاتهم كلها والتقييد بالأمام والإيمان لا ينفي أن لهم نوراً على شمائلهم ، بل لهم نور لكن لا يلتفتون اليه ، لأنهم إما من السابقين فيمشون فيما هو أمامهم ، وإما من أهل اليمين فيمشون فيما هو عن أيمانهم ، عن ابن عباس في الآية قال : ليس أحد من الموحدين لا يعطي نوراً يوم القيامة ، فأما المنافق فيطفىء نوره ، وما من مشفق مما رأى من إطفاء نور المنافق ، قال ابن مسعود : يمرون على صراط على قدر اعمالهم ، يمرون على الصراط منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة ، وأدناهم نوراً من نوره في إبهامه ذكره السيوطي في البدور السافرة .

﴿ يقولون ﴾ خبر ثان او حال : ﴿ ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير ﴾ هذا دعاء المؤمنين حين إطفاء الله نور المنافقين كما تقدم بيانه وتفصيله .

﴿ يا ايها النبي جاهد الكفار ﴾ بالسيف والرمح ﴿ والمنافقين ﴾ بالحجة والوعظ البليغ ، وقد تقدم الكلام على هذه الآية في سورة براءة ﴿ واغلظ عليهم ﴾ بالانتهار والزجر ، والمقت والبغض ، اي شدد عليهم في الدعوة والخطاب والقتال والمحاجة باللسان ، واستعمل الخشونة في أمرهم بالشرائع ، ولا تعاملهم باللين ، وقال الحسن : اي جاهدهم بإقامة الحدود عليهم ، فإنهم كانوا يرتكبون موجبات الحدود ﴿ ومأواهم جهنم ﴾ اي مصير الكفار والمنافقين اليها ﴿ وبئس المصير ﴾ اي المرجع الذي يرجعون اليه .

ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا ﴾ قد تقدم غير مرة أن المثل قد يراد به إيراد حالة غريبة تعرف بها حالة أخرى مماثلة لها في الغرابة ، اي جعل الله مثلاً لحال هؤلاء الكفار في أنهم يعاقبون لكفرهم ، وأنه لا يغني أحد عن أحد ﴿ امرأة نوح ﴾ واسمها واهلة ، وقيل : والهة ﴿ وامرأة لوط ﴾ واسمها واعلة ، وقيل : والعة ، وهذا هو المفعول الأول ، (ومثلاً) المفعول الثاني حسبما قدمنا تحقيقه ، وإنما أخر ليتصل به ما هو تفسير له وإيضاح لمعناه ، وترسم (آمرأت) في هذه المواضع الثلاثة (وابنت) بالتاء المجرورة ، ويوقف عليهم بالهاء والتاء .

﴿ كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ﴾ وهما نوح ولوط عليهما السلام ، أي كانتا في عصمة نكاحهما ، وهذه جملة مستأنفة كأنها مفسرة لضرب المثل ، ولم يؤت بضميرهما فيقال : تحتهما لما قصد من تشريفهما بهذه الإضافة الشريفة وفي ذلك مبالغة في المعنى المقصود وهو أن الإنسان لا ينفعه عادة إلا صلاح نفسه لا صلاح غيره ، وإن كان ذلك الغير في أعلى مراتب الصلاح والقرب من الله تعالى ﴿ فخانتاهما ﴾ اي فوقعت منهما الخيانة لهما .

« قال ابن عباس : ما بغت امرأة نبي قط » ، ورواه ابن عساكر مرفوعاً .

«عنه قال : مازنتا ، اما خيانة امرأة نوح فكانت تقول للناس : إنه مجنون ، وأما خيانة امرأة لوط ، فكانت تدل على الضيف فتلك خيانتهما » .

وقال عكرمة والضحاك : بالكفر ، وقد وقعت الأدلة الإجماعية على أنها ما زنت امرأة نبي قط ، وقيل : كانت خيانتهما النفاق وقيل : خانتاهما بالنميمة .

﴿ فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً ﴾ اي فلم ينفعهما نوح ولوط بسبب كونهما زوجتين لهما شيئاً من النفع ، ولا دفعا عنهما من عذاب الله مع كرامتهما على الله ، ونبوتهما شيئاً من الدفع ، وفيه تنبيه على أن العذاب يدفع بالطاعة لا بالوسيلة ﴿ وقيل ﴾ اي ويقال لهما في الآخرة او عند موتهما :

﴿ ادخلا النار مع الداخلين ﴾ لها من أهل الكفر والمعاصي ، وقال يحيى ابن سلام : ضرب الله مثلاً للذين كفروا يحذر به عائشة ، وحفصة من المخالفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين تظاهرتا عليه ، وما أحسن ما قال ، فإن ذكر امرأتي النبيين بعد ذكر قصتهما ومظاهرتهما على رسول الله صلى الله عليه وسلم يرشد أتم إرشاد ويلوح أبلغ تلويح الى أن المراد تخويفهما مع سائر أمهات المؤمنين ، وبيان أنهما وإن كانتا تحت عصمة خير خلق الله وخاتم رسله ، فإن ذلك لا يغني عنهما من الله شيئاً ، وقد عصمهما الله سبحانه عن ذنب تلك المظاهرة بما وقع منهما من التوبة الصحيحة الخالصة .

﴿ وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون ﴾ هي آسية بنت مزاحم قيل : إنها إسرائيلية وإنها عمة موسى ، وقيل : إنها ابنة عم فرعون ، وإنها من العمالقة ، وكانت ذات فراسة صادقة آمنت بموسى عليه السلام فعذّبها فرعون بالأوتاد الأربعة ، والكلام في هذا كالكلام في المثل الذي قبله ، اي جعل الله حال امرأة فرعون مثلاً لحال المؤمنين ترغيباً لهم في الثبات على الطاعة ، والتمسك بالدين ، والصبر في الشدة ، وأن وصلة الكفر لا تضرهم ، كما لم

تضر امرأة فرعون ، وقد كانت تحت أكفر الكافرين ، وصارت بإيمانها بالله في جنات النعيم ، وفيـه دليل على أن وصلة الكفرة لا تضر مع الإيمان.

﴿ اذ ﴾ ظرف لمثلاً او لضرب ﴿ قالت : رب ابن لي عندك ﴾ حال من ضمير المتكلم او من ﴿ بيتاً ﴾ لتقدمه عليه وقوله : ﴿ في الجنة ﴾ بدل او عطف بيان لقوله : عندك ، او متعلق بقوله : ابن ، وقدم عندك هنا للإشارة الى قولهم : الجار قبل الدار ، ومعناه بيتاً قريباً من رحمتك او في أعلى درجات المقربين منك ، او في مكان لا يتصرف فيه إلا بإذنك وهو الجنة .

﴿ ونجني من فرعون وعمله ﴾ اي من ذاته الخبيثة وشركه ، وما يصدر عنه من اعمال الشر ، وقال ابن عباس : عمله يعني جماعة ، وعن سلمان قال : كانت امرأة فرعون تعذب بالشمس ، فاذا انصرفوا عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها ، وكانت ترى بيتها في الجنة ، وعن ابي هريرة أن فرعون وتد لامرأته أربعة أوتاد ، وأضجعها ، وجعل على صدرهـا رحى ، واستقبل بهـا عين الشمس ، فرفعت رأسها الى السماء فقال : رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة الى قوله : ﴿ ونجني من القوم الظالمين ﴾ ففرج الله لها عن بيتها في الجنة فرأته ، وقبض الله روحها ،قال الكلبي هم أهل مصر،وقال مقاتل : هم القبط ، قال الحسن وابن كيسان : نجاها الله أكرم نجاة ، ورفعها الى الجنة ، فهي تأكل وتشرب ، وفيه دليل على أن الآستعاذة بالله والالتجاء اليه ومسألة الخلاص منه عند المحن والنوازل من سير الصالحين ، وديدن المؤمنين بيوم الدين .

﴿ و ﴾ ضرب الله مثلاً للذين آمنوا ﴿ مريم ابنة عمران ﴾ اي حالها وصفتها فمثل حال المؤمنين بامرأتين ، كما مثل حال الكفار بامرأتين ، وقيل : التقدير اذكر مريم والمقصود من ذكرها أن الله سبحانه جمع لها بين كرامتي الدنيا والآخرة ، واصطفاها على نساء العالمين مع كونها بين قوم كافرين ﴿ التي أحصنت ﴾ حفظت ﴿ فرجها ﴾ عن الفواحش وعن الرجال فلم يصل اليها رجل لا بنكاح ولا بزنا ، والمحصنة العفيفة ، وقد تقدم تفسير هذا في سورة

النساء ، قال المفسرون : المراد بالفرج هنا الجيب لقوله : ﴿ فنفخنا فيه من روحنا ﴾ المخلوقة لنا ، وذلك ان جبريل نفخ في جيب درعها اي طوق قميصها ، فحملت بعيسى عقب النفخ ، فالنفخ والحمل والوضع في ساعة واحدة ، والإسناد في نفخنا مجازي ، اي فأسند الى الله من حيث أنه الخالق والموجد ، وقيل المراد بالروح روح عيسى التي صار بها حياً فوصلت الى فرجها بواسطة نفخ جبريل ، وإضافة الروح الى الله إضافة مخلوق لخالقه للتشريف .

﴿ وصدقت بكلمات ربها ﴾ يعني بشرائعه التي شرعها الله لعباده ، وقيل : المراد بالكلمات عيسى وقيل صحفه التي أنزلها على إدريس وغيره ، قرأ الجمهور صدقت بالتشديد ، وقرىء بالجمع والمراد على الأول الجنس ، فيكون في معنى الجمع وهي الكتب المنزلة على الأنبياء كإبراهيم وموسى وابنها عيسى .

﴿ وكانت من القانتين ﴾ قال قتادة من القوم المطيعين لربهم ، وقال عطاء : من المصلين كانت تصلي بين المغرب والعشاء ، ويجوز أن يراد بالقانتين رهطها وعشيرتها الذين كانت منهم ، وكانوا مطيعين أهل بيت صلاح وطاعة ، ولما كان القنوت صفة تشمل من قنت من القبيلين غلب ذكوره على إناثه ، وفيه إشعار بأن طاعتها لم تقصر عن طاعة الرجال الكاملين حتى عدت من جملتهم ، ومن للتبعيض ، ويجوز أن تكون لابتداء الغاية على أنها ولدت من القانتين ، لأنها من أعقاب هارون أخي موسى عليهما السلام .

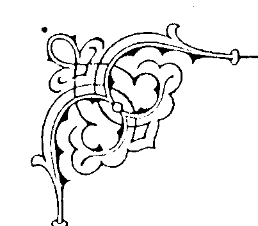
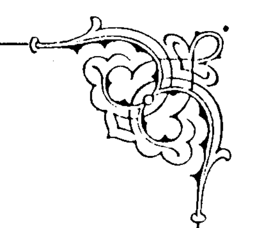
« عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسيا بنت مزاحم امرأة فرعون ، ما قص الله علينا من خبرها في القرآن قالت رب ابن لي عندك الآية[1] أخرجه أحمد والطبراني والحاكم ، وفي الصحيحين وغيرهما :

---

(١) رواه أحمد .

« من حديث ابي موسى الأشعري أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام[1].

(١) رواه مسلم .

سورة الملك

وتسمى سورة تبارك والواقية والمنجية . وتدعى في التوراة[1] المانعة . وهي ثلاثون آية . وهي مكية قال القرطبي : في قول الجميع . وعن ابن عباس قال : نزلت بمكة .

« وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن سورة من كتاب الله ما هي الا ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له تبارك الذي بيده الملك »[2] . أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة وابن الضريس والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي في الشعب والترمذي وقال : هذا حديث حسن .

و « عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سورة في القرآن خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة : تبارك » الآية أخرجه الطبراني في الأوسط وابن مردويه والضياء في المختارة .

و « عن ابن عباس قال : ضرب بعض أصحاب النبي صلى الله عليه

(١) كيف ورد ذكرها في التوراة لا ندري ؟؟ سامح الله المؤلف .

(٢) رواه أحمد في المسند وأصحاب السنن الأربعة بسند حسن.

وسلم خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر، فاذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها فأتى النبي صلى اللّه عليه وسلم فاخبره فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: « هي المانعة هي المنجية من عذاب القبر» أخرجه الحاكم وابن مردويه وابن نصر والبيهقي في الدلائل والترمذي وقال هذا حديث غريب من هذا الوجه.

و « عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: « تبارك هي المانعة من عذاب القبر[1] أخرجه ابن مردويه والنسائي وصححه الحاكم.

و « عن رافع بن خديج وأبي هريرة أنهما سمعا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول: أنزلت عليّ سورة تبارك وهي ثلاثون آية جملة واحدة وهي المانعة في القبور، أخرجه ابن مردويه.

و «عن ابن عباس أنه قال لرجل ألا أتحفك بحديث تفرح به، قال بلى قال اقرأ تبارك الذي بيده الملك وعلمها أهلك وجميع ولدك وصبيان بيتك وجيرانك فإنها المنجية والمجادلة تجادل يوم القيامة عند ربها لقارئها وتطلب له أن ينجيه اللّه من عذاب النار وينجو بها صاحبها من عذاب القبر، قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: « لوددت أنها في قلب كل إنسان من أمتي» أخرجه عبد بن حميد في مسنده والطبراني والحاكم وابن مردويه.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر ٦/٢٤٦ من رواية ابن مردويه عن ابن مسعود موقوفاً عليه وهو ضعيف.

بسم الله الرحمن الرحيم

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾

﴿ تبارك الذي بيده الملك ﴾ تبارك تفاعل من البركة ، والبركة النماء والزيادة وقيل : تعالى وتعاظم عن صفات المخلوقين ، وقيل : دام فهو الدائم الذي لا أول لوجوده ولا آخر لدوامه ، وقال الحسن : تبارك تقدس ، وصيغة تفاعل للمبالغة ، واليد مجاز عن القدرة والاستيلاء عند المتكلمة ، وصفة من صفاته عند المحدثين وهو الأولى .

كلام ممتاز جداً جزاه الله خيراً

والملك هو ملك السموات والأرض في الدنيا والآخرة فهو يعز من يشاء ويذل من يشاء ويرفع من يشاء ويضع من يشاء ، وقيل : المراد بالملك ملك النبوة ، وقيل : الملك الأمر والنهي والسلطان أي التمكن من سائر الموجودات يتصرف فيها كيفما أراد ، قال الرازي : الملك تمام القدرة واستحكامها ، والأول أولى لأن الحمل على العموم أكثر مدحا ، وأبلغ ثناء ولا وجه للتخصيص .

﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ أي بليغ القدرة لا يعجزه شيء من الأشياء يتصرف في ملكه كيف يريد من إنعام وانتقام ورفع ووضع وإعطاء ومنع ، قال أبو السعود : الجملة معطوفة على الصلة مقررة لمضونها مفيدة لجريان أحكام ملكه تعالى في جلائل الأمور ودقائقها ، وفي الكرخي لما اقترن الشيء بقوله

قدير علم أن المراد من المعدوم الذي يدخل تحت القدرة دون غيره .

﴿ الذي خلق الموت والحياة ﴾ الموت انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته له ، والحياة تعلق الروح بالبدن واتصاله به ، وقيل : ما يوجب كون الشيء حياً ، وقيل : الموت صفة وجودية مضادة للحياة ، وقيل : المراد الموت في الدنيا والحياة في الآخرة وفيه بعد ، وقدم الموت على الحياة لأن أصل الأشياء عدم الحياة والحياة عارضة لها ، وقيل : لأن الموت أقرب إلى القهر ، وقال مقاتل : خلق الموت يعني النطفة والمضغة والعلقة ، والحياة يعني خلقه إنساناً وخلق فيه الروح ، وقيل : خلق الموت على صورة كبش لا يمر على شيء إلا مات ، وخلق الحياة على صورة فرس لا يمر بشيء إلا حيي قاله مقاتل والكلبي وقد ورد في التنزيل ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ﴾ وقوله ﴿ إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة ﴾ وقوله ﴿ توفته رسلنا ﴾ وقوله ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾ وغير ذلك من الآيات .

وقال النسفي : الحياة ما يصح بوجوده الإحساس ، والموت ضده ، ومعنى خلقهما إيجاد ذلك المصحح وإعدامه أي خلق موتكم وحياتكم أيها المكلفون .

﴿ ليبلوكم ﴾ أي ليعاملكم معاملة من يختبركم وإلا فعلمه محيط بكل شيء ، قال الشهاب : الاختبار يقتضي عدم علم المختبر بالكسر بحال المختبر بالفتح فلهذا جعلوه استعارة تمثيلية أو تبعية على تشبيه حالهم في تكليفه تعالى لهم بتكاليفه ، وخلق الموت والحياة لهم وإثابته لهم وعقوبته بحال المختبر مع من اختبره وجربه لينظر طاعته وعصيانه فيكرمه أو يهينه .

﴿ أيكم أحسن عملاً ﴾ فيجازيكم على ذلك ، وقيل : المعنى ليبلوكم ربكم أيكم أكثر ذكراً للموت وأحسن استعداداً وأشد منه خوفاً ، وقيل : أيكم أحسن عقلاً وأسرع إلى طاعة الله وأورع عن محارم الله ؛ وقيل : أخلص عملاً وأصوبه والخالص إذا كان لله والصواب إذا كان على السنة ؛ وقيل : أزهد في

الدنيا وأترك لها ؛ والعموم أولى .

قال الزجاج : اللام متعلقة بخلق الحياة لا بخلق الموت وقال الفراء : إن قوله ﴿ ليبلوكم ﴾ لم يقع على أي لأن فيما بين البلوى وأي إضمار فعل كما تقول بلوتكم لأنظر أيكم أطوع ومثله وقوله ﴿ سلهم أيهم بذلك زعيم ﴾ أي سلهم ثم أنظر أيهم ؛ فأيكم في الآية مبتدأ وخبره أحسن ، لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله وإيراد صيغة التفضيل مع أن الابتلاء شامل لجميع أعمالهم المنقسمة إلى الحسن والقبيح لا إلى الحسن والأحسن فقط للإيذان بأن المراد بالذات والمقصد الأصلي من الابتلاء هو ظهور كمال إحسان المحسنين .

﴿ وهو العزيز ﴾ أي الغالب الذي لا يغالب ولا يعجزه من أساء العمل ﴿ الغفور ﴾ لمن تاب وأناب ، والستور الذي لا ييأس منه أهل الإساءة والزلل .

﴿ الذي ﴾ نعت لما قبله أو بيان له أو بدل منه أو خبر مبتدأ محذوف، أو نصب على المدح ﴿ خلق سبع سموات ﴾ قيل : الأولى من كذا والثانية من كذا إلى السابعة ولم أقف على دليله من الكتاب العزيز والسنة المطهرة .

﴿ طباقاً ﴾ أي مطبقاً بعضها فوق بعض كل سماء مقببة على الأخرى وسماء الدنيا كالقبة على الأرض وهو جمع طبق نحو جبل وجبال ، أو جمع طبقة نحو رحبة ورحاب أو مصدر طابق يقال طابق مطابقة وطباقاً ، وعلى هذا الوصف بالمصدر للمبالغة أو على حذف مضاف أي ذات طباق أو طوبقت طباقاً ، قال البقاعي : طباق بحيث يكون كل جزء منها مطابقا للجزء من الأخرى ولا يكون جزء منها خارجاً عن ذلك .

﴿ ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ﴾ صفة ثانية لسبع سموات أو مستأنفة لتقرير ما قبلها ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل من يصلح له و« من » مزيدة لتأكيد النفي وإضافة خلق الرحمن من إضافة المصدر إلى فاعله والمفعول محذوف تقديره لهن أو لغيرهن .

قرأ الجمهور من تفاوت وقرىء تفوت مشدداً بدون ألف ، وهما لغتان كالتعاهد والتعهد والتحامل والتحمل ، والمعنى من تناقض ولا تباين ولا اعوجاج ولا تخالف ، بل هي مستقيمة دالة على خالقها وإن اختلفت صورها وصفاتها فقد اتفقت من هذه الحيثية ، وقال ابن عباس : من تشقق وقيل من اضطراب وقيل من عيب ، وحقيقة التفاوت عدم التناسب كأن بعض الشيء يفوت بعضاً .

﴿ فارجع البصر ﴾ أي أردد طرفك حتى يتضح لك ذلك بالمعاينة ، أخبر أولًا بأنه لا تفاوت في خلقه ثم أمر ثانياً بترديد البصر في ذلك لزيادة التأكيد وحصول الطمأنينة.

﴿ هل ترى من فطور ﴾ قال مجاهد : والضحاك الفطور الصدوع والشقوق ، جمع فطر وهو الشق ، وقال قتادة : هل ترى من خلل ، وقال السدي : من خروق ، وأصله من التفطر والانفطار هو التشقق والانشقاق ، وعن ابن عباس قال : الفطور الوهي ، وعنه قال : من تشقق وخلل .

﴿ ثم ارجع البصر كرتين ﴾ أي رجعتين مرة بعد مرة وانتصابه على المصدر والمراد بالتثنية التكثير كما في لبيك وسعديك وحنانيك وهذاذيك لا يريدون بهذه التثنية شفع الواحد إنما يريدون التكثير أي رجعة بعد رجعة وإن كثرت ، وإجابة لك بعد أخرى ، وإلا تناقض الغرض ، ووجه الأمر بتكرير النظر على هذه أنه قد لا يرى ما يظنه من العيب في النظرة الأولى ولا في الثانية ولهذا قال أولاً ﴿ ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ﴾ ثم قال ثانياً ﴿ ثم ارجع البصر كرتين ﴾ فيكون ذلك أبلغ في إقامة الحجة وأقطع للمعذرة ، وقيل : الأولى ليرى حسنها واستواءها والثانية ليبصر كواكبها في سيرها وانتهائها .

﴿ ينقلب إليك البصر خاسئاً ﴾ أي يرجع إليك البصر خاشعاً متباعداً عن أن يرى شيئاً من ذلك ، وقيل : معنى خاسئاً مبعداً مطروداً عن أن يبصر

ما التمسه من العيب ، يقال : خسأت الكلب أي أبعدته وطردته ، وقال ابن عباس : خاسئاً صاغراً ذليلاً ، قرأ الجمهور ينقلب بالجزم جواباً للأمر ، وقرىء بالرفع على الاستئناف .

﴿ وهو حسير ﴾ أي كليل لا يرى شيئاً قاله ابن عباس : أي منقطع وعنه قال عيي مرتجع ، قال الزجاج : أي وقد أعيا من قبل أن يرى في السماء خللاً ، وهو فعيل بمعنى فاعل من الحسور وهو الإعياء ، يقال : حسر بصره يحسر حسوراً أي كل وانقطع[1] وبلغ الغاية في الإعياء .

ولما فرغ سبحانه من تفاصيل بعض أحكام الملك وآثار القدرة وبيان ابتنائها على قوانين الحكم والمصالح ، شرع في ذكر دلائل أخرى على تمام قدرته بعد تلك الدلائل فقال ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا ﴾[2] أي القربى إلى الأرض من بقية السموات وهي التي يراها الناس .

﴿ بمصابيح ﴾ أي بنجوم فصارت بهذه الزينة في أحسن خلق ، وأكمل صورة وأبهج شكل ، والمجيء بالقسم لإبراز كمال العناية ، والمصابيح جمع مصباح وسميت الكواكب مصابيح لأنها تضيء كإضاءة السراج ، ففي الكلام استعارة تصريحية لأن حقيقة المصباح كما في المختار السراج ، وبعض الكواكب

---

(١) ومنه قول الشاعر:

نظرت إليها بالمحصب من منى فعاد إليّ الطرف وهو حسير

(٢) قال المقبلي في حاشية الكشاف إن قوله ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ يكذب المنجمين والزاعمين علم الفلك في قولهم إن بعض النجوم في السموات كقولهم أن زحل في السابعة والمشتري في السادسة والمريخ في الخامسة والشمس في الرابعة والزهرة في الثالثة والعطارد في الثانية والقمر في الدنيا وهذا من واضحات علمهم بزعمهم فغيره أكذب منه وكان البيضاوي يتعاطى هذه الحرفة البائرة لأنه قال هنا لا ينافي ذلك كون بعض النجوم مركوزاً في سموات فوق هذه وتقدم له في البقرة أنه اذا ضم العرش الى السبع السموات وافق كلام الأوائل أن الأفلاك ثمانية وتمام البحث حققناه في هداية السائل إلى أدلة المسائل أ هـ منه .

وإن كان في غير سماء الدنيا من السموات التي فوقها تتراءى كأنها كلها في السماء الدنيا لأن أجرام السموات لا تمنع من رؤية ما فوقها مما له إضاءة لكونها أجراماً صقيلة شفافة .

﴿ وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾ هذه فائدة أخرى غير الفائدة الأولى وهي كونها زينة للسماء الدنيا . والمعنى أنها ترجم الشياطين الذين يسترقون السمع ، والرجوم جمع رجم بالفتح وهو في الأصل مصدر أطلق على المرجوم به كما في قولهم الدرهم ضرب الأمير أي مضرابه والمعنى ذات رجم وجمع المصدر باعتبار أنواعه وقيل إن الضمير في جعلناها إلى المصابيح على حذف مضاف أي جعلنا شهبها وهي نارها المقتبسة منها لا هي نفسها لقوله .

﴿ إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ﴾ ووجه هذا أن المصابيح التي زين الله بها السماء الدنيا لا تزول عن مكانها ولا يرجم بها بل ينفصل شهاب عن الكوكب فيقتل الجني أو يخبله . كذا قال أبو علي الفارسي : جواباً لمن سأله كيف تكون المصابيح زينة وهي رجوم ، قال القشيري : وأمثل من قوله هذا أن نقول هي زينة قبل أن ترجم بها الشياطين .

قال قتادة : خلق الله النجوم لثلاث زينة للسماء ورجوماً للشياطين وعلامات يهتدى بها في البر والبحر ، فمن تكلم فيها بغير ذلك فقد تكلم فيما لا يعلم وتعدى وظلم ، وقيل : معنى الآية وجعلناها ظنوناً ورجوماً بالغيب لشياطين الإنس وهم المنجمون قال أبو السعود : ولا يساعده المقام .

﴿ وأعتدنا لهم ﴾ أي للشياطين في الآخرة بعد الإحراق في الدنيا بالشهب ﴿ عذاب السعير ﴾ هو النار الموقدة وأشد الحريق ، يقال : سعرت النار فهي مسعورة .

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾

﴿ وللذين كفروا بربهم ﴾ من كفار أو بني آدم من الفريقين ﴿ عذاب جهنم وبئس المصير ﴾ أي ما يصيرون إليه وهو جهنم ﴿ إذا ألقوا ﴾ أي طرحوا ﴿ فيها ﴾ كما يطرح الحطب في النار .

﴿ سمعوا لها شهيقاً ﴾ أي صوتاً منكراً كصوت الحمير عند أول نهيقها وهو أقبح الأصوات ، وتشهق إليهم شهقة البغل للشعير ، ثم تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف وقوله ﴿ لها ﴾ في محل نصب على الحال أي كائناً لها لأنه في الأصل صفة فلما قدمت صارت حالاً وقال عطاء الشهيق هو من الكفار عند إلقائهم في النار . ﴿ وهي تفور ﴾ أي والحال أنها تغلي بهم غليان المرجل بما فيه .

﴿ تكاد تميز ﴾ أي تتميز يعني تتقطع ﴿ من الغيظ ﴾ على الكفار فجعلت كالمغتاظة استعارة لشدة غليانهم بهم ، قال ابن قتيبة : تكاد تنشق غيظاً على الكفار ، وقال ابن عباس : تميز أي تتفرق ويفارق بعضها بعضاً ، قرأ الجمهور تميز بتاء واحدة مخففة وقرىء بتاءين على الأصل وبتشديدها بإدغام إحداهما في الأخرى ، وقرىء تمايز والأصل تتمايز وتميز من ماز يميز .

﴿ كلما ألقي فيها فوج ﴾ مستأنفة لبيان حال أهلها ، والفوج الجماعة من الناس أي كلما ألقي في جهنم جماعة من الكفار ﴿ سألهم ﴾ أي الفوج والجمع باعتبار معناه ﴿ خزنتها ﴾ من الملائكة سؤال توبيخ وتقريع ﴿ ألم يأتكم ﴾ في الدنيا ﴿ نذير ﴾ ينذركم هذا اليوم ويحذركم منه .

﴿ قالوا بلى ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل فماذا قالوا بعد هذا السؤال فقال : قالوا بلى ﴿ قد جاءنا ﴾ أي جاء كلاً منا ﴿ نذير ﴾ فأنذرنا وخوفنا وأخبرنا بهذا اليوم ، أو هذا من كلام الفوج وكل فوج له نذير ، فلا يحتاج إلى التأويل ، وهذا اعتراف منهم بعدل الله ، وإقرار بأنه تعالى أزاح عللهم ببعث الرسل وإنذارهم ما وقعوا فيه ، وجمعوا بين حرف الجواب ونفس الجملة المفادة به تأكيداً إذ لو اقتصروا على « بلى » لفهم المعنى ولكنهم صرحوا بالمفاد ببلى تحسراً وزيادة ندم في تفريطهم وليعطفوا عليه قولهم .

﴿ فكذبنا ﴾ ذلك النذير في كونه نذيراً من جهته تعالى ﴿ وقلنا ﴾ في حق ما تلاه علينا من الآيات إفراطاً في التكذيب ﴿ ما نزل الله ﴾ على أحد ﴿ من شي ﴾ من الأشياء فضلا عن تنزيل الآيات على ألسنتكم من الوعد والوعيد وغيرهما .

﴿ إن أنتم إلا في ضلال كبير ﴾ أي في ذهاب عن الحق وبعد عن الصواب ، وخطأ عظيم لا يقادر قدره . وهذا يحتمل أن يكون من كلام الكفار للنذر ، وأن يكون من كلام الخزنة للكفار على إرادة القول ، ومرادهم بالضلال الهلاك أو سموا جزاء الضلال باسمه كما يسمى جزاء السيئة والاعتداء سيئة ، وهذا يسمى المشاكلة في علم البيان ، وأن يكون من كلام الرسل للكفرة وقد حكوه للخزنة ، والاحتمال الأول هو الذي استظهره جمهور المفسرين .

ثم حكى الله عنهم مقالة أخرى قالوها بعد تلك المقالة فقال ﴿ وقالوا لو كنا نسمع ﴾ ما خاطبنا به الرسل ﴿ أو نعقل ﴾ شيئاً من ذلك ﴿ ما كنا في أصحاب السعير ﴾ أي في عداد أهل النار ، ومن جملة من يعذب بالسعير وهم الشياطين كما سلف ، قال الزجاج : لو كنا نسمع سماع من يعي ، أو نعقل عقل من يميز وينظر ما كنا من أهل النار ، وفيه دليل على أن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل وأنهما حجتان ملتزمتان .

﴿ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١) إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢) وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ۖ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥) ﴾

فلما اعترفوا هذا الاعتراف قال الله سبحانه ﴿ فاعترفوا بذنبهم ﴾ الذي استحقوا به عذاب النار وهو الكفر وتكذيب الأنبياء ﴿ فسحقاً لأصحاب السعير ﴾ أي فبعداً لهم من الله ورحمته ، قال ابن عباس : سحقاً بعداً وقال سعيد بن جبير وأبو صالح : هو واد في جهنم يقال له السحق ، قرأ الجمهور سحقاً بإسكان الحاء وقرىء بضمها وهما لغتان مثل السحت والرعْب ، وسحقاً منصوب على المفعول به أي ألزمهم الله سحقاً ، وقال الزجاج وأبو علي الفارسي : منصوب على المصدر أن أسحقهم الله سحقاً ، وقال أبو علي الفارسي : كان القياس إسحاقاً فجاء المصدر على الحذف ، واللام في ﴿ لأصحاب ﴾ السعير للبيان كما في ﴿ هيت لك ﴾ .

ولما فرغ سبحانه من ذكر أحوال أهل النار شرع في ذكر أحوال أهل الجنة فقال ﴿ إن الذين يخشون ربهم بالغيب ﴾ حال من الفاعل أو من المفعول أي غائبين عنه أو غائباً عنهم والمعنى أنهم يخشون عذابه ولم يروه فيؤمنون به خوفاً من عذابه ، ويجوز أن يكون المعنى يخشون ربهم حال كونهم غائبين عن أعين الناس ، وذلك في خلواتهم فيطيعونه سراً فيكون علانية أولى ، أو المراد بالغيب كون العذاب غائباً عنهم لأنهم في الدنيا وهو إنما يكون يوم القيامة ، والباء على هذا سببية .

قال ابن عباس في الآية : هم أبو بكر وعمر وعلي وأبو عبيدة بن الجراح ، أخرجه ابن مردويه ﴿ لهم مغفرة ﴾ عظيمة يغفر الله بها ذنوبهم ﴿ وأجر كبير ﴾ لا يقادر قدره وهو الجنة ، ومثل هذه الآية قوله ﴿ من خشي

الرحمن بالغيب ﴾ وظاهر الآية العموم .

ثم عاد سبحانه إلى خطاب الكفار فقال : ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان تساوي الأسرار والجهر بالنسبة إلى علم الله سبحانه . والمعنى إن أخفيتم كلامكم أو جهرتم به في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فكل ذلك يعلمه الله لا تخفى عليه منه خافية ، وتقديم السر على الجهر للإيذان بافتضاحهم ووقوع ما يحذرونه من أول الأمر ، والمبالغة في بيان شمول علمه المحيط بجميع المعلومات كان علمه تعالى بما يسرونه أقدم منه بما يجهرون به مع كونها في الحقيقة على السوية .

فإن علمه تعالى بمعلومات ليس بطريق حصول صورها بل وجود كل شيء في نفسه علم بالنسبة إليه تعالى ، أو لأن مرتبة السر متقدمة على مرتبة الجهر إذ ما من شيء يجهر به إلا وهو أو مباديه مضمر في القلب يتعلق به الإسرار غالباً فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية .

وقوله ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ تعليل للاستواء المذكور وتقرير له ، وفي صيغة الفعيل وتحلية الصدور بلام الاستغراق ووصف الضمائر بصاحبيتها من الجزالة ما لا غاية وراءه ، كأنه قيل : إنه مبالغ في الإحاطة بمضمرات جميع الناس وأسرارهم الخفية المستكمنة في صدورهم بحث لا تكاد تفارقها أصلاً ، فكيف يخفى عليه ما تسرونه وتجهرون به ، ويجوز أن يراد بذات الصدور القلوب التي في الصدور ، والمعنى إنه عليم بالقلوب وأحوالها فلا يخفى عليه سر من أسرارها .

﴿ ألا يعلم ﴾ الاستفهام للإنكار والمقصود نفي عدم إحاطة علمه تعالى بالمضمر والمظهر والمعنى ألا يعلم السر ومضمرات القلوب ﴿ من خلق ﴾ ذلك وأوجده ، فالموصول عبارة عن الخالق ، ويجوز أن يكون عبارة عن المخلوق ، وفي ﴿ يعلم ﴾ ضمير يعود إلى الله المخلوق الذي هو من جملة خلقه فإن الأسرار والجهر ومضمرات القلوب من جملة خلقه وفيه إثبات خلق الأقوال فيكون دليلاً على خلق أفعال العباد ، وقال أبو بكر بن الأصم وجعفر بن

حرب : « من » مفعول والفاعل مضمر وهو الله تعالى ، فاحتالا بهذا لنفي خلق الأفعال ﴿ وهو اللطيف الخبير ﴾ أي الذي لطف علمه بما في القلوب الخبير بما تسره وتضمره من الأمور لا تخفى عليه من ذلك خافية .

ثم امتن سبحانه على عباده فقال ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً ﴾ أي سهلة لينة مذللة تستقرون عليها منقادة لما تريدون منها من مشي عليها ، وزرع وحبوب وغرس وغير ذلك ، ولم يجعلها خشنة بحيث يمتنع عليكم السكون والمشي عليها ، والذلول في الأصل هو المنقاد الذي يذل لك ولا يستصعب عليك ، والمصدر الذل ، وتقديم «لكم» على مفعولي الجعل مع أن حقه التأخر عنهما للاهتمام بما قدم والتشويق إلى ما أخر ، فإن ما حقه التقديم إذا أخر لاسيما عند كون المقدم مما يدل على كون المؤخر من منافع المخاطبين تبقى النفس مترقبة لوروده فيتمكن لديها عند ذكره فضل تمكن .

﴿ فامشوا في مناكبها ﴾ استدلالاً واسترزاقاً، والفاء لترتيب الأمر بالمشي على الجعل المذكور والأمر للإباحة قال مجاهد والكلبي ومقاتل مناكبها طرقها وأطرافها ونواحيها وجوانبها ، وقال قتادة وشهر بن حوشب : مناكبها جبالها وقيل : فجاجها وبه قال ابن عباس ، وقال أيضاً : أطرافها ، وأصل المنكب الجانب ومنه منكب الرجل ومنه الريح النكباء لأنها تأتي من جانب دون جانب .

﴿ وكلوا من رزقه ﴾ أي مما رزقكم وخلقه لكم والتمسوا من نعم الله تعالى .

« عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب العبد المؤمن المحترف »[1] أخرجه الطبراني وابن عدي والبيهقي في الشعب والحكيم الترمذي ﴿ وإليه ﴾ لا إلى غيره ﴿ النشور ﴾ من قبوركم للجزاء فيسألكم عن شكر ما أنعم عليكم ، فبالغوا في شكر نعمه وآلائه ، وفي هذا وعيد شديد .

---

(١) حديث ضعيف انظر ضعيف الجامع - ١٧٠٤ .

ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾

ثم خوف سبحانه الكفار فقال : ﴿ أأمنتم من في السماء ﴾ قال الواحدي قال المفسرون : يعني عقوبة من في السماء ، وقيل : من في السماء عرشه وقدرته وسلطانه أي محل سلطانه ومحل قدرته ، وهو العالم العلوي ، وخص بالذكر وإن كان كل موجود محلاً للتصرف فيه ومقدوراً له تعالى لأن العالم العلوي أعجب وأغرب ، فالتخويف به أشد من التخويف بغيره .

وقيل : الملائكة وقيل : المراد جبريل وقيل : هو الله سبحانه وهو الحق ، لأن ظاهر النظم القرآني يقتضي أن الباري تعالى فوق السماء « وفي » بمعنى على والمعنى من ثبت واستقر في السماء أي على العالي وهو العرش ، قرأ الجمهور أأمنتم بهمزتين وقرىء بالتخفيف وبقلب الأولى واواً .

وقوله ﴿ أن يخسف بكم الأرض ﴾ بدل اشتمال من الموصول أي أأمنتم خسفة أو على حذف(من)أي من أن يخسف ، والمعنى يقلبها متلبسة بكم كما فعل بقارون بعد ما جعلها لكم ذلولاً تمشون في مناكبها .

﴿ فإذا هي تمور ﴾ أي تضطرب وتتحرك بكم على خلاف ما كانت عليه من السكون والاطمئنان ، وقيل : تهوي بهم ، وقيل : تجيء وتذهب ، والأول أولى ، قال الرازي : إن الله يحرك الأرض عند الخسف بهم حتى تتحرك فتعلو عليهم وهم يخسفون فيها فتنقلب فوقهم وتخسفهم إلى أسفل سافلين .

ثم كرر سبحانه التهديد لهم بوجه آخر فقال ﴿ أم أمنتم ﴾ إضراب عن التهديد بما ذكر ، وانتقال إلى التهديد بوجه آخر أي بل أأمنتم ﴿ من في السماء ﴾ وهو الله سبحانه وتعالى وفيه دليل على علوه ومباينته عن خلقه باستوائه على عرشه .

﴿ أن يرسل عليكم حاصباً ﴾ أي حجارة من السماء كما أرسلها على قرية قوم لوط وأصحاب الفيل ، وقيل : سحاب فيها حجارة وقيل : ريح فيها حجارة وحصباء كأنها تقلع الحصباء لشدتها وقوتها ، والكلام فيه كالكلام في أن يخسف بكم الأرض فهو إما بدل اشتمال أو بتقدير من .

﴿ فستعلمون ﴾ عند معاينة العذاب[1] ﴿ كيف نذير ﴾ أي إنذاري بالعذاب أي أنه حق ، قاله المحلي ، وقيل : النذير هنا محمد صلى الله عليه وسلم قاله عطاء والضحاك والمعنى : ستعلمون رسولي وصدقه ، والأول أولى .

﴿ ولقد كذب الذين من قبلهم ﴾ أي من قبل كفار مكة من كفار الأمم الماضية كقوم نوح وعاد وثمود وقوم ولوط وأصحاب الأيكة وأصحاب الرس وقوم فرعون والالتفات إلى الغيبة لإبراز الإعراض عنهم .

﴿ فكيف كان نكير ﴾ أي إنكاري عليهم بما أصبتهم به من العذاب الفظيع ، وهذا هو مورد التأكيد القسمي لا تكذيبهم فقط ، وفيه من المبالغة في تسلية رسول الله عليه وسلم وتشديد التهديد لقومه ما لا يخفى .

---

(١) قال الحفناوي ظاهر السياق أن المراد العذاب الموعود به وهو خسف الأرض وكذا في قوله الآتي ﴿ فكيف كان نكير ﴾ فيقتضي أن كفار مكة قد خسف بهم ورموا بالأحجار مع أنهم لم يقع لهم ذلك ، فإن قيل : المراد بقوله فستعلمون الخ التخويف بعذاب الآخرة قلنا يصير في الكلام نوع تفكيك خصوصاً وقد قال ابو السعود اي بإنذاري عند مشاهدتكم للمنذر به ولكن لا ينفعكم العلم حينئذ انتهى وهذا يقتضي أن الكلام في العذاب المخوف به وقد علمت ما فيه ولم نر من الشراح من نبه على هذا والله أعلم بمراده وأسرار كتابه .

﴿ أو لم يروا ﴾ الهمزة للاستفهام والواو للعطف على مقدّر أي أغفلوا ولم ينظروا ولم يروا وأجمع القراء على قراءته بياء الغيبة لأن السياق للرد على المكذبين بخلاف ما في النحل ففيه الغيبة والخطاب ﴿ إلى الطير ﴾ جمع طائر ويقع على الواحد والجمع ، وقال ابن الانباري : الطير جماعة وتأنيثها أكثر من تذكيرها ولا يقال للواحد طير بل طائر ، وقلما يقال للأنثى طائرة ﴿ فوقهم ﴾ في الهواء ﴿ صافات ﴾ حال أي صافة لأجنحتها في الهواء والجو وتبسطها عند طيرانها .

﴿ ويقبضن ﴾ أي يضممن أجنحتهن إلى جنوبهن إذا ضربنها بها حيناً فحيناً للاستظهار والاستعانة على التحرك والطيران قال النحاس : يقال للطائر إذا بسط جناحه صاف ، وإذا ضمها قابض ، كأنه يقبضها وهذا معنى الطيران وهو بسط الجناح وقبضه بعد البسط ، وإنما قال ويقبضن ولم يقل قابضات كما قال صافات لأن القبض يتجدد تارة فتارة وأما البسط فهو الأصل كذا قيل ، وقيل : المعنى قبضهن لأجنحتهن عند الوقوف من الطيران لا قبضها في حال الطيران .

﴿ ما يمسكهن إلا الرحمن ﴾ حالية أو مستأنفة لبيان كمال قدرة الله سبحانه ، والثاني أظهر ، والمعنى أنه ما يمسكهن في الهواء عن الوقوع عند الطيران إلا الرحمن القادر على كل شيء وإلا فالثقيل يتسفل طبعاً ولا يعلو وكذا لو أمسك حفظه وتدبيره عن العالم لتهافتت الأفلاك ﴿ إنه بكل شيء بصير ﴾ لا يخفى عليه شيء كائناً ما كان ، يعلم كيف يخلق الغرائب وكيف يدبر العجائب ، فبصير بمعنى العالم بالأشياء الدقيقة الغريبة .

﴿ أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ والالتفات عن الغيبة إلى الخطاب للتشديد في ذلك التبكيت ، والمعنى أنه لا جند لكم يمنعكم من عذاب الله ، والجند الحزب والمنعة ، قرأ الجمهور « أمن » بتشديد الميم على إدغام ميم أم في ميم من ، وأم بمعنى بل

ولا سبيل إلى تقدير الهمزة بعدها كما هو الغالب في تقدير أم المنقطعة ببل والهمزة لأن ما بعدها ههنا من الاستفهامية فأغنت عن ذلك التقدير ، ومن الاستفهامية مبتدأ واسم الإشارة خبره ، والموصول مع صلته صفة اسم الاشارة وينصركم صفة لجند ومن دون الرحمن في محل نصب على الحال من فاعل ينصركم ، والمعنى بل من هذا الحقير الذي هو في زعمكم جند لكم متجاوزاً نصر الرحمن .

﴿ إن الكافرون إلا في غرور ﴾ معترضة مقررة لما قبلها ناعية عليهم ما هم فيه من غاية الضلال ، والالتفات عن الخطاب إلى الغيبة للإيذان باقتضاء حالهم الإعراض عنهم ، والإظهار في موضع الإضمار لذمهم بالكفر وتعليل غرورهم به ، والمعنى ما الكافرون إلا في غرور عظيم من جهة الشيطان يغرهم به .

﴿ أمن ﴾ تكتب أم موصولة في « من » وكذا يقال فيما تقدم ﴿ هذا الذي يرزقكم ﴾ الكلام في هذا كالكلام في الذي قبله أي من الذي يدر عليكم الرزق من المطر وغيره ﴿ إن أمسك رزقه ﴾ أي أسباب رزقه التي ينشأ عنها كالمطر ، بل لو كان الرزق موجوداً كثيراً سهل التناول فوضع الآكل لقمة في فيه فأمسك الله تعالى عنه قوة الازدراد لعجز أهل السموات والأرض عن أن يسوغوا تلك اللقمة .وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه أي إن أمسك رزقه فمن يرزقكم غيره .

وقوله ﴿ بل لجوا في عتو ونفور ﴾ ينبيء عن مقدر يستدعيه المقام كأنه قيل : اثر تمام التبكيت والتعجيز لم يتأثروا لذلك ولم يذعنوا للحق ، بل تمادوا في عناد واستكبار عن الحق ونفور عنه ولم يعتبروا ولا تفكروا ، قال الرازي : واللجاج تقحم الأمر مع كثرة الصوارف عنه ، والعتو العناد والطغيان ، والنفور الشرود وقال ابن عباس : في عتو ونفور أي في ضلال .

﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾

﴿ أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى ﴾ مثل ضرب للمشرك والموحد توضيحاً لحالهما وتحقيقاً لشأن مذهبهما ، والفاء لترتيب ذلك على ما ظهر من سوء حالهم وخرورهم في مهاوي الغرور ، وركوبهم متن عشواء العتو والنفور ، وعدم اهتدائهم في مسلك المحاجة إلى جهة يتوهم فيها رشد في الجملة ، فإن تقدم الهمزة عليها صورة إنما هو لاقتضائها الصدارة ، وأما بحسب المعنى فالأمر بالعكس كما هو المشهور حتى لو كان مكان الهمزة هل لقيل : فهل من يمشي مكباً الخ .

والمكب والمنكب الساقط على وجهه يقال : كببته فأكب وانكب وقيل هو الذي يكب رأسه فلا ينظر يميناً ولا شمالاً ولا أماماً فهو لا يأمن العثور والانكباب على وجهه ، وقيل : أراد به الأعمى الذي لا يهتدي إلى الطريق ، فلا يزال مشيه ينكسه على وجهه ، والمكب اسم فاعل من أكب اللازم المطاوع لكبه ، يقال : كبه الله على وجهه في النار فأكب أي سقط .

وهذا على خلاف القاعدة من أن الهمزة إذا دخلت على اللازم تصيره متعدياً ، وهنا قد دخلت على المتعدي فصيرته لازما . قال قتادة : هو الكافر يكب على معاصي الله سبحانه في الدنيا فيحشره الله يوم القيامة على وجهه ، والهمزة للاستفهام الإنكاري ، والمعنى هل هذا الذي يمشي على وجهه أهدى إلى المقصد الذي يريده .

﴿أمّن يمشي سوياً ﴾ قائماً معتدلاً ناظراً إلى ما بين يديه سالماً من الخبط والعثار ﴿ على صراط مستقيم ﴾ أي على طريق مستوٍ ، لا اعوجاج به ولا

انحراف فيه ، قال ابن عباس : مكباً في الضلالة وسوياً مهتدياً قيل يعني بالمكب أبا جهل وبالسوي النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل : أراد بمن يمشي مكباً من يحشر على وجهه إلى النار . ومن يمشي سوياً من يحشر على قدميه إلى الجنة ، وهو كقول قتادة الذي ذكرناه ومثله قوله :

﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم ﴾ وخبر « من » محذوف لدلالة خبر « من » الأولى وهو أهدى عليه ، وقيل : لا حاجة إلى ذلك لأن « من » الثانية معطوف على « من » الأولى عطف المفرد على المفرد كقولك : أزيد قائم أم عمرو ، ووحد الخبر لأن أم لأحد الشيئين .

﴿ قل ﴾ لهم يا أشرف الخلق مذكراً لهم بما دفع عنه المولى من المفاسد . وجمع لهم من المصالح ليرجعوا إليه ولا يعولوا في حال من الأحوال إلا عليه ﴿ هو الذي أنشأكم ﴾ إنشاء بديعاً ﴿ وجعل لكم السمع ﴾ لتسمعوا به آيات الله وتتمسكوا بما فيها من الأوامر والنواهي وتتعظوا بموعظها .

﴿ والأبصار ﴾ لتبصروا بها الآيات التكوينية الشاهدة بشؤون الله عز وجل ، ووجه إفراد السمع مع جمع الأبصار أنه مصدر يطلق على الكثير والقليل ، وقد قدمنا بيان هذا في مواضع مع زيادة البيان .

﴿ والأفئدة ﴾ لتفكروا بها في مخلوقات الله وآياته التنزيلية والتكوينية وترتقوا في معارج الإيمان والطاعة ، وخصها بالذكر لأنها آلات العلم ، وذكر الله سبحانه ههنا أنه قد جعل لهم ما يدركون به المسموعات والمبصرات والمعقولات إيضاحاً للحجة وقطعاً للمعذرة وذماً لهم على عدم شكر نعم الله ولهذا قال:

﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ أي باستعمال هذه الحواس فيما خلقت لأجله من الأمور المذكورة وقليلاً نعت لمحذوف « وما » مزيدة لتأكيد التقليل أي شكراً قليلاً أو زماناً قليلاً فالقلة على ظاهرها وقيل أراد بقلة الشكر عدم وجوده منهم إن كان الخطاب للكفرة ، قال مقاتل : يعني أنكم لا تشكرون رب هذه النعم فتوحدونه .

«عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من اشتكى ضرسه فليضع أصبعه عليه وليقرأ هذه الآية ﴿ هو الذي أنشأكم الى قوله تشكرون ﴾» أخرجه الخطيب في تاريخه وابن النجار .

و«عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من اشتكى ضرسه فليضع أصبعه عليه ويقرأ هاتين الآيتين سبع مرات ﴿وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ﴾ الى قوله ﴿ يفقهون ﴾ و﴿ هو الذي أنشأكم ﴾ إلى ﴿ تشكرون ﴾ فانه يبرأ باذن الله » أخرجه[1] الدارقطني في الأفـراد .

﴿ قل هو الذي ذرأكم في الارض واليه تحشرون ﴾ أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يخبرهم أن الله هو الذي خلقهم في الارض ونشرهم فيها وفرقهم على ظهرها وبثهم وأنشأهم بعدما كانوا كالذر ، وأن حشرهم اليه للجزاء لا إلى غيره اشتراكـاً أو استقلالاً فليبنوا أمـورهم على ذلك .

ثم ذكر سبحانه انهم يستعجلون العذاب فقال : ﴿ ويقولون ﴾ من فرط عتوهم استهزاء وسخرية وتكذيباً ﴿ متى هذا الوعد ﴾ الذي تذكرون من الحشر والقيامة والنار والعذاب ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في ذلك والخطاب منهم للنبي صلى الله عليه وسلم ولمن معه من المؤمنين لأنهم كانوا مشاركين له في الوعد وتلاوة الآيات المتضمنة له ، وجواب الشرط محذوف والتقدير إن كنتم صادقين فأخبرونا به أو فبينوا وقته لنا .

ثم لما قالوا هذا القول أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيب عليهم فقال ﴿ قل إنما العلم ﴾ أي أن وقت قيام الساعة علمه ﴿ عند الله ﴾ لا يعلمه غيره ومثله قوله ﴿ إنما علمها عند ربي ﴾ ثم أخبرهم أنه مبعوث للإنذار لا للإخبار بالغيب فقال :

﴿ وإنما أنا نذير مبين ﴾ أي أنذركم عاقبة كفركم وأبيّن لكم ما أمرني الله ببيانه بإقامة الأدلة حتى يصير ذلك كأنه مشاهد ، والإنذار يكفي له العلم بل الظن بوقوع المحذر منه .

(١) هذا الحديث والذي قبله لا يطمئن اليهما القلب . ولم أجدهما في كتب الحديث عندي .

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾

ثم ذكر سبحانه حالهم عند معاينة العذاب فقال ﴿ فلما رأوه زلفة ﴾ الفاء فصيحة معربة عن تقدير جملتين وترتيب الشرطية عليهما كأنه قيل وقد أتاهم الموعود به فرأوه فلما رأوه الخ ، وزلفة مصدر بمعنى الفاعل أي مزدلفاً أو حال من المفعول أو ذا زلفة وقرب ، أو رأوه في مكان ذا زلفة قال مجاهد : أي قريباً وقال الحسن : عياناً . وأكثر المفسرين على أن المراد عذاب الآخرة يوم القيامة ، وقال مجاهد : المراد عذاب بدر وقيل رأوا ما وعدوا به من الحشر قريباً منهم كما يدل عليه قوله ﴿ وإليه تحشرون ﴾ وقيل لما رأوا عملهم السيء قريباً .

﴿ سيئت وجوه الذين كفروا ﴾ أي اسودت وعلتها الكآبة والقترة وغشيتها الذلة والسواد يقال ساء الشيء يسوء فهي سيء إذا قبح ، والأصل ساء وجوههم العذاب ورؤيته أي حزنها ، وساءت هنا ليست هي المرادفة لبئس . والمقام للضمير وأتى بالمظهر توصلاً لذمهم بالكفر وتعليل المساءة به ، قال الزجاج المعنى تبين فيها السوء أي ساءهم ذلك العذاب فظهر عليه بسببه في وجوههم ما يدل على كفرهم كقوله ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾ قرأ الجمهور سيئت بكسر السين بدون إشمام وقرىء بالإشمام .

﴿ وقيل ﴾ لهم توبيخاً وتقريعاً ﴿ هذا ﴾ المشاهد الحاضر من العذاب هو العذاب ﴿ الذي كنتم به تدعون ﴾ في الدنيا أي تطلبونه وتستعجلون به استهزاء ، على أن معنى تدعون الدعاء قال الفراء : تدعون تفتعلون من

الدعاء أي تتمنون وتسألون ، وبهذا قال الأكثر من المفسرين ، وقال الزجاج : تدعون الأباطيل والأحاديث . وقيل معنى تدعون تكذبون ، هذا على قراءة الجمهور تدعون بالتشديد فهو إما من الدعاء كما قال الأكثر أو من الدعوى كما قال الزجاج ومن وافقه .

والمعنى أنهم كانوا يدعون أنه لا بعث ولا حشر ولا جنة ولا نار ، وقرىء تدعون مخففاً ومعناها ظاهر وهي مؤيدة للقول بأنها من الدعاء ، قال قتادة : هو قولهم ﴿ ربنا عجل لنا قطنا ﴾ وقال الضحاك : هو قولهم ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ﴾ الآية ، قال النحاس تدَّعون وتدعون بمعنى واحد كما تقول قدر واقتدر ، وغدى واغتدى ، إلا أن افتعل معناه مضى شيئاً بعد شيء وفعل يقع على القليل والكثير .

﴿ قل أرأيتم إن أهلكني الله ﴾ بموت أو قتل كقوله وإن أمرؤ هلك أو بالعذاب ﴿ ومن معي ﴾ من المؤمنين ﴿ أو رحمنا ﴾ بتأخير ذلك إلى أجل أو لم يعذبنا ﴿ فمن يجير الكافرين من عذاب أليم ﴾ أي فمن يمنعهم ويؤمنهم من العذاب . والمعنى أنه لا ينجيهم من ذلك أحد سواء أهلك الله رسوله والمؤمنين معه كما كان الكفار يتمنونه أو أمهلهم .

وقيل المعنى إنا مع إيماننا بين الخوف والرجاء . فمن يجيركم مع كفركم من العذاب ، ووضع الظاهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالكفر وبيان أنه السبب في عدم نجاتهم . وتعليل نفي الإجارة به ؛ وأرأيتم بمعنى أخبروني كما ذكره بعض المفسرين وأنها إذا كانت كذلك تنصب مفعولين الأول مفرد والثاني جملة استفهامية ولا شيء منهما هنا ؛ فكأن الجملة الشرطية سدت مسد المفعولين .

وقوله ﴿ فمن يجير ﴾ الخ جواب الشرط وفي تسببه على الشرط بعد ، ويمكن أن يقال الجواب محذوف تقديره ، فلا فائدة لكم في ذلك ولا نفع يعود عليكم لأنكم لا مجير لكم من عذاب الله .

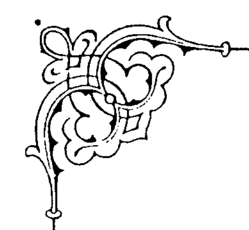
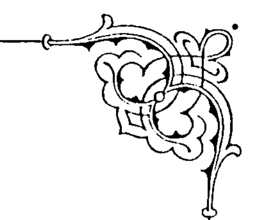
﴿ قل هو الرحمن ﴾ أي الذي أدعوكم إلى عبادته مولى النعم كلها ﴿ آمنا به ﴾ وحده لا نشرك به شيئاً لما علمنا أن كل ما سواه إما نعمة أو منعم عليه ﴿ وعليه ﴾ لا على غيره ﴿ توكلنا ﴾ أي فوضنا الأمور إليه عز وجل لعلمنا بأن ما عداه كائناً ما كان بمعزل من النفع والضر .

﴿ فستعلمون ﴾ إذا نزل بكم العذاب ﴿ من هو في ضلال مبين ﴾ منا ومنكم، وفي هذا تهديد شديد مع إخراج الكلام مخرج الإنصاف . قرأ الجمهور فستعلمون بالفوقية على الخطاب وقرىء بالتحتية على الخبر .

ثم احتج سبحانه عليهم ببعض نعمه وخوّفهم سلب تلك النعمة عنهم فقال ﴿ قل أرأيتم ﴾ أي أخبروني ﴿ إن أصبح ماؤكم ﴾ الذي تعدونه في أيديكم كما نبهت عليه الإضافة ﴿ غوراً ﴾ أي غائراً في الأرض بحيث لا يبقى له وجود فيها أو صار ذاهباً في الأرض إلى مكان بعيد بحيث لا تناله الدلاء ، يقال غار الماء غوراً أي نضب والغور الغائر وصف بالمصدر للمبالغة ، كما يقال رجل عدل ، وقد تقدم مثل هذا في سورة الكهف ، وكان ماؤهم من بئر زمزم وبئر ميمون ؛ قال ابن عباس غوراً داخلاً في الأرض وعنه يرجع في الأرض .

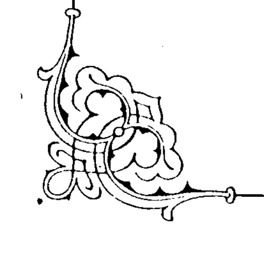
﴿ فمن يأتيكم بماء معين ﴾ أي ظاهر تراه العيون وتناله الدلاء ، وقيل هو من معن الماء إذا كثر، وقال قتادة والضحاك أي جار وقد تقدم معنى المعين في سورة المؤمنون، وقرأ ابن عباس بماء عذب . وعنه قال بماء معين أي الجاري ، وعنه قال معين ظاهر وعنه قال عذب .

والمقصود من الآية أن يجعلهم مقرين ببعض نعمه عليهم ويريهم قبح ما هم عليه من الكفر والعناد والكبر ، قال المحلي ويستحب أن يقول القارىء عقب معين : « الله رب العالمين » كما ورد في الحديث ، وتليت هذه الآية عند بعض المتجبرين فقال تأتي به الفؤوس والمعاول ، فذهب ماء عينه وعمي ، نعوذ بالله من الجرأة على الله وعلى آياته .

سورة نون

وتسمى سورة القلم اثنتان وخمسون آية . وهي مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وعن ابن عباس وقتادة أن من أولها الى قوله : ﴿ أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ مدني . ومن بعد ذلك الى قوله : ﴿ فهم يكتبون ﴾ مكي ومن بعد ذلك الى قوله : ﴿ فهم يكتبون ﴾ مكي ومن بعد ذلك الى قوله : ﴿ من الصالحين ﴾ مدني وباقيها مكي . كذا قال الماوردي . وعن ابن عباس قال كانت اذا نزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة ثم يزيد اللّه فيها ما شاء . وكان أول ما نزل من القرآن اقرأ باسم ربك ثم نون ثم المزمل ثم المدثر . وعنه نزلت نون بمكة وعن عائشة مثله .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾

﴿ نٓ ﴾ قرىء بإدغام النون الثانية من هجائها في الواو وقرىء بالإظهار وبالفتح على إضمار فعل وبكسرها على إضمار القسم ، أو لأجل التقاء الساكنين ، وبضمها على البناء ؛ عن ابن عباس أنه قال نون : الدواة ، أخرجه ابن المنذر وعبد بن حميد ، وأخرج ابن مردويه عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « النون السمكة[1] التي عليها قرار الأرضين » ، وقال مجاهد والسدي ومقاتل : هو الحوت الذي يحمل الأرض ، وبه قال مرة الهمداني ، وعطاء الخراساني والكلبي .

وقيل إن نون آخر حرف من حروف الرحمن ؛ وقال ابن زيد : هو قسم أقسم الله به ؛ وقال ابن كيسان : هو فاتحة السورة وقال عطاء وأبو العالية : هي النون من نصر وناصر ؛ وقال محمد بن كعب : أقسم الله بنصره المؤمنين ، وقيل إسم للسورة وقيل اسم للقرآن وقيل هو حرف من حروف الهجاء كالفواتح الواقعة في أوائل السور المفتتحة بذلك ، وقد اختاره المحلي حيث قال أحد حروف الهجاء ؛ وأراد بذلك الرد على من قال أنه مقتطع من اسمه تعالى الرحمن أو النصير أو الناصر أو النور .

وقال النسفي : الظاهر أن المراد به هذا الحرف من حروف المعجم ؛ وأما قول الحسن أنه الدواة وقول ابن عباس أنه الحوت الذي عليه الأرض

---

(١) هذا من المروي بغير تحقيق . رواه الطبري ٢٩/١٤ وابو ظبيان قابوس وفيه لين كما قال ابن حجر في التقريب .

واسمه بهموت فمشكل سواء كان جنس أو إسم علم ، فالسكون دليل على أنه من حروف المعجم انتهى وقد عرفناك ما هو الحق في مثل هذه الفواتح في أول سورة البقرة .

﴿ والقلم ﴾ الواو واو القسم أقسم الله بالقلم لما فيه من البيان وهو واقع على كل قلم يكتب به في الأرض والسماء ، وقال جماعة من المفسرين ومنهم المحلي المراد به القلم الذي كتب به الكائنات في اللوح المحفوظ، أقسم الله به تعظيماً له ، قال قتادة القلم من نعمة الله على عباده وعن عبادة بن الصامت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب ، فجرى بما هو كائن إلى الأبد[1] أخرجه الترمذي وصححه وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن مردويه .

وأخرج ابن جرير من حديث معاوية بن قرة عن أبيه مرفوعاً نحوه ، وعن ابن عباس قال : « إن الله خلق النون وهي الدواة وخلق القلم فقال : اكتب ، قال: وما أكتب ؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة » أخرجه ابن جرير وابن المنذر ، وأخرج الحكيم الترمذي عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه[2] .

وعن ابن عباس أن أول شيء خلقه الله القلم فقال الله له اكتب فقال : يا رب ما أكتب؟فقال : اكتب القدر، فجرى من ذلك اليوم بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة ثم طوى الكتاب ورفع القلم وكان عرشه على الماء فارتفع بخار

---

(١) زاد المسير، ٨/٣٢٧.

(٢) رواه ابن عساكر ١/٢٤٧/١٧ عن الحسن بن يحي الخشني عن أبي عبد الله مولى بني أمية عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه بأطول منه ، وتمامه : « ثم قال له : اكتب ، قال : وما أكتب ؟ قال : اكتب ما يكون ـ أو ما هو كائن من عمل أو رزق أو أجل ، فكتب ذلك الى يوم القيامة ، فذلك قوله : (نٓ والقلم وما يسطرون) ثم ختم على القلم فلم يتكلم الى يوم القيامة ، ثم خلق العقل وقال : وعزتي لأكملنك فيمن أحببت ، ولأنقصنّك ممن أبغضت » . والحسن بن يحيي صدوق كثير الغلط كما قال الحافظ في « التقريب » ، والحديث رواه أحمد في « المسند » ٥/٣١٧ من طرق عن الوليد بن عبادة عن أبيه عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، وليس فيه ذكر النون في أوله ولا ذكر العقل في آخره ، ورواه الترمذي ٢/١٦٢ بنحو رواية أحمد وقال : حديث حسن صحيح غريب ، ورواه ايضاً ابو داود في « سننه » رقم (٤٧٠٠) والطبري ١٧/٢٩ وهو حديث صحيح بهذا القدر .

الماء ففتقت منه السموات ثم خلق النون فبسطت الأرض عليه والأرض على ظهر النون فاضطرب النون فمادت الأرض فأثبتت الجبال ، فإن الجبال لتفخر على الأرض إلى يوم القيامة ثم قرأ ﴿ نون والقلم وما يسطرون ﴾ أخرجه الحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات وأبو الشيخ وغيرهم .

﴿ وما يسطرون ﴾ ما موصولة والضمير عائد إلى أصحاب القلم المدلول عليهم بذكره لأن ذكر آلة الكتابة تدل على الكاتب ، والمعنى والذي يكتبون كل ما يكتب أو الحفظة الكاتبون على بني آدم قال ابن عباس يسطرون يكتبون ، ويجوز أن تكون ما مصدرية أي وسطرهم ، وقيل الضمير راجع إلى القلم خاصة من باب إسناد الفعل إلى الآلة وإجرائها مجرى العقلاء ، وعن ابن عباس أيضاً قال : ﴿ وما يسطرون ﴾ ما يعلمون .

﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ جواب القسم وما نافية أي انتفى عنك الجنون بنعمة ربك كما يقال أنت بحمد الله عاقل ، قيل الباء متعلقة بمضمر هو حال كأنه قيل أنت بريء من الجنون متلبساً بنعمة الله التي هي النبوة والرسالة العامة ، وقيل الباء للقسم أي ما أنت ونعمة ربك بمجنون ، وقيل النعمة هنا الرحمة ، والآية رد على الكفار حيث قالوا ﴿ يا أيها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون ﴾

﴿ وإن لك لأجراً ﴾ أي ثواباً على ما تحملت من أثقال النبوة وقاسيت من أنواع الشدائد ﴿ غير ممنون ﴾ أي غير مقطوع ، يقال مننت الحبل اذا قطعته وقال مجاهد غير محسوب ، وقال الحسن غير مكدر بالمن ، وقال الضحاك أجراً بغير عمل وقيل غير مقدر ، وقيل غير ممنون به عليك من جهة الناس ، وقيل غير منقوص .

﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ قيل هو الإسلام والدين ، حكاه الواحدي عن الأكثرين ، قال الحفناوي أقسم أولاً بالقلم ثم بسطر الملائكة أو بسطورهم ، فالمقسم به شيئآن على ثلاثة أشياء نفي الجنون عنه وثبوت الأجر

له وكونه على دين الإسلام ، وقيل هو القرآن ، روي هذا عن الحسن والعوفي ، وقال قتادة : هو ما كان يأتمر به من أمر الله وينتهي عنه من نهي الله ، قال الزجاج المعنى أنك على الخلق الذي أمرك الله به في القرآن ، وقيل هو لرفقه بأمته وإكرامه إياهم ، وقيل المعنى إنك على طبع كريم ، قال الماوردي وهذا هو الظاهر وحقيقة الخلق في اللغة ما يأخذ الإنسان نفسه به من الأدب .

عن سعد بن هشام قال: أتيت عائشة فقلت: يا أم المؤمنين « اخبريني بخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: كان خلقه القرآن »[1] أما تقرأ القرآن ﴿ إنك لعلى خلق عظيم ﴾ ، أخرجه مسلم وابن المنذر والحاكم وغيرهم ، وعنها قالت : « ما كان أحد أحسن خلقاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما دعاه أحد من أصحابه ولا من أهل بيته الا قال لبيك ، فلذلك أنزل الله ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ » أخرجه ابن مردويه وابن نعيم في الدلائل والواحدي .

وعن أبي الدرداء قال : « سئلت عائشة عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : كان خلقه القرآن يرضى لرضاه ويسخط لسخطه » أخرجه البيهقي في الدلائل وابن مردويه وابن المنذر .

وعن أبي عبد الله الجدلي قال :« قلت لعائشة: كيف خلق رسول الله صلى

---

(١) هو قطعة من حديث طويل رواه الإمام احمد في « مسنده » ٦/٥١ ، ٥٢ ، ورواه مسلم ٥١٢/١ بنحو حديث أحمد . ورواه الحاكم في « المستدرك » ٤٩٩/٢ مختصراً ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، وأورده السيوطي في « الدر » ٢٥٠/٦ مختصراً ، وزاد نسبته لابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها . قال ابن كثير : ومعنى هذا أنه عليه الصلاة والسلام صار امتثال القرآن امراً ونهياً سجيّة له وخُلُقاً تطبعه وترك طبعه الجبلّي ، فمهما أمره القرآن فعله ، ومهما نهاه عنه تركه ، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم ، من الحياء ، والكرم ، والشجاعة ، والصفح ، والحلم ، وكل خلق جميل .

الله عليه وسلم قالت : لم يكن فاحشاً ولا متفاحشاً ولا صخاباً في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة . ولكن يعفو ويصفح » . أخرجه ابن أبي شيبة والترمذي وصححه وابن مردويه . وقيل غير ذلك مما يطول ذكره وهو في كتب الشمائل والسير مستوفى .

﴿ فستبصر ويبصرون ﴾ أي ستبصر يا محمد ويبصر الكفار إذا تبين الحق وانكشف الغطاء ، وذلك يوم القيامة ، قال ابن عباس : أي ستعلم ويعلمون يوم القيامة حين يتميز الحق من الباطل ، وقيل في الدنيا بظهور عاقبة أمرك بغلبة الإسلام واستيلائك عليهم بالقتل والنهب ، وهذا وعد له ووعيد لهم .

﴿ بأيكم المفتون ﴾ قال الخطيب : ترسم بأيكم ههنا بيائين انتهى ، والباء زائدة للتأكيد أي أيكم المفتون بالجنون كذا قال الأخفش وأبو عبيدة وغيرهما الا أنه ضعيف من حيث أن الباء لا تزاد في المبتدأ الا في بحسبك فقط ، وقيل ليست الباء زائدة ، والمفتون مصدر جاء على مفعول كالمعقول والميسور ، والتقدير بأيكم الفتون أو الفتنة ، وقال الفراء ومجاهد : إن الباء بمعنى في فهي ظرفية أي في أيكم الفتون في الفريق الذي أنت فيه أم في الفريق الآخر ، ويؤيد هذا قراءة ابن ابي عبلة بفي .

وقيل في الكلام حذف مضاف أي بأيكم فتن المفتون فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه ، روي هذا عن الأخفش أيضاً تكون الباء سببية وقيل المفتون المعذب . من قول العرب فتنت الذهب بالنار اذا أحميته ومنه قوله تعالى : ﴿ يوم هم على النار يفتنون ﴾ وقيل المفتون هو الشيطان ، لأنه مفتون في دينه والمعنى بأيكم الشيطان ، قال ابن عباس : كانوا يقولون إنه شيطان وانه مجنون ، وعنه قال : المفتون المجنون ، وقال قتادة ومقاتل : هذا وعيد لهم بعذاب يوم بدر ، والمعنى سترى ويرى أهل مكة اذا نزل بهم العذاب ببدر بأيكم المفتون .

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾

﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ﴾ تعليل للجملة التي قبلها فإنها تتضمن الحكم عليهم بالجنون لمخالفتهم لما فيه نفعهم في العاجل والآجل ، واختيارهم ما فيه ضرهم فيهما ، وتأكيد لما فيه من الوعد والوعيد ، والمعنى هو أعلم بمن ضل عن سبيله الموصل إلى سعادة الدارين ﴿ وهو أعلم بالمهتدين ﴾ إلى سبيله الموصل إلى تلك السعادة الآجلة والعاجلة فهو مجاز كل عامل بعمله إن خيراً فخير وان شراً فشر .

﴿ فلا تطع المكذبين ﴾ الفاء لترتيب النهي على ما ينبىء عنه ما قبله من اهتدائه صلى الله عليه وآله وسلم وضلالهم ، أو على جميع ما فصل من أول السورة ، وهذا تهييج للتصميم على مباينتهم ، نهاه سبحانه عن ممايلة المشركين وهم رؤساء كفار مكة لأنهم كانوا يدعونه إلى دين آبائه فنهاه الله عن طاعتهم ، أو هو تعريض لغيره عن أن يطيع الكفار أو المراد بالطاعة مجرد المداراة بإظهار خلاف ما في الضمير فنهاه الله عن ذلك كما يدل عليه قوله .

﴿ ودّوا لو تدهن فيدهنون ﴾ فإن الإدهان هو الملاينة والمسامحة والمداراة ، قال الفراء المعنى لو تلين فيلينوا لك ، وكذا قال الكلبي وقال الضحاك والسدي ودوا لو تكفر فيتمادوا على الكفر ، وقال الربيع بن أنس ودوا لو تكذب فيكذبون ، وقال قتادة لو تذهب عن هذا الأمر فيذهبون معك ، وقال الحسن لو تصانعهم عن دينك فيصانعونك وقال مجاهد لو تركن اليهم وتترك ما أنت عليه من الحق فيمايلونك ، قال ابن قتيبة كانوا أرادوه على أن يعبد آلهتهم مدة ويعبدوا الله مدة ، وقال ابن عباس لو ترخص لهم فيرخصون .

وقوله فيدهنون عطف على تدهن داخل في حيز لو أو هو خبر مبتدأ محذوف أي فهم يدهنون ، قال سيبويه وزعم قالون أنها في بعض المصاحف ودوا لو تدهن فيدهنوا بغير نون والنصب على جواب التمني المفهوم من « ودوا » والظاهر من اللغة في معنى الإدهان هو ما ذكرناه أولاً[1].

﴿ ولا تطع كل حلاف ﴾ أي كثير الحلف بالباطل وكفى به مزجرة لمن اعتاد الحلف ﴿ مهين ﴾ فعيل من المهانة وهي القلة في الرأي والتمييز ، وقال مجاهد : هو الكذاب ، وقال قتادة : المكثار في الشر ، وكذا قال الحسن : وقيل هو الفاجر العاجز وقيل هو الحقير عند الله ، وقيل هو الذليل ، وقيل هو الوضيع .

وأخرج ابن مردويه عن أبي عثمان النهدي قال : قال مروان لما بايع الناس ليزيد : سنة أبي بكر وعمر ، فقال : عبد الرحمن بن أبي بكر إنها ليست بسنة أبي بكر وعمر لكنها سنة هرقل ، فقال مروان : هذا الذي أنزل فيه ﴿ والذي قال لوالديه أف لكما ﴾ الآية . قال فسمعت ذلك عائشة فقالت : إنها لم تنزل في عبد الرحمن . ولكن نزل في أبيك ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين ﴾[2] .

﴿ هماز ﴾ هو المغتاب للناس ، قال زيد هو الذي يهمز بأخيه ، وقيل الهماز العياب ، وقيل الهماز الذي يذكر الناس في وجوههم ، واللماز الذي

---

(١) قال ابن جرير الطبري : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : معنى ذلك : ودَّ هؤلاء المشركون يا محمد لو تلين لهم في دينك باجابتك إياهم الى الركون الى آلهتهم فيلينون لك في عبادتك إلهك ، كما قال جل ثناؤه : ﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلاً . إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات﴾ قال : وإنما هو مأخوذ من الدُّهن ، شبه التليين في القول بتليين الدُّهن .

(٢) راجع دفاع عائشة هذا بالتفصيل في كتاب (الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة) مطبعة الإمام ، وهو من النوادر وقد تم طباعة الكتاب في بيروت .

يذكرهم في مغيبهم ، كذا قال أبو العالية والحسن وعطاء بن أبي رباح ، وقال مقاتل : عكس هذا ، وقيل الهماز الذي يهمز الناس بيده ويضربهم ، واللمز باللسان ، وقيل الهمز كاللمز وزناً ومعنى وبابه ضرب ، وهمزات الشيطان خطراته التي يخطرها بقلب الإنسان .

﴿مشّاء بنميم﴾ هو الذي يمشي بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم ، يقال نم ينم إذا سعى بالفساد بين الناس ، وقيل النميم جمع نميمة أي نقال للحديث من قوم إلى قوم على وجه السعاية والإفساد بينهم[1] .

﴿ مناع للخير﴾ أي بخيل بالمال لا ينفقه في وجهه ، وقيل هو الذي يمنع أهله وعشيرته عن الإسلام ، قال الحسن : يقول لهم من دخل منكم في دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم لا أنفعه بشيء أبداً ﴿ معتد ﴾ أي متجاوز الحد في الظلم[2] ﴿ أثيم ﴾ كثير الآثام .

﴿ عتل ﴾ قال الواحدي : المفسرون يقولون هو الشديد الخلق الفاحش الخلق وقال الفراء : هو الشديد الخصومة في الباطل ، وقال الزجاج : هو الغليظ الجافي في الطبع من عتله إذا قاده بعنف وغلظة ، وقال الليث : هو الأكول المنوع ، وقيل قاسي القلب وقيل الذي يعتل الناس أي يحملهم ويجرهم إلى ما يكرهون من حبس وضرب ، ومنه ﴿ خذوه فأعتلوه ﴾ وقيل هو الفاحش اللئيم .

---

(١) وقد ثبت في «الصحيحين » من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : مرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقبرين ، فقال : «إنهما ليعذبان ، وما يعذبان في كبير ، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول ، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة » . وفي « الصحيحين » أيضاً من حديث حذيفة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يدخل الجنة قتاتٌ » أي : نمام ، كما في رواية اخرى لمسلم .

(٢) في « الصحيحين » عن حارثة بن وهب الخزاعي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أنبئكم بأهل الجنة ، كل ضعيف متضعّف لو أقسم على الله لأبرَّه ، ألا أنبئكم بأهل النار كل عُتلّ جَوَّاظ مستكبر » . والجوَّاظ : الجموع المنوع .

﴿ بعد ذلك زنيم ﴾ أي هو بعد ما عد من معايبه ومثالبه الثمانية دعيٌّ ملصق مستلحق بالقوم ، وليس هو منهم ، مأخوذ من الزنمة المتدلية في حلق الشاة أو الماعز ، وقال سعيد بن جبير : الزنيم المعروف بالشر وقيل هو رجل من قريش كان له زنمة كزنمة الشاة . وقيل هو الظلوم ، وقال ابن عباس : له زنمة كزنمة الشاة والعتل هو الدعي والزنيم هو المريب الذي يعرف بالشر وعنه قال : الزنيم الدعي وعنه الزنيم الذي يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزنمتها وعنه قال هو الرجل يمر على القوم فيقولون رجل سوء ، وقال : أيضاً الزنيم الظلوم .

وهذه البعدية في الرتبة لا في الخارج ، قال الشهاب فبعد هنا كثم للتراخي في الرتبة قال أبو السعود وفيه دلالة على أن دعوته أشد معايبه وأقبح قبائحه ؛ وقد قيل أن هذه الآيات نزلت في الأخنس بن شريق لأنه حليف ملحق في بني زهرة ؛ وقيل في الوليد بن المغيرة وبه قال الجمهور ، وقيل في أبي جهل بن هشام ، وقيل في الأسود ابن عَبْد يغوث، قاله ابن عباس

﴿ أن كان ذا مال وبنين ﴾ متعلق بقوله تعالى : ﴿ ولا تطع ﴾ أي لا تطع من هذه مثالبه لأن كان متمولاً مستظهراً بالبنين ، قاله الفراء والزجاج ، وقيل متعلق بما دل عليه جملة ﴿ إذا تتلى ﴾ من معنى الجحود والتكذيب لا يقال الذي هو جواب الشرط لأن ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله كأنه قيل لكونه مستظهراً بالمال والبنين كذب بآياتنا ، وفيه أنه يدل على أن مدار تكذيبه كونه ذا مال وبنين من غير أن يكون لسائر قبائحه دخل في ذلك .

قرىء أن كان بهمزة واحدة على الخبر وقرىء بهمزة واحدة ممدودة على الاستفهام ؛ والمراد به التوبيخ والتقريع حيث جعل مجازاة النعم التي خوَّله الله من المال والبنين أن كفر به وبرسوله ، وقرىء بهمزتين مخففتين وقرأ نافع في رواية عنه بكسر الهمزة على الشرط وجوابه مقدر أي إن كان كذا يكفر ويجد دل عليه ما بعده .

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿إذا تتلى عليه آياتنا﴾ أي القرآن ﴿قال﴾ هي ﴿أساطير﴾ أي أكذوبة ﴿الأولين﴾ والجملة مستأنفة جارية مجرى التعليل للنهي .

﴿سنسمه على الخرطوم﴾ أي سنكويه بالكي على أنفه مهانة له وعلامة يعير بها ما عاش ، قال أبو عبيدة وأبو زيد والمبرد : الخرطوم الأنف وتخصيص الأنف بالذكر لأن الوسم عليه أبشع ؛ وفي التعبير عن الأنف بالخرطوم استهجان واستهزاء باللعين ، لأن الخرطوم أنف السباع وغالب ما يستعمل في أنف الفيل والخنزير ، وفي القاموس الخرطوم كزنبور الأنف أو مقدمه أو ما ضممت عليه الحنكين كالخرطم كقنفذ . وفي السمين هو هنا عبارة عن الوجه كله من التعبير عن الكل باسم الجزء لأنه أظهر ما فيه وأعلاه ، والأول أولى ، وقد جرح أنف هذا اللعين يوم بدر فبقى أثر الجرح في أنفه بقية عمره .

وقال مقاتل سنسمه بالسواد على الأنف وذلك أنه يسود وجهه قبل دخول النار وقال الزجاج : سنجعل له في الآخرة العلم الذي يعرف به أهل النار من اسوداد وجوههم ، وقال قتادة : سنلحق به شيئاً لا يفارقه . واختار هذا ابن قتيبة قال : والعرب تقول قد وسمه ميسم سوء يكون ألصق به عاراً لا يفارقه فالمعنى أن الله ألحق به عاراً لا يفارقه كالوسم على الخرطوم ، وقيل معنى سنسمه سنحطمه بالسيف وقال النضر بن شميل : المعنى سنجده على شرب الخمر وقد يسمى الخمر بالخرطوم ومنه قول الشاعر :

تظل يومك في لهو وفي طرب وأنت بالليل شراب الخراطيم

﴿إنا بلوناهم﴾ يعني كفار مكة فإن الله ابتلاهم بالجوع والقحط بدعوة

رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أكلوا الجيف والرمم ، والابتلاء الاختبار ، والمعنى أعطيناهم الأموال ليشكروا لا ليبطروا فلما بطروا وعادوا محمداً صلى الله عليه وسلم ابتليناهم ابتلاء .

﴿ كما بلونا أصحاب الجنة ﴾ المعروف خبرهم عندهم ، وذلك انها كانت بأرض اليمن على فرسخين من صنعاء لرجل يؤدي حق الله منها فمات وصارت إلى أولاده ، فمنعوا الناس خيرها وبخلوا بحق الله فيها ، قال الواحدي هم قوم من ثقيف كانوا باليمن مسلمين ورثوا من أبيهم ضيعة فيها جنات وزرع ونخيل ، وكان أبوهم يجعل مما فيها من كل شيء حظاً للمساكين عند الحصاد والصرام ، فقالت بنوه المال قليل والعيال كثير ، ولا يسعنا أن نفعل كما كان يفعل أبونا وعزموا على حرمان المساكين فصارت عاقبتهم إلى ما قص الله في كتابه[1] .

وقال الحسن : كانوا كفاراً قال النسفي : والجمهور على الأول ، وقال الكلبي : كان بينهم وبين صنعاء فرسخان ، ابتلاهم الله بأن حرق جنتهم وقيل هي جنة كانت بصروان وصروان بالصاد المهملة على فراسخ من صنعاء وكان أصحاب هذه الجنة بعد رفع عيسى بزمن يسير ، قاله الزرقاني : في شرح المواهب ، وذكره القرطبي أيضاً ومثله في حواشي البيضاوي ، وقال ابن عباس : هم ناس من أهل الحبشة كان لأبيهم جنة وكان يطعم منها المساكين فمات أبوهم فقال بنوه: إن كان أبونا لأحمق كان يطعم المساكين .

---

(١) ذكر أهل التفسير أن رجلاً كان بناحية اليمن له بستان ، وكان مؤمناً . وذلك بعد عيسى ابن مريم عليهما السلام ، وكان يأخذ منه قدر قوته ، وكان يتصدّق بالباقي . وقيل : كان يترك للمساكين ما تعدَّاه المنجل ، وما يسقط من رؤوس النخل ، وما ينتثر عند الدِّراس ، فكان يجتمع من هذا شيء كثير ، فمات الرجل عن ثلاث بنين ، فقالوا : والله إن المال لقليل ، وإن العيال لكثير ، وإنما كان أبونا يفعل هذا إذْ كان المال كثيراً ، والعيال قليلاً ، وأما الآن فلا نستطيع أن نفعل هذا . فعزموا على حرمان المساكين ، وتحالفوا بينهم ليغدُنَّ قبل خروج الناس ، فليصرمُنَّ نخلهم ، فذلك قوله تعالى : (اذا أقسموا) أي : حلفوا (ليصرمُنّها) أي : ليقطّعن نخلهم (مصبحين) أي : في أول الصباح . وقد بقيت من الليل ظُلمة لئلا يبقى للمساكين شيء .

﴿ إذ أقسموا ﴾ أي حلف معظمهم إلاّ الأوسط قال لهم لا تفعلوا واصنعوا من الإحسان ما كان يصنعه أبوكم ، قال البقاعي وكأنه تعالى طواه لأنه مع الدلالة عليه بما يأتي لم يؤثر شيئاً .

﴿ ليصرمنها مصبحين ﴾ أي ليقطعنها داخلين في وقت الصباح قبل انتشار الفقراء ، والصرام القطع للثمر والزرع ، يقال صرم العذق عن النخلة وأصرم النخل أي حان وقت صرامه ، والانصرام الانقطاع والتصارم التقاطع والتصرم التقطع ، وإذ تعليلية أو ظرفية بنوع تسمح لأن الإقسام كان قبل ابتلائهم ، وليصرمنها جواب القسم .

﴿ ولا يستثنون ﴾ يعني ولا يقولون إن شاء الله وسمي استثناء وهو الشرط لأن معنى لأخرجن إن شاء الله ، ولا أخرج إلا أن يشاء الله واحد قاله الزمخشري ، وهذه الجملة مستأنفة لبيان ما وقع منهم أو حال ، وقيل المعنى ولا يستثنون للمساكين من جملة ذلك القدر الذي كان يدفعه أبوهم إليهم قاله عكرمة ، وقيل المعنى لا يثنون عزمهم عن الحرمان .

﴿ فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ﴾ أي فنزل على تلك الجنة طائف من جهة الله سبحانه أي هلاك أو بلاء في حال نومهم ، والطائف غلب في الشر ، قال الفراء هو الأمر الذي يأتي ليلاً ورد عليه بقوله تعالى : ﴿ إذا مسهم طائف من الشيطان ﴾ وذلك لا يختص بليل ولا نهار ، وقرىء طيف ، والطائف قيل هو نار أحرقتها حتى صارت سوداء كذا قال مقاتل ، وقيل الطائف جبريل اقتلعها ، وقال ابن عباس طائف أي أمر من الله .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن مسعود قال : «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إياكم والمعصية فإن العبد ليذنب الذنب الواحد فينسى به الباب من العلم ، وإن العبد ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل وإن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقاً قد كان هيىء له ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فطاف عليها الآية قد حرموا خير جنتهم بذنبهم » .

وفي هذه الآية دليل على أن العزم مما يؤاخذ به الإنسان لأنهم عزموا على

أن يفعلوا فعوقبوا قبل فعلهم ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ .

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار قيل: يا رسول هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه »[1] وهذا محمول على العزم المصمم . وأما ما يخطر بالبال من غير عزم فلا يؤاخذ به قاله القرطبي .

﴿ فأصبحت كالصريم ﴾ فعيل بمعنى مفعول أي صارت كالشيء الذي صرمت ثماره أي قطعت . وقال الفراء : كالصريم كالليل المظلم ، والمعنى أنها حرقت فصارت كالليل الأسود قال : والصريم الرماد الأسود بلغة خزيمة ، وقال الأخفش أي كالصبح الصريم من الليل يعني أنها يبست وابيضت بلا شجر ، وقال المبرد : الصريم الليل والصريم النهار أي ينصرم هذا عن هذا وذاك عن هذا.، وقيل سمي الليل صريماً لأنه يقطع بظلمته عن التصرف ، وقال المؤرج : الصريم الرملة لأنها لا ينبت عليها شيء ينتفع به ، وقال الحسن : صرم منها الخير أي قطع .

﴿ فتنادوا مصبحين ﴾ أي نادى بعضهم بعضاً داخلين في الصباح معطوف على أقسموا ، وما بينهما اعتراض لبيان ما نزل بتلك الجنة ، قال مقاتل لما أصبحوا قال بعضهم لبعض ﴿ أن اغدوا ﴾ أن هي المفسرة لأن في التنادي معنى القول أو هي المصدرية أي بأن اغدوا والمراد اخرجوا غدوة .

﴿ على حرثكم ﴾ وأقبلوا عليه باكرين ، والغدو يتعدى بإلى وعلى فلا حاجة إلى تضمينه معنى الإقبال كما قيل ، والمراد بالحرث الثمار والزرع والعنب ﴿ إن كنتم صارمين ﴾ أي قاصدين للصرم ، وجواب الشرط محذوف أي إن كنتم مريدين صرامه فاغدوا، وقيل معنى صارمين ماضين في العزم من قولك سيف صارم .

---

(١) صحيح الجامع / ٣٨٠

﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾﴾

﴿ فانطلقوا ﴾ أي ذهبوا إلى جنتهم ﴿ وهم يتخافتون ﴾ أي يسرون الكلام بينهم لئلا يعلم أحد بهم ، يقال خفت يخفت إذا سكن ولم ينبس ، قال ابن عباس الخفت الإسرار والكلام الخفي ، وقيل المعنى يخفون أنفسهم من الناس حتى لا يروهم فيقصدوهم كما كانوا يقصدون أباهم وقت الحصاد ، والأول أولى لقوله :

﴿ أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ﴾ فإن « أن » هي المفسرة للتخافت المذكور لما فيه من معنى القول ، والمعنى يسر بعضهم إلى بعض هذا القول وهو لا يدخل هذه الجنة اليوم عليكم مسكين فيطلب منكم أن تعطوه منها ما كان يعطيه أبوكم ، وأوقع النهي على دخول المساكين لأنه أبلغ لأن دخولهم أعم من أن يكون بإدخالهم أو بدونه .

﴿ وغدوا ﴾ أي ساروا إليها غدوة ﴿ على حرد ﴾ الحرد يكون بمعنى المنع والغضب والقصد ، قال قتادة ومقاتل والكلبي والحسن ومجاهد : الحرد هنا بمعنى القصد لأن القاصد إلى الشيء حارد ، يقال حرد يحرد إذا قصد تقول حردت حردك أي قصدت قصدك وبابه ضرب ، وقال أبو نصر صاحب الأصمعي : هو مخفف فعلى هذا بابه فهم ، وقال ابن السكيت : وقد يحرك فعلى هذا بابه طرب فهو حارد وحردان انتهى ، وقال أبو عبيدة والمبرد

والقتيبي : على حرد على منع من قولهم حردت الإبل حرداً إذا قلت ألبانها ، والحرود من النوق هي القليلة اللبن ، وقال السدي وسفيان والشعبي : على حرد على غضب ، وعن قتادة ومجاهد أيضاً : على حرد على حسد ، وقال الحسن أيضاً : على حاجة وفاقة ، وقيل على حرد على انفراد يقال حرد يحرد حرداً وحروداً إذا تنحى عن قومه ونزل منفرداً عنهم ولم يخالطهم . وبه قال الأصمعي وغيره . وقد فسرت الآية الكريمة بجميع ما ذكرت ، وقال الأزهري « حرد » اسم قريتهم ، وقال السدي اسم جنتهم ، قرأ الجمهور حرد بسكون الراء وقرىء بفتحها .

قال الفراء ومعنى ﴿ قادرين ﴾ قد قدروا أمرهم وبنوا عليه في ظنهم ، وأما في الواقع فليس كذلك لهلاك الثمر عليهم وعلى الفقراء ، ففي نفس الأمر لم يمنعوهم منه ، وقال قتادة قادرين على جنتهم عند أنفسهم ، وقال الشعبي يعني قادرين على المساكين . وقال ابن عباس ذوو قدرة أو من التقدير ، وهو التضييق أي مضيقين على المساكين .

﴿ فلما رأوها ﴾ أي جنتهم وشاهدوا ما قد حل بها من الآفة التي أذهبت ما فيها ﴿ قالوا إنا لضالون ﴾ أي قال بعضهم لبعض بديهة وصولهم قبل التأمل قد ضللنا طريق جنتنا وليست هذه ، قال ابن عباس : أي أضللنا مكان جنتنا وقيل معنى قولهم :

﴿ إنا لضالون ﴾ أنهم ضلوا عن الصواب بما وقع منهم ، ثم لما تأملوا وعلموا أنها جنتهم وأن الله سبحانه قد عاقبهم بإذهاب ما فيها من الثمر والزرع قالوا مضربين إضراباً إبطالياً لكونهم ضالين .

﴿ بل نحن محرومون ﴾ أي حرمنا جنتنا بسبب ما وقع منا من العزم على منع المساكين من خيرها ، فأضربوا عن قولهم الأول إلى هذا القول ، قيل إن الحق الذي منعه أصحاب الجنة والمساكين يحتمل أنه كان واجباً عليهم ، ويحتمل أنه كان تطوعاً والأول أظهر ، والله أعلم .

﴿ قال أوسطهم ﴾ أي أمثلهم وأعقلهم وخيرهم رأياً وعقلاً ونفساً ، وقال ابن عباس : أعدلهم وقيل أفضلهم فأنكر عليهم بقوله ﴿ ألم أقل لكم ﴾ إن ما فعلتموه لا ينبغي وإن الله لبالمرصاد لمن حاد وغير ما في نفسه .

﴿ لولا تسبحون ﴾ أي هلا تستثنون ، وسمى الاستثناء تسبيحاً لأنه تعظيم لله وإقرار به ، وهذا يدل على أن أوسطهم كان أمرهم بالاستثناء فلم يطيعوه ، وقال مجاهد وأبو صالح وغيرهما : كان استثناؤهم تسبيحاً ، قال النحاس : أصل التسبيح التنزيه لله عز وجل فجعل التسبيح في موضع إن شاء الله لأنه ينزه عن أن يجري في ملكه ما لا يريده، وقيل المعنى هلا تستغفرون الله من فعلكم وتتوبون إليه من هذه النية التي عزمتم عليها ، وكان أوسطهم قد قال لهم ذلك . وقيل المعنى هلا تتركون شيئاً للمساكين من ثمر جنتكم والأول أولى .

فلما قال لهم ذلك بعد مشاهدتهم للجنة على تلك الحالة ﴿.قالوا سبحان ربنا ﴾ أي تنزيهاً له عن أن يكون ظالماً فيما صنع بجنتنا ، ثم أكدوا قباحة فعلهم هضماً لأنفسهم وتحقيقاً لتوبتهم بقوله ﴿ إنا كنا ظالمين ﴾ أي إن ذلك بسبب ذنبنا الذي فعلناه ، قيل معنى تسبيحهم الاستغفار أي نستغفر ربنا من ذنبنا إنا كنا ظالمين لأنفسنا في منعنا للمساكين .

﴿ فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ﴾ أي يلوم بعضهم بعضاً في منعهم للمساكين وعزمهم على ذلك ، يقول هذا لهذا أنت أشرت علينا بهذا الرأي ، ويقول ذاك لهذا أنت خوفتنا الفقر ، ويقول الثالث لغيره أنت رغبتني في جمع المال ، ثم نادوا على أنفسهم بالويل حيث :

﴿ قالوا يا ويلنا ﴾ هذا وقت حضورك إلينا ومنادمتك لنا فإنه لا نديم لنا الآن غيرك ﴿ إنا كنا طاغين ﴾ أي عاصين متجاوزين حدود الله بمنع الفقراء وترك الاستثناء ، قال ابن كيسان أي طغينا نعم الله فلم نشكرها كما شكرها أبونا من قبل .

﴿ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

ثم رجعوا إلى الله وسألوه أن يعوضهم بخير منها فقالوا ﴿ عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها ﴾ قيل إنهم تعاقدوا فيما بينهم وقالوا إن أبدلنا الله خيراً منها لنصنعن كما صنع أبونا فدعوا الله وتضرعوا فأبدلهم من ليلتهم ما هو خير منها بأن أمر الله جبريل أن يقتلع تلك الجنة المحترقة فيجعلها بزغر من أرض الشام ويأخذ من الشام جنة فيجعلها بمكانها ، قرأ الجمهور يبدلنا بالتخفيف وقرىء بالتشديد وهما لغتان وقراءتان سبعيتان ، والتبديل تغيير ذات الشيء أو تغيير صفته ، والإبدال رفع الشيء جملة ووضع آخر مكانه كما مضى في سورة سبأ .

﴿ إنا إلى ربنا راغبون ﴾ أي طالبون منه الخير راجون لعفوه راجعون إليه وعدّىٰ بإلى وهو إنما يتعدى بعن أو بفي لتضمينه معنى الرجوع .

عن ابن مسعود بلغني أنهم أخلصوا وعرف الله منهم الصدق فأبدلهم بها جنة تسمى الحيوان فيها عنب يحمل البغل منه عنقوداً واحداً ، وقال اليماني أبو خالد : دخلت تلك الجنة فرأيت فيها كل عنقود منها كالرجل القائم الأسود ، قال الحسن قول أهل الجنة :

﴿ إنا إلى ربنا راغبون ﴾ لا أدري أكان إيماناً منهم أو على حد ما يكون من المشركين إذا أصابتهم الشدة ، فتوقف في كونهم مؤمنين ، وسئل قتادة عن أصحاب الجنة أهم من أهل الجنة أم من أهل النار قال لقد كلفتني تعباً ، والمعظم يقولون إنهم تابوا وأخلصوا ، حكاه القشيري .

﴿ كذلك العذاب ﴾ أي مثل ذلك العذاب الذي بلوناهم به وبلونا أهل مكة عذاب الدنيا لمن سلك سبيلهم ﴿ ولعذاب الآخرة أكبر ﴾ أي أشد

وأعظم من عذاب الدنيا ﴿ لو كانوا ﴾ أي المشركون ﴿ يعلمون ﴾ أنه كذلك ولكنهم لا يعلمون .

ولما فرغ سبحانه من ذكر حال الكفار وتشبيه ابتلائهم بابتلاء أصحاب الجنة المذكورة ذكر حال المتقين وما أعده لهم من الخير فقال: ﴿ إن للمتقين ﴾ ما يوجب سخطه من الكفر والمعاصي ﴿ عند ربهم ﴾ عز وجل في الدار الآخرة ﴿ جنات النعيم ﴾ الخالص الذي لا يشوبه كدر ولا ينغصه خوف زوال كما يشوب جنات الدنيا .

﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ للكفار على هذا القول الذي قالوه وقد وبخوا وقرعوا باستفهامات سبعة أولها هـذا ، والسابع ﴿ أم لهم شركاء ﴾ والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي أنحيف في الحكم فنجعل المسلمين كالكافرين ، وكأن العبارة مقلوبة والأصل أفنجعل المجرمين كالمسلمين لأنهم جعلوا أنفسهم كالمسلمين بل أفضل لأنه كان صناديد كفار قريش يرون وفور حظهم في الدنيا وقلة حظوظ المسلمين فيها فلما سمعوا بذكر الآخرة وما يعطي الله المسلمين فيها قالوا إن صح ما يزعمه محمد لم يكن حالنا وحالهم إلا مثل ما هي في الدنيا ، فقال الله مكذباً لهم راداً عليهم ﴿ أفنجعل ﴾ الآية والمعنى أفنجعل المجرمين مساوين للمسلمين في العطاء ، لا ، كما ذكر في آية أخرى ﴿ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة ﴾ قاله علي القاري ، وبعد ذلك ليس في الآية إلا نفي المساواة ، والكفار ادعوا الأفضلية أو المساواة إلا أن يقال إذا انتفت المساواة انتفت الأفضلية بالأولى .

ثم قال سبحانه على طريقة الالتفات ﴿ مالكم كيف تحكمون ﴾ هذا الحكم الأعوج كأن أمر الجزاء مفوض إليكم تحكمون فيه بما شئتم ﴿ أم لكم كتاب فيه تدرسون ﴾ أي تقرأون فيه فتجدون المطيع كالعاصي ، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿ أم لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم ﴾ ثم قال سبحانه ﴿ إن ﴾ قرأ الجمهور بالكسر على أنها معمولة لتدرسون أي تدرسون في الكتاب .

﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَـٰنٌ عَلَيْنَا بَـٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

﴿ إن لكم فيه لما تخيرون ﴾ فلما دخلت اللام كسرت الهمزة أو على الحكاية للمدروس ، وقيل قد تم الكلام عند قوله ﴿ تدرسون ﴾ ثم ابتدأ فقال إن لكم الخ أي ليس لكم ذلك ، وقرىء بفتح أن على العامل فيه تدرسون مع زيادة لام التأكيد ، ومعنى تخيرون تختارون وتشتهون .

ثم زاد سبحانه في التوبيخ فقال ﴿ أم لكم أيمان علينا بالغة ﴾ أي عهود مؤكدة بالأيمان موثقة متناهية إذ العهد كلام مؤكد بالقسم فاطلق الجزء وأريد الكل والمعنى أم لكم أيمان على الله استوثقتم بها في أن يدخلكم الجنة ثابتة لكم ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ لا يخرج عن عهدتها حتى يحكمكم يومئذ ، قرأ الجمهور ﴿ بالغة ﴾ بالرفع على النعت لأيمان وقرىء بنصبها على الحال من أيمان لأنها قد تخصصت بالعمل أو بالوصف أو من الضمير في لكم أو في علينا ، وجواب القسم قوله :

﴿ إن لكم لما تحكمون ﴾ به لأنفسكم لأن معنى أم لكم أيمان أم أقسمنا لكم ، وقيل قد تم الكلام عند قوله ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ ثم ابتدأ فقال إن لكم الخ أي ليس الأمر كذلك .

﴿ سلهم ﴾ موبخاً لهم ومقرعاً ﴿ أيهم بذلك ﴾ الحكم الخارج عن الصواب ﴿زعيم ﴾ أي كفيل لهم بأن لهم في الآخرة ما للمسلمين فيها ، وقال ابن كيسان الزعيم هنا القائم بالحجة والدعوى ، وقال الحسن الزعيم الرسول .

﴿ أم لهم شركاء ﴾ غيرهم يشاركونهم في هذا القول ويوافقونهم فيه ،

ويذهبون مذهبهم فيه وقيل معناه شهداء يشهدون بصدق ما ادعوه ، وقيل المراد بهم الأصنام والأول أولى وأظهر ، وقيل المعنى أم لهم شركاء يجعلونهم مثل المسلمين في الآخرة ،

﴿ فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين ﴾ فيما يقولـون إذ لا أقل من التقليد وهو أمر تعجيز ، وجواب الشرط محذوف ، قال القاضي وقد نبه سبحانه في هذه الآيات على نفي جميع ما يمكن أن يتشبثوا به لدعواهم من عقل أو نقل أو وعد أو محض تقليد على الترتيب تنبيهاً على مراتب النظر وتزييفاً لما لا سند له .

﴿ يوم ﴾ ظرف لقوله فليأتوا أي فليأتوا بها يوم ﴿ يكشف عن ساق ﴾ ويجوز أن يكون ظرفاً لفعل مقدر أي اذكر يوم يكشف ، قال الواحدي : قال المفسرون : في قوله ﴿ عن ساق ﴾ عن شدة من الأمر وصعوبة الخطب ، قال ابن قتيبة : أصل هذا إن الرجل إذا وقع في أمر عظيم يحتاج إلى الجد فيه شمر عن ساقه فيستعار الكشف عن الساق في موضع الشدة قال :

وتأويل الآية يوم يشتد الأمر كما يشتد ما يحتاج فيه إلى أن يكشف عن ساق ، قال أبو عبيدة : إذا اشتد الحرب والأمر قيل كشف الأمر عن ساقه والأصل فيه من وقع في شيء يحتاج فيه إلى الجد شمر عن ساقه فاستعير الساق والكشف عن موضع الشدة وهكذا قال غيره من أهل اللغة ، وقد استعملت ذلك العرب في أشعارها وكثر في كلامهم حتى صار كالمثـل للأمـر العظيم الشديد فهذا التركيب من قبيل الكناية أو الاستعارة التمثيلية .

قال الزمخشري : الكشف عن الساق والإبداء عن الحزام مثل في شدة الأمر وصعوبة الخطب ، وقيل ساق الشيء أصله وقوامه كساق الشجرة وساق الإنسان أي يوم يكشف عن ساق الأمر فتظهر حقائقه ، وقيل يكشف عن ساق جهنم ، وقيل عن ساق العرش ، وقيل هو عبارة عن القرب ، وقيل يكشف عن ساق الرب سبحانه عن نوره .

وقال النسفي : لا كشف ثمة ولا ساق ولكن كني به عن الشدة لأنهم إذا ابتلوا بشدة كشفوا عن الساق ، وأما من شبه فلضيق عطنه وقلة نظره في علم البيان ولو كان الأمر كما زعم المشبه لكان من حق الساق أن تعرف لأنها ساق معهودة عنده انتهى وسيأتي ما هو الحق ، قرأ الجمهور يكشف بالتحتية مبنياً للمفعول ،وقرأ ابن مسعود وابن عباس وغيرهما بالفوقية مبنياً للفاعل أي الشدة أو الساعة ، وقرىء بالفوقية مبنياً للمفعول وقرىء بالنون وقرىء بالفوقية المضمومة وكسر الشين من أكشف الأمر أي دخل في الكشف .

عن أبي هريرة في الآية قال « يكشف الله عز وجل عن ساقه »[1] ، وعن ابن مسعود قال « يكشف عن ساقه تبارك وتعالى » ، وعن ابن عباس قال يكشف عن أمر عظيم ، وقال : قال ابن مسعود يكشف عن ساقه فيسجد كل مؤمن ويقسو ظهر الكافر فيصير عظماً واحداً .

وعن ابن عباس أنه سئل عن قوله يوم يكشف عن ساق ، قال اذا خفي عليكم شيء من القرآن فاتبعوه في الشعر فإنه ديوان العرب أما سمعتم قول الشاعر :

وقامت الحرب بنا على ساق

قال ابن عباس هذا يوم كرب شديد ، وروي عنه نحو هذا من طرق أخرى وعنه هو أشد ساعة يوم القيامة وقد أغنانا الله سبحانه في تفسير هذه الآية بما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقد أخرج البخاري وغيره عن أبي سعيد قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً

---

(١) هو جزء من حديث طويل مشهور في البخاري ١٣ / ٣٥٩ ومسلم ١ / ١٦٨ ورواه البخاري مختصر ٨ / ٥٠٨ ونصه : عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يكشف ربنا عن ساقه ، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياءً وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً » .

واحداً » وهذا الحديث ثابت من طرق في الصحيحين وغيرهما وله ألفاظ في بعضها طول وهو حديث مشهور معروف .

وعن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم في الآية « قال عن نور عظيم فيخرون له سجداً » أخرجه أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات وضعفه ، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل وذلك لا يستلزم تجسيماً ولا تشبيهاً فليس كمثله شيء

دعوا كل قول عند قول محمد فما آمن في دينه كمخاطر

وهكذا تهيب القول فيه شيوخ الإسلام فأجروه على ظاهر لفظه ، ولم يكشفوا عن باطن معناه ، والتأويل هو مذهب معظم المتكلمين ومنهم النسفي في المدارك والبيضاوي في أنوار التنزيل .

قال الشيخ أحمد ولي الله المحدث في كتابه حجة الله البالغة واستطال هؤلاء الخائضون على معشر أهل الحديث وسموهم مجسمة ومشبهة وقالوا هم المستترون بالبلكفة[1] وقد وضح عليّ وضوحاً بيناً أن استطالتهم هذه ليست بشيء وأنهم مخطئون في مقالتهم رواية ودراية وخاطئون في طعنهم أئمة الهدى .

﴿ ويدعون إلى السجود ﴾ قال الواحدي قال المفسرون يسجد الخلق كلهم لله سجدة واحدة ويبقى الكفار والمنافقون يريدون أن يسجدوا ﴿ فلا يستطيعون ﴾ لأن أصلابهم تيبس فلا تلين للسجود ، وقال الربيع ابن أنس : يكشف عن الغطاء فيقع من كان آمن بالله في الدنيا فيسجدون له ، ويدعى الآخرون إلى السجود فلا يستطيعون لأنهم لم يكونوا آمنوا بالله في الدنيا ، والدعاء إلى السجود يكون امتحاناً لإيمانهم لا تكليفاً بالسجود إذ تلك الدار ليست دار تكليف :

(١) أي قولهم « بلا كيف »

خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾

﴿ خاشعة أبصارهم ﴾ حال من ضمير يدعون ونسبة الخشوع إلى الأبصار وهو الخضوع والذلة لظهور أثره فيها ﴿ ترهقهم ﴾ أي تغشاهم ﴿ ذلة ﴾ شديدة وحسرة وندامة وصغار ﴿ وقد كانوا ﴾ في الدنيا ﴿ يدعون إلى السجود ﴾ دعوة تكليف .

﴿ وهم سالمون ﴾ أي معافون من العلل متمكنون من الفعل فلا يجيبون ، قال إبراهيم التيمي يدعون بالأذان والإقامة فيأبون ؛ وقال سعيد ابن جبير : يسمعون حي على الفلاح فلا يجيبون ، قال كعب الأحبار : والله ما نزلت هذه الآية إلا في الذين يتخلفون عن الجماعات . وقال ابن عباس : هم الكفار يدعون في الدنيا وهم آمنون فاليوم يدعون وهم خائفون . وعنه قال : الرجل يسمع الأذان فلا يجيب الصلاة . أخرجه البيهقي في الشعب .

﴿ فذرني ومن يكذب بهذا الحديث ﴾ تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتهديد لهم . أي خل بيني وبينه وكل أمره إلي فأنا أكفيكه . قال الزجاج : معناه لا تشغل به قلبك بل كله إليّ فأنا أكفيك أمره . والفاء لترتيب ما بعدها من الأمر على ما قبلها من أحوالهم المحكية ، والمراد بالحديث القرآن قاله السدي . وقيل يوم القيامة .

﴿ سنستدرجهم ﴾ مستأنفة لبيان كيفية التعذيب لهم المستفاد من قوله فذرني الخ . . والضمير عائد إلى ﴿ من ﴾ باعتبار معناها والمعنى سنأخذهم بالعذاب على غفلة ونسوقهم إليه درجة فدرجة حتى نوقعهم فيه ﴿ من حيث لا يعلمون ﴾ أن ذلك استدراج لأنهم يظنونه إنعاماً ولا يفكرون في عاقبته وما سيلقون في نهايته .

قال سفيان الثوري : نسبغ عليهم النعم وننسيهم الشكر ، وقال الحسن : من مستدرج بالإحسان اليه ، وكم من مفتون بالثناء عليه ، وكم من مغرور بالستر عليه ، والاستدراج ترك المعاجلة ، وأصله النقل من حال إلى حال ، ويقال استدرج فلان فلاناً أي استخرج ما عنده قليلاً قليلاً ، ويقال درجه إلى كذا واستدرجه يعني أدناه إلى التدريج فتدرج هو ، ومعنى الكيد والمكر والاستدراج هو الأخذ من جهة الأمن ، ولا يجوز أن يسمى الله سبحانه كائداً وماكراً ومستدرجاً .

ثم ذكر سبحانه أنه يمهل الظالمين فقال : ﴿ وأملي لهم ﴾ أي أمهلهم ليزدادوا إثماً ، وقد مضى تفسير هذا في سورة الأعراف والطور ، وأصل الملاوة المدة من الدهر ، يقال أملى الله له أي أطال له المدة والملا مقصوراً الأرض الواسعة سميت به لامتدادها ﴿ إن كيدي متين ﴾ أي قوي شديد فلا يفوتني شيء ، وسمى سبحانه إحسانه كيداً كما سماه استدراجاً لكونه في صورة الكيد باعتبار عاقبته ، ووصفه بالمتانة لقوة أثره في التسبب للهلاك .

﴿ أم تسألهم أجراً ﴾ أعاد سبحانه الكلام إلى ما تقدم من قوله أم لهم شركاء أي أم تلتمس منهم ثواباً على ما تدعوهم إليه من الإيمان بالله ﴿ فهم من مغرم ﴾ المغرم الغرامة أي فهم من غرامة ذلك الأجر ﴿ مثقلون ﴾ أي يثقل عليهم حمله لشحهم ببذل المال فأعرضوا عن إجابتك لهذا السبب ، والاستفهام للتقريع والتوبيخ لهم ، والمعنى أنك لم تسألهم ذلك ولم تطلبه منهم .

﴿ أم عندهم الغيب ﴾ أي اللوح المحفوظ عند الجمهور أو كل ما غاب عنهم ﴿ فهم ﴾ من ذلك الغيب ﴿ يكتبون ﴾ ما يريدون من الحجج التي يزعمون أنها تدل على قولهم ويخاصمونك بما يكتبونه من ذلك ، ويحكمون لأنفسهم بما يريدون ويستغنون بذلك عن الإجابة لك والامتثال لما تقوله .

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿ فاصبر لحكم ربك ﴾ أي لقضائه الذي قد قضاه في سابق علمه ، وقيل الحكم هنا هو إمهالهم وتأخير نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم . لأنهم إن أمهلوا لم يهملوا ، وقيل هو ما حكم به عليه من تبليغ الرسالة قيل وهذا منسوخ بآية السيف .

﴿ ولا تكن كصاحب الحوت ﴾ يعني يونس عليه السلام أي لا تكن مثله في الغضب والضجر والعجلة حتى لا تبتلي ببلائه ﴿ إذ نادى ﴾ أي لا يكن حالك كحاله أو قصتك كقصته في وقت ندائه ، ويدل على المحذوف أن الذوات لا ينصب عليها النهي ، وإنما ينصب على أحوالها وصفاتها ﴿ وهو مكظوم ﴾ مملوء غيظاً وكرباً ، وقيل غماً ، قال الماوردي والفرق بينهما أن الغم في القلب والكرب في الأنفاس .

قال قتادة : إن الله يعزي نبيه صلى الله عليه وسلم ويأمره بالصبر وأن لا يعجل كما عجل صاحب الحوت ، وقد تقدم بيان قصته في سورة الأنبياء ويونس والصافات ، وكان النداء منه بقوله : ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ وقيل إن المكظوم المأخوذ بكظمه وهو مجرى النفس ، قاله المبرد ، وقيل هو المحبوس ، والكظم الحبس ، ومنه قولهم فلان يكظم غيظه أي يحبس غضبه ، قاله ابن بحر . والأول أولى ، والجملة حال من ضمير نادى وعليها يدور النهي لا على النداء لأنه أمر مستحسن .

﴿ لولا أن تداركه ﴾ أي صاحب الحوت ﴿ نعمة من ربه ﴾ وهي توفيقه للتوبة فتاب الله عليه قال الضحاك : إن النعمة هنا النبوة ، وقال سعيد بن

جبير : عبادته التي سلفت ، وقال ابن زيد : هي نداؤه بقوله لا إله إلا أنت ، وقيل إخراجه من بطن الحوت ، قاله ابن بحر . وقيل الرحمة .

قرأ الجمهور تداركه على صيغة الماضي ، وقرىء بتشديد الدال وهو مضارع أدغمت التاء في الدال ، والأصل تتداركه بتاءين ، وهذه على حكاية الحال الماضية ، وقرىء تداركته بتاء التأنيث وهو خلاف المرسوم ، وتداركه فعل ماضٍ مذكر حمل على معنى النعمة لأن تأنيث النعمة غير حقيقي ، وتداركته على لفظها .

﴿ لنبذ بالعراء ﴾ أي لألقي من بطن الحوت على وجه الأرض الخالية من النبات والأشجار والجبال ﴿ وهو مذموم ﴾ أي يذم ويلام بالذنب الذي أذنبه ويطرد من الرحمة ، وقيل مذموم مبعد من كل خير ، وقيل مذنب وقيل معاتب ، قال الرازي : مذموم على كونه فاعلاً للذنب ، قال : والجواب أن كلمة لولا دالة على أن هذه المذمومية لم تحصل أو المراد منه ترك الأفضل ، فإن حسنات الأبرار سيئآت المقربين ، أو هذه الواقعة كانت قبل النبوة لقوله تعالى :

﴿ فاجتباه ربه ﴾ أي استخلصه واصطفاه لدعائه وعذره واختاره لنبوته ، وهذا مبني على أنه وقت هذه الواقعة لم يكن نبياً ، وإنما نبىء بعدها وهو أحد قولين للمفسرين ، والثاني أنه كان نبياً ومعنى اجتباه أنه رد عليه الوحي بعد أن كان قد انقطع عنه ﴿ فجعله من الصالحين ﴾ أي من الكاملين في الصلاح وعصمه من الذنب ، وقيل رد إليه النبوة وشفعه في نفسه وفي قومه وقبل توبته وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون بسبب صبره كما تقدم .

﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك ﴾ أي ينفذونك قاله ابن عباس ، وإن هي المخففة من الثقيلة ، قرأ الجمهور بضم الياء من أزلقه أي أزل رجله ، يقال أزلقه عن موضعه إذا نحاه ، وقرأ نافع وأهل المدينة بفتحها من زلق عن موضعه إذا تنحى وهما سبعيتان ، قال الهروي أي يغتالونك بعيونهم فيزلقونك عن مكانك الذي أقامك الله فيه عداوة لك ، وقرأ ابن عباس

وابن مسعود وغيرهما ليرهقونك أي يهلكونك ، وقال الكلبي : يزلقونك أي يصرفونك عما أنت عليه من تبليغ الرسالة وكذا قال السدي وسعيد بن جبير : وقال النضر بن شميل والأخفش : يفتنونك ، وقال الحسن وابن كيسان : ليقتلونك .

﴿ بأبصارهم ﴾ أي ينظرون إليك نظراً شديداً يكاد أن يصرعك ويسقطك عن مكانك والباء إما للتعدية كالداخلة على الآلة أي جعلوا أبصارهم كالآلة المزلقة لك كما تقول عملت بالقدوم ، وإما للسببية أي بسبب عيونهم ، قال الزجاج : في الآية مذهب أهل اللغة والتأويل أنهم من شدة إبغاضهم وعداوتهم يكادون بنظرهم نظر البغضاء أن يصرعوك . وهذا مستعمل في الكلام يقول القائل نظر إلي نظراً يكاد يصرعني ونظراً يكاد يأكلني ، قال ابن قتيبة : ليس يريد الله أنهم يصيبونك بأعينهم كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه . وإنما أراد أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظراً شديداً بالعداوة والبغضاء يكاد يسقطك كما قال الشاعر :

يتقارضون إذا التقوا في مجلس ... نظراً يزيل مواطىء الأقدام

وقيل : « أرادوا أن يصيبوه بالعين فنظر إليه قوم من قريش المجربة إصابتهم فعصمه الله وحماه من أعينهم فلم تؤثر فيه فنزلت هذه الآية » ؛ وذكر الماوردي أن العين كانت في بني أسد من العرب ؛ وفيه دليل على أن العين حق ، وقد رواه أبو هريرة عنه صلى الله عليه وسلم بهذا اللفظ والحديث متفق عليه[1] .

---

(١) قال ابن كثير : وفي هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق بأمر الله عز وجل ، كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة . وقد روى مسلم في « صحيحه » ٤ / ١٧١٩ عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « العين حق ، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين ، واذا استغسلتم فاغسلوا » .
وروى البخاري وأصحاب «السنن» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوِّذ الحسن والحسين يقول : أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامَّة » .

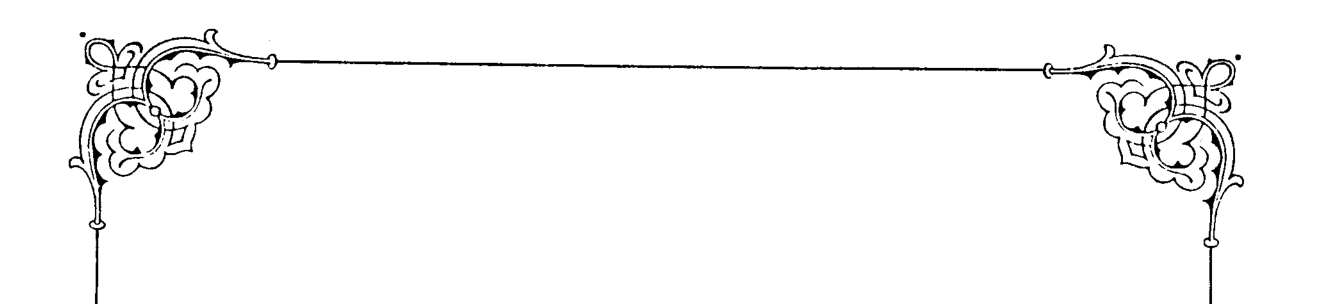
وأخذ بظاهر الحديث جماهير العلماء وقالوا إنه حق وإنه ليدخل الرجل القبر والجمل القدر ؛ وأنكره طوائف من المبتدعة ولا اعتداد بهم بعدما ورد في كلام النبوة وصح . قال الحسن : رقية العين هذه الآية[١] .

﴿ لما سمعوا الذكر ﴾ أي وقت سماعهم القرآن لكراهتهم لذلك أشد كراهة ، ولما ظرفية منصوبة بيزلقونك . وقيل هي حرف وجوابها محذوف لدلالة ما قبلها عليه أي لما سمعوا الذكر كادوا يزلقونك ﴿ ويقولون ﴾ حسداً وتنفيراً عنه ﴿ إنه لمجنون ﴾ أي ينسبونه إلى الجنون إذا سمعوه يقرأ القرآن . فرد الله عليهم بقوله :

﴿ وما هو الا ذكر للعالمين ﴾ لا يدركه ولا يتعاطاه إلا من كان أكمل الناس عقلاً وأمتنهم رأياً ، والجملة مستأنفة أو في محل نصب على الحال من فاعل يقولون أي والحال أنه تذكير وبيان لجميع ما يحتاجون اليه أو شرف لهم كما قال سبحانه ﴿ وانه لذكر لك ولقومك ﴾ وقيل الضمير لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه مذكر للعالمين أو شرف لهم .

---

(٢) زاد المسير ٨/ ٣٤٤ .



سورة الحاقة

(هي إحدى أو اثنتان وخمسون آية وهي مكية)

قال القرطبي في قول الجميع قال ابن عباس نزلت بمكة . وعن ابن الزبير مثله وعن أبي هريرة « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ في الفجر بالحاقة ونحوها » أخرجه الطبراني .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾

﴿ الحاقة ﴾ هي القيامة لأن الأمر يحق فيها وهي تحق في نفسها من غير شك ، قاله الطبري كأنه جعلها من باب ليله قائم ونهاره صائم فالإسناد مجازي ، قال الأزهري يقال حاقتته فحققته أحقه غالبته فغلبته أغلبه ، فالقيامة حاقة لأنها تحاق كل محاق في دين الله بالباطل وتخصم كل مخاصم .

وقال في الصحاح : حاقه أي خاصمه في صغار الأشياء ويقال ما له فيها حق ولا حقاق ولا خصومة والتحاق التخاصم ، والحاقة والحقة والحق ثلاث لغات بمعنى ، قال الواحدي : هي القيامة في قول كل المفسرين ، وسميت بذلك لأنها ذات الحواق من الأمور وهي الصادقة الواجبة الصدق ، وجميع أحكام القيامة صادقة واجبة الوقوع والوجود .

قال الكسائي والمؤرج : الحاقة يوم الحق ، وقيل سميت بذلك لأن كل إنسان فيها حقيق بأن يجزى بعمله ، وقيل سميت بذلك لأنها أحقت لقوم النار ، وأحقت لقوم الجنة ، وقال ابن عباس : الحاقة من أسماء يوم القيامة وهي مبتدأ وخبرها قوله :

﴿ ما الحاقة ﴾ على أن ما الاستفهامية مبتدأ ثان وخبره الحاقة ، والجملة خبر للمبتدأ الأول والمعنى أي شيء هي في حالها أو صفاتها لا تحيط بها العبارة « وما » يسأل بها عن الصفة والحال والمقام للضمير أي ما هي ؟ فوضع الظاهر موضعه لتأكيد هولها وزيادة تفظيعه ، وقيل هذه الجملة وإن كان لفظها لفظ الاستفهام فمعناها التعظيم والتفخيم لشأنها كما تقول زيد ما زيد ، وقد قدمنا تحقيق هذا المعنى في سورة الواقعة .

ثم زاد سبحانه في تفظيع شأنها وتفخيم أمرها وتهويل حالها فقال : ﴿ وما أدراك ما الحاقة ﴾ أي أيّ شيء أعلمك ما هي؟ أي كأنك لست تعلمها اذ لم تعاينها وتشاهد ما فيها من الأهوال فكأنها خارجة عن دائرة علم المخلوقين ، لا تبلغها دراية أحد منهم ولا وهمه .

والنبي صلى الله عليه وسلم كان عالماً بالقيامة ولكن لا علم له بكنهها وصفتها فقيل له ذلك كأنه ليس عالماً بها رأساً ، قال يحيى بن سلام : بلغني أن كل شيء في القرآن ﴿ وما أدراك ﴾ فقد أدراه إياه وعلمه صلى الله عليه وسلم وكل شيء قال فيه ﴿ وما يدريك ﴾ فإنه ما أخبره به .

وقال سفيان بن عيينة : كل ما في القرآن قال فيه : ﴿ وما أدراك ﴾ فإنه صلى الله عليه وسلم أخبر به وكل شيء قال فيه ﴿ وما يدريك ﴾ فإنه لم يخبر به ذكره الخطيب ، وما مبتدأ وخبره أدراك و﴿ما الحاقة﴾ جملة من مبتدأ وخبر محلها النصب بإسقاط الخافض أدرى يتعدى إلى المفعول الثاني بالباء كما في قوله :

﴿ ولا أدراكم به ﴾ فلما وقعت جملة الاستفهام معلقة له كانت في موضع المفعول الثاني وبدون الهمزة يتعدى إلى مفعول واحد بالباء نحو دريت بكذا وإن كان بمعنى العلم تعدى إلى مفعولين والجملة معطوفة على جملة ما الحاقة .

﴿ كذبت ثمود وعاد بالقارعة ﴾ أي بالقيامة وسميت بذلك لأنها تقرع قلوب الناس بشدة أهوالها وتؤثر فيها خوفاً وفزعاً كتأثير القرع المحسوس ، فإن القرع في اللغة نوع من الضرب وهو إمساس جسم لجسم بعنف ، وفي المصباح وقرعت الباب من باب نفع طرقته ونقرت عليه وقال المبرد : عنى بالقارعة القرآن الذي نزل في الدنيا على أنبيائهم ، وكانوا يخوفونهم بذلك فيكذبونهم ، وقيل القارعة مأخوذة من القرعة لأنها ترفع أقواماً وتحط آخرين والأول أولى ، ويكون وضع ضمير الحاقة للدلالة على عظيم هولها وفظاعة حالها ، والجملة مستأنفة لبيان بعض أحوال الحاقة .

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩ ﴾

﴿ فأما ثمود ﴾ هم قوم صالح وكانت منازلهم بالحجر ، بين الشام والحجاز ، وقال ابن اسحاق هو وادي القرى والمقصود من ذكر هذه القصص زجر هذه الأمة عن الاقتداء بهؤلاء الأمم في المعاصي لئلا يحل بها ما حل بهم .

﴿ فأهلكوا بالطاغية ﴾ هي الصيحة التي تجاوزت الحد وهي صيحة جبريل ، وقيل الرجفة أي الزلزلة ، وقيل هي الفرقة التي عقرت الناقة فأهلك قوم ثمود بسببهم وقال ابن زيد : الطاغية عاقر الناقة أن أهلكوا بما أقدم عليه طاغيتهم من عقر الناقة وكان واحداً وإنما أهلكوا جميعاً لأنهم علموا بفعله ورضوا به ، وقيل له طاغيه كما يقال فلان راوية الشعر ، وداهية وعلامة ونسابة ، وقيل الطاغية مصدر كالعافية أي بطغيانهم وكفرهم ، ولكن هذا لا يطابق قوله :

﴿ وأما عاد ﴾ هم قوم هود ، وقد تقدم بيان هذا وذكر منازلهم وأين كانت في غير موضع وهي الأحقاف وهو رمل بين عمان وحضرموت باليمن ، وقدم ذكر ثمود لأن بلادهم أقرب إلى قريش ، وواعظ القريب أكبر ، ولأن إهلاكهم بالصيحة وهي أشبه النفخ في الصور .

﴿ فأهلكوا بريح ﴾ أي بالدبور ﴿ صرصر ﴾ هي الشديدة البرد مأخوذ من الصر وهو البرد ، وقيل الشديدة الصوت وقال مجاهد الشديدة السموم ﴿ عاتية ﴾ عن الطاعة فكأنها عتت على خزانها فلم تطعهم ولم يقدروا على ردها لشدة هبوبها أو عتت على عاد فلم يقدروا على ردها بل أهلكتهم .

قال ابن عباس ما أرسل الله شيئاً من ريح إلا بمكيال ولا قطرة من ماء

الا بمكيال الا يوم عاد ويوم قوم نوح ، فأما يوم نوح فإن الماء طغى على خزانه فلم يكن لهم عليه سبيل ، ثم قرأ ﴿ إنا لما طغى الماء ﴾ وأما يوم عاد فإن الريح عتت على خزانها فلم يكن لهم عليها سبيل ثم قرأ ﴿ بريح صرصر عاتية ﴾ وعنه قال عاتية غالبة ، وعن علي بن أبي طالب نحوه .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم « قال نصرت بالصبا وأهلكت عاد الدبور» ، وعن ابن عمر مرفوعاً « قال ما أمر الخزان على عاد إلّا مثْل موضع الخاتم من الريح فعتت على الخزان فخرجت من نواحي الأبواب فذلك قوله ﴿ بريح صرصر عاتية ﴾ قال عتوها عتت على الخزان » أخرجه ابن أبي حاتم .

﴿ سخرها عليهم سبع ليال ﴾ اي سلطها كذا قال مقاتل ، وقيل أرسلها وقال الزجاج أقامها عليهم كما شاء ، والتسخير استعمال الشيء بالاقتدار ، وفيه رد على من قال إن سبب ذلك كان باتصال الكواكب ، فنفى هذا المذهب بقوله ﴿ سخرها عليهم ﴾ وبين الله تعالى أن ذلك بقضائه وقدره وبمشيئته لا باتصال الكواكب ، ذكره الخازن ، والجملة مستأنفة لبيان كيفية إهلاكهم ، ويجوز أن تكون صفة لريح أو تكون حالاً منها لتخصيصها بالصفة أو من الضمير في عاتية .

﴿ وثمانية أيام حسوماً ﴾ معطوف على سبع ليال وانتصاب حسوماً على الحال أي ذات حسوم أو على المصدر لفعل مقدر أي تحسمهم حسوماً أو على أنه مفعول له أو على أنه نعت لسبع ليال إلخ ويتضح ذلك بقول الزمخشري الحسوم لا يخلو من أن يكون جمع حاسم كشاهد وشهود أو مصدراً كالشكور والكفور ، فإن كان جمعاً فمعنى قوله حسوماً : نحسات حسمت كل خير ، واستأصلت كل بركة أو متتابعة هبوب الريح ما خفت ساعة تمثيلاً لتتابعها بتتابع فعل الحاسم في إعادة الكي على الداء كرة بعد أخرى حتى ينحسم ، وإن كان مصدراً فإما أن ينتصب بقول مضمر أي تحسمهم حسوماً أي

تستأصلهم استئصالاً أو يكون مفعولاً له أي سخرها عليهم للاستئصال .

قال الشهاب : حسوماً أي متتابعات فهو مجاز مرسل من استعمال المقيد وهو الحسم الذي هو تتابع الكي المطلق التتابع ، أو استعارة بتشبيه تتابع الريح المستأصلة بتتابع الكي القاطع للداء انتهى ، والحسوم التتابع فإذا تتابع الشيء لم ينقطع أوله عن آخره قيل له الحسوم .

قال الزجاج : الذي توجبه اللغة في معنى قوله حسوماً أي تحسمهم حسوماً تفنيهم وتذهبهم ، قال النضر بن شميل : حسمتهم قطعتهم وأهلكتهم ، وقال الفراء : الحسوم الإتباع من حسم الداء وهو الكي لأن صاحبه يكوى بالمكواة ثم يتابع ذلك عليه .

وقال المبرد : هو من قولك حسمت الشيء إذا قطعته وفصلته عن غيره وبه قال عبد العزيز بن زرارة الكلابي وقيل الحسم الاستئصال ويقال للسيف حسام لأنه يحسم العدو عما يريده من بلوغ عداوته ، وقال ابن زيد : حسمتهم فلم يبق منهم أحد ، وروي عنه أنه قال حسمت الأيام والليالي . حتى استوفتها لأنها بدأت بطلوع الشمس من أول يوم وانقطعت بغروب الشمس من آخر يوم ، وقال الليث : الحسوم هي الشؤم أي تحسم الخير عن أهلها كقوله : ﴿ في أيام نحسات ﴾ وقال ابن مسعود : حسوماً متتابعات .

وقال ابن عباس تباعاً وفي لفظ متتابعات ، واختلف في أولها فقيل غداة الأحد وقيل غداة الجمعة وقيل غداة الأربعاء قال وهب : وهذه الأيام هي التي تسميها العرب أيام العجوز كان فيها بردٌ شديد وريح شديدة ، وكان أولها يوم الأربعاء وآخرها يوم الأربعاء وكان الشهر كاملاً فكان آخرها هو اليوم الأخير منه .

﴿ فترى ﴾ الخطاب لكل من يصلح له أو لرسول الله صلى الله عليه وسلم فالكلام على سبيل الفرض والتقدير أي أنه لو كان حاضراً حينئذ لرأى ﴿ القوم ﴾ والضمير في ﴿ فيها ﴾ يعود إلى الليالي والأيام وقيل إلى مهاب الريح

أو الى البيوت والأول أولى وأظهر ، ﴿ صرعى ﴾ جمع صريع يعني موتى وهو حال ، وقوله :

﴿ كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾ حال من القوم أو مستأنف أي أصول نخل بلا رؤوس ساقطة أو بالية وقيل خالية لا جوف فيها ، وقال ابن عباس أعجاز نخل هي أصولها والنخل يذكر ويؤنث ومثله ﴿ كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴾ وقد تقدم تفسيره وهو إخبار عن عظم أجسامهم ، قال يحيى بن سلام إنما قال خاوية لأن أبدانهم خلت من أرواحهم مثل النخل الخاوية أو أن الريح كانت تدخل من أفواههم فتخرج ما في أجوافهم من الحشو من أدبارهم .

﴿ فهل ترى لهم من باقية ﴾ أي من فرقة باقية أو نفس باقية أو من بقية على أن باقية مصدر كالعاقبة والعافية و « من » زائدة في المفعول ، قال ابن جرير أقاموا سبع ليال وثمانية أيام أحياء في عذاب الريح فلما أمسوا في اليوم الثامن ماتوا فاحتملتهم الريح فألقتهم في البحر .

﴿ وجاء فرعون ومن قبله ﴾ قرأ الجمهور بفتح القاف وسكون الباء أي ومن تقدمه من القرون الماضية والأمم الخالية ، وقرىء بكسر القاف وفتح الباء أي ومن هو في جهته من أتباعه ، واختار أبو حاتم وأبو عبيد الثانية لقراءة ابن مسعود وأبيّ ومن معه ولقراءة أبي موسى ومن تلقاه .

﴿ والمؤتفكات ﴾ قرأ الجمهور بالجمع وقرىء بالأفراد ، واللام للجنس فهي في معنى الجمع هي قرى قوم لوط وكانت خمساً صنعة وصعرة وعمرة ودوما وسروم ، وهي القرية العظمى قاله القرطبي ، وقيل يريد الأمم الذين ائتفكوا ، والمعنى وجاءت المؤتفكات أي المنقلبات من ائتفك أي انقلب أي التي اقتلعها جبريل على جناحه ورفعها إلى أقرب السماء ثم قلبها أي أهلها .

﴿ بالخاطئة ﴾ أي بالفعلة الخاطئة أو الخطأ على أنها مصدر أو ذات الخطأ والمراد أنها جاءت بالشرك والمعاصي ، قال مجاهد بالخطايا وقال الجرجاني بالخطأ العظيم .

فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾

﴿ فعصوا رسول ربهم ﴾ أي فعصت كل أمة رسولها المرسل إليها ، قال الكلبي هو موسى وقيل لوط لأنه أقرب قيل ورسول هنا بمعنى رسالة ﴿ فأخذهم ﴾ الله سبحانه ﴿ أخذة رابية ﴾ أي نامية زائدة على أخذات الأمم كما قاله الزجاج ، وقال مجاهد : شديدة ، والمعنى أنها بالغة في الشدة إلى الغاية يقال ربا الشيء يربو إذا زاد وتضاعف ، ومنه الربا إذا أخذ وزاد في الذهب أو الفضة أكثر مما أعطى .

﴿ إنا لما طغى الماء ﴾ أي تجاوز حده في الارتفاع والعلو وزاد على أعلى جبل في الدنيا خمسة عشر ذراعاً وذلك في زمن نوح لما أصر قومه على الكفر وكذبوه ، وقيل طغى على خزانه من الملائكة غضباً لربه فلم يقدروا على حبسه ، قاله علي ، قال قتّادة زاد على كل شيء خمسة عشر ذراعاً قال ابن عباس طغى على خزانه فنزل ولم ينزل من السماء ماء إلا بمكيال أو ميزان إلا زمن نوح فإنه طغى فنزل بغير كيل ولا وزن .

﴿ حملناكم في الجارية ﴾ أي في أصلاب آبائكم أو حملناهم وحملناكم في أصلابهم تغليباً للمخاطبين على الغائبين ، والجارية سفينة نوح وسميت جارية لأنها تجري في الماء وهو أول من صنع السفن وكان يعلمه جبريل صنعتها فاتخذها على هيئة صدر الطائر ليكون ما يجري في الماء مقارباً لما يجري في الهواء ، ومحل في الجارية النصب على الحال أي رفعناكم فوق الماء حال كونكم في السفينة .

ولما كان المقصود من ذكر قصص هذه الأمم وذكر ما حل بهم من العذاب زجر هذه الأمة عن الاقتداء بهم في معصية الرسول قال ﴿ لنجعلها ﴾

أي هذه الأمور المذكورة ﴿ لكم ﴾ يا أمة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ تذكرة ﴾ أي عبرة وموعظة تستدلون بها على عظيم قدرة الله سبحانه وبديع صنعه أو لنجعل هذه الفعلة التي هي عبارة عن إنجاء المؤمنين وإغراق الكافرين لكم تذكرة أو هذه السفينة حتى أدركها أوائل هذه الأمة ، قال ابن جريج كانت ألواحها على الجودي ، والمعنى أبقيت لكم تلك الخشبات حتى تذكر .

﴿ وتعيها أُذن واعية ﴾ أي تحفظها بعد سماعها أذن حافظة لما سمعت ، قال الزجاج يقال أوعيت كذا أي حفظته في نفسي أعيه وعياً ووعيت العلم ووعيت ما قلته كله بمعنى وأوعيت المتاع في الوعاء ، ويقال لكل ما وعيته في غير نفسك أوعيته بالألف ولما حفظته في نفسك وعيته بغير ألف.

قال قتادة : في تفسير هذه الآية أذن سمعت وعقلت ما سمعت ، قال الفراء : المعنى لتحفظها كل أذن عظة لمن يأتي بعد ، وتعيها بكسر العين باتفاق القراء السبعة ، وقرِيْء بإسكانها تشبيهاً لهذه الكلمة برحم وشهد وإن لم تكن من ذلك وجعل الأذن حافظة ومستمعة ومتذكرة ومتفكرة وعاملة تجوز لأن الفاعل لذلك صاحبها ولا ينسب إليها غير السمع ، وإنما أتى به مشاكلة لقوله واعية .

عن علي في الآية قال: «قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم سألت الله أن يجعلها أذنك يا علي فقال علي ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً فنسيته » أخرجه سعيد بن منصور وأبو نعيم وغيرهما . قال ابن كثير وهو حديث مرسل .

وعن بريدة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي « إن الله أمرني أن أدنيك ولا أقصيكَ وأن أعلمك وأن تعي ، وحق لك أن تعي ، فنزلت هذه الآية ﴿ وتعيها أذن واعية ﴾ فأنت أُذنٌ واعيةٌ لعلي» أخرجه ابن جرير وغيره ، قال ابن كثير ولا يصح وعن ابن عمر قال أذن عقلت عن الله .

ولما ذكر الله سبحانه القيامة وهول أمرها بالتعبير بالحاقة وغيرها شرع في

تفاصيل أحوالها وبدأ بذكر مقدماتها فقال ﴿ فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة ﴾ قال عطاء يريد النفخة الأولى وبه قال القاضي كالكشاف : أي التي عندها خراب العالم ، وقال الكلبي ومقاتل : يريد النفخة الأخيرة ولم يؤنث الفعل وهو نفخ لأن التأنيث مجازي وحسنه الفصل ، قرأ الجمهور بالرفع فيهما على أن نفخة مرتفعة على النيابة وواحدة تأكيد لها وقريء بنصبهما على أن النائب هو الجار والمجرور ، وقال الزجاج : قوله في الصور يقوم مقام ما لم يسم فاعله .

﴿ وحملت الأرض والجبال ﴾ أي رفعت من أماكنها وقلعت عن مقرها بمجرد القدرة الآلهية أو بتوسط الزلزلة أو الريح العاصفة أو الملائكة ، وهذا الرفع بعد خروج الناس من قبورهم ، قرأ الجمهور بالتخفيف وقريء بتشديد الميم للتكثير أو للتعدية .

﴿ فدكتا دكة واحدة ﴾ أو فكسرتا كسرة واحدة لا زيادة عليها أو ضربتا ضربة واحدة بعضهما ببعض حتى صارتا ﴿ كثيباً مهيلاً ﴾ و ﴿ هباء منبثاً ﴾ فلم يتميز شيء من أجزائهما عن الآخر ، وقيل بسطتا بسطة واحدة فصارتا ﴿ قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴾ من قولهم اندك سنام البعير إذ تفرش على ظهره ، وبعير أدك وناقة دكاء ومنه الدكان وهذه الدكة كالزلزلة .

قال أبيّ بن كعب في الآية تصيران غبرة على وجوه الكفار لا على وجوه المؤمنين وذلك قوله ﴿ وجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة ﴾ قال الفراء ولم يقل فدككن لأنه جعل الجبال كلها كالجملة الواحدة ومثله قوله تعالى ﴿ إن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما ﴾ .

﴿ فيومئذ وقعت الواقعة ﴾ أي قامت القيامة ﴿ وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ﴾ أي انشقت جنبها وانصدعت وتفطرت بنزول ما فيها من الملائكة فهي في ذلك اليوم ضعيفة مسترخية ساقطة القوة من هول ذلك اليوم بعد ما كانت محكمة ، قال الزجاج يقال لكل ما ضعف جداً قد وهى فهو واهٍ وقال الفراء وَهْيُها تَشَقُّقُها ، وقال ابن عباس واهية متخرقة أي متساقطة خفيفة لا تتماسك كالعهن المنفوش .

وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾

﴿ والملك على أرجائها ﴾ أي جنس الملك واقفون على أطرافها وجوانبها التي لم تسقط وهؤلاء من جملة المستثنى بقوله ﴿ إلا من شاء الله ﴾ وقال القاضي لعل هلاك الملائكة أثر ذلك وقيل يحيون بالنفخة الثانية ويقفون على ارجائها الباقية وهي جمع رجى مقصور وتثنيته رجوان مثل قفى وقفوان .

والمعنى أنها لما تشققت السماء وهي مساكنهم لجؤوا إلى أطرافها قال الضحاك إذا كان يوم القيامة أمر الله السماء الدنيا فتشققت وتكون الملائكة على حافاتها حتى يأمرهم الرب فينزلون إلى الأرض ويحيطون بها ومن عليها ، وقال سعيد بن جبير : المعنى والملك على حافات الدنيا أي ينزلون إلى الأرض وقيل إذا صارت السماء قطعاً يقف الملائكة على تلك القطع التي ليست متشققة في أنفسها ، وقال ابن عباس : على حافاتها على ما لم يهي منها .

﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم ﴾ أي فوق رؤوسهم ﴿ يومئذ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ ثمانية ﴾ أي ثمانية أملاك وقيل ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله عز وجل ، قاله ابن عباس ، وقيل ثمانية أجزاء من تسعة أجزاء من الملائكة قاله الكلبي وغيره .

وقال ابن عباس : أيضاً ثمانية أملاك صورة الأوعال رؤوسهم عند العرش في السماء السابعة وأقدامهم في الأرض السفلى ولهم قرون كقرون الوعلة ما بين أصل قرن أحدهم إلى منتهاه خمسمائة عام[1] ، واليوم تحمله

---

(١) زاد السير ٨/ ٣٥٠.

أربعة .

وعن ابن مسعود قال ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام وما بين كل سماء وأرض خمسمائة عام ، وفضاء كل سماء وأرض خمسمائة عام ، وما بين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام ، وما بين الكرسي والماء خمسمائة عام ، والعرش على الماء ، والله على العرش لا يخفى عليه شيء من أعمالكم ، أخرجه أبو سعيد الدارمي وابن خزيمة وغيرهما موقوفاً على ابن مسعود وفي الباب أحاديث كثيرة وصحيحة[1] .

﴿ يومئذ تعرضون ﴾ أي تعرض العباد على الله لحسابهم ومثله ﴿ وعرضوا على ربك صفاً ﴾ وليس ذلك العرض عليه سبحانه ليعلم به ما لم يكن عالماً به ، وإنما هو عرض الاختبار والتوبيخ بالأعمال .

عن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله غليه وآله وسلم « يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات ، فأما عرضتان فجدال ، معاذير ، وأما الثالثة فعند ذلك تطاير الصحف في الأيدي فآخذ بيمينه وآخذ بشماله[2] » أخرجه أحمد والترمذي ، وابن ماجة وغيرهم ، وأخرج ابن جرير والبيهقي في البعث عن ابن مسعود نحوه[3] .

وجملة ﴿ لا تخفى منكم خافية ﴾ في محل نصب على الحال من ضمير

---

(١) رواه الطبري من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو خبر مقطوع . ورواه الطبري أيضاً من طريق ابن اسحاق قال : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « هم اليوم أربعة » يعني حملة العرش « فإذا كانوا يوم القيامة أمدَّهم الله بأربعة آخرين فكانوا ثمانية » وقد قال الله : ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ وهذا خبر مقطوع أيضاً .
قال ابن كثير : وقوله تعالى : ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ أي : يوم القيامة يحمل العرش ثمانية من الملائكة ، قال : ويحتمل أن يكون المراد بهذا العرش ، العرش العظيم ، أو العرش الذي يوضع في الأرض يوم القيامة لفصل القضاء ، والله أعلم بالصواب أ هـ .

(٢) زاد المسير ٨/٣٥١

(٣) زاد المسير ٨/٣٥١

تعرضون أي تعرضون حال كونكم لا يخفى على الله سبحانه من ذواتكم أو أقوالكم وأفعالكم وسرائركم التي كنتم تخفونها في الدنيا خافية كائنة ما كانت، والتقدير أي نفس خافية أو فعلة خافية، قريء بالتاء والياء وهما سبعيتان[١].

ولما ذكر سبحانه العرض ذكر تفصيل ما يكون فيه فقال ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه ﴾ أي أعطي كتابه الذي كتبه الحفظة عليه من أعماله ﴿ فيقول ﴾ خطاباً لجماعته لما سر به أو لأهله وأقربائه.

﴿ هاؤم اقرأوا كتابيه ﴾ قال ابن السكيت والكسائي : العرب تقول « ها » يا رجل، وللإثنين هاؤما يا رجلان وللجمع هاؤم يا رجال، قيل والأصل هاكم فأبدلت الهمزة من الكاف، قال ابن زيد ومعنى هاؤم تعالوا وقال مقاتل هلم وقيل خذوا، والذي صرح به النحاة أنها بمعنى خذ تقول ها بمعنى خذ، هاؤما بمعنى خذا، وهاؤم بمعنى خذوا فهي اسم فعل، وقد يكون فعلاً صريحاً لاتصال الضمائر البارزة المرفوعة بها، وفيها ثلاث لغات كما هو معروف في علم الإعراب[٢].

والهاء في كتابيه وسلطانيه وماليه، هي هاء السكت، وقرأ الجمهور في هذه بإثبات الهاء وقفاً ووصلاً مطابقة لرسم المصحف، ولولا ذلك لحذفت في

---

(١) رواه أبو داود في « سننه » رقم (٤٧،٢٧) وسنده جيد، وذكره ابن كثير في « تفسيره » من رواية ابن أبي حاتم وقال : وهذا إسناد جيد رجاله كلهم ثقات.

(٢) رواه احمد في « المسند » وابن ماجة : ٢ / ١٤٣٠ من رواية وكيع عن علي بن رفاعة عن الحسن عن أبي موسى. قال البوصيري في «الزوائد»: رجال الإسناد ثقات. إلا أنه منقطع، والحسن لم يسمع من أبي موسى، قاله علي بن المديني، وأبو حاتم، وأبو زرعة، وقد رواه الترمذي عن الحسن عن أبي هريرة وقال : لا يصح هذا الحديث من قِبَل أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة، ورواه الطبري ٢٩ / ٥٩ من رواية مجاهد بن موسى عن زيد، عن سليمان بن حامد عن مروان الأصغرعن أبي وائل عن عبد الله نحوه، وقال ابن كثير : ورواه سعيد بن أبي عَروبة عن قتادة مرسلاً مثله.

الوصل كما هو شأن هاء السكت ، واختار أبو عبيد أن يتعمد الوقف عليها ليوافق اللغة في الحاق الهاء في السكت ، ويوافق الخط يعني خط المصحف ، وقرأ جماعة بحذفها وصلاً ، وإثباتها وقفاً في جميع هذه الألفاظ واختار أبو حاتم هذه إتباعاً للغة ، وقريء بحذفها وصلاً ووقفاً ، تنازع في كتابيه هاؤم واقرأوا فإعمل الأول عند الكوفيين والثاني عند البصريين ، وأضمر في الآخر اي: هاؤموه قرأوا كتابيه أو هاؤم اقرأوه كتابيه .

﴿ إني ظننت أني ملاق حسابيه ﴾ أي علمت وأيقنت في الدنيا أني أحاسب في الآخرة ، وقيل المعنى إني ظننت أن يؤاخذني الله بسيئآتي فقد تفضل عليّ بعفوه ولم يؤاخذني ، قال الضحاك كل ظن في القرآن من المؤمن فهو يقين ومن الكافر فهو شك ، قال مجاهد ظن الآخرة يقين وظن الدنيا شك ، قال الحسن في هذه الآية أن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل للآخرة وأن الكافر أساء الظن بربه فأساء العمل .

قيل والتعبير بالظن للإشعار بأنه لا يقدح في الاعتقاد ما يهجس في النفس من الخطرات التي لا تنفك عنها العلوم النظرية غالباً ، قال ابن عباس : ظننت أي أيقنت ، قال النسفي : وإنما أجرى الظن مجرى العلم لأن الظن الغالب يقوم مقام العلم في العبادات والأحكام ، ولأن ما يدرك بالاجتهاد قلما يخلو عن الوسواس والخواطر وهي تفضي إلى الظنون ، فجاز إطلاق لفظ الظن عليها لما لا يخلو عنه .

﴿ فهو في عيشة راضية ﴾ أي مرضية لا مكروهة أو ذات رضا يرضى بها صاحبها لا يضجر منها ولا يملها ولا يسأمها قال أبو عبيدة والفراء : راضية أي مرضية كقوله ﴿ ماء دافق ﴾ أي مدفوق فقد أسند إلى العيشة ما هو لصاحبها فكان ذلك من المجاز في الإسناد ، والعرب لا تعبر عن أكثر السعادات بأكثر من العيشة الراضية والمعتبر في كمال اللذة الرضا ، وقيل المعنى أنه لو كان للمعيشة عقل لرضيت لنفسها بحالتها .

فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾

﴿ في جنة عالية ﴾ أي مرتفعة المكان لأنها في السماء السابعة أو مرتفعة المنازل والمباني أو عظيمة في النفوس ، وهو خبر بعد خبر ﴿ قطوفها دانية ﴾ القطوف جمع قطف بكسر القاف ما يقطف من الثمار بالفتح مصدر ، والقطاف بالفتح والكسر وقت القطف ، والمعنى أن ثمارها قريبة ممن يتناولها من قائم أو قاعد أو مضطجع أو متكىء ، عن البراء بن عازب دانية قريبة يتناول الرجل من فواكهها وهو قائم .

﴿ كلوا واشربوا ﴾ أي يقال لهم كلوا واشربوا في الجنة ، وجمع الضمير مراعاة للمعنى وهذا أمر امتنان لا أمر تكليف ﴿ هنيئاً ﴾ أي أكلاً طيباً لذيذاً وشرباً هنيئاً شهياً مرياً لا تكدير فيه ولا تنغيص ﴿ بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴾ أي بسبب ما قدمتم من الأعمال الصالحة في الدنيا ، وقال مجاهد هي أيام الصيام .

﴿ وأما من أوتي كتابه بشماله ﴾ قيل تكون يده اليسرى خلف ظهره ثم يعطى كتابه بها وقيل تنزع يده اليسرى من صدره إلى خلف ظهره ﴿ فيقول ﴾ حزناً كرباً لما رأى فيه من سيئآته وسوء عاقبته التي كشف له عنها الغطاء ﴿ يا ليتني لم أوت ﴾ أي لم أعط ﴿ كتابيه ﴾ لما يرى فيه من الفضائح ﴿ ولم أدر ما حسابيه ﴾ أي لم أدر أي شيء حسابي لأن كله عليه ، والاستفهام للتعظيم

والتهويل ، أي بل استمريت جاهلاً كذلك كما كنت في الدنيا .

﴿ يا ليتها ﴾ أي ليت الموتة التي متها ﴿ كانت القاضية ﴾ ولم أحي بعدها ، ومعنى القاضية القاطعة للحياة ، والمعنى أنه تمنى دوام الموت وعدم البعث لما شاهد من سوء عمله ، وما يصير اليه العذاب فالضمير في « ليتها » يعود إلى الموتة التي قد كان ماتها وإن لم تكن مذكورة لأنها لظهورها كانت كالمذكورة .

قال قتادة : تمنى الموت ولم يكن في الدنيا شيء عنده أكره من الموت ، وشر من الموت ما يطلب منه الموت وقيل الضمير يعود إلى الحالة التي شاهدها عند مطالعة الكتاب ، والمعنى يا ليت هذه الحالة كانت الموتة التي قضيت عليّ، لأنه رأى تلك الحالة أشنع وأمر مما ذاقه من مرارة الموت .

﴿ ما أغنى عني ماليه ﴾ أي لم يدفع عني من عذاب الله شيئاً ، على أن « ما نافية » أو استفهامية والمعنى أي شيء أغنى عني مالي الذي منعت منه حق الفقراء وتعظمت به على عباد الله ، وصيغ الخطاب يقتضي أن مالي كلمة واحدة بمعنى المال ، وفي أبي السعود ما كان لي من اليسار .

﴿ هلك عني سلطانيه ﴾ أي هلكت وضلت وغابت عني حجتي ، كذا قال مجاهد وعكرمة والسدي والضحاك ، وقال ابن زيد : يعني سلطاني الذي في الدنيا وهو الملك لم أجد له الآن نفعاً وبقيت حقيراً ذليلاً ، وقيل تسلطي على جوارحي ، قال مقاتل يعني حين شهدت عليه الجوارح بالشرك .

وحينئذ يقول الله عز وجل ﴿ خذوه فغلوه ﴾ أي اجمعوا يديه إلى عنقه بالأغلال والخطاب لخزنة جهنم أي زبانيتها ، وسيأتي في سورة المدثر أن عدتهم تسعة عشر ، قيل ملكاً وقيل صفاً وقيل صنفاً ، حكى الثلاثة الرازي .

﴿ ثم الجحيم صلوه ﴾ أي ادخلوه الجحيم والمعنى لا تصلوه إلا الجحيم وهي النار العظيمة ، والترتيب بثم في الزمان فإن إدخاله النار بعد غله ، وكذلك إدخاله في السلسلة كما يأتي بعد إدخاله النار ، والتراخي المفاد بها

للتفاوت في الرتب ، فكل واحد من المعطوفين بها أشد من العذاب وأغلى مما قبله ، وفي الخطيب صلوه أي بالغوا في تصليته إياها ، وكرروها بغمسه في النار كالشاة المصلية مرة بعد مرة لأنه كان يتعاظم على الناس ، فناسب أن يصلى أعظم النيران .

﴿ ثم في سلسلة ﴾ عظيمة جداً ، والسلسلة حلق منتظمة كل حلقة منها في حلقة ﴿ ذرعها ﴾ أي طولها ﴿ سبعون ذراعاً ﴾ قال الحسن الله أعلم بأي ذراع هو ، وقيل بذراع الملك ، قال نوف الشامي : كل ذراع سبعون باعاً كل باع أبعد ما بينك وبين مكة وكان نوف في رحبة الكوفة ، قال مقاتل لو أن حلقة منها وضعت على ذروة جبل لذاب كما يذوب الرصاص ، وقال ابن جريج لا يعرف قدرها إلا الله ، وهذا العدد حقيقة أو مبالغة ، ومعنى :

﴿ فاسلكوه ﴾ فاجعلوه فيها بحيث يكون كأنه السلك أي الحبل الذي يدخل في ثقب الخرزات بعسر لضيق ذلك الثقب إما بإحاطتها بعنقه أو بجميع بدنه بأن تلف عليه ، يقال سلكته الطريق إذا أدخلته فيه ، ولم تمنع الفاء من تعلق الفعل أي الداخلة عليه بالظرف المتقدم وهو في سلسلة ، وتقديمها كتقديم الجحيم للدلالة على التخصيص والاهتمام بذكر أنواع ما يعذبون به ؛ وثم لتفاوت ما بينها في الشدة لا للدلالة على تراخي المدة .

قال سفيان : بلغنا أنها تدخل في دبره حتى تخرج من فيه . قال الكلبي : تسلك سلك الخيط في اللؤلؤ وقال سويد بن أبي نجيح : بلغني أن جميع أهل النار في تلك السلسلة ، قال ابن عباس : السلسة تدخل في استه ثم تخرج من فيه ، ثم ينظمون فيها كما ينظم الجراد في العود ثم يشوى .

وجملة ﴿ إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ﴾ تعليل لما قبلها على طريق الاستئناف ، وذكر العظيم للإشعار بأنه هو المستحق للعظمة ، فمن لا يعظمه فقد استوجب ذلك .

﴿ ولا يحض على طعام المسكين ﴾ أي لا يحث ولا يحرض نفسه على إطعامه من ماله أو لا يحث الغير على إطعامه ، ووضع الطعام موضع الإطعام كما يوضع العطاء موضع الإعطاء ، والإضافة للمفعول ، ويجوز أن يكون في الكلام حذف المضاف أي على بذل طعام المسكين والإضافة له لكونه مستحقة وآخذه فهي لأدنى ملابسة فالحض البعث والحث على الفعل والحرص على وقوعه ، ومنه حروف التحضيض المبوب له في النحو لأنه يطلب به وقوع الفعل وإيجاده .

وفيه إشارة إلى أنه كان لا يؤمن بالبعث لأن الناس لا يطلبون على المساكين الجزاء فيما يطعمونهم ، وإنما يطعمونهم لوجه الله ورجاء الثواب في الآخرة فإذا لم يؤمن بالبعث لم يكن له ما يحمله على إطعامهم .

وفي جعل هذا قريناً لترك الإيمان بالله من الترغيب في التصدق على المساكين وسد فاقتهم وحث النفس والناس على ذلك ما يدل أبلغ دلالة ويفيد أكمل فائدة على أن منعهم من أعظم الجرائم وأشد المآثم ، وعن أبي الدرداء قال : « إن لله سلسلة لم تزل تغلي منها مراجل النار منذ خلق الله جهنم إلى يوم تلقى في أعناق الناس ، وقد نجانا الله من نصفها بإيماننا بالله العظيم ، فحضني على طعام المسكين يا أم الدرداء » أخرجه أبو عبيد وعبد بن حميد وابن المنذر .

وقال الحسن أدركت أقواماً يعزمون على أهليهم أن لا يردوا سائلاً وكان بعضهم يأمر أهله بتكثير المرقة لأجل المساكين ويقول خلعنا نصف السلسلة بالإيمان أفلا نخلع النصف الثاني بالإطعام ، وقيل لعل وجه التخصيص لهذين الأمرين بالذكر أن أقبح العقائد الكفر بالله تعالى ، وأشنع الرذائل البخل وقسوة القلب .

﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿فليس له اليوم ههنا﴾ أي يوم القيامة في الآخرة ﴿حميم﴾ أي قريب ينفعه أو يشفع له يحرق له قلبه لأنه يوم يفر فيه القريب من قريبه، ويهرب عنده الحبيب من حبيبه ﴿ولا طعام إلا من غسلين﴾ أي وليس له طعام يأكله إلا من صديد أهل النار وما ينغسل من أبدانهم من القيح والصديد، وغسلين فعلين من الغسل أو الغسالة فنونه وياؤه زائدتان.

قال أهل اللغة هو ما يجري من الجراح إذا ما غسلت، وقال الضحاك والربيع بن أنس: هو شجر يأكله أهل النار، وقال قتادة: هو شر الطعام، وقال ابن زيد: لا يعلم ما هو ولا ما الزقوم إلا الله تعالى، وعن ابن عباس قال: الغسلين الدم والماء والصديد الذي يسيل من لحومهم.

وعن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لو أن دلواً من غسلين يهراق في الدنيا لانتن أهل الدنيا»[1] أخرجه الحاكم وصححه، وعن ابن عباس أيضاً قال الغسلين اسم طعام من أطعمة أهل النار، وقال سبحانه في موضع آخر.

﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾ فيجوز أن يكون الضريع هو الغسلين، وقيل في الكلام تقديم وتأخير، والمعنى فليس له اليوم ههنا حميم

(١) الحاكم ٢/٥٠١

إلا من غسلين ، على أن الحميم هو الماء الحار ، ولا طعام أي ليس لهم طعام يأكلونه ، قاله أبو البقاء ، ولا ملجىء لهذا التقديم والتأخير .

والتوفيق بين ما هنا وبين قوله في محل آخر ﴿ إلا من ضريع ﴾ وفي موضع آخر ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾ وفي موضع آخر ﴿ ما يأكلون في بطونهم إلا النار ﴾ أنه يجوز أن يكون طعامهم جميع ذلك وأن العذاب أنواع والمعذبين طبقات فمنهم أكلة الغسلين ومنهم أكلة الضريع ومنهم أكلة الزقوم ومنهم أكلة النار لكل باب منهم جزء مقسوم .

﴿ لا يأكله إلا الخاطئون ﴾ المراد بهم أصحاب الخطايا وأرباب الذنوب ، قال الكلبي : المراد أهل الشرك ، قرأ الجمهور الخاطئون مهموزاً وهو اسم فاعل من خطىء يخطأ من باب علم إذا فعل غير الصواب متعمداً والمخطىء من يفعله غير متعمد ، وقرىء الخاطيون بالياء المضمومة بدل الهمزة وقرىء بالطاء المضمومة بدون همزة .

﴿ فلا أقسم بما تبصرون ﴾ من المخلوقات ﴿ وما لا تبصرون ﴾ منها قال قتادة أقسم بالأشياء كلها ما يبصر منها وما لا يبصر ، فيدخل في هذا جميع المخلوقات ، والإقسام بغير الله إنما نهى عنه في حقنا وأما هو تعالى فيقسم بما شاء على ما شاء ، وهذا رد لكلام المشركين كأنه قال ليس الأمر كما تقولون ، و ﴿ لا ﴾ زائدة والتقدير فأقسم بما تشاهدونه وما لا تشاهدونه .

وقيل إن ﴿لا﴾ليست بزائدة بل هي أصلية لنفي القسم أي لا أحتاج إلى قسم لوضوح الحق في ذلك والأول أولى ، وقال البيضاوي : فلا أقسم لظهور الأمر واستغنائه عن التحقيق بالقسم . أو فلا ،رد لانكارهم البعث و ﴿أُقسمُ﴾ مستأنف ، قال الكرخي : وأما حمله على معنى نفي الإقسام لظهور الأمر فيرده تعيين المقسم به بقوله بما تبصرون الخ أ هـ .

﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ أي أن القرآن لتلاوة رسول كريم على الله فهو في غاية الكرم الذي هو البعد عن مساوىء الأخلاق ، على أن المراد

بالرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، أو أنه لقول يبلغه رسول كريم ، قال الحسن والكلبي ومقاتل يريد به جبريل ، دليله قوله :

﴿ إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرشْ مكين ﴾ وعلى كل حال فالقرآن ليس من قول محمد صلى الله عليه وسلم ولا من قول جبريل عليه السلام ، بل هو من قول الله عز وجل ، فلا بد من تقدير التلاوة أو التبليغ ، وفي لفظ الرسول ما يدل على ذلك فاكتفى به عن أن يقول عن الله تعالى .

﴿ وما هو بقول شاعر ﴾ كما تزعمون لأنه ليس من أصناف الشعر ولا مشابهاً لها والشاعر هو الذي يأتي بكلام مقفى موزون بقصد الوزن ﴿ قليلاً ما تؤمنون ﴾ أي إيماناً قليلاً تؤمنون وتصديقاً يسيراً تصدقون ، وقال البغوي أراد بالقليل نفي إيمانهم وتذكرهم أصلاً كقولك لمن لا يزورك قلما تأتينا ، وأنت تريد لا تأتينا أصلاً .

﴿ ولا بقول كاهن ﴾ كما تزعمون فإن الكهانة أمر آخر لا جامع بينها وبين هذا ﴿ قليلاً ما تذكرون ﴾ قرىء بالتاء وقرىء بالياء التفاتاً عن الخطاب إلى الغيبة أي تذكراً أو زماناً تتذكرون و ﴿ ما ﴾ زائدة في الموضعين .

وذكر الإيمان مع نفي الشعر ، والتذكر مع نفي الكهانة لأن عدم مشابهة القرآن للشعر أمر بيّن لا ينكره إلا معاند كافر بخلاف مباينته للكهانة فإنها تتوقف على تذكر أحواله صلى الله عليه وآله وسلم وتذكر معاني القرآن المنافية لطريقة الكهانة ومعاني أقوالهم ، قال أبو جهل إن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم شاعر وقال الوليد بن المغيرة ساحر ، وقال عقبة كاهن ؛ فنزلت هذه الآية كذا قال مقاتل ﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾ أي هو تنزيل منه على لسانه .

﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل ﴾ قرأ الجمهور مبنياً للفاعل وقرىء مبنياً للمفعول مع رفع بعض ، وقرىء ﴿ ولو يقول ﴾ على صيغة المضارع ،

والتقول تكلف القول وسمي الافتراء تقولاً لأنه قول متكلف وكل كاذب يتكلف ما يكذبه ؛ والأقاويل جمع أقوال وهي جمع قول فهو نظير أبابيت جمع أبيات جمع بيت ، ‹سميت الأقوال المنقولة أقاويل تصغيراً لها وتحقيراً كقولك الأعاجيب والأضاحيك كأنها جمع أقوولة من القول ، والمعنى ولو تقول ذلك الرسول وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم أو جبريل عليه السلام على ما تقدم وجاء به من جهة نفسه ؛ وادعى علينا شيئاً لم نقله ؛

﴿ لأخذنا منه باليمين ﴾ أي بيده اليمين ؛ قال ابن جرير : إن هذا الكلام خرج مخرج الإذلال على عادة الناس في الأخذ بيد من يعاقب ؛ وقال الفراء والمبرد والزجاج وابن قتيبة : باليمين أي بالقوة والقدرة ؛ وبه قال : ابن عباس ؛ وقال ابن قتيبة : إنما أقام اليمين مقام القسوة لأن قوة كل شيء في ميامنه ؛ وقيل المعنى لقتلناه صبراً كما يفعل الملوك بمن يتكذب عليهم معاجلة بالسخط والانتقام ، وقيل المعنى لأذللناه وأهناه .

﴿ ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ هو عرق يجري في الظهر حتى يتصل بالقلب وهو مناطه إذا قطع مات صاحبه ؛ قال الواحدي والمفسرون يقولون إنه نياط القلب ؛ وقال ابن عباس عرق القلب وعنه قال نياط القلب وعن مجاهد هو حبل القلب الذي في الظهر وهو النخاع ، وقال محمد بن كعب إنه القلب ومراقه وما يليه ؛ وقال الكلبي إنه عرق بين العلباء والحلقوم . والعلباء عصب العنق وهما علباوان بينهما العرق : قال ابن قتينة لم يرد أنا نقطعه بعينه بل المراد منه أنه لو كذب علينا لأمتناه فكان كمن قطع وتينه .

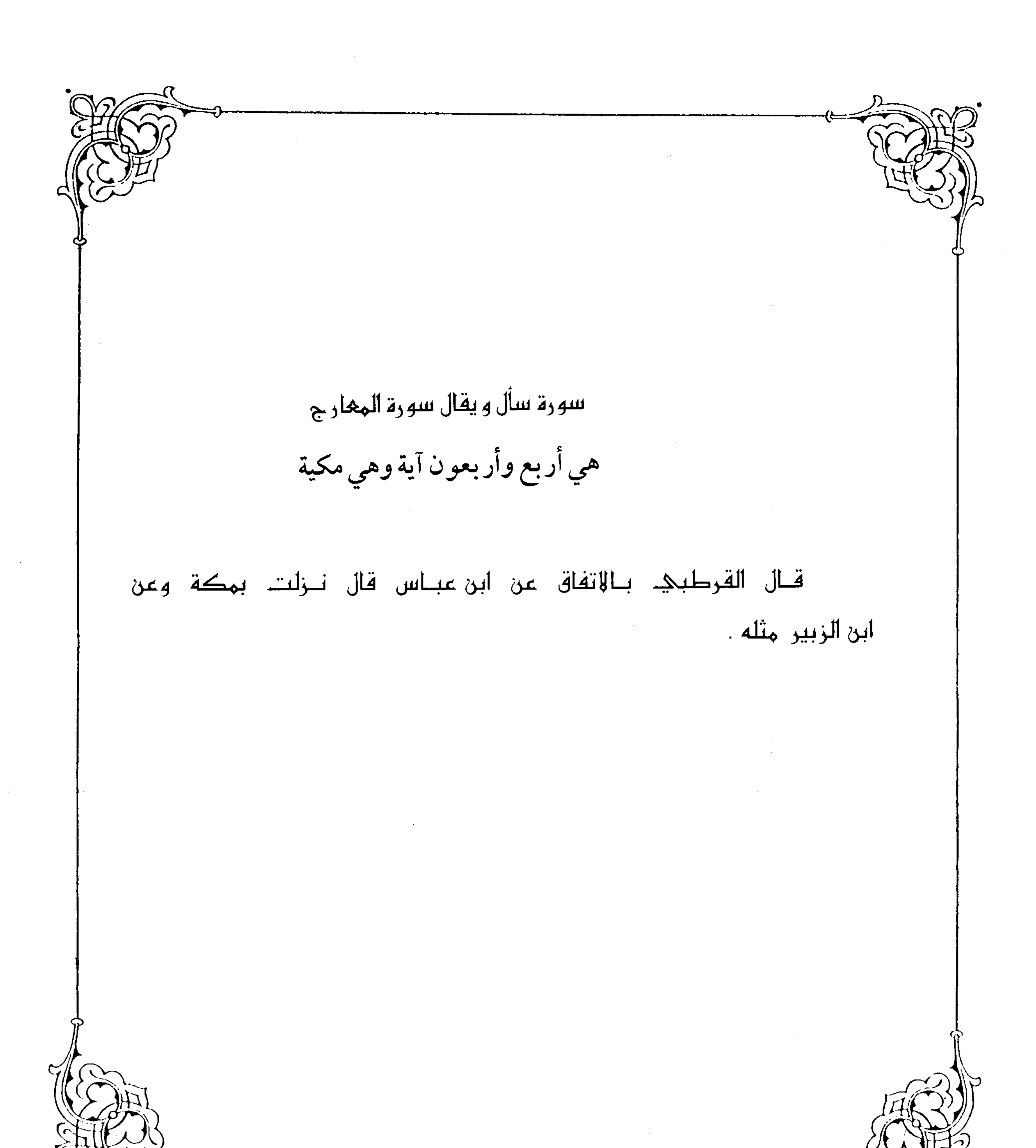
﴿ فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ أي ليس منكم أحد يحجزنا عنه ويدفعنا منه فكيف يتكلف الكذب على الله لأجلكم مع علمه أنه لو تكلف ذلك لعاقبناه ولا تقدرون على الدفع عنه ، وإنما قال « حاجزين » بلفظ الجمع وهو وصف « أحد » رداً على معناه .

وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾
وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

﴿ وإنه لتذكره للمتقين ﴾ أي أن القرآن لتذكرة لأهل التقوى لأنهم المنتفعون به لإقبالهم عليه إقبال مستفيد ، والظاهر أن هذا وما بعده معطوف على جواب القسم السابق فهو من جملة المقسم عليه. وما بينهما اعتراض .

﴿ وإنا لنعلم أن منكم مكذبين ﴾ أي أن بعضكم يكذب بالقرآن فنحن نجازيهم على ذلك بما يليق به إظهاراً للعدل وفي هذا وعيد شديد ﴿ وإنه ﴾ أي القرآن ﴿ لحسرة ﴾ وندامة ﴿ على الكافرين ﴾ يوم القيامة عند مشاهدتهم لثواب المؤمنين . وقيل هي حسرتهم في الدنيا حين لم يقدروا على معارضته عند تحديهم بأن يأتوا بسورة من مثله .

﴿ وإنه ﴾ أي القرآن ﴿ لحق اليقين ﴾ أي عينه ومحضه لكونه من عند الله فلا يحول حوله ريب ولا يتطرّقُ اليه شك وهو من إضافة الصفة للموصوف ، أي اليقين الحق ، وحق اليقين فوق علم اليقين ، وقيل هو كقولك عين اليقين ومحض اليقين ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ أي نزهه عما لا يليق به وقيل فصل لربك والأول أولى ، وقيل هو قوله سبحان الله .



سورة سأل ويقال سورة المعارج

هي أربع وأربعون آية وهي مكية

قال القرطبي بالاتفاق عن ابن عباس قال نزلت بمكة وعن ابن الزبير مثله .



بسم الله الرحمن الرحيم

سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ (١) لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ (٢) مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ (٣) تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ (٤)

﴿ سأل سائل ﴾ قرأ الجمهور سأل بالهمزة من السؤال وهي اللغة الفاشية ، وهو إما مضمن معنى الدعاء فلذلك عدي بالباء كما تقول دعوت بكذا والمعنى دعا داع على نفسه ﴿ بعذاب واقع ﴾ ويجوز أن يكون على أصله والباء بمعنى عن كقوله فاسأل به خبيراً ، وقرىء بغير همزة وهو إما من باب التخفيف بقلب الهمزة ألفاً فيكون معناها معنى قراءة من همز أو يكون من السيلان والمعنى سال واد في جهنم يقال له سائل كما قال زيد بن ثابت . ويؤيده قراءة ابن عباس سال سيل أي اندفع واد بعذاب واقع وصيغة الماضي للدلالة على تحقق وقوعه ، وقيل إن سال بمعنى التمس والمعنى التمس ملتمس عذاباً .

﴿ للكافرين ﴾ فتكون الباء زائدة كقوله ﴿ تنبت بالدهن ﴾ ، والوجه الأول هو الظاهر . قال الأخفش يقال خرجنا نسأل عن فلان وبفلان قال أبو علي الفارسي وإذا كان من السؤال فأصله أن يتعدى إلى مفعولين ويجوز الاقتصار على أحدهما ويتعدى إليه بحرف الجر فيكون التقدير سأل سائل الله أو النبي صلى الله عليه وسلم أو المسلمين بعذاب أو عن عذاب ، وهذا السائل هو النضر بن الحرث حين قال : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ وهو ممن قتل يوم بدر صبراً ، وعن ابن عباس مثله[1] .

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » ٢/٥٠٢ عن سعيد بن جبير وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وتعقبه الذهبي فقال : على شرط البخاري فقط ، وأورد السيوطي في « الدر » ٦ / ٢٦٣ وزاد نسبته للفريابي ، وعبد بن حميد ، والنسائي ، وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما

وقال الربيع هو أبو جهل . وقيل هو الحرث بن النعمان الفهري ، وقيل إنها نزلت في جماعة من كفار قريش والأول أولى ، وقرىء سال سال مثل مال مال على أن الأحل سائل فحذفت العين تخفيفاً كما قيل شاك في شائك السلاح .

وقيل السائل هو نوح عليه السلام سأل العذاب للكافرين وقيل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا بالعقاب عليهم ، والمراد بالعذاب الواقع إما في الدنيا كيوم بدر أو في الآخرة وهو عذاب النار .

وقوله ﴿ للكافرين ﴾ صفة أخرى لعذاب أي كائن لهم أو متعلق بواقع ، واللام للعلة او يسأل على تضمينه معنى دعا أو في محل رفع على تقدير هو للكافرين أو اللام بمعنى على ، ويؤيده قراءة أبيّ على الكافرين ، قال الفراء التقدير بعذاب للكافرين واقع بهم ، فالواقع من نعت العذاب ، وجملة ﴿ ليس له دافع ﴾ صفة أخرى لعذاب أو حال منه أو مستأنفة ، والمعنى أنه لا يدفع ذلك العذاب الواقع به أحد .

وقوله : ﴿ من الله ﴾ متعلق بواقع أي واقع من جهته سبحانه ، ولم يمنع النفي من ذلك لأن « ليس » فعل لا حرف فصح أن يعمل ما قبلها فيما بعدها أو متعلق بدافع أي ليس له دافع من جهته تعالى إذا جاء وقته .

﴿ ذي المعارج ﴾ أي ذي الدرجات التي تصعد فيها الملائكة ، وقال ابن عباس ذي العلو والفواضل ، وقال الكلبي هي السموات وسماها معارج لأن الملائكة تعرج فيها ، وقيل المعارج مراتب نعم الله سبحانه على الخلق ، وقيل المعارج العظمة . وقيل هي الغرف وقيل الأعمال الصالحة فإنها تتفاوت بحسب اجتماع الآداب والسنن وخلوص النية وحضور القلب .

وقرأ ابن مسعود ﴿ ذي المعاريج ﴾ يقال معارج ومعاريج مثل مفاتح ومفاتيح جمع معريج بفتح الميم وهو موضع الصعود لا بكسرها لأنه آلة الصعود ، وهو غير مناسب لهذا المقام .

﴿ تعرج الملائكة والروح إليه ﴾ أي تصعد في تلك المعارج التي جعلها الله لهم ، قرأ الجمهور تعرج بالفوقية ، وقرىء بالتحتية ، والروح جبريل أفرد بالذكر بعد الملائكة لشرفه ، ويؤيد هذا قوله : ﴿ نزل به الروح الأمين ﴾ وقيل الروح هنا ملك آخر عظيم غير جبريل ، وقال أبو صالح : إنه خلق من خلق الله سبحانه كهيئة الناس وليسوا من الناس ، وقال قبيصة بن ذؤيب : إنه روح الميت حين يقبض والأول أولى ، ومعنى « إليه » إلى المكان الذي ينتهون إليه وقيل إلى عرشه »، وقيل إلى مهبط أمره من السماء ، وقيل هو كقول إبراهيم : ﴿ إني ذاهب إلى ربي ﴾ أي إلى حيث أمرني ربي .

﴿ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ قال ابن إسحق والكلبي ووهب بن منبه أي تعرج الملائكة إلى المكان الذي هو محلها في وقت كان مقداره على غيرهم لو صعد خمسين ألف سنة ، وبه قال مجاهد وقال عكرمة : وروي عن مجاهد أن مدة عمر الدنيا هذا المقدار لا يدري أحدكم مضى ولا كم بقي ولا يعلم ذلك إلا الله .

والكلام على مدة عمر الدنيا ماضيها وباقيها مبسوط في كتابنا لقطة العجلان مما تمس اليه حاجة الإنسان ، وقال قتادة والكلبي ومحمد بن كعب أن المراد يوم القيامة يعني أن مقدار الأمر فيه لو تولاه غيره سبحانه خمسون ألف سنة ، وهو سبحانه يفرغ منه في ساعة ، وقيل إن مدة موقف العباد للحساب هي هذا المقدار ثم يستقر بعد ذلك أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار ، وقيل أن مقدار يوم القيامة على الكافرين خمسون سنة وعلى المؤمنين مقدار ما بين الظهر والعصر .

وقيل ذكر هذا المقدار لمجرد التمثيل والتخييل لغاية ارتفاع تلك المعارج

وبعد مداها أو لطول يوم القيامة باعتبار ما فيه من الشدائد والمكاره كما تصف العرب أيام الشدة بالطول ، وأيام الفرح بالقصر . ويشبهون اليوم القصير بإبهام القطاة ، والطويل بظل الرمح ، وحينئذ لا تنافي بين هذه الآية وبين آية السجدة ﴿ في يوم كان مقداره ألف سنة ﴾ لأنه أيضاً مسوق على سبيل التشديد على الكافرين .

وقيل في الكلام تقديم وتأخير أي ليس له دافع من الله ذي المعارج في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة تعرج الملائكة والروح إليه ، وقال ابن عباس : في الآية منتهى أمره من أسفل الأرضين إلى منتهى أمره من فوق سبع سموات مقدار خمسين ألف سنة .

وقوله ﴿ في يوم كان مقداره ألف سنة ﴾ قال يعني ينزل الأمر من السماء إلى الأرض ومن الأرض إلى السماء في يوم واحد ، فذلك مقداره ألف سنة لأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام ، وعنه قال غلظ كل أرض خمسمائة عام ، وغلظ كل سماء خمسمائة عام وبين كل أرض إلى أرض خمسمائة عام ، ومن السماء إلى السماء خمسمائة عام ، فذلك أربعة عشر ألف عام ، وبين السماء السابعة وبين العرش مسيرة ستة وثلاثين ألف عام فذلك قوله : ﴿ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ .

وعنه في قوله : ﴿ في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ قال هذا في الدنيا تعرج الملائكة في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ، وفي قوله : ﴿ مقداره خمسين ألف سنة ﴾ فهذا يوم القيامة جعله الله سبحانه على الكافرين خمسين ألف سنة ، وعنه قال لو قدرتموه لكان خمسين ألف سنة من أيامكم يعني يوم القيامة .

وعن أبي سعيد الخدري قال: قيل يا رسول الله يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ما أطول هذا اليوم فقال : « والذي نفسي بيده إنه ليخفف عن

المؤمن حتى يكون أهون عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا »[1] أخرجه أحمد وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث وفي إسناده دراج عن أبي الهيثم وهما ضعيفان .

وعن أبي هريرة مرفوعاً قال : « ما قدر طول يوم القيامة على المؤمنين إلا كقدر ما بين الظهر إلى العصر » أخرجه ابن أبي حاتم والحاكم والبيهقي في البعث .

ولو كان المراد حقيقة العدد لم يعقل أن الزمان الواحد يكون مقداره خمسين ألف سنة ، ويكون مقداره ألف سنة ، ويكون مقداره قدر صلاة ركعتين ، وقيل العدد على حقيقته فإن يوم القيامة خمسون موطناً كل موطن ألف سنة والله أعلم بمراده بذلك .

وقد قيل في الجمع أن من أسفل العالم إلى العرش خمسين ألف سنة ، ومن أعلى سماء الدنيا إلى الأرض ألف سنة لأن غلظ كل سماء خمسمائة عام . وما بين أسفل السماء إلى قرار الأرض خمسمائة عام كما تقدم ، فالمعنى أن الملائكة إذا عرجت من أسفل العالم إلى العرش كان مسافة ذلك خمسين ألف سنة . وإن عرجوا من هذه الأرض التي نحن فيها إلى باطن هذه السماء التي هي سماء الدنيا كان مسافة ذلك ألف سنة . وقد تقدم ما يؤيد هذا عن ابن عباس . وقد قدمنا الجمع بين هذه الآية وآية السجدة في سورة السجدة فتذكر .

---

(١) رواه الامام أحمد عن الحسن بن موسى ، عن ابن لهيعة ، عن دراج ، عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، ولفظه : « والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا » ورواه ابن جرير الطبري عن يونس عن ابن وهب عن عمرو بن الحارث عن دراج به ، ودراج وشيخه أبو الهيثم ضعيفان .

﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠﴾

ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر ﴿ فاصبر ﴾ يا محمد على تكذيبهم لك وكفرهم بما جئت به ﴿ صبراً جميلاً ﴾ لا جزع فيه ولا شكوى إلى غير الله . وهذا معنى الصبر الجميل . وقيل هو أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يدري بأنه مصاب . قال ابن زيد وغيره : هي منسوخة بآية السيف . قال ابن عباس : في الآية لا تشكو إلى أحد غيري .

﴿ إنهم يرونه ﴾ أي يرون العذاب الواقع بهم ويعتقدونه ، أو يرون يوم القيامة أو يرون يوماً كان مقداره خمسين ألف سنة ﴿ بعيداً ﴾ أي غير كائن لأنهم لا يؤمنون به ، فمعنى بعيداً أي مستبعداً محالاً ، وليس المراد أنهم يرونه بعيداً غير قريب ، قال الأعمش يرون البعث بعيداً لأنهم لا يؤمنون به ، كأنهم يستبعدونه على جهة الاستحالة ، كما تقول لمن تناظره : هذا بعيد أي لا يكون ﴿ ونراه قريباً ﴾ أي نعلمه كائناً قريباً لأن ما هو آت قريب ، وقيل المعنى ونراه هيناً في قدرتنا غير متعسر ولا متعذر ، والجملة تعليل للأمر بالصبر .

ثم أخبر سبحانه متى يقع بهم العذاب فقال : ﴿ يوم تكون السماء كالمهل ﴾ أي يقع بهم العذاب يوم كذا والمهل ما أذيب من النحاس والرصاص والفضة ، وقال مجاهد : هو القيح من الصديد والدم ، وقال عكرمة وغيره : هو دردي الزيت ، وبه قال ابن عباس : وقد تقدم تفسيره في سورة الكهف والدخان .

﴿ وتكون الجبال كالعهن ﴾ أي كالصوف المصبوغ ، ولا يقال للصوف عهن إلا إذا كان مصبوغاً ، قال الحسن تكون الجبال كالصوف الأحمر ، وهو أضعف الصوف ، وقيل العهن الصوف ذو الألوان فشبه الجبال به في تكونها

ألواناً كما في قوله : ﴿ جدد بيض وحمر وغرابيب سود ﴾ فإذا بست وطيرت في الهواء أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح ، وهذه الأقوال في معنى العهن في اللغة ، وأول ما تتغير الجبال تصير رملاً مهيلاً ثم عهناً منفوشاً ثم هباء منثوراً .

﴿ ولا يسأل حميم حميماً ﴾ أي لا يسأل قريب قريبه عن شأنه في ذلك اليوم لما نزل بهم من شدة الأهوال التي أذهلت القريب عن قريبه ، والخليل عن خليله كما قال سبحانه : ﴿ لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ وقيل المعنى لا يسأل حميم عن حميم لشغله عنه فحذف الحرف ووصل الفعل .

قرأ العامة يسأل مبنياً للفاعل والمفعول الثاني محذوف أي لا يسأله نصره ولا شفاعته لعلمه أن ذلك مفقود ، وقيل لا يسأل شيئاً من حمل أوزاره ، وقرىء على البناء للمفعول والمعنى لا يسأل حميم إحضار حميمه ، وقيل هذه القراءة على إسقاط حرف الجر ، أي لا يسأل حميم عن حميم بل كل إنسان يسأل عن نفسه وعن عمله ، وقيل لا يطالب به ولا يؤخذ بذنبه .

وجملة ﴿ يبصرونهم ﴾ مستأنفة أو صفة لقوله حميماً أي يبصر كل حميم حميمه لا يخفى منهم أحد عن أحد ، وليس في القيامة مخلوق إلا وهو نصب عين صاحبه ولا يتساءلون ولا يكلم بعضهم بعضاً لاشتغال كل أحد منهم بنفسه ، وقال ابن زيد يبصر الله الكفار في النار الذين أضلوهم في الدنيا وهم الرؤساء المتبوعون ، وقيل إن قوله :

﴿ يبصرونهم ﴾ يرجع إلى الملائكة أي يعرفون أحوال الناس لا يخفون عليهم ، وإنما جمع الضميرين في يبصرونهم وهما للحميمين حملاً على معنى العموم لأنهما نكرتان في سياق النفي ، قاله السمين والزمخشري ، قال الطيبي : وفيه دليل على أن الفاعل والمفعول الواقعين في سياق النفي يعمان كما التزم في قوله والله لا أشرب ماء من إداوة أنه يعم في المياه والأداوي ، خلافاً لبعضهم في الاداوة .

يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾

قال ابن عباس ﴿ يبصرونهم ﴾ يعرف بعضهم بعضاً ويتعارفون ثم يفر بعضهم من بعض ، قرأ الجمهور يبصرونهم بالتشديد وقرىء بالتخفيف .

﴿ يود المجرم ﴾ أي الكافر أو كل مذنب يذنب ذنباً يستحق به النار ﴿ لو ﴾ بمعنى أن ﴿ يفتدي من عذاب يومئذ ﴾ أي العذاب الذي ابتلوا به يومئذ ، قرأ الجمهور بإضافة العذاب وكسر الميم من يومئذ وقرىء بالتنوين وقطع الإضافة وبفتح الميم .

﴿ ببنيه وصاحبته ﴾ زوجته ﴿ وأخيه ﴾ فإن هؤلاء أعز الناس عليه وأكرمهم لديه ، فلو قبل منه الفداء لفدى بهم نفسه ، وخلص مما نزل به من العذاب ، والجملة مستأنفة لبيان أن اشتغال كل مجرم بنفسه بلغ بحد يود الافتداء من العذاب بمن ذكر ، وقيل حال من الضمير المرفوع أو المنصوب من يبصرون .

﴿ وفصيلته التي تؤويه ﴾ أي عشيرته الأقربين الذين يضمونه في النسب أو عند الشدائد ويأوي إليهم ، قال أبو عبيدة الفصيلة دون القبيلة ، وقال ثعلب هم آباؤهم الأدنون ، قال المبرد الفصيلة القطيعة من أعضاء الجسد وسميت عشيرة الرجل فصيلة تشبيهاً لها بالبعض منه ، وقال مالك إن الفصيلة هي التي تربيه .

﴿ ومن ﴾ أي ويود المجرم لو افتدى بمن ﴿ في الأرض جميعاً ﴾ من

الثقلين وغيرهما من الخلائق . وقوله ﴿ ثم ينجيه ﴾ معطوف على يفتدي أي يود لو يفتدي ثم ينجيه الافتداء ، وكأن العطف بثم لدلالتها على استبعاد النجاة وقيل ثم ينجيه جواب يود ، والأول أولى .

﴿ كلا ﴾ ردع للمجرم عن تلك الودادة ، وبيان امتناع ما وده من الافتداء ، وكلا يأتي بمعنى حقاً وبمعنى لا النافية مع تضمنها لمعنى الزجر والردع ، وهي هنا تحتمل الأمرين ﴿ إنها لظى ﴾ الضمير عائد إلى النار المدلول عليها بذكر العذاب أو هو ضمير مبهم يفسره ما بعده ، ويترجم عنه الخبر ، قاله الزمخشري ، ولظى علم لجهنم واشتقاقها من التلظي في النار ، وهو التلهب ، ولذلك منع من الصرف للعلمية والتأنيث ، وقيل أصله لظظ بمعنى دوام العذاب فقلبت إحدى الظائين ألفاً ، وقيل لظى هي الدركة الثانية من طباق جهنم .

﴿ نزاعة للشوى ﴾ قرأ الجمهور نزاعة بالرفع على أنه خبر ثان لأن ، أو خبر مبتدأ محذوف أو تكون لظى بدلاً من الضمير المنصوب ونزاعة خبر « أن » أو على أن نزاعة صفة للظى على تقدير عدم كونها علماً أن يكون الضمير في ﴿إنها﴾للقصةويكونلظى مبتدأ ونزاعة خبره والجملة خبر « إن » وقرىء بالنصب على الحال وقال أبو علي الفارسي حمله على الحال بعيد لأنه ليس في الكلام ما يعمل في الحال ، وقيل العامل فيها ما دل عليه الكلام من معنى التلظي أو النصب على الاختصاص والشوى الأطراف أو جمع شواة كنوى ونواة وهي جلدة الرأس .

وقال الحسن وثابت البناني : للشوى أي لمكارم الوجه وحسنه وكذا قال أبو العالية وقتادة ، وقال قتادة : تبري اللحم والجلد عن العظم حتى لا تترك فيه شيئاً ، وقال الكسائي : هي المفاصل وقال أبو صالح هي أطراف اليدين والرجلين ، وقال ابن عباس : تنزع أم الرأس ، وقيل الشوى الأعضاء التي ليست بمقتل ، وقيل هو جلد الإنسان .

﴿ تدعو ﴾ لظى ﴿ من أدبر ﴾ عن الحق في الدنيا ﴿ وتولى ﴾ أي أعرض عنه قيل إنها تقول إلي يا مشرك إلي يا منافق ثم تلتقطهم التقاط الطير للحب ، وقيل معنى تدعو تهلك تقول العرب دعاك الله أي أهلكك ، وقيل ليس هو الدعاء باللسان ، ولكن دعاؤها إياهم تمكنها من عذابهم ، وقيل المراد إن خزنة جهنم تدعو الكافرين والمنافقين ، فإسناد الدعاء إلى النار من باب إسناد ما هو للحال إلى المحل ، وقيل هو تمثيل وتخييل ولا دعاء في الحقيقة . والمعنى أن مصيرهم إليها والأول أولى لقوله ﴿ وتقول هل من مزيد ﴾ ولا موجب للصرف عن الظاهر ، والله على كل شيء قدير .

﴿ وجمع فأوعى ﴾ أي جمع المال فجعله في وعاء ولم يؤد حق الله منه ، وفي هذا ذم لمن جمع المال فأوعاه وكثره ولم ينفقه في سبيل الخير أو لم يؤد زكاته .

﴿ إن الإنسان ﴾ أي الجنس عبر به لما له من الإنس لنفسه والرؤية لمحاسنها والنسيان لربه ولدينه ﴿ خلق هلوعاً ﴾ قال في الصحاح الهلع في اللغة أشد الحرص وأسوأ الجزع وأفحشه ، يقال هلوع بالكسر فهو هلع وهلوع ، وقال عكرمة : هو الضجور ، وقال ابن عباس : هو الشره ، وقال الواحدي : والمفسرون يقولون تفسير الهلع ما بعده يعني قوله :

﴿ إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً ﴾ وبه قال ابن عباس أي إذا أصابه الفقر والحاجة أو المرض أو نحو ذلك فهو كثير الجزع ، وإذا أصابه الخير من الغنى والخصب والسعة ونحو ذلك فهو كثير المنع والإمساك ، وسأل محمد بن عبد الله بن طاهر ثعلباً عن الهلع فقال قد فسره الله ، ولا يكون تفسير أبين من تفسيره وهو الذي إذا أصابه شر أظهر شدة الجزع وإذا مسه الخير بخل به ومنعه الناس .

والعرب تقول ناقة هلوع وهلواع إذا كانت سريعة السير خفيفته ، وقال أبو عبيدة الهلوع هو الذي إذا مسه الخير لم يشكر ، وإذا مسه الشر لم يصبر ،

وانتصاب هلوعاً وجزوعاً ومنوعاً على أنها أحوال مقدرة لأنه ليس متصفاً بالصفات المذكورة وقت خلقه ولا وقت ولادته ، أو محققة لكونها طبائع جبل الإنسان عليها والظرفان معمولان لجزوعاً ومنوعاً .

وقوله : ﴿ إلا المصلين ﴾ من قبيل استثناء الجمع من الواحد ، لأن الإنسان واحد وفيه معنى الجمع أي المؤمنين المقيمين للصلاة لأن الصلاة الشرعية تستلزم الإيمان يعني أنهم ليسوا على تلك الصفات من الهلع والجزع والمنع ، وإنهم على صفات محمودة وخلال مرضية لأن إيمانهم وما تمسكوا به من التوحيد ودين الحق يزجرهم عن الاتصاف بتلك الصفات ، ويحملهم على الاتصاف بصفات الخير .

ثم بينهم سبحانه فقال : ﴿ الذين هم على صلاتهم دائمون ﴾ أي مواظبون أي لا يشغلهم عنها شاغل ولا يصرفهم عنها صارف ، ولا يتركونها أداء ولا قضاء أي يفعلونها ولو قضاء[1] وليس المراد بالدوام أنهم يصلون أبداً .

قال الزجاج : هم الذين لا يزيلون وجوههم عن سمت القبلة وقال الحسن وابن جريج : هو التطوع منها قال النخعي : المراد بالمصلين الذين يؤدون الصلاة المكتوبة . وقال ابن مسعود : الذين يصلونها لوقتها .

وعن عمران بن حصين : قال الذي لا يلتفت في صلاته ، وعن عقبة بن عامر قال: هم الذين إذا صلوا لم يلتفتوا ، والمراد بالآية جميع المؤمنين وقيل الصحابة خاصة ، ولا وجه لهذا التخصيص لاتصاف كل مؤمن بأنه من المصلين .

(١) قوله « أي يفعلونها ولو قضاء » له معنيان (أحدهما) قضاء النائم والناسي فيقضي ما فاته نسياناً أو نوماً عند قيامه من النوم او عندما يتذكر ، وهذه صلاة مقبولة كما جاء في الحديث « من نام عن صلاة أو نسيها » الخ .

والمعنى الثاني لقضاء الصلاة هو أن يترك الصلاة عامداً سنين طويلة ثم يتوب فيصلي مع كل صلاة صلاة وهذا غير مقبول فمن تاب سقط عنه ما مضى .

﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿ والذين في أموالهم حق معلوم ﴾ قال قتادة ومحمد بن سيرين المراد الزكاة المفروضة ، وقال مجاهد سوى الزكاة ، وقيل صلة الرحم ، وحمل الكل ؛ والظاهر أنه الزكاة المفروضة لوصفه بكونه معلوماً ولجعله قريناً للصلاة .

﴿ للسائل ﴾ أي الذي يسأل الناس ﴿ والمحروم ﴾ أي الذي يتعفف عن السؤال فيحسب غنياً فيحرم على حد ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ﴾ وقد تقدم تفسير السائل والمحروم في سورة الذاريات وفي سورة المؤمنين مستوفى .

﴿ والذين يصدقون بيوم الدين ﴾ أي بيوم الجزاء وهو يوم القيامة لا يشكون فيه ولا يجحدونه ، وقيل يصدقونه بأعمالهم فيتعبون أنفسهم في الطاعات ، لأن التصديق به يستلزم الاستعداد له بالأعمال الصالحة ﴿ والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ﴾ أي خائفون وجلون مع ما لهم من أعمال الطاعة استحقاراً لأعمالهم واعترافاً بما يجب لله سبحانه عليهم .

وجملة ﴿ إن عذاب ربهم غير مأمون ﴾ مقررة لمضمون ما قبلها مبينة أن ذلك مما لا ينبغي أن يأمنه أحد لجواز أن يحل به وإن بلغ في الطاعة ما بلغ ، وأن حق كل أحد أن يخافه ، ويكون مترجماً بين الخوف والرجاء .

﴿ والـذين هم لفروجهم حـافظون إلا عـلى أزواجهم أو مـا ملكت أيمانهم ﴾ من الإمـاء ، ولشبههن في جريان التصرف عليهن عبر عنهن « بما » التي لغير العاقل ﴿ فإنهم غير ملومين ﴾ على ترك الحفظ ﴿ فمن ابتغى ﴾ أي طلب منكحاً ﴿ وراء ذلك ﴾ أي غير الزوجات والمملوكات .

﴿ فـأولئك هم العـادون ﴾ أي المتجـاوزون عن الحـلال إلى الحـرام والمتعدون ما حد لهم ، وهذه الآية تدل على حرمـة المتعة ووطء الـذكران والبهائم والزنا والاستمناء بـالكف ، وقد تقـدم تفسيرهـا في سورة المؤمنـين مستوفى .

﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعـون ﴾ أي لا يخلون بشيء من الأمانات التي يؤتمنون عليها ، ولا ينقضون شيئاً من العهود التي يعقدونها على أنفسهم ، قرأ الجمهور لأماناتهم بالجمع وقرىء بالإفراد وهما سبعيتان ، والمراد الجنس وهي تتناول أمانات الشرع ، وأمانات العباد ، ويدخل فيها عهود الخلق والنذور والأيمان ، وقيل الأمانات ما تدل عليه العقول . والعهود ما أتى بها الرسول .

﴿ والذين هم بشهاداتهم قائمون ﴾ أي يتحملونها ويؤدونها على غاية التمام وحسن الأداء ، ويقيمونها عند الحكام على من كانت عليه من قريب أو بعيد ، أو رفيع أو وضيع ، بلا ترجيح للقوي على الضعيف ، ولا يكتمونها ولا يغيرونها إظهاراً للصلابة في الدين ، ورغبة في إحياء حقوق المسلمين .

وقد تقدم القول على الشهادة في سورة البقرة قرأ الجمهور بشهادتهم بالإفراد وقرىء بالجمع ، قال الواحدي : والإفراد أولى لأنه مصدر ، ومن جمع ذهب إلى اختلاف الشهادات ، قال الفراء ويدل على قراءة التوحيـد قولـه تعالى : ﴿ وأقيموا الشهادة لله ﴾ وقيل أراد بالشهادة الشهادة بكلمة التوحيد ، والأول أولى .

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿والذين هم على صلاتهم يحافظون﴾ أي على أذكارها وأركانها وشرائطها لا يخلون بشيء من ذلك قال قتادة : على وضوئها وركوعها وسجودها ، قال ابن جريج : المراد التطوع ، وكرر ذكر الصلاة للدلالة على فضلها وأنافتها على غيرها ، ولاختلاف ما وصفهم به أولاً وما وصفهم به ثانياً فإن معنى الدوام هو أن لا يشتغل عنها بشيء من الشواغل كما سلف ، ومعنى المحافظة أن يراعي الأمور التي لا تكون صلاة بدونها .

وقيل المراد يحافظون عليها بعد فعلها من أن يفعلوا ما يحبطها ويبطل ثوابها ، وكرر الموصولات للدلالة على أن كل وصف من تلك الأوصاف لجلالته يستحق أن يستقل بموصوف منفرد ، وقال الكرخي : وفي هذه الصلاة مبالغات لا تخفى وهي تقديم الضمير وبناء الجملة عليه وتقديم الجار والمجرور على الفعل ، وجعل بعض الجمل اسميه مفيدة للدوام والثبات ، وبعضها فعلية مفيدة للاستمرار التجددي .

﴿أولئك﴾ الموصوفون بتلك الصفات مستقرون ﴿في جنات مكرمون﴾ بأنواع الكرامات وهما خبران .

﴿فمال الذين كفروا قبلك مهطعين﴾ أي أيّ شيء ثبت لهم فهم

حواليك مسرعين ، قال الأخفش مهطعين مسرعين ، وقيل المعنى ما بالهم يسرعون إليك ويجلسون حواليك ولا يعملون بما تأمرهم ، وقيل ما بالهم مسرعين إلى التكذيب ، وقيل ما بال الذين كفروا يسرعون إلى السماع إليك فيكذبونك ويستهزئون بك ، وقال الكلبي إن معنى مهطعين ناظرين إليك ، وقال قتادة عامدين ، وقيل مسرعين إليك مادي أعناقهم مديمي النظر إليك .

﴿ عن اليمين وعن الشمال عزين ﴾ أي عن يمين النبي صلى الله عليه وسلم وعن شماله جماعات متفرقة وعزين جمع عزة وهي العصبة من الناس ، وقيل أصلها عزوة من العزو ، وكأن كل فرقة تعتزي إلى غير من تعتزي إليه الفرقة الأخرى وقال في الصحاح العزة الفرقة من الناس ، والهاء عوض عن الياء والجمع عزى وعزون ، قال ابن عباس عزين العصب من الناس معرضين يستهزئون به ، وأخرج مسلم وغيره عن جابر قال دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد ونحن حلق متفرقون فقال ما لي أراكم عزين »[1] .

﴿ أيطمع كل امرىء منهم أن يدخل جنة نعيم ﴾ كالمؤمنين المسلمين قال المفسرون : كان المشركون يقولون لئن دخل هؤلاء الجنة لندخلن قبلهم ، فنزلت الآية ، قرأ الجمهور ويدخل مبنياً للمفعول ، وقرىء مبنياً للفاعل .

ثم رد الله سبحانه عليهم فقال : ﴿ كلا إنا خلقناهم مما يعلمون ﴾ أي من القذر الذي يعلمون به يعني من النطفة المذرة ، وأبهم إشعاراً بأنه منصب يستحي من ذكره فلا ينبغي لهم هذا التكبر ، وهذا استدلال بالنشأة الأولى على إمكان النشأة الثانية التي بنوا الطمع على فرضها فرضاً محالاً عندهم بعد ردعهم

---

(١) روى مسلم في « صحيحه » ١ / ٣٢٢ عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فرآنا حلقاً ، فقال : « ما لي أراكم عِزِينَ ؟ » أي جماعات في تفرقة ، جمع عزة ، وأصلها «عزوة » فحذفت الواو وجمعت جمع السلامة على غير قياس كثُبين جمع ثُبة . والحديث رواه أيضاً أحمد ، وأبو داود، والنسائي ، وابن جرير الطبري . وفي هذا الحديث دلالة على أن التفرقة في الأجسام تولّد التفرقة في القلوب .

عنه ، وقيل المعنى إنا خلقناهم من أجل ما يعلمون وهو امتثال الأمر والنهي وتكميل النفس بالعلم والعمل ، وتعريضهم للثواب والعقاب كما في قوله : ﴿ وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون ﴾ .

أخرج أحمد وابن ماجة وابن سعد وابن أبي عاصم والبارودي وابن قانع والحاكم والبيهقي في الشعب والضياء عن بشر بن جحاش قال : « قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ فما للذين كفروا إلى قوله مما يعلمون ﴾ ثم بزق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على كفه ووضع عليها أصبعه وقال : « يقول الله ابن آدم أنّى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت أتى أوان الصدقة »[1] .

قال ابن العربي في الفتوحات خلق الله تعالى الناس على أربعة أقسام قسم لا من ذكر ولا من أنثى وهو آدم عليه السلام وقسم من ذكر فقط وهو حواء وقسم من أنثى فقط وهو عيسى عليه السلام وقسم من ذكر وأنثى وهو بقية الناس .

﴿ فلا أقسم ﴾ لا زائدة كما تقدم قريباً والمعنى فأقسم ﴿ برب المشارق والمغارب ﴾ قرأهما الجمهور بالجمع يعني مشرق كل يوم من أيام السنة ومغربه ، وقال ابن عباس للشمس كل يوم مطلع تطلع فيه وكل يوم مغرب تغرب فيه غير مطلعها بالأمس . وغير مغربها بالأمس ، وقيل مشرق كل نجم ومغربه وقرىء بالإفراد ، وقوله :

﴿ إنا لقادرون على أن نبدل خيراً منهم ﴾ جواب القسم ، والمعنى إنا

---

(١) رواه أحمد في « المسند » ٤ / ٢١٠ من حديث حريز بن عثمان عن عبد الرحمن بن ميسرة عن جبير بن نفير عن بسر بن جحاش ، وإسناده حسن ، ورواه الحاكم في « المستدرك » ٢ / ٥٠٢ وقال : هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه ، وتعقبه الذهبي فقال : صحيح ورواه ابن ماجة رقم (٢٧٠٧) وقال البوصيري في «الزوائد » : إسناده صحيح . وأورده السيوطي في « الدر » ٦ / ١٦٧ من رواية البيهقي في « شعب الايمان »

لقادرون على أن نخلق أمثل منهم وأطوع لله حين عصوه ، ونهلك هؤلاء أو نبدلهم بتحويل الوصف فيكونوا أشد بطشاً في الدنيا وأكثر أموالاً وأولاداً ، وأعلى قدراً ، وأكثر حشماً وجاهاً وخدماً فيكونوا عندك على قلب واحد في سماع قولك وتوقيرك وتعظيمك ، والسعي في كل ما يشرح صدرك بدل ما يعمل هؤلاء من الهزء والتصفيق والصفير ، وكل ما يضيق به صدرك .

وقد فعل سبحانه ما ذكر من هذه الأوصاف بالمهاجرين والأنصار والتابعين لهم بالإحسان ، مع السعة في الرزق بأخذ أموال الجبارين من كسرى وقيصر ، والتمكن في الأرض حتى كانوا ملوك الدنيا مع العمل بما يوجب لهم ملك الآخرة ، ففرجوا الكرب عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبذلوا في مرضاته الأنفس والأموال .

ومن جملة المقسم عليه قوله : ﴿ وما نحن بمسبوقين ﴾ أي بمغلوبين إن أردنا ذلك بل نفعل ما أردنا لا يفوتنا شيء ولا يعجزنا أمر ، ولكن مشيئتنا وسابق علمنا اقتضيا تأخير عقوبة هؤلاء وعدم تبديلهم بخلق آخر ﴿ فذرهم ﴾ أي دعهم واتركهم ﴿ يخوضوا ﴾ في باطلهم ﴿ ويلعبوا ﴾ في دنياهم واشتغل بما أمرت به ، ولا يعظمن عليك ما هم فيه فليس عليك إلا البلاغ ، وهذا تهديد لهم وتسلية له صلى الله عليه وسلم .

﴿ حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ﴾ هو يوم كشف الغطاء الذي أوله عند الغرغرة وتناهيه النفخة الثانية ودخول كل من الفريقين في داره ومحل استقراره ، وقيل هو يوم القيامة ، وهذه الآية منسوخة بآية السيف كما قال البقاعي وابن عادل ، قرأ الجمهور يلاقوا وقرىء يلقوا ، وفيه إشارة إلى أن التفاعل ليس على بابه .

﴿ يوم يخرجون من الأجداث سراعاً ﴾ « يوم » بدل من يومهم ؛ بدل بعض من كل على ما يقتضيه تفسير يومهم بما ذكر ؛ قرأ الجمهور يخرجون على البناء للفاعل وقرىء على البناء للمفعول ؛ والأجداث جمع جدث وهو القبر ؛

والسراع جمع سريع وانتصابه على الحال من ضمير يخرجون .

﴿ كأنهم إلى نصب يوفضون ﴾ قرأ الجمهور نصب بفتح النون وسكون الصاد وهو اسم مفرد بمعنى العلم المنصوب الذي يسرع الشخص نحوه ، وقال أبو عمرو هو شبكة الصائد يسرع إليها عند وقوع الصيد فيها مخافة انفلاته . وقرىء بضمها ، وفيه ثلاثة أوجه أحدها أنه اسم مفرد بمعنى الصنم المنصوب للعبادة ، وثانيها أنه جمع نصاب ككتب في كتاب ، وثالثها أنه جمع نصب كرهن في رهن ، وسقف في سقف ، وجمع الجمع أنصاب ، وقرىء بفتحتين ففعل بمعنى مفعول أي منصوب كالقبض ، وقرىء بضم فسكون وهي تخفيف من الثانية .

وقال النحاس : نصب ونصب بمعنى واحد قيل معنى إلى نصب ، إلى غاية وهي التي تنصب إليها بصرك ، وقال الكلبي : إلى شيء منصوب كعلم أو راية أي كأنهم إلى علم يدعون إليه أو راية تنصب لهم يوفضون ، قال الحسن : كانوا يبتدرون إذا طلعت الشمس إلى نصبهم التي كانوا يعبدونها من دون الله لا يلوي أولهم على آخرهم .

قيل معنى يوفضون يسرعون إسراع من ضل عن الطريق إلى أعلامها ، والإيفاض الإسراع يقال أوفض إيفاضاً أي أسرع إسراعاً ، وفي القاموس : وفض يفض وفضاً بالسكون وبالتحريك عدا وأسرع كـأوفض واستوفض ، والأوفاض الفرق من الناس والأخلاط والجماعة من قبائل شتى كـأصحاب الصفة ، قال ابن عباس في الآية إلى علم يستبقون ، وقيل يسعـون وقيل ينطلقون والمعاني متقاربة.

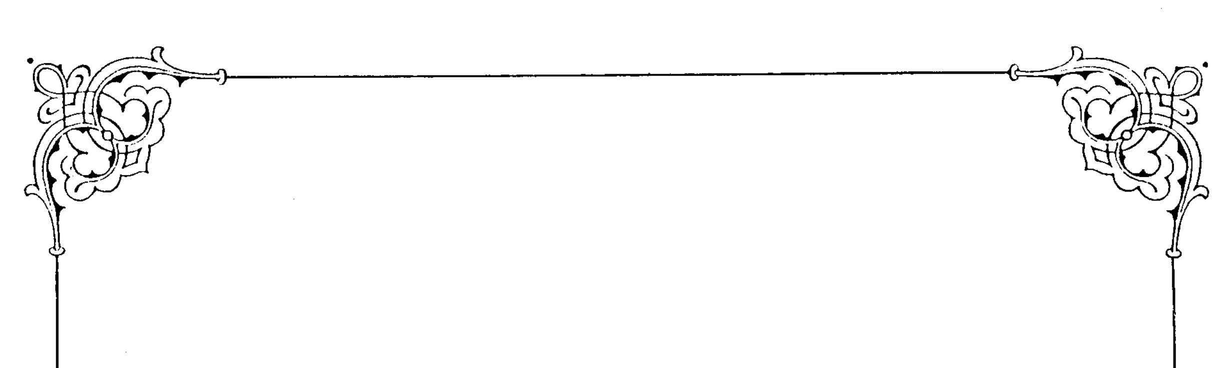
وانتصاب ﴿ خاشعة ﴾ على الحال من ضمير يرفضون وهو الأقرب أو من فاعل يخرجون وفيه بعد ، والخشوع الذلة والخضوع و﴿ أبصارهم ﴾ مرتفعة به والمعنى لا يرفعونها لما يتوقعونه من العذاب .

﴿ ترهقهم ذلة ﴾ أي تغشاهم ذلة شديدة ضد ما كانوا عليه في الدنيا

لأن من تعزز فيها عن الحق ذل في الآخرة ومن ذل للحق في الدنيا عز في الآخرة ، قال قتادة هي سواد الوجوه ومنه غلام مراهق إذا غشيه الاحتلام ، يقال رهقه بالكسر يرهقه رهقاً غشيه ، ومثل هذا قوله ﴿ ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ﴾ والجملة مستأنفة أو حال من قال يوفضون أو يخرجون .

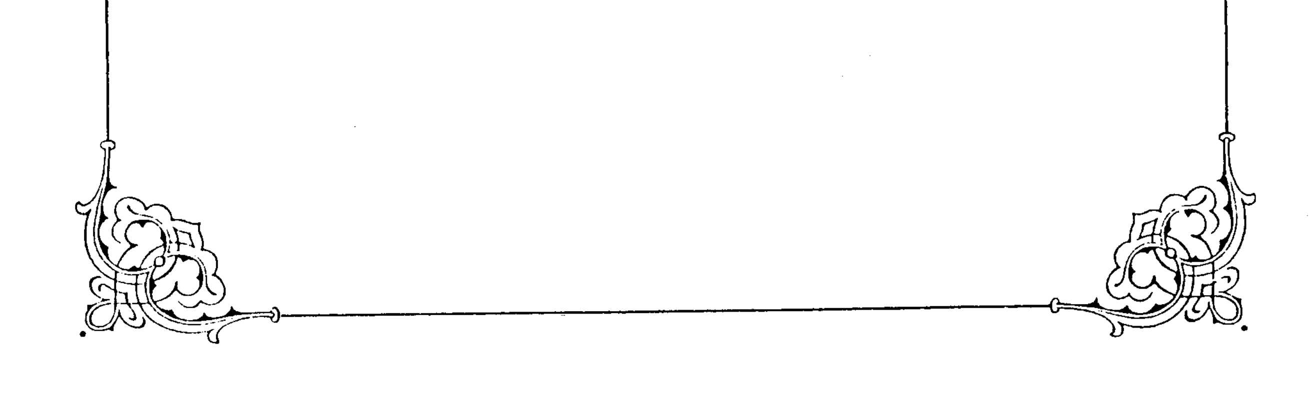
﴿ ذلك ﴾ الذي تقدم ذكره ﴿ اليوم الذي كانوا يوعدون ﴾ أي يوعدونه في الدنيا على ألسنة الرسل قد حاق وحضر ووقع بهم من عذابه ما وعدهم الله به وإن كان مستقبلاً فهو في حكم الذي قد وقع لتحقق وقوعه ، قال الخطيب وهذا هو العذاب الذي سألوا عنه أول السورة فقد رجع آخرها على أولها .





سورة نوح

﴿هي تسع أو ثمان وعشرون آية وهي مكية عن الزبير قال نزلت بمكة﴾



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾

﴿ إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾ وكانوا جميع أهل الأرض من الآدميين أهل عصره ، ولذلك لما كفروا أغرق الله أهل الأرض جميعاً ، وقد تقدم أن نوحاً أول رسول أرسله الله بالنهي عن عبادة غير الله ، لأن عبادة غيره إنما حدثت في زمن نوح ، وإلا فمن المعلوم إن قبله رسلاً آدم وشيث وإدريس.

وهو نوح بن لامك بن متوشلخ بن اخنوخ بن قينان بن شيث بن آدم ، وكان أطول الأنبياء عمراً بل أطول الناس وهو أول من شرعت له الشرائع ، وأول رسول أنذر من الشرك وقد تقدم مدة لبثه في قومه وبيان جميع عمره وبيان السن التي أرسل هو فيها في سورة العنكبوت ، قيل النوح معناه بالسريانية الساكن .

﴿ أن أنذر قومك ﴾ أي بأن أنذر على أنها مصدرية أو هي المفسرة لأن في الإرسال معنى القول ، وقرأ ابن مسعود أنذر بدون أن أي فقلنا له أنذر ﴿ من قبل أن يأتيهم عذاب أليم ﴾ أي شديد الألم وهو عذاب النار على ما هم عليه من الأعمال الخبيثة ، وقال الكلبي هو ما نزل بهم من الطوفان .

﴿ قال يا قوم ﴾ أضافهم إلى نفسه إظهاراً للشفقة ، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً على تقدير سؤال ﴿ إني لكم نذير ﴾ من عقاب الله ومخوف لكم

﴿ مبين ﴾ أي بين الإنذار ، أو مبين لما فيه نجاتكم بلغة تعرفونها أو أمري بين في نفسه بحيث صار في شدة وضوحه كأنه مظهر لما يتضمنه مناد بذلك للقريب والبعيد والفطن والغبي .

﴿ أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ﴾ «أن » هي التفسيرية لنذير أو هي المصدرية كأختها السابقة أي بأن اعبدوا الله ولا تشركوا به غيره ، واجتنبوا ما يوقعكم في عذابه ، وأطيعوني فيما آمركم به فإني رسول إليكم من عند الله ، وإنما أضاف الإطاعة الى نفسه لأن الطاعة قد تكون لغير الله بخلاف العبادة .

﴿ يغفر لكم من ذنوبكم ﴾ هذا جواب الأوامر الثلاثة ، « ومن » للتبعيض أي بعض ذنوبكم وهو ما سلف منها قبل طاعة الرسول وإجابة دعوته ، وقيل المراد بالبعض ما لا يتعلق بحقوق العباد ، فإنها لا تغفر بالإسلام ، وهذا كلام ظاهري إذ الحق أنها تغفر من حيث المؤاخذة الأخروية بمعنى أنهم لا يعاقبون عليها في الآخرة ، وإن كانت من حيث المؤاخذة عليها في الدنيا لا تغفر ، فيطالب الكافر إذا أسلم بالحدود كحد القذف وبالمال الذي ظلم به في الكفر تأمل .

وقيل هي لبيان الجنس ، وقيل زائدة قاله السدي فإن الإسلام يغفر ما قبله ، وهذا على رأي الأخفش الذي لا يشترط في زيادتها تقدم نفي ولا تنكير المجرور بها ، والأولى هو الوجه الأول وقيل يغفر لكم من ذنوبكم ما استغفرتموه منها .

﴿ ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾ أي يؤخر موتكم إلى الأمد الأقصى المعلوم المعين الذي قدره الله لكم لا يزيد ولا ينقص بشرط الإيمان والطاعة فوق ما قدره لكم على تقدير بقائكم على الكفر والعصيان ، وقيل التأخير بمعنى البركة في أعمارهم إن آمنوا ، وعدم البركة فيها إن لم يؤمنوا ، قال مقاتل : يؤخركم إلى منتهى آجالكم ، وقال الزجاج : أي يؤخركم عن العذاب فتموتوا غير ميتة المستأصلين بالعذاب ، فالمؤخر إنما هو العذاب فلا يخالف

هذا قوله ﴿ إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ﴾ لأن المنفي تأخيره فيه هو الأجل نفسه ، فلا تخالف بين هذين المحلين ، وقال الفراء : المعنى لا يميتكم غرقاً ولا حرقاً ولا قتلاً .

﴿ إن أجل الله ﴾ أي ما قدره لكم على تقدير بقائكم على الكفر من العذاب ﴿ إذا جاء ﴾ وأنتم باقون على الكفر ﴿ لا يؤخر ﴾ بل يقع لا محالة فبادروا الى الإيمان والطاعة ، وقيل المعنى إن أجل الله وهو الموت إذا جاء لا يمكنكم الإيمان .

وقيل المعنى إذا جاء الموت لا يؤخر سواء كان بعذاب أو بغير عذاب ، وإضافة الأجل اليه سبحانه لأنه هو الذي أثبته ، وقد يضاف إلى القوم كقوله ﴿ إذا جاء أجلهم ﴾ لأنه مضروب لهم ﴿ لو كنتم تعلمون ﴾ شيئاً من العلم لسارعتم الى ما أمرتكم به ولعلمتم أن أجل الله إذا جاء لا يؤخر .

هذا : وقد سئل الشوكاني رحمه الله تعالى عما ورد في الآيات الكريمات الدالة على أن العمر لا يزيد ولا ينقص ، والأحاديث الدالة على أن صلة الرحم تزيد في العمر ، فأجاب بما لفظه :

قد طال الكلام في هذا البحث ، وقد وقفت قبل الآن بنحو ثمان سنين على مؤلف بسيط لبعض الحنابلة في خصوص هذه المسألة ، وقد غاب عني اسم الكتاب واسم صاحبه ، والأحاديث القاضية بأن صلة الرحم تزيد في العمر أحاديث صحيحة كثيرة منها ما أخرجه البخاري والترمذي من حديث أبي هريرة مرفوعاً بلفظ « من سره أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه »[1] .

وعند الترمذي « تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم فإن صلة الرحم محبة في الأهل مثراة في المال منسأة في الأثر » ، والأثر الأجل وإنساؤه تأخيره .

---

(١) الحاكم / ٤ / ١٦٠

وأخرج أحمد في مسنده والبيهقي في شعب الإيمان ورمز السيوطي في الجامع لصحته من حديث عائشة مرفوعاً [صلة الرحم وحسن الخلق وحسن الجوار يعمرن الديار ويزدن في الأعمار][1] .

وأخرج القضاعي من حديث ابن مسعود مرفوعاً « صلة الرحم تزيد في العمر وصدقة السر تطفىء غضب الرب »[2] .

وأخرج الطبراني في الأوسط من حديث عمرو بن سهيل مرفوعاً « صلة الرحم مثراة في المال محبة في الأهل منسأة في الأجل »[3] .

إذا تقرر هذا فالعمر محدود ومعلوم لا يتقدم ولا يتأخر إلا إذا وصل الرجل رحمه مد الله في عمره وزاده ، وهكذا حكم سائر الأمور التي وردت الأدلة بأنها تزيد في العمر أو تنقص منه لأنها خاصة ، والخاص مقدم على العام ، والمقام يحتمل البسط ، وفي هذا كفاية والله أعلم .

﴿ قال رب ﴾ أي قال نوح مناجياً لربه وحاكياً له ما جرى بينه وبين قومه وهو أعلم به منه ﴿ إني دعوت قومي ﴾ إلى ما أمرتني بأن أدعوهم إليه من الإيمان ﴿ ليلاً ونهاراً ﴾ أي دعاء دائماً دائباً بلا فتور في الليل والنهار من غير تقصير .

﴿ فلم يزدهم دعائي ﴾ شيئاً من أحوالهم التي كانوا عليها ﴿ إلا فراراً ﴾ إعراضاً عما دعوتهم إليه ، وبعداً عنه ، قال مقاتل يعني تباعداً من الإيمان ﴿ كأنهم حمر مستنفرة ﴾ وإسناد الزيادة إلى الدعاء لكونه سببها كما في قوله ﴿ زادتهم إيماناً ﴾ قرأ الجمهور دعائي بفتح الياء ، وقرىء بإسكانها والاستثناء مفرغ .

---

(١) صحيح الجامع / ٣٦٦١

(٢) صحيح الجامع / ٣٦٦٠

(٣) صحيح الجامع / ٣٦٦٢

وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾

﴿ وإني كلما ﴾ دعوتهم الى سبب المغفرة وهو الايمان بك والطاعة لك ﴿ لتغفر لهم ﴾ أي لأجل مغفرتك لهم ، أو اللام للتعدية ويكون قد عبر عن السبب بالمسبب ، والأصل دعوتهم للتوبة التي هي سبب في الغفران ، فأطلق الغفران وأريد به التوبة ﴿ جعلوا أصابعهم في آذانهم ﴾ لئلا يسمعوا صوتي ، وقال ابن عباس لئلا يسمعوا ما يقول .

﴿ واستغشوا ثيابهم ﴾ أي غطوا بها وجوههم لئلا يروني ، وقيل جعلوا ثيابهم على رؤوسهم لئلا يسمعوا كلامي ، فيكون استغشاء الثياب على هذا زيادة في سد الأذان ، وقيل هو كناية عن العدواة ، يقال لبس فلان ثياب العدواة ، وقيل استغشوا ثيابهم لئلا يعرفهم فيدعوهم ، وقال ابن عباس : ليتنكروا فلا يعرفهم ، وعنه قال : غطوا وجوههم لئلا يروا نوحاً ولا يسمعوا كلامه ، وقد أفادت هذه الآية بالتصريح أنهم عصوا نوحاً وخالفوه مخالفة لا أقبح منها ظاهراً بتعطيل الأسماع والأبصار ، وباطناً بالإصرار والاستكبار كما قال تعالى ﴿ وأصروا ﴾ أي استمروا على الكفر ولم يقلعوا عنه ولا تابوا عنه ﴿ واستكبروا ﴾ عن قبول الحق وعن امتثال ما أمرهم به ﴿ استكباراً ﴾ شديداً وذكر المصدر دليل على فرط استكبارهم قال ابن عباس : تركوا التوبة .

﴿ ثم إني دعوتهم جهاراً ﴾ أي مظهراً لهم الدعوة مجاهراً لهم بها ، وانتصاب ﴿جهاراً﴾ على المصدرية لأن الدعاء يكون جهاراً ويكون غير جهار ،

فالجهار نوع من الدعاء كقولهم قعد القرفصاء ، ويجوز أن يكون نعت مصدر محذوف أي دعاء جهاراً ، وأن يكون مصدراً في موضع الحال أي مجاهراً أو ذا جهار ، أو جعل نفس المصدر مبالغة ، ومعنى « ثم » الدلالة على تباعد الأحوال لأن الجهار أغلظ من السر ، والجمع بين الأمرين أغلظ من أحدهما ، قرأ الجمهور ﴿ إني ﴾ بسكون الياء وقرىء بفتحها .

﴿ ثم إني أعلنت لهم ﴾ أي دعوتهم معلناً لهم بالدعاء ﴿ وأسررت لهم ﴾ الدعوة ﴿ إسراراً ﴾ كثيراً قيل المعنى أنه يدعو الرجل بعد الرجل يكلمه سراً فيما بينه وبينه ، والمقصود أنه دعاهم على وجوه متخالفة وأساليب متفاوتة ، فلم ينجح ذلك فيهم ، وهكذا يفعل الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر يبتدىء بالأهون ثم بالأشد فالأشد ، قال مجاهد معنى أعلنت صحت ، وقيل معنى أسررت أتيتهم في منازلهم فدعوتهم فيها .

﴿ فقلت استغفروا ربكم ﴾ أي سلوه المغفرة من ذنوبكم السالفة أعيانها وآثارها بإخلاص النية ﴿ إنه كان غفاراً ﴾ أي كثير المغفرة للمذنبين ، وقيل لمعنى توبوا عن الكفر إنه كان غفاراً للتائبين .

﴿ يرسل السماء عليكم مدراراً ﴾ أي يرسل ماء السماء عليكم ، ففيه إضمار وقيل المراد بالسماء المطر ، والمدرار الدرور ، وهو التحلب بالمطر ، وانتصابه إما على الحال من السماء ولم يؤنث لأن مفعالا لا يؤنث بل يستوي فيه المذكر والمؤنث ، تقول امرأة مئناث ومذكار أو على أنه نعت لمصدر محذوف أي إرسالاً مدراراً ، وقد تقدم الكلام عليه في سورة الأنعام ، وجزم يرسل لكونه جواب الأمر ، وفي هذه الآية دليل « على أن الاستغفار من أعظم أسباب المطر ، وحصول أنواع الأرزاق ومن لازم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً »[1] .

---

(١) قال ابن كثير : أي : اذا تبتم الى الله واستغفرتموه وأطعتموه ، كثر الرزق عليكم ، وأسقاكم من بركات السماء ، وأنبت لكم من بركات الأرض ، وأنبت لكم الزرع ، وأدرّ لكم الضرع ، وأمدّكم

ولهذا قال : ﴿ ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ﴾ أي بساتين الدنيا ليكون مما وعدوا به عاجلاً ﴿ ويجعل لكم أنهاراً ﴾ جارية ، قال عطاء المعنى يكثر أموالكم وأولادكم وكانوا يحبونهما فحركوا بهذا على الايمان وأعلمهم نوح عليه السلام أن إيمانهم بالله يجمع لهم مع الحظ الوافر في الآخرة الخصب والغنى في الدنيا ، وأعاد فعل الجعل ولم يقل وأنهاراً لتغايرهما فإن الأول مما لفعلهم فيه مدخل بخلاف الثاني .

وعن الحسن : أن رجلاً شكا اليه الجدب فقال استغفر الله وشكا اليه آخر الفقر وآخر قلة النسل وآخر قلة ريع أرضه ، فأمرهم كلهم بالاستغفار ، فقال له الربيع ابن صبيح : أتاك رجال يشكون أبواباً ويسألونك أنواعاً فأمرتهم كلهم بالاستغفار ، فتلا هذه الآية ولله دره ما أفقهه ، قال القشيري من وقعت له حاجة الى الله لم يصل الى مراده إلا بتقديم الاستغفار ، وقال الشهاب وليس المراد بالاستغفار مجرد قول استغفر الله بل الرجوع عن الذنوب وتطهير الألسنة والقلوب .

﴿ ما لكم لا ترجون لله وقاراً ﴾ أي أيّ عذر لكم في ترك الرجاء ، والرجاء هنا الخوف أي ما لكم لا تخافون الله والوقار العظمة من التوقير ، وهو التعظيم ، والمعنى لا تخافون حق عظمته فتوحدونه وتطيعونه ، وقيل المعنى ما لكم لا تؤملون من الله توقيرا لكم بأن تؤمنوا به فتصيروا موقرين عنده ، وهذا المعنى هو ما سلكه البيضاوي أولاً ، وقال أبو السعود : إنكار لأن يكون لهم سبب ما في عدم رجائهم لله تعالى وقاراً على أن الرجاء بمعنى الاعتقاد انتهى .

وهذا حث على رجاء الوقار لله ، والمراد الحث على الايمان والطاعة

= بأموال وبنين ، أي : أعطاكم الأموال والأولاد ، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار ، وخلّلها بالأنهار الجارية بينها . ثم قال : هذا مقام الدعوة بالترغيب ، ثم عدل بهم الى دعوتهم بالترهيب فقال : (ما لكم لا ترجون لله وقاراً ؟) .

الموجبين لرجاء ثواب الله ، فهو من الكناية التلويحية لأن من أراد رجـاء تعظيم الله ، وتوقيره إياه آمن به وعبده وعمل صالحاً ومن عمل الصالحات رجا ثـواب الله وتعـظيمه إيـاه في دار الثواب ، فـإن الحث على تحصيل الـرجـاء مسبـوق بالحث على تحصيل الإيمان . فهو من باب مقدمة الواجب .

قال الكرخي : أي أنكم إذا وقرتم نوحاً وتركتمْ استخفافه كان ذلك لأجل الله ، فما لكم لا ترجون لله وقاراً ، وقال سعيد بن جبير وأبو العـالية وعـطاء بن أبي رباح : ما لكم لا ترجون لله ثـواباً ولا تخـافون منـه عقابـاً ، وقال مجـاهد والضحـاك : ما لكم لا تبـالون لله عـظمة ، قـال قطرب : هـذه لغـة حجـازيـة وهذيل وخزاعة ومضر يقولون لم أرج لم أبل ، وقال قتادة ما لكم لا ترجـون لله عاقبة الإيمـان ، وقال ابن كيسـان ما لكم لا تـرجون في عبـادة الله وطاعتـه أن يثيبكم على توقيركم خيراً ، وقال ابن زيد : ما لكم لا تؤدون لله طاعة ، وقـال الحسن : ما لكم لا تعرفون لله حقاً ولا تشكرون له نعمة ، وقال ابن عبـاس : لا تعلمون لله عظمة ، وعنه قال : لا تخافون لله عظمة ولا تخشون له عقابـاً ، ولا ترجون له ثواباً ، وعن علي بن أبي طالب أن النبي صلى الله عليـه وسلم : « رأى ناساً يغتسلون عراة ليس عليهم أزر فوقف فنادى بأعلى صوته مـا لكم لا ترجون لله وقاراً » أخرجه عبد الرزاق في المصنف .

﴿ وقد خلقكم أطواراً ﴾ أي والحـال أنه سبحـانه قـد خلقكم على أطوار مختلفة وأحوال منافية لما أنتم عليه بالكلية ، فخلقكم تارة عناصر ثم أغذية ثم اخلاطاً ثم نطفاً ثم مضغـاً ثم علقاً ثم عـظاماً ولحـوماً ثم أنشـأكم خلقاً آخـر ، والـطور في اللغة المـرة ، وقال ابن الأنبـاري : الطور الحـال والهيئـة وجمعـه أطوار ، وقيل أطواراً صبياناً ثم شبانـاً ثم شيوخـاً ، وقيل الأطـوار اختلافهم في الأفعال والأقوال والأخلاق ، والمعنى كيف تقصرون في توقير من خلقكم على هذه الأطوار البديعة تارات وكرات ، فهذا مما لا يكاد يصدر عن العاقل .

أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾

ثم لما نبههم سبحانه وتعالى أولاً على النظر في أنفسهم لأنها أقرب ، نبههم ثانياً على النظر في العالم وما سوى فيه من العجائب الدالة على الصانع الحكيم فقال ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سمٰوات طباقاً ﴾ الخطاب لمن يصلح له ، والمراد الاستدلال بخلق السمٰوات على كمال قدرته وبديع صنعه ، وأنه الحقيق بالعبادة ، والطباق المتطابقة بعضها فوق بعض كل سماء مطبقة على الأخرى كالقباب من غير مماسة ، قال الحسن خلق الله سبع سموات على سبع أرضين بين كل سماء وسماء وأرض وأرض خلق وأمر .

وقد تقدم تحقيق هذا في قوله ﴿ ومن الأرض مثلهن ﴾ وانتصاب طباقاً على المصدرية تقول طابقه طباقاً ومطابقة أو حال بمعنى ذات طباق فحذف ذات وأقام طباقاً مقامه ، وأجاز الفراء في غير القرآن جر طباق على النعت .

﴿ وجعل القمر فيهن نوراً ﴾ أي منوراً لوجه الأرض وجعل القمر في السموات مع كونه في سماء الدنيا لأنه إذا كان في إحداهن فهو فيهن كذا قال ابن كيسان وأبو السعود ، قال الأخفش : كما تقول أتاني بنو تميم والمراد بعضهم أو لأن كل واحدة منها شفافة لا تحجب ما وراءها فيرى الكل كأنه سماء واحدة ، ومن ضرورة ذلك أن يكون ما في كل واحدة منها كأنه في الكل ، وقال قطرب « فيهن » بمعنى معهن أي خلق الشمس والقمر مع خلق السموات والأرض ، قال ابن عباس : وجهه في السماء الى العرش وقفاه الى

الأرض وعنه قال خلق فيهن حين خلقهن ضيـاء لأهل الأرض وليس من ضـوئه في السماء شيء .

﴿ وجعـل الشمس ﴾ فيهن ﴿ سراجـاً ﴾ أي كـالمصبـاح لأهـل الأرض ليتوصلوا بذلك الى التصرف فيما يحتاجون اليه من المعاش ، عن ابن عمرو : قال الشمس والقمر وجوههما قبل السماء وأقفيتهما قبل الأرض، وأنا أقرأ بذلك عليكم آية من كتاب الله يعني هذه الآية ، وعن ابن عمـر قال في الآيـة تضيء لأهل السموات كما تضيء لأهل الأرض ، وعن شهر بن حوشب قـال : اجتمع عبد الله بن العاص وكعب الأحبـار ، وكان بينهمـا بعض العتب فتعاتبـا فذهب ذلك فقال ابن عمرو لكعب سلني عما شئت فلا تسألني عن شيء إلا أخبـرتك بتصـديق قـولي من القـرآن ، فقـال لـه أرأيت ضـوء الشمس والقمـر أهـو في السموات السبع كما هو في الأرض ؟ قال نعم ألم تر الى قول الله ، يعني هذه الآيـة ، قال النسفي : وأجمعـوا على أن الشمس في السماء الـرابعة وضـوءها أقـوى من نور القمـر ، وقيل في الخـامسـة وقيـل في الشتـاء في الـرابعـة وفي الصيف في السابعة[1] .

﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتاً ﴾ يعني آدم خلقـه الله من أديم الأرض ،

---

(١) قال ابن جرير الطبري : وقولـه : ﴿وجعل القمـر فيهن نوراً﴾ يقـول : وجعل القمـر في السموات السبع نوراً ، وجعل الشمس فيهن سراجاً ،وقال ابن كثير : المقصود أن الله سبحانه وتعالى : خلق سبـع سمٰوات طبـاقاً ، وجعـل القمر فيهن نـوراً وجعل الشمس سـراجـاً ، أي : فـاوت بينهمـا في الاستنارة ، فجعل كلاً منهما أنموذجاً على حدة ليعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها ، وقدَّر للقمر منازل وبروجاً ، وفاوت نوره ، فتـارة يزداد حتى يتنـاهى ، ثم يشرع في النقص حتى يستتـر ليدل على مضي الشهور والأعوام ، كما قال تعالى ﴿هـو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدَّره منازل لتعلمُوا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ . وقال الآلوسي : ﴿وجعـل القمر فيهن نـوراً﴾ منوِّراً لوجه الأرض في ظلمة الليل ، وجعله فيهن مع أنه في إحداهن وهي السماء الدنيا ، كما يقال : زيد في بغداد وهو في بقعة منها ، والمرجع له الإيجاز والملابسة بالكلية والجزئية وكونها طباقاً شفافة .

والمعنى أنشأكم منها إنشاء ، فاستعير الإنبات للإنشاء لكونه أدل على الحدوث والتكوين من الأرض ، ونباتاً إما مصدر لأنبت على حذف الزوائد ويسمى اسم مصدر ، ويجوز أن يكون مصدراً لنبتم مقدراً أي أنبتكم فنبتم نباتاً فيكون منصوباً بالمطاوع المقدر . وقال الخليل والزجاج : هو مصدر محمول على المعنى لأن معنى أنبتكم جعلكم تنبتون نباتاً ، وقيل المعنى والله أنبت لكم من الأرض النبات ، فنباتاً على هذا مفعول به ، قال ابن بحر : أنبتهم في الأرض بالكبر بعد الصغر وبالطول بعد القصر

﴿ ثم يعيدكم ﴾ في الأرض بعد الموت مقبورين ﴿ فيها ويخرجكم ﴾ منها بالبعث يوم القيامة ﴿ إخراجاً ﴾ حقاً لا محالة .

﴿ والله جعل لكم الأرض بساطاً ﴾ أي فرشها وبسطها لكم تتقلبون عليها تقلبكم على بسطكم في بيوتكم ، ولم يجعلها مسنمة ﴿ لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً ﴾ أي طرقاً واسعة ، وقال ابن عباس طرقاً مختلفة ، والفجاج جمع فج وهو الطريق الواسع ، كذا قال الفراء وغيره ، وقيل هو المسلك بين الجبلين ، وقد مضى تحقيق هذا في سورة الأنبياء وفي سورة الحج مستوفى ، وفي الأنبياء تقديم الفجاج فقال فجاجاً سبلاً لتناسب الفواصل هنا .

﴿ قال نوح ﴾ بعد يأسه من إيمانهم ﴿ رب إنهم عصوني ﴾ أي كلهم استمروا على عصياني ولم يجيبوا دعوتي ، شكاهم الى الله عز وجل وأخبره بأنهم عصوه ولم يتبعوه وهو أعلم بذلك ﴿ واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً ﴾ أي أتبع الأصاغر رؤساءهم وأهل الثروة منهم الذين لم تزدهم كثرة المال والولد الا ضلالاً وطغياناً وكفراً في الدنيا ، وعقوبة في الآخرة ، واستمروا على اتباعهم لا أنهم أحدثوا الاتباع ، قرىء ولده بفتح الواو واللام ، وبضم الواو وسكون اللام ، هما سبعيتان وبفتح الأول وسكون الثاني ، وهي لغة في الولد ، ويجوز أن يكون جمعاً وقد تقدم تحقيقه .

وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ﴿٢٣﴾ وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا ﴿٢٨﴾

﴿ ومكروا ﴾ أي الرؤساء ﴿ مكراً كباراً ﴾ قرأ الجمهور بالتشديد أي كبيراً عظيماً جداً ، يقال كبير وكبار وكبار مثل عجيب وعجاب وعجاب ، وحميل وحمال وحمال ، قال المبرد : كباراً بالتشديد للمبالغة ومثل كبار قراء لكثير القراءة ، وقرىء بالضم والتخفيف وهو بناء مبالغة أيضاً دون الأول ، وقرىء بكسر الكاف وتخفيف الباء ، قال أبو بكر : هو جمع كبير كأنه جعل مكراً مكان ذنوب أو أفاعيل فلذلك وصفه بالجمع ، وقال عيسى بن عمر هي لغة يمانية ، قيل جمع الضمير حملاً على معنى من بعد حمله على لفظها في قوله ﴿ من لم يزده ماله وولده ﴾ قاله السمين .

واختلف في مكرهم هذا ما هو فقيل هو تحريشهم سفلتهم على قتل نوح وأذاه وصد الناس عن الإيمان به والميل اليه ، والاستماع منه ، وقيل هو تغريرهم على الناس بما أوتوا من المال والولد حتى قلل الضعفة لولا أنهم على الحق لما أوتوا هذه النعم ، وقال الكلبي : هو ما جعلوه لله من الصاحبة والولد ، وقال مقاتل : هو قول كبرائهم لأتباعهم ﴿ لا تذرن آلهتكم ﴾ وقيل مكرهم كفرهم وقيل : افتروا على الله الكذب وكذبوا رسله .

﴿ وقالوا لا تذرن آلهتكم ﴾ أي لا تتركوا عبادة آلهتكم وهي الأصنام

والصور التي كانت لهم ثم عبدتها العرب من بعدهم ، وبهذا قال الجمهور ﴿ ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً ﴾ أي لا تتركوا عبادة هذه الأوثان .

قال محمد بن كعب : هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح ، فنشأ بعدهم قوم يقتدون بهم في العبادة . فقال لهم إبليس لو صورتم صورهم كان أنشط لكم وأشوق إلى العبادة ففعلوا ، ثم نشأ قوم من بعدهم فقال لهم إبليس إن الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم فاعبدوهم ، فابتداء عبادة الأوثان كان من ذلك الوقت ، وسميت هذه الصور بهذه الأسماء لأنهم صوروها على صور أولئك القوم .

وقال عروة بن الزبير وغيره إن هذه كانت أسماء أولاد آدم وكان ود أكبرهم ، وكانوا عباداً فمات رجل منهم فحزنوا عليه ، فقال الشيطان أنا أصور لكم مثله إذا نظرتم اليه ذكرتموه ، قالوا افعل فصوره في المسجد من صفر ورصاص ، ثم مات آخر فصوره حتى ماتوا كلهم وصورهم ، فلما تقدم الزمان تركت الناس عبادة الله فقال لهم الشيطان ما لكم لا تعبدون شيئاً قالوا وما نعبد ، قال آلهتكم وآلهة آبائكم ، ألا ترون أنها في مصلاكم فعبدوها من دون الله حتى بعث الله نوحاً عليه السلام فقالوا ﴿ لا تذرن آلهتكم ﴾ الآية .

قال الماوردي : فأما ود فهو أول صنم معبود سمي وداً لودهم له وكان بعد قوم نوح لكلب بدومة الجندل ، في قول ابن عباس وعطاء ومقاتل ، وفيه يقول شاعرهم :

حياك ود فإنا لا يحل لنا ... لهو النساء وإن الدين قد غربا

وأما سواع فكان لهذيل بساحل البحر ، وأما يغوث فكان لغطيف من مراد بالجرف من سبأ في قول قتادة ، وقال المهدوي : لمراد ثم لغطفان ، وأما يعوق فكان لهمدان في قول قتادة وعكرمة وعطاء ، وقال الثعلبي : كان لكهلان بن سبأ ثم توارثوه حتى صار في همدان وفيه يقول مالك بن نمط الهمداني .

يريش الله في الدنيـا ويبري ولا يبـري يعوق ولا يـريش

وأما نسر فكان بذي الكـلاع من حمير في قـول قتادة ومقـاتل ، قـال ابن عباس هذه الأصنام كانت تعبد في زمن نوح ، قال الواقدي كان ود على صورة رجـل ، وسواع على صـورة امرأة ، ويغـوث على صـورة أسـد ، ويعـوق على صورة فرس ، ونسر على صورة النسر الطائر .

قال البقاعي : ولا يعارض هذا أنهم صور لناس صالحين لأن تصويـرهم لهم يمكن أن يكون منتزعاً من معانيهم ، فكان ود كاملاً في الرجولية ، وكان سواع امرأة كاملة في العبادة ، وكان يغوث شجاعاً وكان يعوق سابقاً قوياً وكان نسر عظيماً طويل العمر ، ومثله في القرطبي .

وأخرج البخاري وابن المنذر ، وابن مردويـه عن ابن عباس قـال : « صارت الأوثان التي كانت تعبد في قوم نوح في العرب . أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع فكانت لهذيل وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف ، وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع ، أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن أنصبوا إلى مجلسهم الذي كانـوا يجلسون فيـه أنصابـاً وسموهـا بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى هلك أولئك ونسخ العلم فعبدت » .

وفي الصحيحين من حديث عائشة أن أم حبيبة وأم سلمة « ذكرتا لرسول الله صلى الله عليه وسلم كنيسة رأيتاها بأرض الحبشة تسمى مارية فيها تصاوير فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أولئك كان إذا مات الرجل الصالح منهم بنوا على قبره مسجداً ثم صوروا فيه تلك الصور ، أولئك شر الخلق عند الله يوم القيامة » قرأ الجمهور وداً بفتح الواو ، وقرىء بضمها ، قال الليث : ود بضم الواو صنم لقريش ، وبفتحها صنم كان لقوم نوح وبه سمي عمرو بن ود قال في الصحاح : والود بالفتح الوتد في لغة أهل نجد كأنهم سكنوا التاء وأدغموها في الدال ، وقرأ الجمهور يغوث ويعوق بغير تنوين ، فإن كانا عربيين فالمنع من الصرف للعلمية ووزن الفعل ، وإن كانـا أعجميين

فللعجمة والعلمية ، وقرىء يغوثاً ويعوقاً بالنصب مصروفين لأمرين (أحدهما) أنه صرفهما للتناسب إذ قبلهما اسمان منصرفان وبعدهما اسم منصـرف كما صرف سلاسل (والثاني) أنه جاء على لغة من يصرف غير المنصرف مطلقاً ، وهي لغة حكاها الكسائي ذكره السمين . وقال ابن عطية وذلك وهم ، ووجه تخصيص هذه الأصنام بالذكر مع دخولها تحت الآلهة أنها كانت أكبر أصنامهم وأعظمها ، ولم يذكر النفي مع يعوق ونسرا لكثرة التكرار وعدم اللبس .

﴿ وقد أضلوا كثيراً ﴾ أي وقال نوح قد أضل كبراؤهم ورؤساؤهم كثيراً من الناس ، وقيل الضمير راجع إلى الأصنام أي ضل بسببها كثير من الناس كقول إبراهيم ﴿ رب إنهن أضللن كثيراً من الناس ﴾ وأجرى عليهم صيغة من يعقل لاعتقاد الكفار الذين يعبدونها أنها تعقل .

﴿ ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً ﴾ معطوف على ﴿ رب إنهم عصوني ﴾ ووضع الظاهر موضع المضمر تسجيلاً عليهم بالظلم ، وقال أبو حيان : إنه معطوف على قد أضلوا ومعنى ﴿ إلا ضلالاً ﴾ إلا عذاباً كذا قال ابن بحر واستدل على ذلك بقوله ﴿ إن المجرمين في ضلال وسعر ﴾ وقيل إلا خسراناً ، وقيل إلا فتنة بالمال والولد ، وقيل الضياع وقيل ضلالاً في مكرهم ، وهذا دعاء عليهم من نوح بعد أن أعلمه الله أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن .

﴿ مما ﴾ ما مزيدة للتأكيد والمعنى من ﴿ خطيئاتهم ﴾ قرأ الجمهور على جمع السلامة وهي سبعية وقرىء خطاياهم على جمع التكسير وخطيئتهم على الإفراد والمعنى من أجلها وبسببها ﴿ أغرقوا ﴾ بالطوفان قرأ الجمهور من أغرق وقرىء غرقوا بالتشديد .

﴿ فأدخلوا ﴾ عقب الإغراق ﴿ نـاراً ﴾ وهي نار الآخـرة ، وهذا من التعبير عن المستقبل بالماضي لتحقق وقوعه نحو ﴿ أتى أمر الله ﴾ وقيل عذاب القبر ، وعلى هذا هو على بابه كقوله في آل فرعون ﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ﴾ ﴿ فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً ﴾ أي لم يجدوا أحداً يمنعهم من عذاب الله ويدفعه عنهم .

﴿ وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ يعني لما أيس نوح عليه السلام من إيمانهم وإقلاعهم عن الكفر ، دعا عليهم بالهلاك ، قال قتادة دعا عليهم بعد أن أوحى إليه أنه ﴿ لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ فأجاب الله دعوته وأغرقهم ، وقال محمد بن كعب ومقاتل والربيع بن أنس وابن زيد وعطيه : إنما قال هذا حين أخرج الله كل مؤمن من أصلابهم وأرحام نسائهم ، وأعقم أرحام النساء وأصلاب الآباء قبل العذاب بسبعين سنة ، وقيل بأربعين ، قال قتادة : لم يكن فيهم صبي وقت العذاب وقال الحسن وأبو العالية : لو أهلك الله أطفالهم معهم كان عذاباً من الله وعدلاً فيهم ، ولكن أهلك ذريتهم وأطفالهم بغير عذاب ثم أهلكهم بالعذاب .

ومعنى ﴿ ديّاراً ﴾ من يسكن الديار ويدور في الأرض وأصله ديوار على فيعال من دار يدور فقلبت الواو ياء وأدغمت إحداهما في الأخرى مثل القيام أصله قيوام ، وقال القتيبي أصله من الدار أي نازل بالدار يقال ما بالدار ديار وديور أي أحد كقيام وقيوم ، وهو من الأسماء المستعملة في النفي العام ، وقيل الديار صاحب الديار ، والمعنى لا تدع أحداً منهم إلا أهلكته ، وقيل هو مأخوذ من الدوران وهو التحرك .

قال سليمان الجمل : انظر ما الحكمة في تأخيره عن قوله ﴿ مما خطيئاتهم أغرقوا ﴾ مع أن مقتضى الظاهر تقديمه عليه لكونه سبباً لإغراقهم ، تأمل ، ثم رأيت ، أبا السعود : قال هذا عطف على نظيره السابق وقوله ﴿ مما خطيئاتهم ﴾ اعتراض وسط بين دعائه عليه السلام للإيذان من أول الامر بأن ما أصابهم من الإغراق والإحراق لم يصبهم إلا لأجل خطاياهم التي عددها نوح ، وإشارة إلى أن استحقاقهم للإهلاك لأجلها أ هـ كلام الجمل .

﴿ إنك إن تذرهم ﴾ أي إن تركتهم على الأرض ﴿ يضلوا عبادك ﴾ عن طريق الحق ﴿ ولا يلدوا إلا فاجراً ﴾ بترك طاعتك ﴿ كفّاراً ﴾ لنعمتك أي كثير الكفران لها ، والمعنى إلا من سيفجر ويكفر ، ففي الكلام مجاز الأول لأنهم لم يفجروا وقت الولاده بل بعدها بزمان طويل ، وقال عليه السلام هذا القول

لعلمه بالتجربة من أحوالهم أن أولادهم يكونون مثلهم .

ثم لما دعا على الكافرين أتبعه بالدعاء لنفسه ووالديه وللمؤمنين فقال ﴿ رب اغفر لي ولوالدي ﴾ قرأ العامة بكسر اللام وفتح الدال على أنه تثنية والد ، يريد أبويه وكانا مؤمنين وأبوه لامك أو لمك بفتحتين أو بفتح فسكون ابن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس[1]، وأمه شمخابوزن سكرى بنت أنوش .

وقيل أراد آدم وحواء والأول أولى ، وقال سعيد بن جبير أراد بوالديه أباه وجده وقرىء ولولدي بكسر الدال على الإفراد وعلى التثنية يعني ابنيه ساماً وحاماً ، وقرىء ولوالدي بكسر الدال يعني أباه فيجوز أن يكون أراد أباه الأقرب الذي ولده ، وخصه بالذكر لأنه أشرف من الأم ، وأن يريد جميع من ولده من لدن آدم إلى من ولده » .

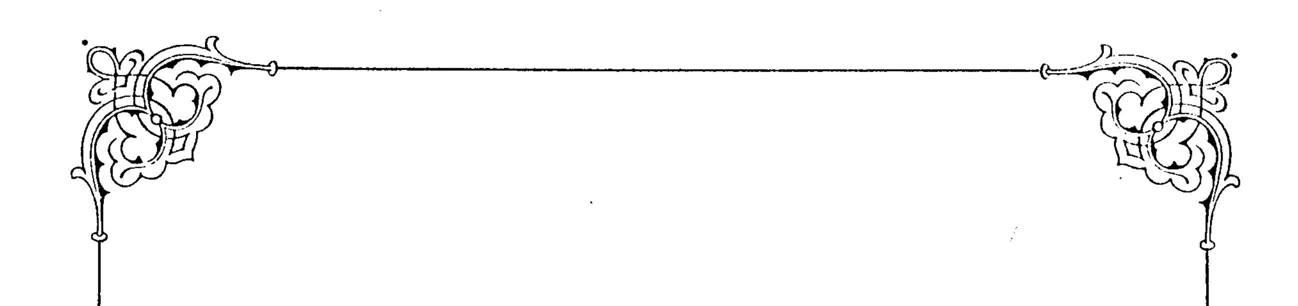
﴿ ولمن دخل بيتي ﴾ قال الضحاك والكلبي يعني مسجده وقيل منزله الذي هو ساكن فيه وقيل سفينته وقيل لمن دخل في دينه ، وانتصاب ﴿ مؤمناً ﴾ على الحال أي لمن دخل بيتي متصفاً بصفة الإيمان فيخرج من دخله غير متصف بهذه الصفة كامرأته وولده الذي قال ﴿ سآوي إلى جبل يعصمني من الماء ﴾ ثم عمم الدعوة فقال :

﴿ وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ أي واغفر لكل متصف بالايمان من الذكور والإناث ، ثم عاد إلى الدعاء على الكافرين فقال : ﴿ ولا تزد الظالمين إلا تباراً ﴾ مفعول ثان والاستثناء مفرغ أي لا تزد المتصفين بالظلم إلا هلاكاً وخسراناً ودماراً فأهلكوا وغرق معهم صبيانهم أيضاً لكن لا على وجه العقاب لهم بل لتشديد عذاب آبائهم وأمهاتهم بإراءة هلاك أطفالهم الذين كانوا أعز عليهم من أنفسهم .

وفي الحديث «يهلكون مهلكاً واحداً ويصدرون مصادر شتى » وعن الحسن أنه سئل عن ذلك فقال علم الله براءتهم فأهلكهم بغير عذاب ، وقد يشمل دعاؤه هذا كل ظالم إلى يوم القيامة كما شمل دعاؤه للمؤمنين والمؤمنات كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة .

١ ـ نرى اختلافاً في اسم نوح عليه السلام انظر ما ذكره المؤلف في أول تفسيره للسورة ولا ارى لهذا سبباً .





سورة الجن

ثمان وعشرون آية وهي مكية قال القرطبي في قول الجميع .
عن ابن عباس قال نزلت بمكة وعن عائشة وابن الزبير مثله وتسمى سورة قل أوحي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢)

﴿ قل ﴾ يا محمد للناس ﴿ أوحي إليّ ﴾ ليعرفوا بذلك وأنك مبعوث إلى الجن كالإنس ، ولتعلم قريش أن الجن مع تمردهم لما سمعوا القرآن وعرفوا إعجازه آمنوا قرأ الجمهور أوحي رباعياً وقرىء وحي ثلاثياً وهما لغتان ، والمعنى أخبرت بالوحي من الله .

﴿ أنه استمع نفر من الجن ﴾ واختلف هل رآهم النبي صلى الله عليه وسلم أم لم يرهم ، فظاهر القرآن أنه لم يرهم لأن المعنى قل يا محمد لأمتك أوحي إليّ على لسان جبريل أنه استمع نفر من الجن ، ومثله قوله ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ﴾ .

ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيح قال « ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجن وما رآهم » ، وروى ابن مسعود أنه رآهم ، ورجحه العلماء والحق صحتهما وإن الأول وقع أولا ثم نزلت السورة ، ثم أمر بالخروج إليهم ، قال عكرمة والسورة التي كان يقرؤها رسول الله صلى الله عليه وسلم هي ﴿ اقرأ باسم ربك الذين خلق ﴾ وقد تقدم في سورة الأحقاف ذكر ما يفيد زيادة في هذا .

والنفر اسم للجماعة ما بين الثلاثة إلى العشرة ، قال البغوي كانوا تسعة وقيل سبعة وقد اختلف الناس قديماً وحديثاً في ثبوت وجود الجن فأنكر

وجودهم معظم الفلاسفة ، واعترف به جمع منهم وسموهم بالارواح السفلية ، وزعموا أنهم أسرع إجابة من الأرواح الفلكية إلا أنهم أضعف .

وأما جمهور أرباب الملل وهم أتباع الرسل والشرائع فقد اعترفوا بوجودهم ، لكن اختلفوا في ماهيتهم وقد نطق الكتاب العزيز والسنة المطهرة بوجودهم فلا اعتداد بمنكريهم ، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل ، قال الضحاك : والجن ولد الجان وليسوا بشياطين ، وقال الحسن : إنهم ولد إبليس وقيل هم أجسام عاقلة خفية تغلب عليهم النارية والهوائية ، وقيل نوع من الأرواح المجردة وقيل هي النفوس البشرية المفارقة لأبدانها .

وقد اختلف أهل العلم في دخول مؤمني الجن الجنة كما تدخل عصاتهم النار لقوله في سورة تبارك ﴿ وجعلناها رجوماً للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير ﴾ وقول الجن فيما سيأتي في هذه السورة ﴿ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً ﴾ وغير ذلك من الآيات ، فقال الحسن : يدخلون الجنة وقال مجاهد : لا يدخلونها وإن صرفوا عن النار والأول أولى لقوله في سورة الرحمن .

﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴾ وفي سورة الرحمن آيات غير هذه تدل على ذلك فراجعها ، وقد قدمنا أن الحق أنه لم يرسل الله اليهم رسلاً منهم بل الرسل جميعاً من الإنس ، وإن أشعر قوله ﴿ قد أرسلنا اليكم رسلاً منكم ﴾ بخلاف هذا فهو مدفوع الظاهر بآيات كثيرة في الكتاب العزيز دالة على أن الله سبحانه لم يرسل الرسل إلا من بني آدم ، وهذه الأبحاث الكلام فيها يطول ، والمراد الإشارة بأخصر عبارة ، قال ابن مسعود في الآية : كانوا من جن نصيبين .

وقد أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وغيرهم عن ابن عباس « قال انطلق النبي صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا ما لكم، فقيل حيل بيننا وبين خبر السماء

وأرسلت علينا الشهب ، قالوا ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها لتعرفوا ما هذا الأمر الذي حال بينكم وبين خبر السماء ، فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له قالوا هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء ، فهناك رجعوا إلى قومهم فقالوا يا قومنا ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً ﴾ فأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن ﴾ وإنما أوحي إليه قول الحق .

﴿ فقالوا ﴾ لقومهم لما رجعوا إليهم ﴿ إنا سمعنا قرآناً ﴾ أي كلامامقروءاً ﴿ عجباً ﴾ في فصاحته وبلاغته وغزارة معانيه وغير ذلك ، وقيل عجباً في مواعظه ، وقيل في بركته ، وعجباً مصدر وصف به للمبالغة أو على حذف المضاف أي ذا عجب أو المصدر بمعنى اسم الفاعل أي معجباً .

﴿ يهدي إلى الرشد ﴾ أي إلى مراشد الأمور ، وهي الحق والصواب والإيمان ، وقيل إلى معرفة الله والتوحيد ، والجملة صفة أخرى للقرآن ﴿ فآمنا به ﴾ أي صدقنا بأنه من عندالله ﴿ ولن نشرك ﴾ بعد اليوم ﴿ بربنا أحداً ﴾ من خلقه ولا نتخذ معه إلهاً آخر لأنه المتفرد بالربوبية ، وفيه دليل على أن أولئك النفر كانوا مشركين قيل كانوا يهوداً وقيل كانوا نصارى وقيل مجوساً ومشركين .

وفي هذا توبيخ للكفار من بني آدم حيث آمنت الجن بسماع القرآن مرة واحدة وانتفعوا بسماع آيات يسيرة منه ، وأدركوا بعقولهم أنه كلام الله وآمنوا به ، ولم ينتفع كفار الإنس لاسيما رؤساؤهم وعظماؤهم بسماعه مراراً متعددة ، وتلاوته عليهم في أوقات مختلفة ، مع كون الرسول منهم يتلوه عليهم بلسانهم ، لا جرم صرعهم الله أذل مصرع وقتلهم أقبح مقتل ولعذاب الآخرة أشد لو كانوا يعلمون .

وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾

﴿ وأنه تعالى جد ربنا ﴾ قرىء بفتح أن وكذا فيما بعدها وذلك أحد عشر موضعاً إلى قوله ﴿ وأنه لما قام عبدالله ﴾ وقرىء بالكسر في هذه المواضع كلها إلا في قوله ﴿ وأن المساجد الله ﴾ فإنهم اتفقوا على الفتح ، أما من قرأ بالفتح في هذه المواضع فعلى العطف على محل الجار والمجرور في ﴿ فآمنا به ﴾ كأنه قيل فصدقناه وصدقنا أنه تعالى جد ربنا الخ .

وأما من قرأ بالكسر في هذه المواضع فعلى العطف على ﴿ إنا سمعنا ﴾ أي ﴿ فقالوا إنا سمعنا قرآنا ﴾ وقالوا ﴿ إنه تعالى جد ربنا ﴾ الخ : واختار أبو حاتم وأبو عبيدة قراءة الكسر لأنه كله من كلام الجن . ومما هو محكي عنهم بقوله ﴿ فقالوا إنا سمعنا ﴾ .

وقرىء بالفتح في ثلاثة مواضع وهي ﴿ وأنه تعالى جد ربنا ، وأنه كان يقول سفيهنا ، وأنه كان رجال من الإنس ﴾ لأنه من الوحي وكسر ما بقي لأنه من كلام الجن ، وقرأ الجمهور ﴿ وأنه لما قام عبدالله ﴾ بالفتح لأنه معطوف على قوله أنه استمع . وقرىء بالكسر في هذا الموضع عطفاً على ﴿ فآمنا به ﴾ بذلك التقدير السابق .

واتفقوا على الفتح في ﴿ أنه استمع ﴾ كما اتفقوا على الفتح في ﴿ أن المساجد ﴾ وفي ﴿ وأن لو استقاموا ﴾ واتفقوا على الكسر في ﴿ فقالوا إنا سمعنا ﴾ وقال إنما أدعو ربي وقل إن أدري وقل إني لا أملك لكم .

والجد عن أهل اللغة العظمة والجلال ، يقال جد في عيني أي أعظم ، فالمعنى ارتفع عظمة ربنا وجلاله ، وبه قال عكرمة ومجاهد وقال الحسن : المراد

تعالى غناؤه ومنه قيل للحظ جد ورجل مجدود أي محظوظ ، وفي الحديث « ولا ينفع ذا الجد منك الجد » قال أبو عبيد والخليل أنه لا ينفع ذا الغنى منك الغنى ، أي وإنما ينفعه الطاعة ، وقال القرطبي والضحاك : جده آلاؤه وعظمته وأمره وقدرته ، وقال أبو عبيدة والأخفش : ملكه وسلطانه وقال السدي : أمره وقال سعيد بن جبير .

﴿ وأنه تعالى جد ربنا ﴾ أي تعالى ربنا وقيل جده قدرته ، وقال محمد بن علي بن الحسن وابنه جعفر الصادق والربيع بن أنس : ليس لله جد ، وإنما قالته الجن للجهالة ، والجد أيضاً أبو الأب قرأ الجمهور جد بفتح الجيم وقرىء بكسرها وهو ضد الهزل . وقرىء جدي ربنا أي جدواه ومنفعته وقرىء بتنوين جد ورفع ربنا على أنه بدل من جد .

﴿ ما اتخذ صاحبة ولا ولداً ﴾ هذا بيان لتعالى جده سبحانه قال الزجاج : تعالى جلال ربنا وعظمته عن أن يتخذ صاحبة أو ولداً لأن الصاحبة تتخذ للحاجة والولد للاستئناس به ، والله تعالى منزه عن كل نقص ، وكأن الجن نبهوا بهذا على خطأ الكفار الذين ينسبون إلى الله الصاحبة والولد ، ونزهوا الله سبحانه عنهما .

﴿ وأنه كان يقول سفيهنا ﴾ أي جاهلنا ﴿ على الله شططاً ﴾ أي غلواً في الكذب بوصفه بالصاحبة والولد ، والضمير في « أنه » للحديث أو الأمر وسفيهنا يجوز أن يكون اسم كان ويقول الخبر ، ويجوز أن يكون سفيهنا فاعل يقول ، والجملة خبر كان واسمها ضمير يرجع إلى الحديث أو الأمر ، ويجوز أن تكون كان زائدة ، ومرادهم بسفيههم عصاتهم ومشركوهم .

وقال مجاهد وابن جريج وقتادة : أرادوا به إبليس ، عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً « قال إبليس » ، أخرجه ابن مردويه والديلمي قال السيوطي بسند واه ، والشطط الغلو في الكفر ، وقال أبو مالك الجور وقال الكلبي الكذب ، وأصله البعد عن القصد ومجاوزة الحد .

﴿ وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً ﴾ أي إنا حسبنا أن

الإنس والجن كانوا لا يكذبون على الله بأن له شريكاً وصاحبة وولداً ، فلذلك صدقناهم في ذلك حتى سمعنا القرآن فعلمنا بطلان قولهم ، وبطلان ما كنا نظنه بهم من الصدق ، وانتصاب كذباً على أنه مصدر مؤكد ليقول ، لأن الكذب نوع من القول أو صفة لمصدر محذوف أي قولاً كذباً ، وقرىء أن لن تقول من التقول فعلى هذا كذباً مفعول به .

﴿ وأنه كان رجال ﴾ في الجاهلية ﴿ من الإنس يعوذون ﴾ أي يستعيذون ﴿ برجال من الجن ﴾ حين ينزلون في سفرهم بمخوف ، قال الحسن وابن زيد وغيرهما : كان العرب إذا نزل الرجل بواد قال أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه ، فيبيت في جواره حتى يصبح ، فنزلت هذه الآية ، قال مقاتل : كان أول من تعوذ بالجن قوم من أهل اليمن ثم من بني حنيفة ثم فشا ذلك في العرب ، فلما جاء الإسلام عاذوا بالله وتركوهم .

وعن عكرمة بن أبي السائب الأنصاري « قال خرجت مع أبي إلى المدينة في حاجة وذلك أول ما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فآوانا المبيت إلى راعي غنم ، فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملاً من الغنم فوثب الراعي فقال يا عامر الوادي أنا جارك ، فنادى مناد يا سرحان أرسله فأتى الحمل يشتد حتى دخل في الغنم ، وأنزل الله على رسوله بمكة ﴿ وأنه كان رجال ﴾ الآية وذكر ابن الجوزي في تفسيره بغير سند .[1]

(١) ذكر هذا الحديث ابن كثير في التفسير من رواية ابن أبي حاتم ، وفي سنده عبد الرحمن بن اسحاق الكوفي ، وهو ضعيف ، وذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » ٧ / ١٢٩ وقال : رواه الطبراني ، وفيه عبد الرحمن بن اسحاق الكوفي ، وهو ضعيف ، قال الحافظ ابن حجر في «الإصابة » في ترجمة « كردم بن أبي السائب » بعدما ساق حديثه هذا من رواية العقيلي من طريق عبد الرحمن بن اسحاق عن أبيه عن كردم بن أبي السائب : وأخرجه ابن مردويه في « التفسير » من هذا الوجه ، وأخرج له شاهداً من حديث معاوية بن قرة عن أبيه . وأورده السيوطي في « الدر » ٦ / ٢٧١ وزاد نسبته لابن المنذر ، وأبي الشيخ في « العظمة » وبأن عساكر عن كَدرم بن أبي السائب الأنصاري رضي الله عنه . قال ابن كثير : وروي عن عبيد بن عمير ، ومجاهد ، وأبي العالية ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، وابراهيم النخعي نحوه ، ثم قال : وقد يكون هذا الذئب الذي أخذ الحمل وهو ولد الشاة ، كان جنّياً حتى يرهب الانسي ويخاف منه ، ثم ردَّه عليه لما استجار به ليضله ويخرجه عن دينه ، والله أعلم . اهـ .

﴿ فزادوهم﴾ أي زاد رجال الجن من يعوذ بهم من رجال الإنس ، أو زاد المستعيذون من رجال الإنس من استعاذوا بهم من رجال الجن ﴿ رهقاً ﴾ لأن المستعاذ بهم كانوا يقولون سدنا الجن والإنس ، وبالأول قال مجاهد وقتادة وبالثاني قال أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس وابن زيد .

والرهق في كلام العرب الإثم وغشيان المحارم ، ورجل رهق إذا كان كذلك ، ومنه قوله ﴿ ترهقهم ذلة ﴾ أي تغشاهم وقيل الرهق الخوف أي أن

الجن زادت الإنس بهذا التعوذ بهم خوفاً منهم ، وقيل كان الرجل من الإنس يقول أعوذ بفلان من سادات العرب من جن هذا الوادي .

ويؤيد هذا ما قيل من أن لفظ رجال لا يطلق على الجن فيكون قوله برجال وصفاً لمن يستعيذون به من رجال الإنس أي يعوذون بهم من شر

الجن ، وهذا فيه بعد ، وإطلاق لفظ رجال على الجن على تسليم عدم صحته لغة لا مانع من إطلاقه عليهم هنا من باب المشاكلة ، قال ابن عباس : كان القوم في الجاهلية إذا نزلوا بالوادي قالوا نعوذ بسيد هذا الوادي من شر ما فيه ، فلا يكون شيء أشد ولعاً منهم بهم ، فذلك قوله : ﴿ فزادهم رهقاً ﴾ .

﴿ وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً ﴾ أي وأن الجن ظنوا كما ظننتم أيها الناس أنه لا بعث بعد الموت ، فتكون هذه الآية وما قبلها من جملة الكلام الموحى به ، وقيل المعنى : وأن الإنس ظنوا كما ظننتم أيها الجن . على أنه كلام بعض الجن لبعض ، والمعنى أنهم لا يؤمنون بالبعث كما أنكم لا تؤمنون به . وهذان القولان من كلام الله تعالى معترضان في خلال كلام الجن المحكي عنهم عند بعض المفسرين . وعند بعضهم هما من جملة كلام الجن ، وعليه فلا اعتراض في الكلام ، تأمل .

وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾

﴿ وأنا لمسنا السماء ﴾ هذا من قول الجن أيضاً أي طلبنا خبرها كما جرت به عادتنا ، واللمس المس فاستعير للطلب لأن الماس طالب متعرف ﴿ فوجدناها ملئت حرساً شديداً ﴾ أي جمعاً أقوياء من الملائكة يحرسونها عن استراق السمع ، والحرس جمع حارس وهو الرقيب ، والمصدر الحراسة ، وقيل إسم مفرد في معنى الحراس كالخدم في معنى الخدام ، ولذا وصف بشديد ، ولو نظر إلى معناه لقيل شداداً ، وشهباً جمع شهاب وهو الشعلة المقتبسة من نار الكوكب . كما تقدم بيانه في تفسير قوله : ﴿ وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾

﴿ وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ﴾ أي وإنا كنا معشر الجن قبل هذا نقعد من السماء مواضع نقعد في مثلها لاستماع الأخبار من السماء ؛ وللسمع متعلق بنقعد أي لأجل السمع أو بمضمر هو صفة لمقاعد أي مقاعد كائنة للسمع ، والمقاعد جمع مقعد إسم مكان وذلك أن مردة الجن كانوا يفعلون ذلك ليسمعوا من الملائكة أخبار السماء فيلقونها إلى الكهنة ، فحرسها الله سبحانه ببعثة رسوله صلى الله عليه وسلم بالشهب المحرقة .

عن ابن عباس قال : « كانت الشياطين لهم مقاعد في السماء يسمعون فيها الوحي فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعاً فأما الكلمة فتكون حقاً . وأما ما زادوا فيكون باطلاً فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم منعوا

مقاعدهم ، فذكروا ذلك لإبليس ، ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك فقال لهم ما هذا إلا من أمر قد حدث في الأرض ، فبعث جنوده فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً يصلي بين جبلين بمكة ، فأتوه فأخبروه فقال هذا الحدث الذي حدث في الأرض » أخرجه أحمد والترمذي وصححه النسائي وغيرهم .

﴿ فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ﴾ أي أرصد له ليرمي به أو لأجله لمنعه من الاستماع ، وقوله ﴿ الآن ﴾ هو ظرف للحال واستعير هنا للاستقبال لأنهم لا يريدون به وقت قولهم فقط ، وانتصاب رصداً على أنه صفة لشهاباً أو مفعول له وهو مفرد ، ويجوز أن يكون اسم جمع كالحرس .

وقد اختلف أهل العلم هل كانت الشياطين ترمى بالشهب وتقذف قبل المبعث أم لا ؟ فقال قوم لم يكن ذلك وحكى الواحدي عن معمر قال قلت للزهري؟أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية ؟ قال نعم قلت أفرأيت قوله ﴿ وأنا كنا نقعد منها ﴾ الآية؟قال غلظ وشدد أمرها حين بعث محمد صلى الله عليه وسلم ، قال ابن قتيبة : إن الرجم قد كان قبل مبعثه ولكنه لم يكن مثله في شدة الحراسة بعد مبعثه ، وكانوا يسترقون السمع في بعض الأحوال ، فلما بعث منعوا من ذلك أصلا .

وقال عبد الملك بن سابور : ولم تكن السماء تحرس في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام : فلما بعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم حرست السماء ورميت الشياطين بالشهب ، ومنعت من الدنو إلى السماء ، وقال نافع بن جبير : كانت الشياطين في الفترة تسمع فلا ترمى ، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وآله رميت بالشهب ، قال الزمخشري : والصحيح أنه كان قبل البعث ، فلما بعث صلى الله عليه وسلم كثر الرجم وازداد زيادة ظاهرة حتى تنبه لها الإنس والجن ومنع الاستراق أصلاً ؛ وقد تقدم البحث عن هذا .

﴿وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض﴾ بسبب هذه الحراسة

للسماء . وارتفاع الشر على الاشتغال أو على الابتداء وخبره ما بعده . والأول أولى لتقدم طالب الفعل على الاشتغال أو على الابتداء وخبره ما بعده . والأول ﴿ أم أراد بهم ربهم رشداً ﴾ أي خيراً : قال ابن زيد قال إبليس لاندري أأراد الله بهذا المنع أن ينزل على أهل الأرض عذاباً أو يرسل إليهم رسولاً ؟ والجملة سادة مسد مفعولي ندري ، والأولى أن هذا من قول الجن فيما بينهم ، وليس من قول إبليس كما قال ابن زيد .

﴿ وأنا منا الصالحون ﴾ أي قال بعض لبعض لما دعوا أصحابهم إلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وإنا كنا قبل استماع القرآن منا الموصوفون بالصلاح ﴿ ومنا دون ذلك ﴾ أي قوم دون الموصوفين بالصلاح ، وقيل أراد بأهل الصلاح المؤمنين وبمن هم دون ذلك الكافرين ، والأول أولى ، وقال ابن عباس يقول منا المسلم ومنا المشرك .

﴿ كنا طرائق قدداً ﴾ أي جماعات متفرقة وفرقاً شتى ، وأصنافاً مختلفة وذوي مذاهب متفاوتة ، والقدة القطعة من الشيء وصار القوم قددا إذا تفرقت أحوالهم ، واستعمال القدد في الفرق مجاز ، والمعنى كنا ذوَي طرائق قددا أو كانت طرائقنا طرقاً قدداً أو كنا مثل طرائق قدداً أو كنا في اختلاف أحوالنا مثل الطرائق المختلفة : وقال السدي والضحاك : أدياناً مختلفة ، وقال قتادة : أهواء متباينة ، وقال ابن عباس : أهواء شتى . وقال سعيد بن المسيب : كانوا مسلمين ويهوداً ونصارى ومجوساً ، وكذا قال مجاهد : قال الحسن : الجن أمثالكم قدرية ومرجئة وخوارج ورافضة وشيعة وسنية وكذا قال السدي .

﴿وأنا ظننا ﴾ الظن هنا بمعنى العلم واليقين أي وأنا علمنا وتيقنا بالتفكر والاستدلال في آيات الله ﴿ أن لن نعجز الله في الأرض ﴾ أينما كنا فيها ولن نفوته بهرب ولا غيره إن أراد بنا أمراً ﴿ ولن نعجزه هرباً ﴾ مصدر في موضع الحال أي ولن نعجزه هاربين منها إلى السماء . وهذه صفة الجن وما هم عليه

من أحوالهم وعقائدهم .

﴿ وأنا لما سمعنا الهدى ﴾ يعنون القرآن ﴿ آمنا به ﴾ وصدقنا أنه من عند الله ولم نكذب به كما كذبت به كفرة الإنس ﴿ فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً ﴾ أي لا يخاف نقصاً في عمله وثوابه ولا ظلماً ومكروهاً يغشاه ، والبخس النقصان ، والرهق العدوان والطغيان ، والمعنى لا يخاف أن ينقص من حسناته ولا أن يزاد في سيئآته ، وقد تقدم تحقيق الرهق قريباً ، قرأ الجمهور بخساً بسكون الخاء ، وقرىء بفتحها وقرىء فلا يخف جزماً على جواب الشرط ، ولا وجه لهذا بعد دخول الفاء والتقدير فهو لا يخاف ، والأمر ظاهر ، وفي الآية دليل على أن العمل ليس من الإيمان ، قاله النسفي .

﴿ وأنا منا المسلمون ﴾ وهم الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ ومنا القاسطون ﴾ أي الجائرون الكافرون الظالمون الذين حادوا عن طريق الحق . ومالوا إلى طريق الباطل ، يقال قسط إذا جار وأقسط إذا عدل[1] قال ابن عباس القاسطون العادلون عن الحق . وعن سعيد بن جبير أن الحجاج قال له حين أراد قتله ما تقول فيَّ قال قاسط عادل فقال القوم ما أحسن ما قال ، حسبوا أنه يصفه بالقسط والعدل فقال الحجاج يا جهلة إنه سماني ظالماً مشركاً ، وتلا لهم قوله تعالى ﴿ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا ﴾ وقوله ﴿ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ ذكره الخطيب .

﴿ فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً ﴾ أي قصدوا طريق الحق وتوخوه باجتهاد ، ومنه التحري في الشيء، قال الراغب : حرى الشيء يحريه أي قصد حراه أي جانبه وتحراه كذلك . وقال الفراء : أموا الهدى قال النسفي : تحرى طلب الأحرى . أي الأولى وفيه دليل على أن الجن يثاب بالجنة .

---

(١) ومنه قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم في « صحيحه » عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن المقسطين عند الله على منابر من نور » .

﴿ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾

﴿ وأما القاسطون فكانوا ﴾ في علم الله ﴿ لجهنم حطباً ﴾ أي وقوداً للنار يوقد بهم كما يوقد بكفرة الإنس ، وفيه دليل على أن الجني الكافر يعذب في النار ، وأنهم وإن خلقوا منها لكنهم تغيروا عن تلك الكيفية فصاروا لحماً ودماً هكذا قيل ، وأيضاً النار قويها قد يأكل ضعيفها فيكون الضعيف حطباً للقوي .

﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة ﴾ قرأ الجمهور بكسر الواو من « لو » لالتقاء الساكنين وقرىء بضمها تشبيهاً بواو الضمير ، وهذا ليس من قول الجن بل هو معطوف على أنه استمع نفر من الجن ، والمعنى وأوحي الى أن الشأن لو استقام الجن والإنس ، أو كلاهما على الطريقة وهي طريقة الإسلام .

وقد قدمنا أن القراء اتفقوا على فتح « أن » ههنا . قال ابن الأنباري والفتح ههنا على إضمار يمين تأويلها ، والله أن لو استقاموا على الطريقة كما يقال في الكلام : والله لو قمت قمت ، قال أو على (أوحي إليّ أنه استمع) (وأن لو استقاموا) أو على (آمنا به) أي آمنا به وبأن لو استقاموا ، وعلى هذا يكون جميع ما تقدم معترضاً بين المعطوف والمعطوف عليه، قال ابن عباس : لو أقاموا على ما أمروا به .

﴿ لأسقيناهم ماء غدقاً ﴾ وليس المراد خصوص السقيا بل المراد لوسعنا عليهم في الدنيا وبسطنا لهم في الرزق ، وقال ابن عباس : معيناً ، وقال مقاتل : ماء كثيراً من السماء ، وذلك بعد ما رفع عنهم المطر سبع سنين ،

وقال ابن قتيبة : المعنى لو آمنوا جميعاً لوسعنا عليهم في الدنيا ، وضرب الماء الغدق مثلاً لأن الخير والرزق كله بالمطر ، وهذا كقوله :

﴿ ولو أنّ أهل الكتاب آمنوا واتقوا ﴾ الآية وقوله ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ وقوله ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ﴾ الآية .

وقيل المعنى وأن لو استقام أبوهم على عبادته وسجد لآدم ولم يكفر . وتبعه ولده على الإسلام لأنعمناعليهم ، واختار هذا الزجاج ، والماء الغدق هو الكثير في لغة العرب ، قرأ العامة غدقاً بفتحتين وقرىء بفتح الغين وكسر الدال ، وهما لغتان في الماء الغزير ، ومنه الغيداق للماء الكثير وللرجل الكثير العدو ، والكثير النطق ويقال غدقت عينه تغدق أي هطل دمعها ، وفي المصباح غدقت العين غدقاً من باب تعب كثر ماؤها فهي غدقة وأغدقت إغداقاً كذلك .

﴿ لنفتنهم فيه ﴾ أي لنختبرهم فنعلم كيف شكرهم على تلك النعم علم ظهور للخلائق وإلا فهو تعالى لا يخفى عليه شيء ، وقال الكلبي المعنى وأن لو استقاموا على الطريقة التي هم عليها من الكفر فكانوا كلهم كفاراً لأوسعنا أرزاقهم مكراً بهم واستدراجاً حتى يفتنوا بها فنعذبهم في الدنيا والآخرة ، وبه قال الربيع بن أنس وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن والثمالي ويمان بن ريان وابن كيسان وأبو مجلز ، واستدلوا بقوله :

﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ﴾ وقوله ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ﴾ الاية والأول أولى ، وقال عمر : في الآية حيثما كان الماء كان المال وحيثما كان المال كانت الفتنة ، وقال ابن عباس : لنبتليهم به .

﴿ ومن يعرض عن ذكر ربه ﴾ أي ومن يعرض عن القرآن أو عن العبادة أو عن الموعظة أو عن التوحيد أو عن جميع ذلك ﴿ يسلكه ﴾ أي يدخله

﴿ عذاباً صعداً ﴾ أي شاقاً ، قرأ الجمهور نسلكه بالنون مفتوحة من سلكه ، وقرىء بالياء التحتية ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم لقوله (عن ذكر ربه) ولم يقل عن ذكرنا ، وقرىء بضم النون وكسر اللام من أسلكه ، والصعد في اللغة المشقة تقول تصعد بي الأمر إذا شق عليك ، وهو مصدر صعد يقال صعد صعداً وصعوداً فوصف به العذاب مبالغة لأنه يتصعد المعذب أي يعلوه ويغمره ويغلبه فلا يطيقه .

قال ابو عبيدة: الصعد مصدر أي عذاباً ذا صعد ، وقال عكرمة : الصعد هو صخرة ملساء في جهنم يكلف صعودها فإذا انتهى الى أعلاها حدر الى جهنم كما في قوله ﴿ سأرهقه صعوداً ﴾ والصعود العقبة الكؤود ، وقال ابن عباس : عذاباً صعداً شقة من العذاب يصعد فيها ، وعنه قال جبلاً في جهنم ، وعنه قال لا راحة فيه .

﴿ وأن المساجد لله ﴾ أي وأوحي إليَّ أن المساجد مختصة بالله ، وقال الخليل التقدير ولأن المساجد ، والمساجد المواضع التي بنيت للصلاة فيها ، جمع مسجد بكسر الجيم وهو موضع السجود ، قال سعيد بن جبير : قالت الجن كيف لنا أن نأتي المساجد ونشهد معك الصلاة ونحن ناؤون فنزلت ، وقال الحسن أراد بها كل البقاع لأن الأرض جعلت كلها مسجداً للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقال سعيد بن المسيب وطلق بن حبيب أراد بالمساجد الأعضاء التي يسجد عليها العبد[١] ، وهي القدمان والركبتان واليدان والجبهة والأنف ، وهو على هذا جمع مسجد بالفتح يقول هذه أعضاء أنعم الله بها عليك فلا تسجد بها لغيره فتجحد نعمة الله ، وكذا قال عطاء وقيل المساجد هي الصلاة لأن السجود من جملة أركانها قاله الحسن ، قال ابن عباس : لم يكن يوم نزلت هذه الآية في الأرض مسجد إلا المسجد الحرام ومسجد إيليا

(١) ومنه قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أسجد على سبعة أعظم : على الجبهة (وأشار بيده الى أنفه) ، واليدين ، والركبتين ، وأطراف القدمين » .

ببيت المقدس ، وقيل المراد بها البيوت التي تبنيها أهل الملل للعبادة ، والقول بأنها البيوت المبنية للعبادة أظهر الأقوال إن شاء الله تعالى وهو مروي عن ابن ابن عباس ، وإضافة المساجد الى الله إضافة تشريف وتكريم وقد تنسب الى غيره تعريفاً ، قال صلى الله عليه وسلم « صلاة في مسجدي هذا خير من الف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام »[١] ذكره القرطبي .

﴿ فلا تدعوا ﴾ أي فلا تعبدوا ﴿ مع الله أحداً ﴾ من خلقه كائناً من كان ، هذا توبيخ للمشركين في دعائهم مع الله غيره في المسجد الحرام ، قال مجاهد كانت اليهود والنصارى اذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله ، فأمر الله نبيه والمؤمنين أن يخلصوا لله الدعوة اذا دخلوا المساجد كلها ، يقول فلا تشركوا فيها صنماً أو غيره مما يعبد ، وقيل المعنى أفردوا المساجد بذكر الله تعالى ولا تجعلوا لغير الله تعالى فيها نصيباً ، وفي الصحيح « من نشد ضالة في المسجد فقولوا لا ردها الله عليك فإن المساجد لم تبن لهذا »

﴿ وأنه ﴾ أي وأوحي إليَّ أن الشأن ﴿ لما قام عبد الله ﴾ وهو النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يقل نبي الله او رسول الله لأنه من أحب الأسماء الى النبي صلى الله عليه وسلم . ولأنه لما كان واقعاً في كلامه صلى الله عليه وسلم عن نفسه جيء به على ما يقتضيه التواضع ؛ أو لأن عبادة عبد الله المستفادة من قوله :

﴿ يدعوه ﴾ ليست بمستبعدة ؛ ثم كان وقوع هذا الأمر ببطن نخل على ما قاله المحلي ؛ وقال الحفناوي سياق هذه الآية إنما يظهر في المرة الثانية من مرَّتي الجن وهي التي كانت بحجون مكة ؛ وكان معه فيها ابن مسعود وكان الجن إثني عشر ألفاً أو أكثر ، وأما المرة الأولى التي تقدم الكلام فيها التي كانت ببطن نخل فكانوا فيها تسعة او سبعة ولا يظهر في حقهم أن يقال ﴿ كادوا يكونون عليه لبداً ﴾ كما لا يخفى فليتأمل ا هـ .

ومعنى الآية أنه لما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي ويتلو

---

(١) صحيح الجامع/ ٢٧٣٣ .

القرآن كاد الجن أن يكونوا عليه صلى الله عليه وسلم متراكمين من ازدحامهم عليه لسماع القرآن منه ؛ قال الزجاج : ومعنى لبداً يركب بعضهم بعضاً ؛ ومن هذا اشتقاق هذه اللبود التي تفرش . قرأ الجمهور لبداً بكسر اللام وفتح الباء وقرىء بضم اللام وفتح الباء وبضم الباء واللام وبضم اللام وتشديد الباء مفتوحة فعلى القراءة الأولى المعنى ما ذكرناه وعلى الثانية المعنى كثيراً كما في قوله .

﴿ أهلكت مالاً لبداً ﴾ وقيل المعنى كاد المشركون يركب بعضهم بعضاً حرداً على النبي صلى الله عليه وسلم وقال الحسن وقتادة وابن زيد : لما قام عبد الله محمد بالدعوى تلبدت الجن والإنس على هذا الأمر ليطفئوه فأبى الله إلا أن ينصره ويتم نوره ، واختار هذا ابن جرير .

قال مجاهد : لبداً أي جماعات وهو من تلبد الشيء أي اجتمع ، ومنه اللبد الذي يفرش لتراكم صوفه وكل شيء ألصقته الصاقاً شديداً فقد لبدته ، ويقال للشعر الذي على ظهر الأسد لبدة وجمعها لبد ، ويقال للجراد الكثير لبد ويطلق اللبد بضم اللام وفتح الباء على الشيء الدائم ، ومنه قيل لنسر لقمان لبد لطول بقائه .

وعن ابن مسعود قال : « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة الى نواحي مكة فخط لي خطاً وقال لا تحدثن شيئاً حتى آتيك ؛ ثم قال لا يهولنك شيء تراه ؛ فتقدم شيئاً ثم جلس فاذا رجال سود كأنهم رجال الزط وكانوا كما قال الله تعالى ﴿ كادوا يكونون عليه لبداً ﴾ أخرجه ابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل » .

وعن ابن عباس في الآية قال : « لما سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يتلو القرآن كادوا يركبونه من الحرص لما سمعوه ودنوا منه فلم يعلم بهم حتى أتاه الرسول فجعل يقرئه ﴿ قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن ﴾ أخرجه ابن جرير وابن مردويه .

وعنه في الآية قال : « لما أتى الجن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي بأصحابه يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده فعجبوا من طواعية أصحابه ، فقالوا لقومهم لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً » أخرجه عبد بن حميد والحاكم والترمذي وصححاه وغيرهم ؛ وعنه قال لبداً أي أعواناً .

﴿ قل ﴾ يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مجيباً للكفار ﴿ إنما أدعو ربي ﴾ وحده وأعبده ﴿ ولا أشرك به ﴾ في العبادة ﴿ أحداً ﴾ من خلقه ، قرأ الجمهور « قال » وقرئ قل على الأمر ، وهي سبعية ، ففي الكلام التفات من الغيبة الى الخطاب ، وسبب نزولها أن كفار قريش قالوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم إنك جئت بأمر عظيم وقد عاديت الناس كلهم فارجع عن هذا فنحن نجيرك .

﴿ قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً ﴾ أي لا أقدر أن أدفع عنكم غياً[1] ولا أسوق اليكم خيراً لأن الضار والنافع هو الله سبحانه وقيل الضر الكفر والرشد الهدى ، والأول أولى لوقوع النكرتين في سياق النفي فهما يعمان كل ضرر وكل رشد في الدنيا والدين .

﴿ قل إني لن يجيرني من الله أحد ﴾ أي لا يدفع عني أحد عذابه إن أنزله بي كقول صالح ﴿ فمن ينصرني من الله إن عصيته ﴾ وهذا بيان لعجزه عن شؤون نفسه بعد بيان عجزه عن شؤون غيره ﴿ ولن أجد من دونه ملتحداً ﴾ أي ملجأ ومعدلاً وحرزاً ألجأ اليه وأحترز به ، والملتحد معناه في اللغة الممال أي موضعاً أميل إليه ، في القاموس ألحد إليه مال كالتحد ، والملتحد الملتجأ ، وفي المصباح الملتحد بالفتح اسم الموضع وهو الملجأ أ هـ قال قتادة : مولى ، وقال السدي : حرزاً ، وقال الكلبي : مدخلاً في الأرض مثل السرب ، وقيل مذهباً ومسلكاً ، والمعنى متقارب .

(١) استعمال الضر في الغي من استعمال المسبب في السبب فهو مجاز مرسل اهـ منه .

﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾

والاستثناء في قوله ﴿ إلا بلاغاً ﴾ هو من قوله لا أملك اي لا أملك ضراً ولا رشداً إلا التبليغ ﴿ من الله ﴾ فإن فيه أعظم الرشد أو من ملتحداً أي لن أجد من دونه ملجأً الا التبليغ ، وقال مقاتل : ذلك الذي يجيرني من عذابه ، وقال قتادة : إلا بلاغاً من الله فذلك الذي أملكه بتوفيق الله ، فأما الكفر والإيمان فلا أملكهما ، قال الفراء لكن أبلغكم ما أرسلت به فهو على هذا منقطع ، وقال الزجاج هو منصوب على البدل من ملتحداً اي لن أجد من دونه ملتحداً إلا أن أبلغ ما يأتي من الله .

﴿ ورسالاته ﴾ معطوف على بلاغاً أي إلا بلاغاً من الله وإلا رسالاته التي أرسلني بها إليكم أو إلا أن أبلغ عن الله وأعمل برسالاته ، فآخذ نفسي بما آمر به غيري ، وقيل معطوف على الاسم الشريف اي إلا بلاغاً عن الله وعن رسالاته كذا قال أبو حيان ورجحه واستظهره الكرخي .

﴿ ومن يعص الله ورسوله ﴾ في الأمر بالتوحيد ولم يؤمن لأن السياق فيه ﴿ فإن له نار جهنم ﴾ قرأ الجمهور بكسر « إن » على أنها جملة مستأنفة مستقلة ، وقرىء بفتحها لأن ما بعد فاء الجزاء موضع ابتداء ، وان مع في حيزها خبر لمبتدأ مضمر ، والتقدير فجزاؤه أو فحكمه أن له نار جهنم .

﴿ خالدين فيها ﴾ أي يدخلون في النار أو في جهنم مقدار خلودهم والجمع باعتبار معنى « من » كما أن التوحيد في قوله فإن له باعتبار لفظه ﴿ أبداً ﴾ تأكيد لمعنى الخلود أي خالدين فيها بلا نهاية .

﴿ حتى إذا رأوا ما يوعدون ﴾ من العذاب في الدنيا أو في الآخرة ، والمعنى لا يزالون على ما هم عليه من الإصرار على الكفر وعداوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين الى أن يروا الذي يوعدون به من العذاب ، وحتى ابتدائية فيها معنى الغاية لمقدر قبلها يدل عليه الحال وهي قوله ﴿ خالدين ﴾ فإن الخلود في النار يستلزم استمرارهم على كفرهم وعدم انقطاعه بالإيمان إذ لو آمنوا لم يخلدوا في النار ، ولو جعلت لمجرد الابتداء من غير ملاحظة معنى الغاية كما أشار اليه القرطبي لكان أسهل وأوضح فتكون جملة مستقلة بالاستفادة .

﴿ فسيعلمون ﴾ عند حلوله بهم يوم بدر أو يوم القيامة ﴿ من أضعف ناصراً ﴾ « من » موصولة أي هو أضعف جنداً ينتصر به او استفهامية ، والأول أولى ﴿ وأقل عدداً ﴾ أي أعواناً أهم أم المؤمنون قال الخطيب أي أنا وإن كنت في هذا الوقت وحيداً مستضعفاً وأقل عدداً ، أو هم وإن كانوا الآن بحيث لا يحصيهم عدداً إلا الله تعالى .

فيا لله ما أعظم كلام الرسل حيث يستضعفون أنفسهم ويذكرون قوتهم من جهة مولاهم الذي بيده الملك وله جنود السموات والأرض بخلاف الجبابرة فإنهم لا كلام لهم إلا في تعظيم أنفسهم ، وازدراء غيرهم ، والظاهر أن « إذا » شرطية وأن قوله (فسيعلمون) جوابها لكن يشكل عليه الاستقبال المفاد بالسين وذلك لأن وقت رؤية العذاب يحصل علم الضعيف من القوي ، والسين تقتضي أنه يتأخر عنه ، فليتأمل هذا المحل فإنه لم ينبه عليه أحد من المفسرين ، ولا يتلخص منه إلا بجعل السين لمجرد التأكيد لا للاستقبال وله نظائر كثيرة ، قاله الحفناوي .

﴿ قل إن ﴾ أي ما ﴿ أدري أقريب ﴾ حصول ﴿ ما توعدون ﴾ من العذاب او يوم القيامة أي فيكون واقعاً الآن أو قريباً من هذا الأوان بحيث يتوقع عن قريب ﴿ أم يجعل له ربي أمداً ﴾ أي غاية ومدة فلا يتوقع دون ذلك الأمد ، أمره الله سبحانه أن يقول لهم هذا القول لما قالوا له متى يكون هذا الذي توعدنا به ، ولا يقال إنه صلى الله عليه وسلم قال « بعثت أنا والساعة كهاتين »[(١)] فكان عالماً بقرب وقوع القيامة ، فكيف قال ههنا لا أدري أقريب الخ لأن المراد بقرب وقوعه الذي علمه هو أن ما بقي من الدنيا أقل مما انقضى ، فهذا القدر من القرب معلوم ، وأما معرفة مقدار القرب فغير معلوم لا يعلمه إلا الله ، وهو على كل حال متوقع لا كلام فيه ، وإنما الكلام في تعيين وقته وليس إليه صلى الله عليه وآله وسلم ، قال عطاء : يريد أنه لا يعرف يوم القيامة إلا الله سبحانه وحده ، والمعنى أن علم وقت العذاب علم غيب لا يعلمه إلا الله[(٢)] .

﴿ عالم الغيب ﴾ قرأ الجمهور بالرفع على أنه بدل من ربي أو بيان له أو خبر مبتدأ محذوف ، والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها من عدم الدراية ، وقرىء بالنصب على المدح ، وقرأ السري (علم الغيب) بصيغة الماضي ونصب الغيب والفاء في قوله :

﴿ فلا يظهر على غيبه أحداً ﴾ لترتيب عدم الإظهار على تفرده سبحانه بعلم الغيب أي لا يطلع على الغيب الذي يعلمه وهو ما غاب عن العباد أحداً

---

(١) قال ابن كثير : وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن الحديث الذي يتداوله كثير من الجهلة من أنه عليه الصلاة والسلام لا يؤلّف تحت الأرض ، كذب لا أصل له ، ولم نره في شيء من الكتب . وقد كان صلى الله عليه وسلم يسأل عن وقت الساعة ، فلا يجيب عنها ، ولما تبدَّى له جبريل في صورة أعرابي ، كان فيما سأله أن قال : يا محمد : فأخبرني عن الساعة ؟ قال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » ولما ناداه ذلك الأعرابي بصوت جهوري فقال : يا محمد متى الساعة؟ قال : « ويحك إنها كائنة فما أعددت لها ؟ » قال : أما إني لم أعدّ لها كثير صلاة ولا صيام . ولكني أحب الله ورسوله ، قال : « فأنت مع من أحببت » قال أنس : فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث .

(٢) زاد المسير ٨/ ٣٨٥

منهم ، ثم استثنى فقال ﴿ إلا من ارتضى من رسول ﴾ أي إلا من اصطفاه من الرسل أو من ارتضاه منهم لإظهاره على بعض غيبه ليكون ذلك دالاً على نبوته .

قال القرطبي قال العلماء لما تمدح سبحانه بعلم الغيب واستأثر به دون خلقه كان فيه دليل على أنه لا يعلم الغيب أحد سواه ، ثم استثنى من ارتضى من الرسل فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي اليهم وجعله معجزة لهم ، ودلالة على نبوتهم .

وليس المنجم ومن ضاهاه ممن يضرب بالحصى ، وينظر في الكفّ ويزجر بالطير ، ممن ارتضاه من رسول فيطلعه على ما يشاء من غيبه ، فهو كافر بالله مفتر عليه بحدسه وتخمينه وكذبه ، وقال سعيد بن جبير ﴿ إلا من ارتضى من رسول ﴾ هو جبريل وفيه بعد ، وقيل المراد أنه يطلعه على بعض غيبه وهو ما يتعلق برسالته كالمعجزة وأحكام التكاليف وجزاء الأعمال وما يبينه من أحوال الآخرة لاما لا يتعلق برسالته من الغيوب كوقت قيام الساعة ونحوه .

قال الواحدي : وفي هذا دليل على أن من ادعى أن النجوم تدله على ما يكون من حادث فقد كفر بما في القرآن ، قال في الكشاف : وفي هذا إبطال للكرامات لأن الذين تضاف اليهم الكرامات وإن كانوا أولياء مرتضين فليسوا برسل ، وقد خص الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب ، وفيه أيضاً إبطال للكهانة والسحر والتنجيم لأن أصحابها أبعد شيء من الارتضاء وأدخله في السخط .

قال الرازي وعندي أن الآية لا دلالة فيها على شيء مما قالوه إذ لا صيغة عموم في غيبه فيحمل على غيب واحد ، وهو وقت القيامة لأنه واقع بعد قوله (أقريب ما توعدون) الآية .

فإن قيل فما معنى الاستثناء حينئذ ، قلنا لعله اذا قربت القيامة يظهره وكيف لا وقد قال ﴿ يوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً) فتعلم

الملائكة حينئذ قيام الساعة ، أو هو استثناء منقطع اي من ارتضاه من رسول يجعل من بين يديه ومن خلفه حفظة يحفظونه من شر مردة الجن والإنس ، ويدل على أنه ليس المراد أنه لا يطلع أحداً على شيء من المغيبات إلا الرسل أنه ثبت كما يقارب التواتر أن شقاً وسطيحاً كانا كاهنين وقد عرفا بحديث النبي صلى الله عليه وسلم قبل ظهوره ، وكانا مشهورين بهذا العلم عند العرب حتى رجع اليهما كسرى ، فثبت أن الله قد يطلع غير الرسل على شيء من المغيبات .

وأيضاً أطبق أهل الملل على أن معبر الرؤيا يخبر عن أمور مستقبلة ويكون صادقاً فيها ، وأيضاً قد نقل السلطان سنجر بن ملك شاه كاهنة من بغداد الى خراسان وسألها عن أمور مستقبلة فأخبرته بها فوقعت على وفق كلامها ، قال وأخبرني ناس محققون في علم الكلام والحكمة أنها أخبرت عن أمور غائبة بالتفصيل فكانت على وفق خبرها ، وبالغ أبو البركات في كتاب المعتبر في شرح حالها ، وقال فحصت عن حالها ثلاثين سنة فتحققت أنها كانت تخبر عن المغيبات إخباراً مطابقاً ، وأيضاً فإنا نشاهد ذلك في أصحاب الإلهامات الصادقة ، وقد يوجد ذلك في السحرة أيضاً ، وقد نرى الأحكام النجومية مطابقة وإن كانت قد تتخلف ، فلو قلنا إن القرآن يدل على خلاف هذه الأمور المحسوسة لتطرق الطعن الى القرآن فيكون التأويل ما ذكرنا انتهى كلامه بمعناه .

قال محمد بن علي الشوكاني : أما قوله : إذ لا صيغة عموم في غيبه ، فباطل فإن إضافة المصدر واسم الجنس من صيغ العموم كما صرح به أئمة الأصول وغيرهم ، وأما قوله : أو هو استثناء منقطع ، فمجرد دعوى يأباه النظم القرآني ، وأما قوله : إن شقاً وسطيحاً الخ فقد كانا في زمن تسترق فيه الشياطين السمع ويلقون ما يسمعونه الى الكهان فيخلطون الصدق بالكذب ، كما ثبت في الحديث الصحيح ، وفي قوله ﴿ إلا من خطف الخطفة ﴾ ونحوها من الآيات ، فباب الكهانة قد ورد بيانه في هذه الشريعة وإنه كان طريقاً لبعض

الغيب بواسطة استراق الشياطين حتى منعوا ذلك بالبعثة المحمدية على صاحبها الصلاة والسلام والتحية ، وقالوا ﴿ وأنّا لمسنا السماء **فوجدناها** ملئت حرساً شديداً وشهباً★ وأنّا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ﴾ فباب الكهانة في الوقت الذي كانت فيه مخصوص بأدلته ، فهو من جملة ما يخصص به هذا العموم ، فلا يرد ما زعمه من إيراد الكهانة على هذه الآية .

وأما حديث المرأة الذي أورده فحديث خرافة ، ولو سلم وقوع شيء مما حكاه عنها من الأخبار لكان من باب ما ورد في الحديث « إن في هذه الأمة محدثين وإن منهم عمر » فيكون كالتخصيص لعموم هذه الآية لا نقضاً ، وأما ما اجترأ به على الله وعلى كتابه من قوله في آخر كلامه : فلو قلنا إن القرآن يدل على خلاف هذه الأمور المحسوسة لتطرق الطعن الى القرآن ، فيقال له ما هذه بأول زلة من زلاتك وسقطة من سقطاتك ، وكم لها لديك من أشباه وأمثال نبض بها عرق فلسفتك ، وركض بها الشيطان الذي صار يتخبطك في مباحث تفسيرك ، يا عجباً لك أيكون ما بلغك من خبر هذه المرأة ونحوه موجباً لتطرق الطعن الى القرآن ، وما أحسن ما قاله بعض أدباء عصرنا .

وإذا رامت الذبابة للشمـ ـس غطاء مدت عليها جناحا

وقلت من أبيات منها :

مهب رياح سده بجناح وقابل بالمصباح ضوء صباح

فإن قلت : إذاً قد تقرر بهذا الدليل القرآني أن الله يظهر من ارتضى من رسله على ما شاء من غيبه فهل للرسول الذي أظهره الله على ما شاء من غيبه أن يخبر بعض أمته .

قلت نعم ، ولا مانع من ذلك ، وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا ما لا يخفى على عارف بالسنة المطهرة ، فمن ذلك ما صح أنه قام مقاماً أخبر فيه بما سيكون الى يوم القيامة ، وما ترك شيئاً مما يتعلق بالفتن

ونحوها ، حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه ، وكذلك ما ثبت من أن حذيفة ابن اليمان كان قد أخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يحدث من الفتن بعده حتى سأله عن ذلك أكابر الصحابة ورجعوا اليه .

وثبت في الصحيح وغيره أن عمر بن الخطاب سأله عن الفتنة التي تموج كموج البحر فقال إن بينك وبينها باباً فقال عمر هل يفتح أو يكسر؟فقال بل يكسر ، فعلم عمر أنه الباب وأن كسره قتله كما في الحديث الصحيح المعروف أنه قيل لحذيفة هل كان عمر يعلم ذلك؟فقال نعم كما يعلم ان دون غد الليلة .

وكذلك ما ثبت من إخباره لأبي ذر بما حدث له وإخباره لعلي بن أبي طالب بخبر ذي الثدية ونحو هذا مما يكثر تعداده ، ولو جمع لجاء منه مصنف مستقل .

واذا تقرر هذا فلا مانع من أن يختص بعض صلحاء هذه الأمة بشيء من أخبار الغيب التي أظهرها الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وأظهرها رسوله لبعض أمته وأظهرها هذا البعض من الأمة لمن بعدهم ، فتكون كرامات الصالحين من هذا القبيل ، والكل من الفيض الرباني بواسطة الجناب النبوي ا هـ كلامه رحمة الله تعالى عليه .

قال ابن عباس « في الآية أعلم الله رسوله من الغيب الوحي وأظهر عليه مما أوحى اليهم من غيبه وما يحكم الله فإنه لا يعلم ذلك غيره » أخرجه ابن المنذر وابن مردويه .

ثم ذكر سبحانه أنه يحفظ ذلك الغيب الذي يطلع عليه الرسول فقال : ﴿ فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ﴾ والجملة تقرير للإظهار المستفاد من الاستثناء والمعنى أنه يجعل سبحانه بين يدي الرسول ومن خلفه حرساً من الملائكة يحرسونه من تعرض الشياطين لما أظهره عليه من الغيب ، أو يجعل بين يدي الوحي وخلفه حرساً من الملائكة يحوطونه من أن يسترقه الشياطين

فتلقيه الى الكهنة والمراد من جميع الجوانب ، قال الضحاك : ما بعث الله نبياً الا ومعه ملائكة يحفظونه من الشياطين أن يتشبهوا بصورة الملك ، فاذا جاءه شيطان في صورة الملك قالوا هذا شيطان فاحذره ، وإن جاءه الملك قالوا هذا رسول ربك .

قال ابن زيد : رصداً أي حفظة يحفظون النبي صلى الله عليه وسلم من أمامه ووراءه من الجن والشياطين ، قال قتادة ، وسعيد بن المسيب : هم أربعة من الملائكة حفظة ، وقال الفراء : المراد جبريل قال في الصحاح : الرصد القوم يرصدون كالحرس يستوي فيه الواحد والجمع والمؤنث والمذكر والراصد الشيء الراقب له ، يقال رَصَدَهُ يَرْصُدُهُ رَصْداً ورَصَداً والترصد الترقب والمرصد موضع الرصد .

قال ابن عباس في قوله (رصداً) هي معقبات من الملائكة يحفظون رسول الله من الشياطين حتى يبين الذي أرسل إليهم به ، وذلك حتى يقول أهل الشرك قد أبلغوا رسالات ربهم وعنه قال ما أنزل الله على نبيه آية من القرآن إلا ومعها أربعة من الملائكة يحفظونها حتى يؤدوها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قرأ الآية .

﴿ ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ﴾ اللام متعلقة بيسلك والمراد به العلم المتعلق بالإبلاغ الموجود بالفعل وأن هي المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن والخبر الجملة ، والرسالات عبارة عن الغيب الذي أريد إظهاره لمن ارتضاه الله من رسول ، وضمير أبلغوا يعود الى الرصد ، وقال قتادة ومقاتل ليعلم محمد أن الرسل قبله قد أبلغوا الرسالة كما بلغ هو الرسالة ، وفيه حذف يتعلق به اللام أي أخبرناه بحفظنا الوحي ليعلم أن الرسل قبله كانوا على حالته من التبليغ ، وقيل ليعلم محمد أن جبريل ومن معه قد أبلغوا اليه رسالات ربه ، قاله سعيد بن جبير .

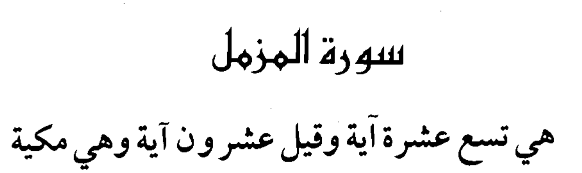
وقيل ليعلم الرسل أن الملائكة قد بلغوا رسالات ربهم ، وقيل ليعلم إبليس أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم من غير تخليط ، وقال ابن قتيبة :

ليعلم الجن أن الرسل قد أبلغوا ما أنزل اليهم ولم يكونوا هم المبلغين باستراق السمع عليهم ، وقال مجاهد ليعلم من كذب الرسل أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم .

قرأ الجمهور ليعلم بفتح التحتية على البناء للفاعل اي ليعلم الناس أن الرسل قد أبلغوا ، وقال الزجاج : ليعلم الله أن رسله قد أبلغوا رسالاته اي ليعلم ذلك عن مشاهدة كما علمه غيباً ، وقرىء بضم الياء على البناء للمفعول ، وقرىء بضم الياء وكسر اللام .

﴿ وأحاط بما لديهم ﴾ أي بما عند الرصد من الملائكة أو بما عند الرسل المبلغين لرسالاته ، والجملة في محل نصب على الحال من فاعل يسلك بإضمار قد أي والحال أنه تعالى قد أحاط بما لديهم من الأحوال ، قال سعيد بن جبير ليعلم أن ربهم قد أحاط بما لديهم فبلغوا رسالاته .

﴿ وأحصى كل شيء عدداً ﴾ معطوف على أحاط ، وعدداً يجوز أن يكون منتصباً على التمييز محولاً من المفعول به أي وأحصى عدد كل شيء كما في قوله : ﴿ وفجرنا الأرض عيوناً ﴾ ويجوز أن يكون منصوباً على المصدرية أو في موضع الحال أي معدوداً ، والمعنى أن علمه سبحانه بالأشياء ليس على وجه الإجمال بل على وجه التفصيل ، أي أحصى كل فرد من مخلوقاته التي كانت والتي ستكون على حدة فلم يخف عليه منها شيء على حدة .



قال الماوردي كلها مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. قال وقال ابن عباس وقتادة الا آيتين منها ﴿واصبر على ما يقولون﴾ والتي تليها، وقال الثعلبي الا قوله: ﴿إن ربك يعلم أنك تقوم﴾ الى آخر السورة فانه نزل بالمدينة، وأخرج النحاس عن ابن عباس أنه قال نزلت بمكة الا آيتين ﴿إن ربك يعلم﴾ الخ، وأخرج ابن الضريس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال نزلت يا أيها المزمل بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله، وعن جابر «قال اجتمعت قريش في دار الندوة فقالوا سموا هذا الرجل اسما تصدون الناس عنه فقالوا كاهن، قالوا ليس بكاهن، قالوا مجنون قالوا ليس بمجنون، قالوا ساحر، قالوا ليس بساحر فتفرق المشركون على ذلك. فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فتزمل في ثيابه وتدثر فيها فأتاه جبريل فقال: ﴿يا أيها المزمل، يا أيها المدثر﴾» أخرجه البزار والطبراني في الأوسط وأبو

نعيم في الدلائل. وقال البزار بعد إخراجه من طريق معلى بن عبد الرحمن أن معلى قد حدث عنه جماعة من أهل العلم واحتملوا حديثه لكنه اذا تفرد بالأحاديث لا يتابع عليها. وعن ابن عباس «قال بت عند خالتي ميمونة فقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم يصلي من الليل فصلى ثلاث عشرة ركعة منها ركعتا الفجر. فحزرت قيامه في كل ركعة بقدر يا أيها المزمل». أخرجه ابو داود والبيهقي في السنن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾

﴿ يا أيها المزمل ﴾ أصله المتزمل فأدغمت التاء في الزاي ، والتزمل التلفف في الثوب ، وفي المصباح زملته بثوبه فتزمل مثل لففته فتلفف وزملت الشيء حملته ، ومنه قيل للبعير زاملة بالهاء للمبالغة لأنه يحمل متاع المسافر ، قرأ الجمهور بالادغام ، وقرأ أبيّ (المتزمل) على الأصل وقرأ عكرمة بتخفيف الزاي ، وهذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد اختلف في معناه فقال جماعة إنه كان يتزمل صلى الله عليه وآله وسلم بثيابه في أول ما جاءه جبريل بالوحي فرقاً منه حتى أنس به ، وقيل المعنى يا أيها المزمل بالنبوة والملتزم للرسالة ، وبهذا قال عكرمة وكان يقرأ يا أيها المزمل بتخفيف الزاي وفتح الميم المشددة اسم مفعول ، وعنه أيضاً يا أيها الذي زمل هذا الأمر أي حمله ثم فتر ، وقيل المعنى يا أيها المزمل بالقرآن وقال الضحاك تزمل بثيابه لمنامه ونحوه عن قتادة ، وقيل بلغه من المشركين سوء قول فتزمل في ثيابه وتدثر ، فنزلت يا أيها المزمل ويا أيها المدثر .

وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما سمع صوت الملك ونظر اليه أخذته الرعدة فأتى أهله وقال زملوني دثروني ، وكان خطابه صلى الله عليه وآله وسلم بهذا الخطاب في أول نزول الوحي ، ثم بعد ذلك خوطب بالنبوة والرسالة ، وقال ابن عباس زملت هذا الأمر فقم به ، وعنه قال يتزمل بالثياب ، قال السهيلي ليس المزمل من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم كما ذهب اليه بعض الناس وعدوه في أسمائه صلى الله عليه وسلم ، وإنما المزمل

اسم مشتق من حاله التي كان عليها حين الخطاب ، وكذلك المدثر .

وفي خطابه صلى الله عليه وسلم بهذا الاسم فائدتان (إحداهما) الملاطفة فإن العرب اذا قصدت ملاطفة المخاطب وترك المعاتبة سموه باسم مشتق من حالته التي هو عليها « كقول النبي صلى الله عليه وسلم لعلي حين غاضب فاطمة رضي الله عنها فأتاه وهو نائم وقد لصق بجنبه التراب فقال له : « قم أبا تراب » ، إشعاراً له بأنه غير عاتب عليه وملاطف له . وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم لحذيفة « قم يا نومان وكان نائماً » ملاطفة له وإشعاراً بترك العتب ، فقول الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ يا أيها المزمل ﴾ فيه تأنيس له وملاطفة ليستشعر أنه غير عاتب عليه .

والفائدة الثانية التنبيه لكل متزمل راقد ليله أن يتنبه الى قيام الليل وذكر الله تعالى ، لأن الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه مع المخاطب كل من عمل ذلك العمل واتصف بتلك الصفة ، ذكره الخطيب .

﴿ قم الليل ﴾ أي قم للصلاة في الليل الذي هو وقت الخلوة والخفية والستر ، وقيل أن معنى قم صل عَبّر به عنه واستعير له ، واختلف هل كان هذا القيام الذي أمره به فرضاً عليه او نفلاً فقيل الأمر للوجوب ، وكان واجباً عليه وعلى أمته ، بل وعلى سائر الأنبياء قبله ، وأول ما فرض عليه صلى الله عليه وسلم بعد الدعاء والإنذار قيام الليل ، قال القرطبي ؛ والدلائل تقوي أن قيامه كان فرضاً عليه صلى الله عليه وآله وسلم وحده أو عليه وعلى من كان قبله من الأنبياء او عليه وعلى أمته ، ثلاثة أقوال : الأول قول سعيد بن جبير لتوجه الخطاب له ، والثاني قول ابن عباس ، والثالث قول عائشة وابن عباس أيضاً . كذا في الخطيب والخازن وغيرهما .

والعامة على كسر الميم لالتقاء الساكنين ، وأبو السماك يضمها إتباعاً لحركة القاف ، وقرىء بفتحها طلباً للخفة ، قال ابو الفتح والغرض الهرب من التقاء الساكنين فبأي حركة حرك الأول حصل الغرض .

قلت إلا أن الأصل الكسر لدليل ذكره النحويون ، والليل ظرف للقيام وإن استغرقه الحدث الواقع فيه ، هذا قول البصريين ، وأما الكوفيون فيجعلون هذا النوع مفعولاً به .

أخرج أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي والبيهقي وغيرهم عن سعد بن هشام قال قلت لعائشة « أنبئيني عن قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت ألست تقرأ هذه السورة ﴿ يا أيها المزمل ﴾ قلت بلى ، قالت فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم ، وأمسك الله خاتمتها في السماء اثني عشر شهراً . ثم أنزل التخفيف في آخر هذه السورة ، وصار قيام الليل تطوعاً من بعد فرضه » وقد روي هذا الحديث عنها من طرق .

وعن ابن عباس قال : « لما نزل أول المزمل كانوا يقومون نحواً من قيامهم في شهر رمضان حتى نزل آخرها وكان بين أولها وآخرها نحو من سنة » أخرجه البيهقي والحاكم وصححه والطبراني وغيرهم ، وعن ابي عبد الرحمن السلمي قال : « لما نزلت يا أيها المزمل قاموا حولاً حتى ورمت أقدامهم وسوقهم حتى نزلت ﴿ فاقرأوا ما تيسر منه ﴾ فاستراح الناس » وأخرج أبو داود في ناسخه وابن نصر وابن مردويه والبيهقي في سننه من طريق عكرمة عن ابن عباس « في الآية قال نسختها الآية التي فيها ﴿ علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرأوا ما تيسر من القرآن ﴾ » .

وقوله ﴿ إلا قليلاً ﴾ استثناء من الليل أي صل الليل كله إلا يسيراً منه ، والقليل من الشيء هو ما دون النصف ، وقيل ما دون السدس ، وقيل ما دون العشر ، وقال مقاتل والكلبي المراد بالقليل هنا الثلث وقد أغنانا عن هذا الاختلاف قوله ﴿ نصفه ﴾ قال الزجاج هو بدل من الليل والاستثناء هو من النصف .

﴿ أو انقص منه قليلاً ﴾ الضمير في منه وعليه عائد الى النصف والمعنى قم نصف الليل أو انقص من النصف قليلاً الى الثلث .

﴿ أو زد عليه ﴾ قليلاً الى الثلثين فكأنه قال قم ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه . وأو للتخيير بين قيام النصف وقيام الثلث الذي هو مفاد قوله أو انقص منه قليلاً ، وقيام الثلثين الذي هو مفاد أو زد عليه ، وقيل إن نصفه بدل من قوله قليلاً فيكون المعنى قم الليل إلا نصفه أو أقل من نصفه أو أكثر من نصفه ، وقال المحلي بدل من قليلاً ، وقلته بالنظر الى الكل انتهى .

قال الحفناوي قوله وقلته الخ جواب عما يقال أن النصف مساو للنصف الآخر فكيف يوصف بالقلة ومحصل الجواب أنه يوصف بها بالنظر لكل الليل لا بالنظر للنصف الآخر منه قال الأخفش نصفه أي أو نصفه كما يقال أعطه درهماً درهمين ثلاثة يريد أو درهمين أو ثلاثة ، قال الواحدي قال المفسرون او انقص من النصف قليلاً الى الثلث او زد على النصف الى الثلثين جعل له سعة في مدة قيامه في الليل ، وخيره في هذه الساعات للقيام ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم وطائفة معه يقومون على هذه المقادير ، وشق ذلك عليهم فكان الرجل لا يدري كم صلى أو كم بقي من الليل ، فكان يقوم الليل كله حتى خفف الله عنهم ورحمهم ونسخ وجوب قيام الليل في حقه وحقنا .

وقيل الضميران في (منه وعليه) راجعان للأقل من النصف كأنه قال قم أقل من نصفه أو قم أنقص من ذلك الأقل ، او أزيد منه قليلاً ، وهو بعيد جداً : والظاهر أن نصفه بدل من قليلاً ، والضميران راجعان الى النصف المبدل من قليلاً .

واختلف في الناسخ لهذا الأمر فقيل هو قوله ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه ﴾ الى آخر السورة كما تقدم وقيل هو قوله ﴿ علم أن لن تحصوه ﴾ الخ وقيل هو قوله ﴿ علم أن سيكون منكم مرضى ﴾ الخ وقيل هو منسوخ بالصلوات الخمس . وبهذا قال مقاتل والشافعي وابن كيسان ، وقيل هو قوله .

﴿ فاقرؤا ما تيسر منه ﴾ وليس في القرآن سورة نسخ آخرها أولها إلا هذه

السورة ، وكان بين نزول أولها المنسوخ وآخرها الناسخ سنة ، وقيل ستة عشر شهراً ، وهذا على القول بأن السورة كلها مكية .

وأما على القول بأن قوله ﴿ إن ربك يعلم ﴾ مدني فبين الناسخ والمنسوخ عشر سنين لما علمت أن نزول المنسوخ كان في أول الوحي بمكة ، ونزول الناسخ كان بالمدينة ، وأقل ما يتحقق بينهما عشر سنين ، وقد قال به سعيد بن جبير ، وقيل نسخ التقدير بمكة وبقي التهجد حتى نسخ بالمدينة ، وقيل نسخ أولها بآخرها ثم نسخ آخرها بإيجاب الصلوات الخمس ، وذهب الحسن وابن سيربن الى أن صلاة الليل فريضة على كل مسلم ولو قدر حلب شاة .

﴿ ورتل القرآن ترتيلاً ﴾ أي اقرأه على مهل مع تدبر ، وقيل بين وفصل من الثغر المرتل اي المفلج الأسنان ، وكلام رتل بالتحريك أي مرتل ، وثغر رتل أيضاً اذا كان مستوي البنيان ، أو اقرأ على تؤدة بتبيين الحروف وحفظ الوقوف وإشباع الحركات ، بحيث يتمكن السامع من عدها ، وقال الضحاك : اقرأه حرفاً حرفاً ، وقال الزجاج : هو أن يبين جميع الحروف ويوفي حقها من الإشباع ، وأصل الترتيل التنضيد والتنسيق وحسن النظام ، وقال ابن عباس : بينه تبيينا، وتأكيد الفعل بالمصدر يدل على المبالغة ، وإيجاب الأمر على وجه لا يلتبس فيه بعض الحروف ببعض ، ولا ينقص من النطق بالحرف من مخرجه المعلوم ، مع استيفاء حركته المعتبرة وأنه لا بد منه للقارىء .

عن قتادة قال سئل أنس « كيف كانت قراءة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال كانت مداً ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمد بسم الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم » أخرجه البخاري[1] ، وعن أم سلمة وقد سألها يعلى بن

---

(١) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (ورتِّل القرآن ترتيلاً) أي : اقرأه على تمهُّل فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبُّره ، قال ، وكذلك كان يقرأ صلوات الله وسلامه عليه ، قالت عائشة رضي الله عنها : كان يقرأ السورة فيرتِّلها حتى تكون أطول من أطوال منها . وفي « صحيح البخاري » عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : كانت مَدًّاً ، ثم قرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) يمد (بسم الله) ويمد (الرحمن) ويمد (الرحيم) . ثم قال : وروى الإمام

مـالك عن قـراءة رسول الله صلى الله عليـه وسلم وصلاتـه ، فقـالت « مـالكم وصلاته ، ثم نعتت قراءته فاذا هي تنعت قراءة مفسرة حرفـاً حرفـاً »[1] أخرجـه النسائي .

وللترمذي قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقطع قراءته يقول الحمد لله رب العالمين ، ثم يقف ، الرحمن الرحيم ، ثم يقف ، وكـان يقول مالك يـوم الدين ثم يقف » وفي روايـة أبي داود قالت « قـراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم بسم الله الرحمن الـرحيم ، الحمد لله رب العـالمين ؛ الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، يقطع قراءته آية آية »

وعن عبـد الله بن مغفل قـال : « رأيت رسول الله صلى الله عليـه وسلم يوم فتح مكة على ناقته يقرأ سورة الفتح فرجع في قراءته » أخـرجه الشيخـان . وعن جابر قال : « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نقرأ القرآن وفينا العربي والعجمي فقال اقرأوا وكل حسن ، وسيجيء أقوام يقيمونه كما يقام القدح يتعجلونه ولا يتأجلونه » أخرجه أبو داود ، وزاد غيره في رواية « لا يجاوز تراقيهم » .

وعن ابن مسعود قال لا تنثروه نثر الدقل ولا تهذوه هَذّ الشعر ، قفوا عند عجـائبه وحـركوا بـه القلوب ، ولا يكن هَمُّ أحدكم آخـر السورة ، وفي البـاب أحاديث .

والمقصود من الترتيل إنما هو حضور القلب عند القراءة لا مجـرد إخراج الحروف من الحلقوم بتعويج الـوجه والفم وألحـان الغناء كمـا يعتاده قـراء هذا الزمان من أهل مصر وغيره ، في مكة المكرمة وغيرها ، بـل هو بـدعة أحـدثها البطالون الأكالون ، والحمقاء الجاهلون بالشرائع وأدلتها الصادقة ، وليس هـذا بأول قارورة كسرت في الإسلام .

أحمـد عن عبد الله بن عمـرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قـال : « يقال لقـارىء القرآن : اقـرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأها » ورواه أبـو داود والترمـذي والنسائي وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .

(١) زاد المسير ٨/٣٨٩ .

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾﴾

وقوله ﴿ إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ﴾ اعْتراض بين الأمر بقيام الليل وبين تعليله بقوله الآتي ﴿ إن ناشئة الليل ﴾ والقصد بهذا الاعتراض تسهيل ما كلفه من القيام كأنه يقول إن قيام الليل وإن كان عليك فيه مشقة لكنه أسهل من غيره من التكاليف فإنا سنلقي الخ . وقال السمين هذه الجملة مستأنفة ، وقال الزمخشري هذه الآية اعتراض ويعني بالاعتراض من حيث المعنى لا من حيث الصناعة ، والمعنى سنوحي وسننزل اليك القرآن وهو قول ثقيل ، وكلام عظيم ذو خطر وعظمة ، لأنه كلام رب العالمين وكل شيء له خطر ومقدار فهو ثقيل .

قال قتادة : ثقيل والله فرائضه وحدوده ، وقال مجاهد : حلاله وحرامه ، وقال الحسن : العمل به ، وقال ابو العالية : ثقيلاً بالوعد والوعيد والحلال والحرام ، وقال محمد بن كعب : ثقيل على المنافقين والكفار بما فيها من الاحتجاج عليهم والبيان لضلالهم وهتك أسرارهم ، وبطلان أديانهم وسب آلهتهم ، وقال السدي : ثقيل بمعنى كريم من قولهم فلان ثقل عليّ أي كرم عليّ ، قال الفراء : ثقيلاً أي رزيناً ليس بالخفيف السفساف ، لأنه كلام ربنا ، وقال الحسين بن الفضل : ثقيلاً لا يحمله إلا قلب مؤيد بالتوفيق ، ونفس مزينة بالتوحيد ، وقيل هو خفيف على اللسان بالتلاوة ثقيل في الميزان بالثواب يوم القيامة ، وقيل ثقيل أي ثابت كثبوت الثقيل في محله ، ومعناه أنه ثابت الإعجاز لا يزول إعجازه أبداً ، وقيل وصفه بكونه ثقيلاً حقيقة لما ثبت « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا أوحي اليه وهو على ناقته وضعت جرانها[1] على الأرض فما تستطيع أن تتحرك حتى يسرى عنه » أخرجه أحمد

(١) الجران : باطن العنق .

وعبد بن حميد والحاكم وصححه عن عائشة[1] .

وقيل ثقيلاً بمعنى أن العقل الواحد لا يفي بادراك فوائده ومعانيه بالكلية ، فالمتكلمون غاصوا في بحار معقولاته ، والفقهاء بحثوا عن أحكامه وكذا أهل اللغة والنحو والمعاني والبيان ، ثم لا يزال كل متأخر يفوز منه بفوائد ما وصل اليها المتقدمون ، فعلمنا أن الإنسان الواحد لا يقوى على الاستقلال بحمله فصار كالجبل الثقيل الذي يعجز الخلق عن حمله ، والأولى أن جميع هذه المعاني فيه ، وقال القشيري القول الثقيل هو قول لا إلّه إلا الله لأنه ورد في الخبر « لا إلّه إلا الله خفيفة على اللسان ثقيلة في الميزان » .

﴿ إن ناشئة الليل ﴾ أي ساعاته وأوقاته ، لأنها تنشأ أولاً فأولاً ، يقال نشأ الشيء ينشأ إذا ابتدىء وأقبل شيئاً بعد شيء فهو ناشىء وأنشأه الله فنشأ، ومنه نشأت السحاب إذا بدأت، فناشئة فاعلة من نشأت تنشىء فهي ناشئة، قال الزجاج : ناشئة الليل كل ما نشأ منه أي حدث فهو ناشئة ، قال الواحدي : قال المفسرون الليل كله ناشئة ، والمراد أن ساعات الليل الناشئة فاكتفى بالوصف عن الاسم الموصوف ، وقيل إن ناشئة الليل هي النفس التي تنشأ من مضجعها للعبادة أي تنهض ، من نشأ من مكانه اذا نهض ، وقيل إنما يقال لقيام الليل ناشئة اذا كان بعد نوم ، فلو لم يتقدمه نوم لم يكن ناشئة ،وقيل ما ينشأ فيه من الطاعات .

قال ابن الأعرابي اذا نمت من أول الليل ثم قمت فتلك المنشأة والنشأة ومنه ناشئة الليل قيل وناشئة الليل هي ما بين المغرب والعشاء لأن معنى نشأ ابتدأ وكان زين العابدين علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما يصلي بين المغرب والعشاء ويقول : هذه ناشئة الليل ، وقال عكرمة وعطاء : هي بدو

---

(١) رواه البخاري في « صحيحه » عن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف يأتيك الوحي ؟ فقال : أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده عليَّ ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلّمني فأعي ما يقول : قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي صلى الله عليه وسلم في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه يتفصَّد عرقاً .

الليل ، وقال مجاهد وغيره : هي في الليل كله لأنه ينشأ بعد النهار ، واختار هذا مالك ، وقال ابن كيسان هي القيام من آخر الليل .

وقال في الصحاح : ناشئة الليل أول ساعاته ، وقال الحسن : هي ما بعد العشاء الآخرة الى الصبح ، وقال ابن عباس : هي قيام الليل بلسان الحبشة اذا قام الرجل قالوا نشأ ، قال الشيخ فعلى هذا هي جمع ناشىء أي قائم (قلت) يعني أنها صفة لشيء يفهم الجمع اي طائفة أو فرقة ناشئة وإلا ففاعل لا يجمع على فاعلة .

وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال : هي أوله ، وعنه قال الليل كله ناشئة ، وعن ابن مسعود قال ناشئة الليل بالحبشية قيام الليل ، وعن انس بن مالك : قال هي ما بين المغرب والعشاء .

﴿ هي أشد وطأً ﴾ قرأ الجمهور بفتح الواو وسكون الطاء مقصورة واختارها أبو حاتم وقرىء بكسر الواو وفتح الطاء ممدودة واختار هذه الفراء وأبو عبيدة ، فالمعنى على الأولى أن الصلاة ناشئة الليل أثقل على المصلي من صلاة النهار ، لأن الليل للنوم ، قال ابن قتيبة المعنى أنها أثقل على المصلي من ساعات النهار من قول العرب اشتدت على القوم وطأة السلطان اذا ثقل عليهم ما يلزمهم منه ، ومنه قوله صلى الله عليه عليه وآله وسلم « اللهم اشدد وطأتك على مضر »[1] .

والمعنى على القراءة الثانية أنها أشد مواطأة أي موافقة السمع للقلب على تفهم القرآن من قولهم واطأت فلاناً على كذا مواطأة ووطاء اذا وافقته عليه ، قال مجاهد وابن أبي مليكة : اي أشد موافقة بين القلب والسمع والبصر واللسان ، لانقطاع الأصوات والحركات فيها ، ومنه ﴿ ليواطئوا عدة ما حرم الله ﴾ اي ليوافقوا ، وقال الأخفش : أشد قياماً ، وقال الفراء : أي أثبت للعمل وأدوم لمن أراد الاستكثار من العبادة ، والليل وقت الفراغ عن الاشتغال

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله في قصة القنوت في صلاة الصبح .

بالمعاش ، فعبادته تدوم ولا تنقطع ، وقال الكلبي أشد نشاطاً .

﴿ وأقوم قيلاً ﴾ أي أبين قولاً ، وأسد مقالاً ، وأثبت قراءة وأصح قولاً من النهار لحضور القلب فيها وهدو الأصوات وسكونها ، وأشد استقامة واستمراراً على الصواب ، لأن الأصوات فيها هادئة والدنيا ساكنة ، فلا يضطرب على المصلي ما يقرأه ، قال قتادة ومجاهد : أي أصوب للقراءة وأثبت للقول لأنه زمان التفهم ، قال أبو علي الفارسي : أقوم قيلاً أي أشد استقامة بفراغ البال بالليل ، قال الكلبي : أي أبين قولاً بالقرآن ، وقال عكرمة : أي أتم نشاطاً وإخلاصاً وأكثر بركة ، وقال ابن زيد : أجدر أن يتفقه في القرآن وقيل أعجل إجابة للدعاء .

﴿ إن لك في النهار سبحاً طويلاً ﴾ قرأ الجمهور بالحاء المهملة أي تصرفاً في حوائجك وأشغالك وإقبالاً وإدباراً وذهاباً ومجيئاً ، والسبح الجري والدوران ومنه السباحة في الماء لتقلبه بيديه ورجليه ، وفرس سابح أي شديد الجري ، وقد استعير من السباحة في الماء للتصرف في الحوائج ، وقيل السبح الفراغ أي أن لك فراغاً بالنهار للحاجات فصل بالليل .

وقال ابن عباس : السبح الفراغ للحاجة والنوم ، قال ابن قتيبة : أي تصرفاً وإقبالاً وإدباراً في حوائجك وأشغالك وقيل فراغاً وسعة لنومك وراحتك ، وقال الخليل : سبحاً أي نوماً والسبح التمدد ، وقال الزجاج : المعنى إن فاتك في الليل شيء فلك في النهار فراغ للاستدراك .

وقرىء سبخاً بالخاء المعجمة قيل ومعنى هذه القراءة الخفة والسعة والاستراحة ، قال الأصمعي يقال سبخ الله الحمى أي خففها ، وسبخ الحر فتر وخف ومنه قول الشاعر .

فسبخ عليك الهم واعلم بأنه إذا قدر الرحمن شيئاً فكائن

أي خفف عنك الهم ، والتسبيخ من القطن ما ينسبخ بعد الندف ، وقال ثعلب السبخ بالخاء المعجمة التردد والاضطراب ، والسبخ السكون ، وقال ابو عمر السبخ النوم والفراغ .

وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾

﴿ واذكر اسم ربك ﴾ أي ادعه بأسمائه الحسنى ، وقيل اقرأ باسم ربك في ابتداء صلاتك وقيل اذكر اسم ربك في وعده ووعيده لتوفر على طاعته وتبعد عن معصيته ، وقيل المعنى دم على ذكر ربك وتلاوة القرآن ودراسة العلم ليلاً ونهاراً ، واستكثر من ذلك على أي وجه كان من تسبيح وتهليل وتحميد وصلاة وقراءة قرآن ، قاله القاضي كالكشاف ، وقال الكلبي : المعنى صل لربك وقال المحلي : أي قل بسم الله الرحمن الرحيم في ابتداء قراءتك انتهى تبع فيه سهلاً وزاد عليه سهل توصلك ببركة قراءتها الى ربك وتقطعك عما سواه ، ذكره الكرخي ، ومعنى في ابتداء قراءتك سواء قرأت في الصلاة أو في خارجها ، وهذا اذا قرأ من أول سورة ، وأما اذا قرأ من اثناء سورة فانه إن كان في غير الصلاة سن له أن يبسمل ، وإن كان فيها لم تسن له البسملة لأن قراءة السورة بعد الفاتحة تعد قراءة واحدة فتأمل .

﴿ وتبتل تبتيلاً ﴾ أي انقطع اليه انقطاعاً بالإشتغال لعبادته ، والتبتل الانقطاع يقال تبتلت الشيء اي قطعته وميزته عن غيره ، وصدقة بتلة اي منقطعة من مال صاحبها ، ويقال للراهب تبتل لانقطاعه عن الناس ، ووضع تبتيلاً مكان تبتلاً لرعاية الفواصل ، قال الواحدي والتبتل رفض الدنيا وما فيها والتماس ما عند الله ، وقيل المعنى أخلص اليه إخلاصاً ، وقيل توكل عليه توكلاً .

﴿ رب المشرق والمغرب ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر وابن عامر بجر ﴿ رب ﴾ على النعت لربك او البدل منه أو البيان له ، وقرأ الباقون برفعه على أنه مبتدأ وخبره .

﴿ لا إلَه الا هو ﴾ أو على أنه خبر مبتدأ محذوف اي هورب الخ وقرأ زيد بن علي بنصبه على المدح ، وقرأ الجمهور المشرق والمغرب مفردين ، وقرأ ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم المشارق والمغارب على الجمع ، وقد قدمنا تفسير المشرق والمغرب والمشرقين والمغربين والمشارق والمغارب .

﴿ فاتخذه وكيلاً ﴾ اي اذا عرفت أنه المختص بالربوبية فاتخذه قائماً بأمورك وعول عليه في جميعها ، وقيل كفيلاً بما وعدك من الجزاء والنصر ، وفائدة الفاء أن لا تلبث بعد أن عرفت في تفويض الأمور الى الواحد القهار اذ لا عذر لك في الانتظار بعد الإقرار .

قال البقاعي وليس ذلك بأن يترك الإنسان كل عمل فإن ذلك طمع فارغ بل بالإجمال في طلب كل ما ندب الانسان الى طلبه ليكون متوكلاً في السبب ، منتظراً المسبب ، فلا يهمل الأسباب ويتركها طامعاً في المسببات ، لأنه حينئذ يكون كمن يطلب الولد من غير زوجة ، وهو مخالف لحكمة هذه الدار المبنية على الأسباب .

﴿ واصبر على ما يقولون ﴾ فيَّ من الصاحبة والولد ، وفيك من الساحر والشاعر ، والأذى والسب والاستهزاء ولا تجزع من ذلك ﴿ واهجرهم هجراً جميلاً ﴾ أي لا تتعرض لهم ولا تشتغل بمكافآتهم وتجانبهم وتداريهم وكل أمرهم الى الله فالله يكفيكهم ، وقيل الهجر الجميل الذي لا جزع فيه . وهذا كان قبل الأمر بالقتال .

﴿ وذرني والمكذبين ﴾ أي دعني وإياهم ولا تهتم بهم ، فإني أكفيك أمرهم وأنتقم لك منهم ، وقيل نزلت في المطعميين يوم بدر ، وهم عشرة ،

وقد تقدم ذكرهم ، وقال يحيي بن سلام : هم بنو المغيرة ، وقال سعيد بن جبير : أخبرت أنهم إثنا عشر .

﴿ أولي النعمة ﴾ أي أرباب الغنى والسعة والترفه واللذة في الدنيا ، والنعمة بالفتح التنعم بالكسر الإنعام وبالضم المسرة .

﴿ ومهلهم قليلاً ﴾ أي تمهيلاً قليلاً ، على أنه نعت لمصدر محذوف ، أو زماناً قليلاً على أنه صفة لزمان محذوف ، والمعنى أمهلهم الى انقضاء آجالهم ، وقيل الى نزول عقوبة الدنيا بهم كيوم بدر ، قالت عائشة « لما نزلت هذه الآية لم يكن إلا يسيراً حتى كانت وقعة بدر » وقيل الى يوم القيامة ، والأول أولى لقوله :

﴿ إن لدينا أنكالاً ﴾ وما بعده فإنه وعيد لهم بعذاب الآخرة ، والأنكال جمع نكل وهو القيد كما قال الحسن ومجاهد وغيرهما ، قال ابن مسعود : أنكالاً قيوداً ، وقال الكلبي : الأنكال : الأغلال من حديد ، والأول أعرف في اللغة ، وقال مقاتل : هي أنواع العذاب الشديد ، وقال أبو عمران الجوني هي قيود لا تحل .

﴿ وجحيماً ﴾ أي ناراً مؤججة محرقة ﴿ وطعاماً ذا غصة ﴾ أي لا يسوغ في الحلق بل ينشب فيه فلا ينزل ولا يخرج ،، قال ابن عباس : هو شجرة الزقوم ، وبه قال مجاهد ، وقال الزجاج : هو الضريع كما قال تعالى :

﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾ وقال : هو شوك العوسج ، قال عكرمة : هو شوك يأخذ بالحلق لا يدخل ولا يخرج والغصة الشجى في الحلق وهو ما ينشب فيه من عظم أو غيره وجمعها غصص ﴿ وعذاباً اليماً ﴾ أي ونوعاً آخر من العذاب غير ما ذكر وجعاً يخلص وجعه الى القلب .

﴿ يوم ترجف الأرض والجبال ﴾ انتصاب الظرف إما بذرني او بالاستقرار المتعلق به لدينا او هو صفة لعذاب فيتعلق بمحذوف أي عذاباً واقعاً يوم ترجف ، أو متعلق بأليمٍ ، قرأ الجمهور ترجف بفتح التاء وضم الجيم مبنياً

للفاعل ، وقرىء مبنياً للمفعول مأخوذ أرجفها ، والمعنى تتحرك وتتزلزل وتضطرب بمن عليها وهو يوم القيامة ، والرجفة الزلزلة والرعدة الشديدة .

﴿ وكانت الجبال ﴾ أي وتكون الجبال التي هي مراسي الأرض وأوتادها ﴿ كثيباً مهيلاً ﴾ وإنما عبر عنه بالماضي لتحقق وقوعه ، والكثيب الرمل المجتمع من كثب الشيء اذا جمعه ، كأنه فعيل بمعنى مفعول ، والمهيل الذي يمر تحت الأرجل ، قال الواحدي : أي رملاً سائلاً يقال لكل شيء أرسلته إرسالاً من تراب أو طعام أهلته هيلاً ، قال الضحاك والكلبي : المهيل الذي اذا وطئته بالقدم زل من تحتها ، واذا أخذت أسفله انهال . وقال ابن عباس : المهيل الذي اذا أخذت منه شيئاً تبعك آخره ، وعنه قال المهيل الرمل السائل .

﴿ إنا أرسلنا اليكم رسولاً شاهداً عليكم ﴾ الخطاب لأهل مكة أو لكفار قريش أو لجميع الكفار ففيه التفات من الغيبة في قوله ﴿ واصبر على ما يقولون ﴾ وقوله : ﴿ والمكذبين ﴾ والرسول محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى يشهد عليكم يوم القيامة بأعمالكم .

﴿ كما أرسلنا الى فرعون رسولاً ﴾ يعني موسى ﴿ فعصى فرعون الرسول ﴾ الذي أرسلناه اليه وكذبه ولم يؤمن بما جاء به ، والنكرة اذا أعيدت معرفة كان الثاني عين الأول ، وإنما خص موسى وفرعون بالذكر لأن خبرهما كان منتشراً بين أهل مكة ، لأنهم كانوا جيران اليهود ، والمعنى إنا أرسلنا اليكم رسولاً فعصيتموه كما أرسلنا الى فرعون رسولاً فعصاه .

﴿ فأخذناه أخذاً وبيلاً ﴾ أي شديداً ثقيلاً غليظاً ، ومنه قيل للمطر وابل ، وقال الأخفش شديداً ، وبه قال ابن عباس ، والمعنى متقارب ، ومنه طعام وبيل اذا كان لا يستمرأ .

﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (١٨) ﴾

﴿ فكيف تتقون ﴾ أي فكيف تقون أنفسكم وتوجدون الوقاية التي تقي أنفسكم ، والمعنى لا سبيل لكم الى التقوى اذا رأيتم القيامة ، وقيل معناه فكيف تتقون العذاب يوم القيامة ﴿ إن كفرتم ﴾ أي اذا بقيتم على كفركم في الدنيا ﴿ يوماً ﴾ أي عذاب يوم .

﴿ يجعل الولدان شيباً ﴾ لشدة هوله أي يصير الولدان شيوخاً شمطاً ، والشيب جمع أشيب ، وهذا يجوز أن يكون حقيقة وأنهم يصيرون كذلك ، أو تمثيلاً لأن من شاهد الهول العظيم تقاصرت قواه وضعفت أعضاؤه وصار كالشيخ في الضعف وسقوط القوة ، قال الشاعر :

والهم يخترم الجسيم نحافة ويشيب ناصية الصبى ويهرم

قال في المصباح والشيب ابيضاض الشعر المسود وشيب الحزن رأسه وبرأسه بالتشديد وأشابه بالألف وأشاب به فشاب في المطاوع انتهى . وفي القاموس الشيب الشعر وبياضه كالمشيب وهو أشيب ، ولا فعلاء له أي لا يقال امرأة شيباء كما في المصباح ، وقومٌ شِيبٌ وَشُيُبٌ بضمتين ، وقيل يحتمل أن يكون المراد وصف ذلك اليوم بالطول وأن الأطفال يبلغون منه الشيخوخة والشيب ، والأول أولى . وفي هذا توبيخ لهم شديد وتقريع عظيم .

قال الحسن أي كيف تتقون يوماً يجعل الولدان شيباً إن كفرتم وكذا قرأ ابن مسعود وعطية ، ويوماً مفعول به لتتقون ، قال ابن الأنباري : ومنهم من نصب اليوم بكفرتم ، وهذا قبيح ، والولدان الصبيان .

وعن ابن عباس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ يجعل الولدان شيباً قال ذلك يوم القيامة . وذلك يوم يقول الله لآدم قم فابعث من ذريتك بعثاً الى النار ، قال من كم يا رب ؟ قال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين

وينجو واحد ، فاشتد ذلك على المسلمين فقال حين أبصر ذلك في وجوههم إن بني آدم كثير ، وأن يأجوج ومأجوج من ولد آدم إنه لا يموت رجل منهم حتى يرثه لصلبه الف رجل ففيهم وفي أشباههم جنة لكم » أخرجه الطبراني وابن مردويه ، وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود بأخصر منه .

ثم زاد سبحانه في وصف ذلك اليوم بالشدة فقال : ﴿ السماء منفطر به ﴾ أي منشقة به لشدته وعظيم هوله ، فما ظنك بغيرها من الخلائق ، والجملة صفة أخرى ليوم والباء سببية ، وجوز الزمخشري أن تكون للاستعانة فإنه قال والباء في « به » مثلها في قولك فطرت العود بالقدوم فانفطر به ، وقال القرطبي إنها بمعنى « في » أي منفطر فيه وهو ظاهر ، وقيل بمعنى اللام أي منفطر له ، وإنما قال منفطر ولم يقل منفطرة لتنزيل السماء منزلة شيء لكونها قد تغيرت ولم يبق منها إلا ما يعبر عنه بالشيء .

وقال أبو عمرو بن العلاء : لم يقل منفطرة لأن مجازها السقف ، فيكون هذا كما في قوله ﴿ وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً ﴾ وقال الفراء : السماء تذكر وتؤنث ، وقال ابو علي الفارسي : هو من باب الجراد المنتشر ، والشجر الأخضر و ﴿ أعجاز نخل منقعر ﴾ وقال أيضاً أي السماء ذات انفطار كقولهم امرأة مرضع ، أي ذات إرضاع على طريق النسب . وانفطارها لنزول الملائكة قال :

﴿ اذا السماء انفطرت ﴾ وقوله : ﴿ والسموات يتفطرن من فوقهن ﴾ وقيل منفطر به أي بالله والمراد بأمره ، والأول أولى ، وقال ابن عباس : منفطر به ممتلئة بلسان الحبشة وعنه قال مثقلة موقرة ، وعنه قال يعني تشقق السماء .

﴿ وكان وعده مفعولاً ﴾ أي كان وعد الله بما وعد به من البعث والحساب وغير ذلك كائناً لا محالة ، والمصدر مضاف الى فاعله ، أو وكان وعد اليوم مفعولاً فالمصدر مضاف الى مفعوله ، ومعنى مفعولاً أنه مقضي نافذ لا يرد على حد ﴿ من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ﴾ قال مقاتل كان وعده أن يظهر دينه على الدين كله .

إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴿٢٠﴾

﴿ إن هذه ﴾ أي ما تقدم من الآيات ﴿ تذكرة ﴾ أي موعظة ، وقيل الاشارة الى جميع آيات القرآن لا الى ما في هذه السورة فقط ﴿ فمن شاء ﴾ النجاة ﴿ اتخذ ﴾ بالطاعة التي هي أهم أنواعها التوحيد ﴿ الى ربه سبيلاً ﴾ أي طريقاً توصله الى الجنة ، وقال القرطبي أي من أراد أن يؤمن ويتخذ بذلك الى ربه سبيلاً أي طريقاً الى رضاه ورحمته فليرغب فقد أمكن له لأنه أظهر له الحجج والدلائل .

﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى ﴾ أي أقل ، استعير له الأدنى لأن المسافة بين الشيئين اذا دنت قل ما بينهما من الإحياز ، واذا بعدت كثر ذلك ﴿ من ثلثي الليل ونصفه ﴾ معطوف على أدنى ، وقوله : ﴿ وثلثه ﴾ معطوف على نصفه ، والمعنى أن الله يعلم أن رسوله صلى الله عليه وسلم يقوم أقل من ثلثي الليل ويقوم نصفه ويقوم ثلثه وبالنصب قرأ ابن كثير والكوفيون ، وقرأ الجمهور ونصفه وثلثه بالجر عطفاً على ثلثي الليل ، والمعنى أن الله يعلم أن رسوله يقوم أقل من ثلثي الليل وأقل من نصفه وأقل من ثلثه ، واختار قراءة الجمهور أبو عبيد وأبو حاتم لقوله الآتي :

﴿ علم أن لن تحصوه ﴾ فكيف يقومون نصفه وثلثه وهم لا يحصونه ، وقال الفراء النصب أشد بالصواب ، لأنه قال أقل من ثلثي الليل ثم فسر نفس القلة .

﴿ وطائفة من الـذين معك ﴾ معـطوف على الضمير ﴿ تقـوم ﴾ وجاز من غير تأكيد للفصل أي وتقوم ذلك القدر معك طائفة من أصحـابك ﴿ والله يقـدر الليل والنهار ﴾ أي يعلم مقاديرهما على حقائقها ، ويختص بذلك دون غيره ، وأنتم لا تعلمون ذلك على الحقيقة ، قال عـطاء يريـد لا يفوتـه علم ما يفعلون أي أنـه يعلم مقاديـر الليل والنهـار فيعلم قدر الـذي يقومـونه من الليـل والذي ينامون منه .

﴿ علم أن لن تحصوه ﴾ أي لن تطيقـوا علم مقاديـرهما على الحقيقـة ، وفي أن ضمير شأن محذوف أي أنه وقيـل المعنى لن تطيقـوا قيام الليـل ، قال القرطبي والأول أصح ، فان قيام الليل ما فـرض كله قط قال مقـاتل وغيـره لما نزل ﴿ قم الليل إلا قليـلاً نصفه أو انقص منـه قليلاً ، أو زد عليـه ﴾ شق ذلك عليهم وكان الرجل لا يدري متى نصف الليل من ثلثه فيقوم حتى يصبح مخافة أن يخـطىء فانتفخت أقدامهم وامْتُقِعَتْ[1] ألـوانهم ، فـرحمهم الله وخفف عنهم فقال ﴿ علم أن لن تحصوه ﴾ لأنكم إن زدتم ثقـل عليكم واحتجتم الى تكلف ما ليس فرضاً ، وإن نقصتم شق ذلك عليكم .

﴿ فتاب عليكم ﴾ أي فعاد عليكم بـالعفو ورخص لكم في تـرك القيام ، وقيل أسقط عنكم فرض القيام إذ عجزتم ، وأصل التوبة الرجـوع كما تقـدم ، فـالمعنى رجع بكم من التثقيـل الى التخفيف ، ومن العسـر الى اليسـر ، قـال المحلي رجـع بكم الى التخفيف ، قال الحفنـاوي فالمـراد التوبـة اللغـويـة لا التوبة من الـذنب والمراد بـالتخفيف الذي رجـع بهم اليه مـا كان قبـل وجوب القيام لكن الرجوع في الجملة لأنه قبل وجوب قيـام الليل لم يكن عليهم قيـام شيء منه ، وفي هذا الرجوع والتخفيف وجوب جزء مطلق يصدق بركعتين .

﴿ فاقرأوا مـا تيسر من القـرآن ﴾ بيان للبـدل الذي وقـع النسخ اليـه أي فنسخ التقدير بالأجزاء الثلاثة الى جزء مطلق من الليل ، وسيأتي أن هذا الجـزء نسخ أيضاً بوجوب الصلوات الخمس ، والمعنى فاقرأوا في الصـلاة بالليـل ما

(١) امتُقِعَ لونه (بالبناء للمجهول) تغيَّر من حزن أو فزع أو مرض .

خف عليكم وتيسر لكم منه من غير أن ترقبوا وقتاً ، قاله القرطبي ورجحه ، قال الحسن هو ما يقرأ في صلاة المغرب والعشاء ، وقال السدي : ما تيسر منه هو مائة آية ، وقال الحسن أيضاً : من قرأ مائة آية في ليلة لم يحاجه القرآن ، وقال كعب : من قرأ في ليلة مائة آية كتب من القانتين ، وقال سعيد خمسون آية وعن ابن عباس مرفوعاً قال مائة آية أخرجه الطبراني وابن أبي حاتم وابن مردويه .

وعن قيس بن أبي حازم قال : « صليت خلف ابن عباس فقرأ في أول ركعة بالحمد لله رب العالمين وأول آية من البقرة ثم ركع فلما انصرفنا أقبل علينا فقال إن الله يقول فاقرأوا ما تيسر منه » أخرجه الدارقطني والبيهقي في سننه وحسناه ، قال ابن كثير هذا حديث غريب جداً لم أره إلا في معجم الطبراني .

وعن ابي سعيد عند أحمد والبيهقي في سننه قال : « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسر » وقد قدمنا في أول هذه السورة ما روي أن هذه الآيات المذكورة هنا هي الناسخة لوجوب قيام الليل وقيل المعنى فصلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل ، والصلاة تسمى قرآناً كقوله ﴿ وقرآن الفجر ﴾ قيل إن هذه الآية نسخت قيام الليل ونصفه والنقصان من النصف والزيادة عليه فيحتمل أن يكون ما تضمنته هذه الآية فرضاً ثابتاً ويحتمل أن يكون منسوخاً لقوله ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ .

قال الشافعي : الواجب طلب الاستدلال بالسنة على أحد المعنيين ، فوجدنا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تدل على أن لا واجب من الصلاة إلا الخمس ، وقد ذهب قوم الى أن قيام الليل نسخ في حقه صلى الله عليه وسلم وفي حق أمته ، وقيل نسخ التقدير بمقدار ، وبقي أصل الوجوب وقيل أنه نسخ في حق الأمة وبقي فرضاً في حقه صلى الله عليه وسلم ، والأول القول بنسخ قيام الليل على العموم في حقه صلى الله عليه وسلم وفي حق

أمته ، وليس في قوله : ﴿ فاقرأوا ما تيسر منه ﴾ ما يدل على بقاء شيء من الوجوب ، لأنه إن كان المراد به القراءة من القرآن فقد وجدت في المغرب والعشاء وما يتبعهما من النوافل المؤكدة ، وإن كان المراد به الصلاة من الليل فقد وجدت صلاة الليل بصلاة المغرب والعشاء وما يتبعهما من التطوع .

وأيضاً الأحاديث الصحيحة المصرحة بقول السائل لرسول الله صلى الله عليه وسلم هل على غيرها يعني الصلوات الخمس ، فقال « لا إلا أن تطوع » تدل على عدم وجوب غيرها فارتفع بهذا وجوب قيام الليل وصلاته على الأمة كما ارتفع وجوب ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم بقوله :

﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ﴾ قال الواحدي قال المفسرون في قوله : ﴿ فاقرأوا ما تيسر منه ﴾ كان هذا في صدر الإسلام ثم نسخ بالصلوات الخمس عن المؤمنين وثبت على النبي صلى الله عليه وسلم خاصة ، وذلك قوله ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ .

قلت فيه نظر لأن وجوب الصلوات الخمس لا ينافي وجوب قيام الليل ، وشرط الناسخ أن يكون حكمه منافياً ومعارضاً لحكم المنسوخ كوجوب العدة بحول مع وجوبها بأربعة أشهر فليتأمل ، فالصواب أن يكون النسخ بغير ذلك كالحديث الذي قدمنا .

ثم ذكر سبحانه عذرهم فقال : ﴿ علم أن سيكون منكم مرضى ﴾ فلا يطيقون قيام الليل ويشق عليهم ذلك ، وقال الحفناوي هذا استئناف مبين لحكمة أخرى ، فالحكمة الأولى هي قوله : ﴿ علم أن لن تحصوه ﴾ والثانية هي قوله ﴿ علم أن سيكون ﴾ الخ

﴿ وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله ﴾ أي يسافرون فيها للتجارة والأرباح يطلبون من رزق الله ما يحتاجونه اليه في معاشهم فلا يطيقون قيام الليل ﴿ وآخرون يقاتلون في سبيل الله ﴾ يعني الغزاة والمجاهدين فلا يطيقون قيام الليل ، قال النسفي : سوى سبحانه وتعالى في هذه الآية بين

درجة المجاهد والمكتسب ، لأن كسب الحلال جهاد .

قال ابن مسعود أيما رجل جلب شيئاً الى مدينة من مدائن المسلمين صابراً محتسباً فباعه بسعر يومه كان عند الله من الشهداء ثم قرأ هذه الآية ، وقال ابن عمر ما خلق الله موتة أموتها بعد القتل في سبيل الله احب إليَّ من أن أموت بين شعبتي رحل أضرب في الأرض أُبتغي من فضل الله ، وقال طاوس الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله .

ثم لما ذكر سبحانه ههنا ثلاثة أسباب مقتضية للترخيص ورفع وجوب القيام فرفعه عن جميع الأمة لأجل هذه الأعذار التي تنوب بعضهم ، ذكر ما يفعلونه بعد هذا الترخيص فقال ﴿ فاقرأوا ما تيسر منه ﴾ وقد تقدم تفسيره قريباً والتكرير للتأكيد ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ يعني المفروضة وهي الخمس لوقتها ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ يعني الواجبة في الأموال[1] ، وقال الحرث العكلي صدقة الفطر لأن زكاة الأموال وجبت بعد ذلك ، وقيل صدقة التطوع ، وقيل كل أفعال الخير .

﴿ وأقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾ أي أنفقوا ما سوى المفروض في سبل الخير من أموالكم إنفاقاً حسناً عن طيب قلب ، وإنما أضافه الى نفسه لئلا يمن على الفقير فيما يتصدق به عليه ، وهذا لأن الفقير معاون له في تلك القربة فلا تكون له عليه منة ، بل المنة للفقير عليه ، وقد مضى تفسيره في سورة الحديد .

---

(١) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) أي : أقيموا صلاتكم الواجبة عليكم ، وآتوا الزكاة المفروضة ، قال : وهذا يدل لمن قال : إن فرض الزكاة نزل بمكة ، لكن مقادير النُصُب والمخرَج لم تُبيّن إلا بالمدينة ، والله أعلم . قال : وقد قال ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ، وغير واحد من السلف : إن هذه الآية نسخت الذي كان الله قد أوجبه على المسلمين أولاً من قيام الليل ، واختلفوا في المدة التي بينهما على أقوال ، وقد ثبت في « الصحيحين » أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لذلك الرجل الذي سأل : ماذا فرض الله عليه من الصلوات ؟ : « خمس صلوات في اليوم والليلة » قال : هل عليَّ غيرها ؟ قال : « لا إلا أن تطوع » .

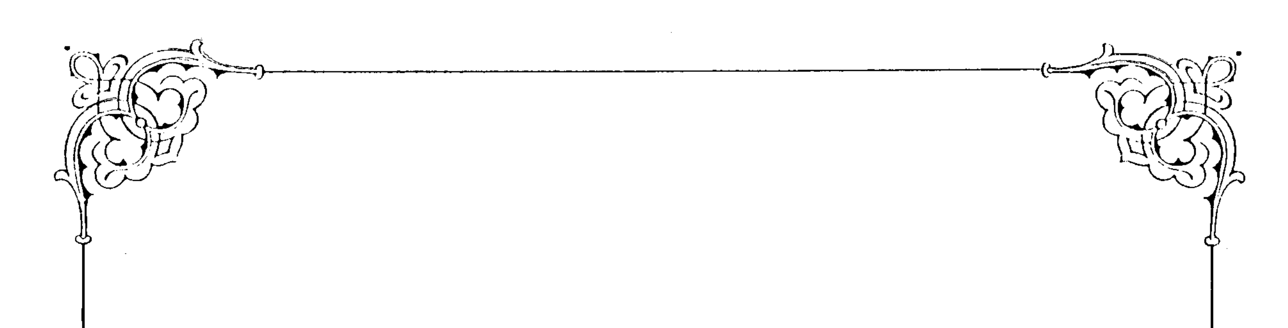
قال زيد بن أسلم القرض الحسن الإنفاق على الأهل وقيل الإنفاق من الحلال بالإخلاص والصرف الى المستحق ، وقيل النفقة في الجهاد ، وقيل هو إخراج الزكاة المفترضة على وجه حسن فيكون تفسيراً لقوله : ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ والأول أولى لقوله ﴿ وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ﴾ فإن ظاهره العموم أي أيّ خير كان مما ذكر ومما لم يذكر .

﴿ هو خيراً وأعظم أجراً ﴾ أي أجزل ثواباً مما تؤخرونه الى عند الموت او توصون به ليخرج بعد موتكم ، وانتصاب خيراً على أنه ثاني مفعولي تجدوه وضمير هو ضمير فصل وبالنصب قرأ الجمهور ، وقرىء بالرفع على أنه خبر هو ، والجملة في محل نصب على أنها ثاني مفعولي تجدوه ، قال أبو زيد وهي لغة تميم يرفعون ما بعد ضمير الفصل ، وقرأ الجمهور أيضاً أعظم بالنصب عطفاً على ﴿ خيراً ﴾ وقرىء بالرفع مثل خير وانتصاب أجراً على التمييز .

﴿ واستغفروا الله ﴾ أي اطلبوا منه المغفرة لذنوبكم في مجامع أحوالكم فإنكم لا تخلون من ذنوب تقترفونها ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ أي كثير المغفرة لمن استغفره كثير الرحمة لمن استرحمه ، ويستر على أهل الذنب والتقصير ، ويخفف عن أهل الجهد والتوفير ، وهو على ما يشاء قدير[١] .

---

(١) قال ابن جرير الطبري في تتمة الآية من آخر السورة (واستغفروا الله) يقول تعالى ذكره : سلوا الله غفران ذنوبكم ، يصفح لكم عنها ﴿إن الله غفور رحيم﴾ يقول : إن الله ذو مغفرة لذنوب من تاب من عباده من ذنوبه ، وذو رحمة أن يعاقبهم عليها من بعد توبتهم منها .



سورة المدثر

هي خمس أو ست وخمسون آية وهي مكيّة في قول الجميع .

قال ابن عباس نزلت بمكة . وعن ابن الزبير مثله .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾

قال الواحدي قال المفسرون لما بدىء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالوحي أتاه جبريل فرآه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على سرير بين السماء والأرض كالنور المتلألىء ففزع ووقع مغشياً عليه ، فلما أفاق دخل على خديجة ودعا بماء فصبه عليه ، وقال دثروني ، فدثروه بقطيفة فقال ﴿ يا أيها المدثر ﴾ أي يا أيها الذي قد تدثر بثيابه ، أي تغشى بها من الرعب الذي حصل له من رؤية الملك عند نزول الوحي ، وأصله المتدثر فأدغمت التاء في الدال لتجانسهما ، وقد قرأ الجمهور بالإدغام ، وقرأ أبيّ على الاصل ، والدثار هو ما يلبس فوق الشعار ، والشعار هو الذي يلي الجسد ، وفي الحديث الأنصار شعار ، والناس دثار ، وسيف داثر بعيد العهد بالصقال ، ومنه قيل للمنزل الدارس داثر لذهاب أعلامه ، وقال عكرمة المعنى يا أيها المدثر بالنبوة وأثقالها ، قال ابن العربي وهذا مجاز بعيد لأنه لم يكن نبياً اذ ذاك .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن جابر بن عبدالله أن أبا سلمة بن عبدالرحمن قال إن أول ما نزل من القرآن ﴿ يا أيها المدثر ﴾ فقال له يحيى بن أبي كثير يقولون إن أول ما نزل من القرآن ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ فقال أبو سلمة سألت جابر بن عبدالله عن ذلك وقلت له مثل ما قلت فقال جابر لا أحدثك الا ما حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « جاورت بحراء فلما قضيت جواري هبطت فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً ،

ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً ، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً فرفعت رأسي فاذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والارض ، فجئثت منه رعباً فرجعت فقلت دثروني فنزلت ﴿ يا أيها المدثر ﴾ إلى قوله ﴿ والرجز فاهجر ﴾[1] » وعن ابن عباس قال دثر هذا الأمر فقم به ، وعنه قال المدثر النائم ، وسيأتي في سورة اقرأ ما يدل على أنها أول سورة أنزلت ، والجمع ممكن .

قال الخطيب اختلف في أول ما نزل من القرآن اختلافاً طويلاً ، وتحقيق المعتمد منه وطريق الجمع بين الأحاديث المتناقضة فيه أن أول ما نزل على الإطلاق ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ إلى ﴿ ما لم يعلم ﴾ ، وأول ما نزل بعد فترة الوحي يا أيها المدثر إلى فاهجر ، وفي صدر حاشية سليمان الجمل استيفاء الكلام على ترتيب القرآن نزولاً نقلاً عن الخازن فراجعه إن شئت .

﴿ قم فأنذر ﴾ أي انهض فخوف أهل مكة وحذرهم العذاب إن لم يسلموا ، أو قم من مضجعك واترك الدثر بالثياب واشتغل بهذا المنصب الذي نصبك الله له وهو الإنذار ، أو قم قيام عزم وتصميم ، وقيل الإنذار هنا هو اعلامهم بنبوته ، وقيل إعلامهم بالتوحيد ، وقال الفراء المعنى قم فصل وأمر بالصلاة .

﴿ وربك فكبر ﴾ أي واختص سيدك ومالكك ومصلح أمورك بالتكبير ، وهو وصفه سبحانه بالكبرياء والعظمة عقداً وقولاً ، وأنه أكبر من أن يكون له شريك كما يعتقده الكفار ، وأعظم من أن تكون له صاحبة أو ولد ، قال ابن العربي المراد به تكبير التقديس والتنزيه لخلع الأضداد والأنداد والأصنام ، ولا

---

(١) رواه البخاري ٨/٥٢٠ ومسلم ١/١٤٤ وأحمد في « المسند » ٣/٣٠٦ والطبري ٢٩/١٤٣ والواحدي في « أسباب النزول » ٣٣٣ وأورده السيوطي في « الدر » ٦/٢٨٠ وزاد نسبته للطيالسي ، وعبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، والترمذي ، وابن الضريس ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، وابن الأنباري في « المصاحف » عن جابر رضي الله عنه .

تتخذ ولياً غيره ، ولا تعبد سواه ، ولا ترى لغيره فعلاً إلا له ولا نعمة الا منه .

قال الزجاج إن الفاء في ﴿ فكبر ﴾ دخلت على معنى الجزاء كما دخلت في قوله فأنذر ، وقال ابن جني هو كقولك زيداً فاضرب أي زيداً اضرب فالفاء زائدة وعبارة الكرخي دخلت الفاء لمعنى الشرط كأنه قيل وأياماً كان فلا تدع تكبيره .

﴿ وثيابك فطهر ﴾ المراد بها الثياب الملبوسة على ما هو المعنى اللغوي ، أمره الله سبحانه بتطهير ثيابه وحفظها عن النجاسات وإزالة ما وقع فيها منها ، وقال مجاهد وابن زيد وأبو رزين أي عملك فأصلح وقال قتادة نفسك فطهر من الذنب ، والثياب عبارة عن النفس ، وقال سعيد بن جبير قلبك فطهر ، وقال الحسن والقرطبي أخلاقك فطهر ، لأن خلق الإنسان مشتمل على أحواله اشتمال ثيابه على نفسه .

وقال الزجاج المعنى وثيابك فقصر ، لأن تقصير الثوب أبعد من النجاسات إذا انجر على الأرض ، وبه قال طاوس ، وذلك لان العرب كانت عادتهم تطويل الثياب وجر الذيول ولا يؤمن معه إصابة النجاسة ، وفي الثوب الطويل من الخيلاء والكبر والفخر ما ليس في الثوب القصير ، فنهى عن تطويل الثوب وأمر بتقصيره لذلك .

وقال أبيّ ابن كعب معناه لا تلبسها على غدر ولا على ظلم ولا على إثم ، البسها وأنت بر طاهر ، وقال ابن عباس أي لا تكن ثيابك التي تلبس من مكسب باطل ، وعنه قال فطهر من الإثم قال وهي في كلام العرب نقي الثياب ، وعنه قال من الغدر لا تكن غداراً ، وفي لفظ لا تلبسها على غدرة ، والأول أولى لأنه المعنى الحقيقي ، وليس في استعمال الثياب مجاز عن غيرها لعلاقة مع قرينة ما يدل على أنه المراد عند الإطلاق ، وليس في مثل هذا الأصل أعني الحمل على الحقيقة عند الإطلاق خلاف .

وفي الآية دليل على وجوب طهارة الثياب في الصلاة .

قال الرازي إذا حملنا التطهير على حقيقته ففي الآية ثلاث احتمالات ﴿ الأول ﴾ قال الشافعي المقصود من الآية الإعلام بأن الصلاة لا تجوز إلا في ثياب طاهرة من الأنجاس (وثانيها) قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم كان المشركون لا يصونون ثيابهم عن النجاسات فأمره الله أن يصون ثيابه عنها (وثالثها) روي أنهم ألقوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قذراً فقيل له وثيابك فطهر عن تلك النجاسات والقاذورات .

﴿ والرجز فاهجر ﴾ الرجز معناه في اللغة العذاب ، وفيه لغتان كسر الراء وضمها وهما قراءتان سبعيتان ، والزاي منقلبة عن السين ، والعرب تعاقب بين السين والزاي ومعناهما واحد ، وإنما سمي الشرك وعبادة الأوثان رجزاً لأنها سبب الرجز ، وقال مجاهد وعكرمة الرجز الأوثان كما في قوله .

﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾ وبه قال ابن زيد ، وقال إبراهيم النخعي الرجز المأثم ، والهجر الترك ، وقال قتادة الرجز أساف ونائلة ، وهما صنمان كانا عند البيت ، وقال أبو العالية والربيع والكسائي الرجز بالضم الوثن ، وبالكسر العذاب ، وقال السدي الرجز بضم الراء الوعيد والأول أولى ، وقال ابن عباس الرجز الأصنام .

﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ قرىء لا تمن بالإدغام ، وقرأ الجمهور بفك الإدغام ، وتستكثر بالرفع على أنه حال أي ولا تمنن حال كونك مستكثراً وقيل على حذف « أن » والأصل ولا تمنن أن تستكثر ، فلما حذفت رفع ، قال الكسائي فإذا حذف « أن » رفع الفعل . وقرىء تستكثر بالنصب على تقدير « أن » وبقاء عملها ، ويؤيدها قراءة ابن مسعود أن تستكثر بزيادة أن ، وقرىء بالجزم على أنه بدل من تمنن كما في قوله ﴿ يلق أثاما يضاعف له العذاب ﴾ أو الجزم لإجراء الوصل مجرى الوقف .

وقد أعترض على قراءة الجزم لأن قوله تستكثر لا يصح أن يكون بدلاً من تمنن ، لأن المن غير الاستكثار ، ولا يصح أن يكون جواباً للنهي ، والمن الإنعام وبابه رد .

واختلف السلف في معنى الآية فقيل المعنى لا تنعم بشيء مستكثراً أي طالباً للكثرة ، كارهاً أن ينقص المال بسبب العطاء فيكون الاستكثار هنا عبارة عن طلب العوض كيف كان ، وقيل المعنى لا تمنن على ربك بما تتحمله من أعباء الرسالة والنبوة كالذي يستكثر ما يتحمله بسبب الغير ، وقيل لا تعط عطية تلتمس فيها أكثر منها قاله عكرمة وقتادة ، وقال ابن عباس لا تعط تلتمس بها أفضل منها وعنه قال لا تعط الرجل عطاء رجاء أن يعطيك أكثر منه ، قال الضحاك هذا حرمه الله على رسوله لأنه مأمور بأشرف الآداب وأجل الأخلاق ، وأباحه لأمته ، وقال مجاهد لا تضعف أن تستكثر من الخير من قولك حبل متين إذا كان ضعيفاً ، وقال الربيع ابن أنس لا يعظم عملك في عينك أن تستكثر من الخير .

وقال ابن كيسان لا تستكثر عملاً فتراه من نفسك إنما عملك منة من الله عليك إذ جعل لك سبيلاً إلى عبادته ، وقيل لا تمنن بالنبوة والقرآن على الناس فتأخذ منهم أجراً تستكثره ، وقال محمد بن كعب لا تعط مالك مصانعة وقال زيد بن أسلم إذا أعطيت عطية فأعطها لربك .

﴿ ولربك فاصبر ﴾ على طاعته وفرائضه ، والمعنى لأجل ربك وثوابه ، وقال مقاتل ومجاهد اصبر على الأذى والتكذيب ، وقال ابن زيد حملت أمراً عظيماً فحاربتك العرب والعجم فاصبر عليه لله ، وقيل اصبر تحت موارد القضاء لله ، وقيل فاصبر على البلوى وقيل على الأوامر والنواهي .

﴿ فإذا نقر في الناقور ﴾ فاعول من النقر كأنه من شأنه أن ينقر فيه

للتصويت ، والنقر في كلام العرب الصوت ويقولون نقر باسم الرجل إذا دعاه ، والمراد هنا النفخ في الصور ، والمراد النفخة الثانية وقيل الأولى ، وقد تقدم الكلام على هذا في سورة الأنعام وسورة النحل ، والفاء للسببية كأنه قيل اصبر على أذاهم فبين أيديهم يوم هائل يلقون فيه عاقبة أمرهم .

قال ابن عباس : الناقور الصور أي القرن الذي هو مستطيل وفيه ثقب بعدد الارواح كلها وتجمع الأرواح في تلك الثقب ، فيخرج من كل ثقبة روح الى الجسد الذي نزعت منه فيعود الجسد حياً بإذن الله تعالى كما مر غير مرة ، والعامل في « إذا » ما دل عليه قوله الآتي ﴿ فذلك يومئذ ﴾ الخ فإن معناه عسر الأمر عليهم ، وقيل العامل فيه ما دل عليه قوله ﴿ فذلك ﴾ لأنه إشارة إلى النقر أي وقت النقر وهو النفخة يوم القيامة ﴿ يومئذ ﴾ بدل مما قبله وهو اسم الإشارة ، وبنى يوم لإضافته إلى غير متمكن وهو إذ وتنوينها عوض عن الجملة أي يوم إذ نفخ في الصور ، وخبر ذلك ﴿ يوم عسير ﴾ أي شديد .

﴿ على الكافرين غير يسير ﴾ تأكيد العسر عليهم لأن كونه غير يسير قد فهم من قوله ﴿ يوم عسير ﴾ وفيه إيذان بأنه يسير على المؤمنين ، وقال الرازي : يحتمل أنه عسير على المؤمنين والكافرين إلا أنه على الكافرين أشد . أ هـ وما قاله الرازي يفهمه التقييد بالجار والمجرور إن جعل متعلقاً بيسير، وإن كان مضافاً إليه لأنه قد أجازه بعضهم كما ذكره السمين .

﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ أي دعني واتركني وهي كلمة تهديد ووعيد ، والمعنى دعني والذي خلقته حال كونه وحيداً في بطن أمه لا مال ولا ولد ، هذا على أن وحيداً منتصب على الحال من الموصول أو من الضمير العائد المحذوف ، ويجوز أن يكون حالاً من الياء في ذرني أي دعني وحدي معه

فإني أكفيك في الانتقام منه ، والأول أولى ، قال المفسرون وهو الوليد بن المغيرة وبه قال ابن عباس ، قال مقاتل خل بيني وبينه فأنا أنفرد بهلكته ، وإنما خص بالذكر لمزيد كفره وعظيم جحوده لنعم الله عليه .

وقيل أراد بالوحيد الذي لا يُعرف أبوه وكان يقال في الوليد أنه دعي ، وعن ابن عباس قال « إن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه فإنك أتيت محمداً لتعرض لما قبله ، قال قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً ، قال فقل فيه قولاً يبلغ قومك انك منكر له وانك كاره له ، قال وماذا أقول فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني لا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه هذا الذي يقول شيئاً من هذا ، ووالله إن لقوله الذي يقول لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو وما يعلى ، وإنه ليحطم ما تحته ، قال والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه ، قال فدعني حتى أفكر فلما فكر قال هذا سحر يؤثر يأثره عن غيره ، فنزلت ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ » أخرجه الحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل وقد أخرجه عبدالرزاق عن عكرمة مرسلاً وكذا غير واحد[1] .

(١) رواه بهذا اللفظ الواحدي في « أسباب النزول » ٣٣٠ من رواية عبد الرزاق عن معمر عن أيوب السختياني عن عكرمة عن ابن عباس ، وسنده صحيح . ورواه الحاكم به وقال :
زاد المسير ٨/٤٠٣ .

﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾﴾

﴿ وجعلت له مالاً ممدوداً ﴾ أي كثيراً أو يمد بالزيادة والنماء شيئاً بعد شيء ، قال الزجاج مال غير منقطع عنه وقد كان الوليد بن المغيرة مشهوراً بكثرة المال على اختلاف أنواعه كالزرع والضرع والتجارة ، قيل كان يحصل له من غلة أمواله ألف ألف دينار ، وقيل أربعة آلاف دينار ، وقيل ألف دينار قاله ابن عباس وعن عمر بن الخطاب أنه سئل عن هذه الآية فقال غلة شهر بشهر قيل كان له بستان بالطائف لا ينقطع ثماره شتاء ولا صيفاً ، وكان له عبيد وجوار كثيرة .

﴿ وبنين شهوداً ﴾ أي وجعلت له بنين حضوراً بمكة معه لا يسافرون ولا يحتاجون إلى التفرق في طلب الرزق لكثرة مال أبيهم ، قال الضحاك كانوا سبعة ولدوا بمكة وخمسة ولدوا بالطائف ، وقال سعيد بن جبير كانوا ثلاثة عشر ولداً ، وقال مقاتل كانوا سبعة كلهم رجال أسلم منهم ثلاثة خالد وهشام والوليد بن الوليد ، وقيل عمارة وفيه نظر لأن ابن حجر قال في الإصابة إن عمارة مات كافراً ، وقيل معنى شهوداً أنه إذا ذكر ذكروا معه وقيل كانوا يشهدون ما كان يشهده من المحافل والمجامع ، ويقومون بما كان يباشره .

﴿ ومهدت له تمهيداً ﴾ أي بسطت له في العيش الرغيد وطول العمر ، والجاه العريض والرياسة في قريش حتى كان يدعى ريحانة قريش ، وهو الكمال عند أهل الدنيا ، والتمهيد عند العرب التوطئة ومنه مهد الصبي ، وأصله التسوية والتهيئة ويتجوز به عن بسط المال والجاه وهو المراد هنا ، وقال مجاهد إنه المال بعضه فوق بعض كما يمهد الفراش .

﴿ ثم يطمع أن أزيد ﴾ أي يطمع بعد هذا كله في الزيادة لكثرة حرصه وشدة طمعه مع كفرانه بالنعم وإشراكه بالله ، قال الحسن ثم يطمع ان أدخله الجنة . وكان يقول إن كان محمد صادقاً فما خلقت الجنة إلا لي . فردعه الله سبحانه وزجره فقال ﴿ كلا ﴾ أي لست أزيده بل أنقصه فقد ورد أنه بعد نزول هذه الآية ما زال في نقصان ماله وولده حتى هلك فقيراً .

ثم علل ذلك على وجه الاستئناف التحقيقي بقوله ﴿ إنه كان لآياتنا عنيداً ﴾ أي معانداً لها كافراً بما أنزلناه منها على رسولنا ، فإن معاندة آيات المنعم مع وضوحها وكفرانها مع شيوعها مما يوجب الحرمان بالكلية ، وإنما أوتي ما أوتي استدراجاً ، يقال عند يعند بالكسر إذا خالف الحق ورده وهو يعرفه فهو عنيد وعاند ، والعاند الذي يجوز عن الطريق ويعدل عن القصد ، قال أبو صالح : عنيداً معناه مباعداً ، وقال قتادة : جاحداً وقال مقاتل : معرضاً وقال ابن عباس : جحوداً .

﴿ سأرهقه صعوداً ﴾ أي سأكلفه مشقة من العذاب لا راحة فيها وهو مثل لما يلقاه من العذاب الصعب الذي لا يطاق ، وقيل المعنى انه يكلف أن يصعد جبلاً من نار ، والإرهاق في كلام العرب أن يحمل الإنسان الشيء الثقيل ، قال ابو سعيد الخدري في قوله صعوداً هو جبل في النار يكلفون أن يصعدوا فيه ، فكلما وضعوا أيديهم عليه ذابت فاذا رفعوها عادت كما كانت ، وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم « قال الصعود جبل في النار يصعد فيه الكافر سبعين خريفاً ثم يهوي ، وهو كذلك فيه أبداً » أخرجه أحمد والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي ، قال الترمذي غريب لا نعرفه الا من حديث ابن لهيعة عن دراج . قال ابن كثير وفيه غرابة ونكارة انتهى . وقد أخرجه جماعة من قول أبي سعيد[1] .

---

(١) هذا الحديث ذكره المؤلف ملفقاً من حديثين ، الأول رواه ابن جرير الطبري من رواية شريك بن عبد الله بن أبي شريك النخعي عن عمارة بن القعقاع عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري ،

وقال ابن عباس صعوداً صخرة في جهنم يسحب عليها الكافر على وجهه . وعنه قال جبل في النار .

وجملة ﴿ إنه فكر ﴾ تعليل لما تقدم من الوعيد أي أنه فكر في شأن النبي صلى الله عليه وسلم وما أنزل عليه من القرآن ﴿ وقدر ﴾ أي هيأ الكلام في نفسه ، والعرب تقول هيأت الشيء إذا قدرته وقدرت الشيء إذا هيأته ، وذلك أنه لما سمع القرآن لم يزل يتفكر ماذا يقول فيه وقدر في نفسه ما يقول فذمه الله وقال ﴿ فقتل ﴾ أي لعن وعذب ﴿ كيف قدر ﴾ أي على أي حال قدر ما قدر من الكلام كما يقال في الكلام لأضربنه كيف صنع أي على أيّ حال كانت منه ، وقيل المعنى قهر وغلب كيف قدر ، وقال الزهري عذب ، وهو من باب الدعاء عليه .

والتكرير في قوله ﴿ ثم قتل كيف قدر ﴾ للمبالغة والتأكيد ، وقيل فقتل في الدنيا ثم قتل فيما بعد الموت في البرزخِ والقيامة،و﴿ثم﴾يشعر بأن الدعاء الثاني أبلغ من الأول فهي للتفاوت في الرتبة وقيل بل للتراخي في الزمان أيضاً .

﴿ ثم نظر ﴾ بأي شيء يدفع القرآن ويقدح فيه ، فالنظر بمعنى التأمل وعلى هذا فتتكرر هذه الجملة مع قوله أنه فكر وقدر أو فكر في القرآن وتدبر ما هو .

ورواه ابن أبي حاتم من رواية شريك عن عمار الدهني عن عطية به ، بلفظ « (سأرهقه صعوداً) » قال : « هو جبل من نار يكلَّف أن يصعده ، فإذا وضع يده ذابت ، واذا رفعها عادت ، فإذا وضع رجله ذابت ، واذا رفعها عادت » . وعطية العوفي ضعيف . والحديث الثاني رواه أحمد من حديث ابن لهيعة عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري، والطبري عن عمرو بن الحارث عن دراج به ، بلفظ « الصُّعود : جبل من نار ، يصعد فيه الكافر سبعين خريفاً ، ثم يهوي به كذلك منه أبداً »ودراج عن شيخه أبي الهيثم ضعيفان . وقال ابن كثير بعدما ذكر حديث أحمد والطبري (وهو الرواية الثانية) : وفيه غرابة ونكارة .

﴿ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۝٢٥ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝٢٩ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠ ﴾

﴿ ثم عبس ﴾ أي قطب وجهه لما لم يجد مطعناً يطعن به في القرآن ، والعبس مصدر عبس مخففاً يعبس عبساً وعبوساً إذا قطب وقيل عبس في وجوه المؤمنين ، وقيل عبس في وجه النبي صلى الله عليه وسلم .

﴿ وبسر ﴾ أي كلح وجهه وتغير ، وقيل إن ظهور العبس في الوجه يكون بعد المحاورة وظهور البسور في الوجه قبلها ، والعرب تقول وجه باسر إذا تغير واسود ، وقال الراغب : البسر استعمال الشر قبل أوانه نحو بسر الرجل حاجته أي طلبها في غير أوانها قال ومنه قوله عبس وبسر أي أظهر العبوس قبل أوانه وقبل وقته ، وأهل اليمن يقولون بسر المركب وأبسر أي وقف لا يتقدم ولا يتأخر ، وقد أبسرنا أي صرنا إلى البسور .

﴿ ثم أدبر واستكبر ﴾ أي أعرض عن الحق وذهب إلى أهله وتعظم عن أن يؤمن ﴿ فقال ﴾ عقب ما جره إليه طبعه الخبيث من الكفر القائم به ﴿ إن هذا إلا سحر يؤثر ﴾ أي يأثره عن غيره ويرويه عن السحرة كمسيلمة وأهل بابل ، والسحر إظهار الباطل في صورة الحق أو الخديعة على ما تقدم بيانه في سورة البقرة ، يقال أثرت الحديث تأثره إذا ذكرته عن غيرك أي أمور تخييلية لا حقائق لها وهي لدقتها بحيث تخفي أسبابها شؤون تمويهية .

﴿ إن هذا إلا قول البشر ﴾ يعني أنه كلام الإنس ، وليس بكلام الله ، وهو تأكيد لما قبله وقد تقدم أن الوليد بن المغيرة إنما قال هذا القول إرضاء لقومه بعد اعترافه أن له لحلاوة وأن عليه لطلاوة إلى آخر كلامه .

ولما قال هذا القول الذي حكاه الله عنه قال الله عز وجل ﴿ سأصليه سقر ﴾ أي سأدخله النار ، وسقر من أسماء النار ومن دركات جهنم ولم

تتصرف للتعريف والتأنيث ، قال السمين هذا بدل من قوله سأرهقه صعوداً قاله الزمخشري ، فإن كان المراد بالصعود المشقة فالبدل واضح ، وإن كان المراد صخرة في جهنم كما جاء في بعض التفاسير فيعسر البدل ويكون فيه شبه من بدل الاشتمال لأن جهنم مشتملة على تلك الصخرة .

ثم بالغ في وصف النار وشدة أمرها فقال ﴿ وما أدراك ما سقر ﴾ أي وما أعلمك أي شيء هي ، والعرب تقول وما أدراك ما كذا إذا أرادوا المبالغة في أمره وتعظيم شأنه وتهويل خطبه ،و ﴿ما﴾ الأولى مبتدأ وجملة ﴿ما سقر﴾ خبر المبتدأ ثم فسر حالها فقال .

﴿ لا تبقي ولا تذر ﴾ والجملة مستأنفة لبيان حال سقر والكشف عن وصفها ، وقيل هي في محل نصب على الحال والعامل فيها معنى التعظيم لأن قوله وما أدراك ما سقر يدل على التعظيم فكأنه قال استعظموا سقر في هذه الحال ، والأول أولى ومفعول الفعلين محذوف قال السدي لا تبقي لهم لحماً ولا تذر لهم عظماً ، وقال عطاء لا تبقي من فيها حياً ولا تذره ميتاً ، وقيل هما لفظان بمعنى واحد كررا للتأكيد كقولك صدر عني وأعرض عني ، وقال ابن عباس لا تبقي منهم شيئاً وإذا بدلوا خلقاً آخر لم تذر أن تعاودهم سبيل العذاب الأول .

﴿ لواحة للبشر ﴾ قرأ الجمهور بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف وقيل على أنه نعت لسقر والأول أولى ، وقرىء بالنصب على الحال أو الاختصاص للتهويل يقال لاح يلوح أي ظهر ، والمعنى أنها تظهر للبشر ، قال الحسن تلوح لهم جهنم حتى يرونها عياناً كقوله ﴿ وبرزت الجحيم لمن يرى ﴾ وقيل معنى لواحة للبشر مغيرة لهم ومسودة قال مجاهد والعرب تقول لاحه الحر والبرد والحزن والسقم إذا غيره وهذا أرجح من الأول ، وإليه ذهب جمهور المفسرين .

وقال الأخفش المعنى : أنها معطشة للبشر قال ابن عباس : تلوح الجلد فتحرقه وتغير لونه فيصير أسود من الليل ، وعنه قال لواحة محرقة والمراد بالبشر

إما جلدة الإنسان الظاهرة كما قاله الأكثر أو المراد به أهل النار من الإنس كما قال الأخفش .

﴿ عليها تسعة عشر ﴾ قال المفسرون يقول سبحانه على النار تسعة عشر من الملائكة هم خزنتها ، وقيل تسعة عشر صنفاً من أصناف الملائكة ، وقيل تسعة عشر صفاً من صفوفهم وقيل تسعة عشر نقيباً مع كل نقيب جماعة من الملائكة والأول أولى ، قال الثعلبي ولا ينكر هذا فإذا كان ملك واحد يقبض أرواح الخلائق كان أحرى أن يكونوا تسعة عشر على عذاب بعض الخلق ، قرأ الجمهور عشر بفتح الشين وقرىء بإسكانها .

عن البراء « أن رهطاً من اليهود سألوا بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن خزنة جهنم فقال : الله ورسوله أعلم فجاء جبريل فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم فنزل عليه ساعتئذ ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ رواه البيهقي في البعث وابن أبي حاتم وابن مردويه » .

وقال الكرخي وخص هذا العدد بالذكر لكونه موافقاً لعدد أسباب فساد النفس الإنسانية وهي القوى الإنسانية والطبيعية إذ القوى الإنسانية اثنتا عشرة الخمسة الظاهرة والخمسة الباطنة والشهوة والغضب ، والقوى الطبيعية سبعة الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والغاذية والنامية والمولدة والمجموع تسعة عشر انتهى .

قلت : وهذا ليس بتفسير للآية ، بل الحكمة المودعة في هذا العدد مفوضة إلى علم الله تعالى ، قال الرازي وتخصيص هذا العدد لحكمة اختص الله بها .

ولما نزل هذا قال أبو جهل أما لمحمد من الأعوان إلا تسعة عشر ، يخوفكم محمد بتسعة عشر وأنتم الدهم ، أفيعجز كل مائة رجل منكم أن يبطشوا بواحد منهم ثم يخرجوا من النار ، فقال أبو الأشد : وهو رجل من بني جمح يا معشر قريش إذا كان يوم القيامة فأنا أمشي بين أيديكم فأدفع عشرة بمنكبي الأيمن وتسعة بمنكبي الأيسر ، ونمضي ندخل الجنة فأنزل الله سبحانه :

وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾

﴿ وما جعلنا أصحاب النار ﴾ يعني ما جعلنا المدبرين لأمر النار القائمين بعذاب من فيها ﴿ إلا ملائكة ﴾ فمن يطيق الملائكة ومن يغلبهم ، فكيف تتعاطون أيها الكافرون مغالبتهم .

قال ابن عباس لما سمع أبو جهل ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ قال لقريش ثكلتكم أمهاتكم ، أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة جهنم تسعة عشر وأنتم الدهم أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم ، أخرجه ابن جرير وابن مردويه ، قيل جعلهم ملائكة لأنهم خلاف جنس المخلوقين من الجن والإنس فلا يأخذهم ما يأخذ المجانس من الرقة والرأفة ، وقيل لأنهم أقوم خلق الله بحقه والغضب له وأشدهم بأساً وأقواهم بطشاً .

﴿ وما جعلنا عدتهم إلا فتنة ﴾ أي سبب ضلالة ﴿ للذين كفروا ﴾ أي للذين استقلوا ، عددهم ، والمعنى ما جعلنا عددهم هذا العدد المذكور في القرآن إلا ضلالة ومحنة لهم حتى قالوا ليتضاعف عذابهم ويكثر غضب الله عليهم ، وقيل المعنى إلا عذاباً كما في قوله ﴿ يوم هم على النار يفتنون ﴾ أي يعذبون .

قال ابن عباس في الآية . قال أبو الأشد خلوا بيني وبين خزنة جهنم أنا أكفيكم مؤونتهم قال وحدثت أن النبي صلى الله عليه وسلم وصف خزان جهنم فقال « كأن أعينهم البرق وكأن أفواههم الصياصي يجرون أشعارهم ، لهم مثل

قوة الثقلين يقبل أحدهم بالأمة من الناس يسوقهم ، على رقبته جبل حتى يرمي بهم في النار فيرمي بالجبل عليهم » أخرجه ابن مردويه .

﴿ ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ﴾ المراد بهم اليهود والنصارى لموافقة ما نزل من القرآن بأن عدة خزنة جهنم تسعة عشر لما عندهم قاله الضحاك وقتادة ومجاهد وغيرهم ، والمعنى أن الله سبحانه جعل عدة خزنة جهنم هذه العدة ليحصل اليقين لليهود والنصارى بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم لموافقة ما في القرآن لما في كتبهم .

﴿ ويزداد الذين آمنوا ﴾ من أهل الكتاب كعبدالله بن سلام ، وقيل أراد المؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ إيماناً ﴾ أي ليزدادوا يقيناً إلى يقينهم لما رأوا من موافقة أهل الكتاب لهم .

وجملة ﴿ ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ﴾ مقررة لما تقدم من الإستيقان وازدياد الإيمان ، والمعنى نفي الارتياب عنهم في الدين أو في أن عدة خزنة جهنم تسعة عشر ، ولا ارتياب في الحقيقة من المؤمنين ولكنه من باب التعريض لغيرهم ممن في قلبه شك من المنافقين .

﴿ وليقول الذين في قلوبهم مرض ﴾ المراد بأهل المرض المنافقون ، والسورة وإن كانت مكية ولم يكن إذ ذاك نفاق فهو إخبار بما سيكون في المدينة فهو معجزة له صلى الله عليه وسلم حيث أخبر وهو بمكة عما سيكون بالمدينة بعد الهجرة ، أو المراد بالمرض مجرد حصول الشك والريب وهو كائن في الكفار ، قال الحسين بن الفضل السورة مكية ولم يكن بمكة نفاق ؛ فالمرض في هذه الآية الخلاف .

والمراد بقوله ﴿ والكافرون ﴾ كفار مكة من العرب وغيرهم ﴿ ماذا ﴾ مجموع الكلمتين اسم استفهام فـ ﴿ذا﴾ ملغاة أي أيّ شيء ﴿ أراد الله بهذا ﴾ العدد المستغرب استغراب المثل ﴿ مثلاً ﴾ تسير به الركبان سيرها بالأمثال ، قال الليث المثل الحديث ومنه قوله ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون ﴾ أي حديثها والخبر عنها .

﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك الإضلال المتقدم ذكره وهو قوله ﴿ وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ﴾ ﴿ يضل الله من يشاء ﴾ من عباده ﴿ ويهدي من يشاء ﴾ منهم والمعنى مثل ذلك الإضلال للكافرين والهداية للمؤمنين يضل الله من يشاء الإضلال ويهدي من يشاء هدايته ، وهو الذي علم منه اختيار الاهتداء ، وفيه دليل على خلق الأفعال ، وقيل المعنى كذلك يضل الله عن الجنة من يشأ ويهدي إليها من يشاء .

﴿ وما يعلم جنود ربك ﴾ أي ما يعلم عدد خلقه ومقدار جموعه من الملائكة وغيرهم ﴿ إلا هو ﴾ وحده لا يقدر على علم ذلك أحد ، قال عطاء يعني من الملائكة الذين خلقهم لتعذيب أهل النار لا يعلم عدتهم إلا الله وحده ، والمعنى أن خزنة النار وإن كانوا تسعة عشر فلهم من الأعوان والجنود من الملائكة ما لا يعلمه إلا الله سبحانه .

عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثهم عن ليلة أسرى به قال « فصعدت أنا وجبريل إلى السماء الدنيا فإذا أنا بملك يقال له إسماعيل وهو صاحب سماء الدنيا وبين يديه سبعون ألف ملك مع كل ملك جنده مائة ألف ، وتلا هذه الآية » أخرجه الطبراني في الأوسط وأبو الشيخ .

وعن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أطَّت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أصبع إلا عليه ملك ساجد » ، أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة قال الترمذي حسن غريب ويروى عن أبي ذر موقوفاً .

ثم رجع سبحانه إلى ذكر سقر فقال ﴿ وما هي إلا ذكرى للبشر ﴾ أي وما سقر وما ذكر من عدد خزنتها إلا تذكرة وموعظة للعالم يتذكرون بها ويعلمون كمال قدرته تعالى ، وأنه لا يحتاج إلى أعوان وأنصار ، وقيل ما هي الدلائل والحجج والقرآن إلا تذكرة للبشر ، وقال الزجاج : نار الدنيا تذكرة لنار الآخرة وهو بعيد ، وقيل الضمير في ﴿ وما هي ﴾ يرجع إلى الجنود .

ثم ردع سبحانه المكذبين وزجرهم فقال ﴿ كلا والقمر ﴾ قال الفراء ﴿ كلا ﴾ صلة للقسم والتقدير أي والقمر ، وقيل المعنى حقاً والقمر .

قال الكرخي ﴿ كلا ﴾ استفتاح بمعنى ألا بفتح الهمزة وتخفيف اللام المفيدة للتنبيه على تحقق ما بعدها ، وقال النضر بن شميل حرف جواب بمعنى أي ونعم ، وهو مذهب البصريين ، وجعلها ، الزمخشري في الآية للإنكار أو الردع قال الكافيجي : ولا منافاة بينه وبين كلام البصريين فإن مدار كلامهم على ما يتبادر من ظاهر القول ، ومدار كلامه على أساس البلاغة والإعجاز وهو أحسن .

قال ابن جرير الطبري رَدّ زَعْم مَنْ زَعَمَ أنه يقاوم خزنة جهنم أي ليس الأمر كما يقول ، ثم أقسم على ذلك بالقمر وبما بعده وهذا هو الظاهر من معنى الآية .

﴿ والليل إذ أدبر ﴾ أي ولى ، قرأ الجمهور إذا بزيادة الألف ودبر بزنة ضرب على أنه ظرف لما يستقبل من الزمان ، وقرىء إذ أدبر بزنة أكرم ظرف لما مضى من الزمان ودبر وأدبر لغتان كما يقال أقبل الزمان وقبل الزمان ، ويقال دبر الليل وأدبر الليل إذا تولى ذاهباً ، عن مجاهد قال سألت ابن عباس عن قوله إذا دبر فسكت عني حتى إذا كان من آخر الليل وسمع الأذان ناداني يا مجاهد هذا حين دبر الليل ، وعن ابن عباس قال دبوره ظلامه .

﴿ والصبح إذا أسفر ﴾ أي أضاء وتبين وظهر ﴿ إنها لإحدى الكبر ﴾ قرأ الجمهور لإحدى بالهمزة وقرىء لحدى بدونها وهذا جواب القسم ، والضمير راجع إلى سقر أي أن سقر لإحدى الدواهي أو البلايا الكبر ، والكبر جمع كبرى وقال مقاتل إن الكبر اسم من أسماء النار ، وقيل إنها تكذيبهم لمحمد صلى الله عليه وسلم لإحدى الكبر ، وقيل إن قيام الساعة لإحدى الكبر ، والأول أولى ، وقال الكلبي أراد بالكبر دركات جهنم وأبوابها .

نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾

﴿ نذيراً للبشر ﴾ حال من ضمير في (إنها) قاله الزجاج وروي عنه وعن الكسائي وأبي علي الفارسي أنه حال من قوله ﴿ قم فأنذر ﴾ أي قم يا محمد فأنذر حال كونك نذيراً للبشر ، وقال الفراء هو مصدر بمعنى الإنذار منصوب بفعل مقدر ، وقيل إنه منتصب على التمييز لإحدى لتضمنها معنى التعظيم ، كأنه قيل أعظم الكبر إنذاراً ، وقيل التقدير لأجل إنذاراً للبشر ، وقيل غير ذلك .

قرأ الجمهور بالنصب ، وقرىء بالرفع أي هي نذير أو هو نذير ، وقد اختلف النذير فقال الحسن هي النار وقيل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وقال أبو رزين المعنى أنا نذير لكم منها وقيل القرآن نذير للبشر لما تضمنه من الوعد والوعيد.

﴿ لمن شاء منكم ﴾ بدل من قوله للبشر ﴿ أن يتقدم ﴾ يسبق إلى الطاعة ﴿ أو يتأخر ﴾ يتخلف عنها ، والمعنى أن الإنذار قد حصل لكل من آمن وكفر ، وقيل فاعل المشيئة هو الله سبحانه أي لمن شاء الله أن يتقدم منكم بالإيمان أو يتأخر بالكفر والأول أولى ، وقال السدي لمن شاء أن يتقدم إلى النار المتقدم ذكرها أو يتأخر إلى الجنة ، وقال ابن عباس من شاء اتبع طاعة الله ومن شاء تأخر عنها قال الحسن هذا وعد وتهديد وإن خرج مخرج الخبر كقوله تعالى ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ .

﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ أي مأخوذة بعملها مرتهنة به إما خلصها

وإما أوبقها والرهينة اسم بمعنى الرهن كالشتيمة بمعنى الشتم ، وليست صفة ولو كانت صفة لقيل رهين لأن فعيلاً يستوي فيه المذكر والمونث، والمعنى كل نفس رهينة بكسبها غير مفكوكة ، كافرة كانت أو مؤمنة ، عاصية أو غير عاصية ﴿ إلا أصحاب اليمين ﴾ فإنهم لا يرتهنون بذنوبهم بل يفكون بما أحسنوا من أعمالهم ، والاستثناء متصل لأن المستثنى هو المؤمنون الخالصون من الذنوب .

وقوله رهينة أي على الدوام بالنسبة للكفار ، وعلى وجه الانقطاع بالنسبة لعصاة المؤمنين ، واختلف في تعيينهم فقيل هم الملائكة وقيل المؤمنون وقيل أولاد المسلمين وأطفالهم ، وقيل الذين كانوا عن يمين آدم وقيل أصحاب الحق ، وقيل هم المعتمدون على الفضل دون العمل ، وقيل هم الذين اختارهم الله لخدمته ، وقال ابن عباس : هم المسلمون ، وقال علي : هم أطفال المسلمين ، قيل هو أشبه بالصواب لأن الأطفال لم يكتسبوا إثماً يرتهنون به .

﴿ في جنات ﴾ هو في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هم في جنات لا يكتنه وصفها . والجملة استئناف جواباً عن سؤال نشأ مما قبله أو حال من أصحاب اليمين أو من فاعل قوله ﴿ يتساءلون ﴾ ويجوز أن يكون ظرفاً له ، ويتساءلون أي يسألون غيرهم نحو دعيته وتداعيته ، فعلى الوجه الأول يكون ﴿ عن المجرمين ﴾ متعلقاً بيتساءلون أي يسأل بعضهم بعضاً عن أحوالهم ، وعلى الوجه الثاني تكون عن زائدة أي يسألون المجرمين ، ثم المراد بهم الكافرون .

وهذا التساؤل فيما بينهم قبل أن يروا المجرمين فلما يرونهم يسألونهم ويقولون في سؤالهم ﴿ ما سلككم في سقر ﴾ أي ما أدخلكم فيها تقول سلكت الخيط في كذا إذا أدخلته فيه ، قال الكلبي يسأل الرجل من أهل الجنة الرجل من أهل النار باسمه فيقول له يا فلان ما سلكك في النار ، وقيل إن الملائكة

يسألون الملائكة عن أقربائهم فتسأل الملائكة المشركين يقولون لهم ﴿ ما سلككم في سقر ﴾ قال الفراء في هذا ما يقوي أن أصحاب اليمين هم الولدان لأنهم لا يعرفون الذنوب ، وهذا سؤال توبيخ وتقريع .

ثم ذكر سبحانه ما أجاب به أهل النار فقال ﴿ قالوا لم نك من المصلين ﴾ أي من المؤمنين الذين يصلون لله في الدنيا ولم نعتقد فرضيتها[1] ﴿ ولم نك نطعم المسكين ﴾ أي لم نتصدق على المساكين ، وقيل وهذان محمولان على الصلاة الواجبة والصدقة لأنه لا تعذيب على غير الواجب ، وفيه دليل على أن الكفار مخاطبون بالشرعيات والفروع ، فقول صاحب الكشاف يحتمل أن يدخل بعضهم النار بمجموع ذلك وهو ترك الصلاة وترك الإطعام والخوض في الباطل مع الخائضين والتكذيب بيوم القيامة ، وبعضهم بمجرد ترك الصلاة أو ترك الطعام تخيل منه كما قال صاحب الانتصاف أن تارك الصلاة يخلد في النار .

﴿ وكنا نخوض مع الخائضين ﴾ أي نخالط أهل الباطل في باطلهم ، قال قتادة كلما غوى غاو غوينا معه ، وقال السدي كنا نكذب مع المكذبين ، وقال ابن زيد نخوض مع الخائضين في أمر محمد صلى الله عليه وسلم وهو قولهم كاذب ساحر مجنون شاعر ، وعبارة الخطيب أي نشرع في الباطل مع الخائضين فنقول في القرآن إنه سحر وشعر وكهانة وغير ذلك من الأباطيل ، لا نتورع عن شيء من ذلك ولا نقف مع صريح عقل ، ولا نرجع إلى صحيح نقل ، فمن هذا يحذر الذين يبادرون بالجواب في كل ما يسألون عنه من أنواع العلم من غير تثبت .

---

(١) الآية صريحة في انهم تركوا الصلاة فاستحقوا سقر ، أما قوله : ولم نعتقد فرضيتها فليس في الآية .

وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

﴿ وكنا نكذب بيوم الدين ﴾ أي بيوم الجزاء والحساب آخره لتعظيمه وهذا تخصيص بعد تعميم ، لأن الخوض في الباطل عام شامل لتكذيب يوم الدين وغيره أي وكنا بعد ذلك كله مكذبين بيوم القيامة ، والصحيح أن الآية في الكفار أي لم نكن من أهل الصلاة وكذلك البقية ، ولا تصح منه هذه الطاعات وإنما يتأسفون على فوات ما ينفع ، ذكره سليمان الجمل .

﴿ حتى أتانا اليقين ﴾ وهو الموت كما في قوله ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ وبه قال ابن عباس ، وهذا غاية في الأمور الأربعة .

﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ أي شفاعة الملائكة والنبيين كما تنفع الصالحين ، والمعنى لا شفاعة لهم ، قال الحفناوي فالنفي مسلط على المقيد وقيده وليس المراد أن ثم شفاعة غير نافعة كما يتوهم من ظاهر اللفظ من حيث أن الغالب في النفي إذا دخل على مقيد بقيد أن يتسلط على القيد فقط ، وفيه دليل على ثبوت الشفاعة للمؤمنين ، وفي الحديث أن من أمتي من يدخل الجنة بشفاعته أكثر من ربيعة ومضر ، قال ابن مسعود تشفع الملائكة والنبيون والشهداء والصالحون وجميع المؤمنين فلا يبقى في النار إلا أربعة ثم تلا ﴿ قالوا لم نك من المصلين ﴾ الآيات ، وقال عمران بن حصين الشفاعة نافعة لكل أحد دون هؤلاء الذين تسمعون .

﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين ﴾ التذكرة التذكير بمواعظ القرآن ،

والفاء لترتيب إنكار إعراضهم عن التذكرة على ما قبله من موجبات الإقبال عليها ، وانتصاب معرضين على الحال من الضمير في متعلق الجار والمجرور أي أيّ شيء حصل لهم حال كونهم معرضين عن القرآن الذي هو مشتمل على التذكرة الكبرى ، والموعظة العظمى .

ثم شبههم في نفورهم عن القرآن بالحمر فقال ﴿ كأنهم حمر مستنفرة ﴾ أي نافرة يقال نفر واستنفر مثل عجب واستعجب ، والمراد الحمر الوحشية ، والجملة حال من الضمير في معرضين على التداخل ، قرىء في السبع بكسر الفاء بمعنى نافرة وقرىء بفتحها أي منفرة مذعورة ، واختار هذا أبو حاتم وأبو عبيد قال في الكشاف المستنفرة الشديدة النفار كأنها تطلب النفار من نفوسها في جمعها له وحملها عليه .

﴿ فرت من قسورة ﴾ حال بتقدير قد أي قد فرت من رماة يرمونها ، والقسور الرامي وجمعه قسورة قاله سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وقتادة وابن كيسان ، وقيل هو الأسد قاله عطاء والكلبي ، قال ابن عرفة هو من القسر وهو القهر لأنه يقهر السباع ، وقيل القسورة أصوات الناس وقيل القسورة بلسان العرب الأسد ، وبلسان الحبشة جماعة الرماة ولا واحد له من لفظه ، وقال ابن الاعرابي : القسورة أول الليل أي فرت من ظلمة الليل ، وبه قال عكرمة ، والأول أولى ، وكل شديد عند العرب فهو قسورة ، قال أبو موسى الأشعري : القسورة الرماة رجال القسي ، وقال ابن عباس : القسورة الرجال الرماة القنص ، وقيل هي حبال الصيادين .

وعن أبي حمزة قال قلت لابن عباس القسورة الأسد ، فقال ما أعلمه بلغة أحد من العرب الأسد ، هم عصبة الرجال ، وعن ابن عباس قال هو ركز الناس يعني أصواتهم شبههم في إعراضهم عن القرآن واستماع الذكر بحمر جدت في نفارها .

﴿ بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفاً منشرة ﴾ عطف على مقدر

يقتضيه المقام كأنه قيل لا يكتفون بتلك التذكرة بل يريد الخ فهو اضراب انتقالي عن محذوف هو جواب الاستفهام السابق كأنه قيل فلا جواب لهم عن هذا السؤال أي لا سبب لهم في الإعراض بل يريد الخ .

قال المفسرون ان كفار قريش قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم ليصبح عند رأس كل رجل منا كتاب منشور من الله أنك لرسول الله ، والصحف الكتب واحدتها صحيفة والمنشرة المنشورة المبسوطة المفتوحة أي غير مطوية أي طرية لم تطو ، بل تأتينا وقت كتابتها ، وهذا من زيادة تعنتهم ، ومثل هذه الآية قوله سبحانه ﴿ حتى تنزل علينا كتاباً نقرأه ﴾ قرأ الجمهور منشرة بالتشديد ، وقرأ سعيد بن جبير بالتخفيف وقرأ الجمهور أيضاً بضم الحاء من صحف وقرأ سعيد بإسكانها .

ثم ردعهم الله سبحانه عن هذه المقالة وزجرهم فقال ﴿ كلا بل لا يخافون الآخرة ﴾ يعني عذابها لأنهم لو خافوا النار لما اقترحوا الآيات ، وهذا إضراب انتقالي لبيان سبب هذا التعنت والاقتراح ، وقيل كلا بمعنى حقاً .

ثم كرر الردع والزجر لهم فقال ﴿ كلا إنه تذكرة ﴾ أو بمعنى « ألا » الاستفتاحية أو حقاً أن القرآن تذكرة بليغة كافية ، والمعنى أنه يتذكر به ويتعظ بمواعظه ، أو إنكار لأن يتذكروا بها ، قاله القاضي كالكشاف .

﴿ فمن شاء ذكره ﴾ أي فمن شاء أن يذكره ولا ينساه فعل واتعظ فإن نفع ذلك عائد إليه .

ثم رد سبحانه المشيئة إلى نفسه فقال ﴿ وما يذكرون إلا أن يشاء الله ﴾ قرأ الجمهور يذكرون بالياء التحتية ، وقرأ نافع ويعقوب بالفوقية وهما سبعيتان ، واتفقوا على التخفيف والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال ، قال مقاتل إلا أن يشاء الله لهم الهدى ، وقال في الكشاف يعني إلا أن يقسرهم على الذكر قال الإمام إنه تعالى نفى الذكر مطلقاً واستثنى منه حال المشيئة المطلقة ، فيلزم أنه متى حصلت المشيئة يحصل الذكر ، فحيث لم يحصل الذكر علمنا أنه

لم تحصل المشيئة ، وتخصيص المشيئة بالمشيئة القسرية ترك للظاهر ، وقال وهو تصريح بأن فعل العبد بمشيئة الله تعالى ذكره الكرخي .

﴿ هو أهل التقوى ﴾ أي هو الحقيق بأن يتقيه المتقون بترك معاصيه والعمل بطاعاته ﴿ وأهل المغفرة ﴾ أي هو الحقيق بأن يغفر للمؤمنين ما فرط منهم من الذنوب ، والحقيق بأن يقبل توبة التائبين من العصاة فيغفر ذنوبهم .

عن أنس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية فقال: قال ربكم أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معي إله فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهاً فأنا أهل أن أغفر له » أخرجه أحمد والدارمي والترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجة والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عدي وصححه وابن مردويه ، وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة وابن عمر وابن عباس مرفوعاً نحوه[1] .

(١) رواه أحمد في « المسند » والترمذي ٢ /١٦٨ والحاكم ٢ /٥٠٨ ، وابن ماجة ، والدارمي ، والطبراني في « الأوسط » وابن عدي ، وأبو يعلى . والبزار ، كلهم من رواية سهيل بن أبي حزم القُطَعي عن ثابت بن أنس ، وهو ضعيف كما قال الحافظ ابن حجر في « التقريب » قال الترمذي : حديث حسن غريب ، وسهيل ليس بالقوي في الحديث ، وقد تفرد سهيل بهذا الحديث عن ثابت . قال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » ١٨٠ : ورواه الحكيم الترمذي في السابع والسبعين بعد المائة بلفظ ؛ « قال : هو أهل أن يتقى ، فمن اتقى فهو أهل أن يغفر له » وله شاهد من رواية عبد الله قال : سمعت ثلاثة نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبا هريرة ، وابن عمر ، وابن عباس رضي الله عنهم يقولون : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى . . . فذكره .

إبراز حقيقة قرآنية

هذه سورة «المدثر» وهي مكية من أوائل ما نزل من القرآن ، وقد ختمها بقوله :

١ -﴿ فما لهم عن التذكره معرضين ، كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة﴾. .الخ كما ختم سورة ﴿ اقرأ ﴾ وهي أول سورة نزلت بقوله :

٢ -﴿ كلالئن لم ينته لنسفعاً[١] بالناصية ، ناصية كاذبة خاطئة ، فليدع ناديه سندع الزبانية﴾.

كما نزلت سورة بأسرها تقول :

٣ -﴿ تبت يدا أبي لهب وتب. ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى ناراً ذات لهب . وامرأته حمالة الحطب . في جيدها حبل من مسد ﴾ .

كذلك جاء في سورة المزمل وهي كذلك من أوائل ما نزل :

٤ - ﴿ وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا . إن لدينا أنكالاً وجحيماً . وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً . يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً[٢] ﴾ .

إذا تأملت هذه الآيات وكلها سب وتسفيه وتهديد للمشركين وزعمائهم ، مع ملاحظة أنها من أوائل ما نزل ، برزت لك حقيقة قرآنية عجيبة ، هي أن القرآن يدعو إلى مواجهة خصومه بكل شدة وعنف ، فلا هوادة ولا خنوع ،

---

(١) السفع : الجذب بقوة واللطم بشدة ، والناصية شعر الجبهة .

(٢) أولي النعمة الذين يتمتعون بنعم الله وهم الأغنياء والزعماء . والأنكال : الأغلال والقيود . والكثيب تل الرمل ، والمهيل الرخو المتداعي للتبعثر .

مهما كانت الظروف ، فهذه الآيات صرخ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في الأيام الأولى ولم يكن معه من يغني عنه فتيلاً ، في الوقت الذي تمالأ عليه الشرك وأهله لمحوه من الوجود .

ولم أر من المفسرين للقرآن من أدرك هذه النقطة غير صاحب التفسير الحديث حيث يقول تعليقاً على آيات سورة اقرأ ﴿ كلا لئن لم ينته ﴾ : والتهديد والتحدي والإنذار والتنديد بالطاغية قوي كل القوة عنيف كل العنف . وتبدو روعة هذه القوة حينما يلاحظ أن النبي عليه السلام لم يكن قد آمن به من يستطيع له نصراً ويقف الى جانبه ، وأن المتصدي له زعيم معتد بقوته وماله وجاهه وناديه .

وإذ يتصور المرء النبي صلى الله عليه وسلم ، يصرخ بملء فيه صرخته المدوية « كلا ، كلا » ثم يقذف بكلمات التنديد والتهديد والتحدي والإنذار القرآنية النارية غير مبال بالزعامة وقوتها ، وهو من دون نصير من الناس ، يدرك من دون ريب تلك الشجاعة التي كان يتحلى بها والتي استمدها من إيمان قوي عميق متول على مشاعره ، جعله لا يرى إلا عظمة لله ولا قوة إلا لله ولا سلطاناً إلا لله ، وجعله يرى كل ما عداه أضعف من أن يخشى ، وأعجز من أن يستطيع له نفعاً أو ضراً ، أو يقف أمام دين الله ويحول دون الدعوة إليه . ويدرك بهذا ما تحلى به من عظمة الخلق وقوة الجنان وعمق اليقين .

ويتبادر من عنف الآيات وقوتها القارعة أن الحكمة الربانية اقتضت أن يكون الرد على أول متصد للنبي صلى الله عليه وسلم ، من الزعماء الأقوياء بهذا الأسلوب لتثبيت النبي وأصحابه القلائل الذين آمنوا به ومواجهة الزعيم القوي بقوة وعنف يصدمانه على غير توقع .

ولا شك في أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قد تلا الآيات على أصحابه ، فقوت من روحهم وزادتهم إيماناً ، ووصلت الى صاحبها وناديه فصعقهم بعنفها وجعلتهم يشعرون بالقوة الروحية التي يستمد منها النبي ،

وازداد النبي بهذا وذاك قوة وعزماً على الاستمرار في مهمته ، غير مبال بالزعيم القوي وناديه .

وقد روى الطبري أن الذي عنته الآيات هو عمرو بن هشام المخزومي الذي عرف في التاريخ الإسلامي بأبي جهل وكان من كبار الزعماء وأشد أعداء النبي صلى الله عليه وسلم ، ورسالته والمؤلبين عليه . « وقد روي أنه لما تصدى للنبي صلى الله عليه وسلم ، انتهره وأغلظ له وتوعده ، وأنه قال : علام يتوعدني محمد وأنا أكثر أهل الوادي نادياً ؟ وأنه قال : لئن رأيته يصلي ثانية لأطأن عنقه ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم ، استمر على الصلاة في فناء الكعبة فرآه أبو جهل ولكنه لم يلبث أن نكص على عقبيه رافعاً يديه كأنما يقي بهما نفسه فقيل له ما لك ؟ فقال إن بيني وبينه خندقاً من نار ، وقد اسود ما بيني وبينه من الكتائب » .

على أن جملة ﴿ فليدع ناديه ﴾ تسوغ القول إن أبا جهل لم يكن وحيداً في موقفه من النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو ما تدل عليه الآيات التي نزلت بعد هذه الآيات في مناسبات عديدة مبكرة .

وليس بعيداً أن يكون تعبير «ناديه » قد عنى دار الندوة التي كان يجتمع فيها أهل الحل والعقد في مكة الذين هم رؤساء الأسر القرشية البارزة ، وقد كانت هذه الدار قرب الكعبة . فإذا صح هذا فإن من السائغ أن يقال إن السلطات الرسمية قد رأت في صلاة النبي صلى الله عليه وسلم ، علناً بصلاة جديدة لا عهد للناس بها وفي دعوته الناس جهاراً إلى دين يخالف ما عليه الناس بدعة ، ورأت وجوب الوقوف في وجهها ، وأنها عمدت الى أعضائها بتنفيذ ذلك ، أو أن هذا العضو كان أشد حماساً ضدها من غيره فكان هو المتصدي ا هـ .

ومنطق القوة هذا يذكرنا بموقف لخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في بدء توليه الخلافة فقد ارتد كثير من العرب بعد موت النبي صلى

الله عليه وسلم ، وكان هناك جيش أعده النبي قبل وفاته ، فرأى بعض الصحابة أن لا يمضي هذا الجيش إلى وجهته ، وأن يبقى لتأديب أهل الردة ، ولكن الخليفة الراشد أبى ، وأصر على أن يمضي الجيش الذي أمر به النبي إلى وجهته ، فكانت النتيجة أن أهل الردة اضطربوا وقالوا لولا أن الخليفة أعد لنا قوة كبرى ما سمح لهذا الجيش أن يذهب الى غيرنا ـ وكان النصر حليف المؤمنين .

* * *

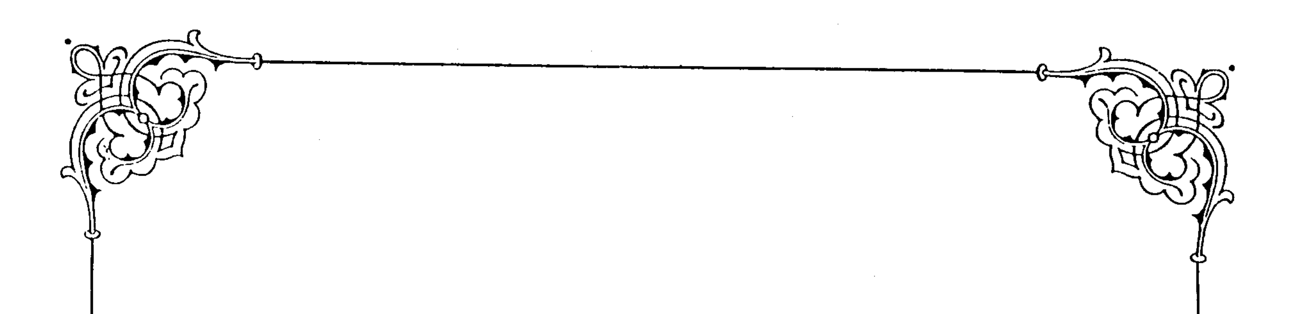
وهناك نكتة أخرى وهي أن القرآن كان حريصاً على مواجهة المشركين ومصارحتهم وإعلانهم بأوصافهم كما في الآيات السابقة ولم يسمح بأدنى تردد أو كتمان أو إخفاء مراعاة للظروف ، مع أن هناك آية تقول ﴿ وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾ وهذه الآية نزلت في قصة زيد وزينب ، وخلاصتها أن العرب كانت من عادتها التبني ، وهو أن يتخذ الرجل ولداً من غيره يتبناه ، فإذا كبر الولد وتزوج لا يجوز للرجل الذي تبناه أن يتزوج امرأته إذا طلقها وجاء الإسلام بإبطال هذه العادة ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم ، قد تبنى زيداً في صغره فلما كبر تزوج زيد بزينب بنت جحش وهي من الأشراف وهو دونها في الشرف ، فلم يستقم الحال بينهما فطلقها زيد ، فجاء القرآن يكلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يتزوج بزينب ليكون هو أول من يبطل هذه العادة ، وكأن الرسول صلى الله عليه وسلم ، تردد بعض الشيء في التنفيذ لما فيه من إتاحة الفرصة للمنافقين أن يلمزوه صلى الله عليه وسلم ، ويقولوا إن محمداً تزوج حليلة ولده ، وما هو بولده .

فأنت ترى أنه صلى الله عليه وسلم ، قد يخفي بعض الأمور الفرعية إلى حين مراعاة للظروف ، أما الشرك وهدمه من جذوره ، وهي وظيفة الرسل الأصلية ، فكان يؤدي دوره فيه بكل صراحة ووضوح .

﴿ علنية الدعوة في بدئها ﴾

وهذه الآيات التي سبقت في صدر هذا التعليق تدل على خلاف ما روي بأن الدعوة النبوية قد بدأت سرية ، وتدل بقوة على أنها بدأت علنية ، وكل ما يمكن أن يقال إزاء ما ورد في الأحاديث التي تروي أقوال بعض أصحاب رسول الله مثل ما روي عن عمر في قصة إسلامه حيث سأل بعد إسلامه « أنحن على حق أم باطل ؟ فقال له رسول الله : بل على حق ، فقال ففيم التخفي إذا » هو أن النبي صلى الله عليه وسلم ، حماية لأصحابه كان يلزم الحذر والتحفظ في الصلاة والاجتماع بهم ، غير أن دعوته للناس كانت وظلت جهرة .

وهذا هو المعقول المتسق مع هدف الدعوة وإيمان النبي بالله ورسالته .



سورة القيامة

هي تسع وثلاثون أو أربعون آية وهي مكية بلا خلاف . وعن ابن عباس نزلت بمكة وعن ابن الزبير مثله .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ﴿٧﴾

﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ قال أبو عبيدة وجماعة من المفسرين أن (لا) زائدة والتقدير أقسم ، قال السمرقندي أجمع المفسرون أن معنى ﴿ لا أقسم ﴾ أقسم ، واختلفوا في تفسير لا فقال بعضهم هي زائدة وزيادتها جارية في كلام العرب كقوله ﴿ ما منعك أن لا تسجد ﴾ يعني أن تسجد ﴿ ولئلا يعلم أهل الكتاب ﴾ .

واعترضوا هذا بأنها إنما تزاد في وسط الكلام لا في أوله ، وأجيب بأن القرآن في حكم سورة واحدة متصل بعضه ببعض ، يدل على ذلك أنه قد يجيء ذكر الشيء في سورة ويذكر جوابه في سورة أخرى كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ وجوابه في سورة أخرى ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ وإذا كان كذلك كان أول هذه السورة جارياً مجرى الوسط ، ورد هذا بأن القرآن في حكم السورة الواحدة في عدم التناقض ، لا في أن تقرن سورة بما بعدها فذلك غير جائز .

وقال الزمخشري إدخال لا النافية على فعل القسم مستفيض في كلامهم وأشعارهم ، وفائدتها توكيد القسم ، وقال بعضهم هي رد لكلامهم حيث أنكروا البعث كأنه قال ليس الأمر كما ذكرتم ، أقسم بيوم القيامة ، وهذا قول الفراء وكثير من النحويين ، كقول القائل لا والله فـ ﴿ لا ﴾ رد لكلام قد تقدمها ، وقيل هي للنفي لكن لا لنفي الأقسام بل لنفي ما ينبىء عنه من إعظام

المقسم بـه وتفخيمه ، كـأن معنى لا أقسم بكذا لا أعـظمـه بـإقسـامي بـه حق إعظامه ، فإنه حقيق بأكثر من ذلك ، وقيل إنهـا لنفي الإقسام لـوضوح الأمـر ، وقد تقدم الكلام على هذا في تفسير قوله ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ .

وقـرأ الحسن وابن كثير في روايـة عنه والـزهري وابن هـرمز ﴿ لأقسم ﴾ بـدون ألف على أن اللام لام الابتـداء والقول الأول هـو أرجح الأقـوال ، وقد اعترض عليه ، الرازي بما لا يقدح في قوته ولا يفت في عضد رجحانه .

وإقسامه سبحانه بيوم القيامـة لتعظيمـه وتفخيمه ، ولله أن يقسم بمـا شاء من مخلوقاته ، قال سعيد بن جبير سألت ابن عبـاس عن قولـه ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ قال يقسم ربك بما شاء من خلقه .

﴿ ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾ ذهب قـوم الى أنه سبحـانه أقسم بـالنفس اللوامـة كما أقسم بيـوم القيامـة فيكون الكلام في ﴿لا﴾ هذه كالكلام في الأولى وهـذا قـول الجمهـور ، وقـال الحسن أقسم بيـوم القيـامـة ولم يقسم بـالنفس اللوامـة ، قال الثعلبي : والصحيـح أنـه أقسم بهمـا جميعـاً ، وجـرى الجـلال المحلى على زيـادتهـا في المـوضعين وهـو الصـواب ، ومعنى النفس اللوامـة النفس التي تلوم صاحبها على تقصيره أو تلوم جميع النفوس على تقصيرها في الدنيا أو في القيامة ، قـال الحسن : هي والله نفس المؤمن لا يرى المؤمن إلا يلوم نفسه ما أردت بكذا ، ما أردت بكذا ، والفاجر لا يعاتب نفسه .

وقال مجاهد : هي التي تلوم على ما فات وتندم فتلوم نفسها على الشر لِمَ عمله وعلى الخير لِمَ لَمْ يستكثر منه ، قال ابن عباس التي تلوم على الخير والشر يقول لو فعلت كذا وكذا ، وعنه تندم على ما فات وتلوم عليه .

قال الفراء : ليس من نفس برة ولا فاجـرة إلا وهي تلوم نفسها إن كـانت عملت خيراً قالت هلا ازددت ، وإن كانت عملت سوءاً قالت ليتني لم أفعل .

وعلى هـذا فالكـلام خارج مخـرج المدح للنفس ، فيكـون الإقسام بهـا حسناً سائغاً ، وقيل اللوامة هي الملومة المذمومة ، قالـه ابن عباس فهي صفـة

ذم وبهذا أحتج من نفي أن يكون قسماً إذ ليس لنفس العاصي خطر يقسم به ، وقال مقاتل هي نفس الكافر تلوم نفسه وتتحسر في الآخرة على ما فرط في جنب الله ، والأول أولى .

وقيل هي آدم لم تزل تلوم على فعلها التي خرجت به من الجنة وما أبعده ، وقال ابن عباس اللوامة اللؤم . قال القاضي ضمها بيوم القيامة بهما لأن المقصود من إقامة القيامة مجازاة النفوس اهـ فهو من بديع القسم لتناسب الأمرين المقسم بهما حيث أقسم بيوم البعث والنفوس المجزية فيه على حقية البعث والجزاء .

﴿ أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ﴾ المراد بالإنسان الجنس ، وقيل الانسان الكافر والهمزة للإنكار وأن هي المخففة من الثقيلة واسمها ضمير شأن محذوف والمعنى أيحسب الإنسان أن الشأن أن لن نجمع عظامه بعد أن صارت رفاتاً مختلطة بالتراب ، وبعد ما نسفتها الريح فطيرتها في أباعد الأرض فنعيدها خلقاً جديداً ، وذلك الحسبان باطل فإنا نجمعها ، وما يدل عليه هذا الكلام هو جواب القسم .

قال الزجاج : أقسم ليجمعن العظام للبعث فهذا جواب القسم ، وقال النحاس جوابه محذوف أي لتبعثن ، والمعنى أن الله سبحانه يبعث جميع أجزاء الإنسان ، وإنما خص العظام لأنها قالب الخلق[1] .

---

(١) قال البغوي : نزلت في عدي بن ربيعة حليف بني زهرة خَتَن الأخنس بن شريق الثقفي ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم اكفني جَارَيِ السوء ، يعني عدياً والأخنس ، وذلك أن عدي بن ربيعة أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد حدثني عن القيامة متى تكون ؟ وكيف أمرها وحالها ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لو عاينتُ ذلك اليوم لم أصدقك ولم أؤمن بك ، أو يجمع الله العظام ؟ ! فأنزل الله عز وجل : (أيحسب الإنسان) يعني الكافر (أن لن نجمع عظامه) بعد التفرق والبلي فنحييه قبل ذكر العظام ، وذكره كذلك بغير سند القرطبي والخازن . والله أعلم . وفي القرطبي و « البحر المحيط » : وقيل : نزلت في أبي جهل .

﴿ بلى قادرين على أن نسوي بنانه ﴾ بلى إيجاب لما بعد النفي المنسحب اليه الاستفهام والوقف على هذا اللفظ وقف حسن ، ثم يبتدىء الكلام بقوله ﴿ قادرين ﴾ وانتصابه على الحال أي بلى نجمعها قادرين ، فالحال من ضمير الفعل المقدر ، وقيل المعنى بل نجمعها نقدر قادرين ، قال الفراء أي نقدر ونقوي قادرين على أكثر من ذلك ، وقال أيضا إنه يصلح نصبه على التكرير أي بلى فليحسبنا قادرين ، وقيل التقدير بلى كنا قادرين وهذا ليس بواضح .

وقرأ ابن أبي عبله وابن السميفع ﴿ بلى قادرون ﴾ على تقدير مبتدأ أي بلى نحن قادرون ، ومعنى تسوية البنان نقدر على أن نجمع بعضها الى بعض فنردها كما كانت مع لطافتها وصغرها فكيف بكبار الأعضاء ، فنبه سبحانه بالبنان ، وهي الأصابع على بقية الأعضاء وأن الاقتدار على بعثها وارجاعها كما كانت أولى في القدرة من إرجاع الأصابع الصغيرة اللطيفة المشتملة على المفاصل والأظفار والعروق اللطاف والعظام الدقاق فهذا وجه تخصيصها بالذكر ، وبهذا قال الزجاج وابن قتيبة .

وقال جمهور المفسرين إن معنى الآية أن نجعل أصابع يديه ورجليه شيئاً واحداً كخف البعير وحافر الحمار صفحة واحدة لا شقوق فيها فلا يقدر على أن ينتفع بها في الأعمال اللطيفة كالكتابة والخياطة ونحوهما ، ولكنا فرقنا أصابعه لينتفع بها ، وقيل المعنى بل نقدر على أن نعيد الإنسان في هيئة البهائم فكيف في صورته التي كان عليها والأول أولى .

قال ابن عباس لو شاء لجعله خفاً أو حافراً ، وبنان جمع أو اسم جمع لبنانة قولان . وفي المختار البنانة واحد البنان وهي أطراف الأصابع ، ويقال بنان مخضب لأن كل جمع ليس بينه وبين واحده إلا الهاء فإنه يؤنث ويذكر .

﴿ بل يريد الإنسان ليفجر أمامه ﴾ عطف على ﴿ أيحسب ﴾ إما على أنه استفهام مثله واضرب عن التوبيخ بذلك إلى التوبيخ بهذا أو على أنه إيجاب انتقل إليه من الاستفهام ، والمعنى بل يريد الإنسان أن يقدم فجوره فيما بين يديه من الأوقات وما يستقبله من الزمان ، فيقدم الذنب ويؤخر التوبة .

قال ابن الانْباري : يريد أن يفجر ما امتد عمره وليس في نيته أن يرجع من ذنب يرتكبه ، قال مجاهد والحسن وعكرمة والسدي وسعيد بن جبير يقول : سوف أتوب ولا يتوب حتى يأتيه الموت وهو على أشر أحواله ، قال الضحاك : هو الأمل يقول سوف أعيش وأصيب من الدنيا ولا يذكر الموت ، وقال ابن عباس : يمضي قدماً ، وعنه قال : هو الكافر الذي يكذب بالحساب ، وعنه قال : يعني الأمل يقول أعمل ثم أتوب وعنه قال : يقدم الذنب ويؤخر التوبة ، وعنه قال : يقول سوف أتوب ، والفجور أصله الميل عن الحق فيصدق على كل من مال عن الحق بقول أو فعل .

﴿ يسأل أيان يوم القيامة ﴾ مستأنفة ، وقال أبو البقاء تفسير لبيان معنى يفجر فتكون مفسرة مستأنفة أو بدلاً من الجملة قبلها لأن التفسير يكون بالاستئناف وبالبدل ، وأيان خبر مقدم ويوم القيامة مبتدأ مؤخر ، والمعنى يسأل متى يقوم يوم القيامة ، سؤال استبعاد واستهزاء ، قال ابن عباس أي يقول متى يوم القيامة .

﴿ فإذا برق البصر ﴾ أي فزع وتحير ، من برق الرجل إذا نظر الى البرق فدهش بصره ، قرأ الجمهور برق بكسر الراء قال أبو عمرو بن العلاء والزجاج وغيرهما المعنى تحير فلم يطرف ، وقال الخليل والفراء : برق بالكسر فزع وبهت وتحير ، والعرب تقول للإنسان المبهوت قد برق فهو برق ، وقرىء بفتح الراء أي لمع بصره من شدة شخوصه للموت ، قال مجاهد وغيره : هذا عند الموت ، وقيل برق يبرق شق عينيه وفتحهما ، وقال أبو عبيدة : فتح الراء وكسرها لغتان بمعنى ، قال ابن عباس : يعني الموت .

وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾

﴿ وخسف القمر ﴾ قرأ الجمهور بفتح الخاء والسين مبنياً للفاعل ، وقرىء بضم الخاء وكسر السين مبنياً للمفعول ، والمعنى ذهب ضوؤه وأظلم ولا يعود كما يعود إذا خسف في الدنيا ، ويقال خسف إذا ذهب جميع ضوئه ، وكسف إذا ذهب بعض ضوئه .

﴿ وجمع الشمس والقمر ﴾ أي ذهب ضوؤهما جميعاً ولم يقل جمعت لأن التأنيث مجازي ، قاله المبرد وقال أبو عبيدة هو لتغليب المذكر على المؤنث ، وقال الكسائي حمل على معنى جمع النيران ، وقال الزجاج والفراء : لم يقل جمعت لأن المعنى جمع بينهما في ذهاب نورهما ، وقيل جمع بينهما في طلوعهما من المغرب أسودين مكورين مظلمين . قال عطاء : يجمع بينهما يوم القيامة ثم يقذفان في البحر فيكونان نار الله الكبرى ، وقيل يجمع الشمس والقمر فلا يكون هناك تعاقب ليل ونهار ، وقرأ ابن مسعود وجمع بين الشمس والقمر .

﴿ يقول الإنسان ﴾ جواب إذا ﴿ يومئذ ﴾ أي يوم إذا برق البصر الخ ﴿ أين المفر ﴾ أي يقول عند وقوع هذه الأمور أين الفرار ، والمراد بالإنسان الكافر أو المؤمن أيضا يقول ذلك من الهول ، والمفر مصدر بمعنى الفرار ، قال الفراء : يجوز أن يكون موضع الفرار .

قال الماوردي يحتمل وجهين (أحدهما) أين المفر من الله سبحانه استحياء منه (والثاني) أين المفر من جهنم حذراً منها ، قرأ الجمهور بفتح

الميم والفاء مصدراً كما تقدم ، وقرىء بضم الميم على أنه اسم مكان أي أين مكان الفرار وقال الكسائي هما لغتان مثل مَدَب ومُدَب ومَصَح ومُصَح ، وقرأ الزهري بكسر الميم وفتح الفاء على أن المراد به الإنسان الجيد الفرار .

﴿ كلا ﴾ للردع عن طلب الفرار أو لنفي ما قبلها أو بمعنى حقاً ﴿ لا وزر ﴾ أي لا سلاح ولا جبل ولا حصن ولا ملجأ يتحصن به من الله ، وقال ابن جبير لا محيص ولا منعة ، والوزر في اللغة ما يلجأ اليه الإنسان من حصن أو جبل وغيرهما ، مني يومئذ ، قال ابن مسعود : لا وزر لا حصن ، وقال ابن عباس : لا ملجأ وفي لفظ لا حرز وفي لفظ لا جبل ولا حصن ، وخبر لا محذوف أي لا وزر له .

﴿ إلى ربك يومئذ المستقر ﴾ أي إليه المرجع والمنتهى والمصير لا إلى غيره ، وقيل إليه الحكم بين العباد لا إلى غيره ، وقيل : المستقر الاستقرار حيث يقره الله من جنة أو نار .

﴿يُنَبَّؤُ الإنسان يومئذ بما قدم وأخّر ﴾ أي يخبر يوم القيامة بما عمل من خير وشر ، وقال قتادة : بما عمل من طاعة الله وما أخر من طاعته فلم يعمل بها ، وقال زيد ابن أسلم : بما قدم من أمواله وما خلف للورثة ، وقال مجاهد : بأول عمله وآخره ، وقال الضحاك : بما قدم من فرض وأخر من فرض .

قال القشيري : هذا الإنباء يكون يوم القيامة عند وزن الأعمال ، ويجوز أن يكون عند الموت ، قال القرطبي : والأول أظهر ، قال ابن مسعود : بما قدم من عمل وأخر من سنة عمل بها من بعده من خير أو شر ، وعن ابن عباس نحوه ، وعنه قال : بما قدم من معصية وآخر من طاعة فينبأ بذلك .

﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة ﴾ قال الأخفش جعله هو البصيرة كما تقول للرجل أنت حجة على نفسك ، وقيل المعنى أن جوارحه تشهد عليه بما عمل كما في قوله ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم ، وأرجلهم بما كانوا

يعملون ﴾ فيكون المعنى بل جوارح الإنسان عليه شاهدة ، قال أبو عبيدة والقتيبي أن هذه الهاء في البصيرة هي التي يسميها أهل الإعراب هاء المبالغة كما في قولهم علامة ، وقيل المراد بالبصيرة الكاتبان اللذان يكتبان ما يكون منه من خير وشر ، والتاء على هذا للتأنيث . وقال الحسن : أي بصير بعيوب نفسه ، وقال ابن عباس : شهد على نفسه وحده ، وعنه قال سمعه وبصره ويديه ورجليه وجوارحه .

﴿ ولو ألقى معاذيره ﴾ أي ولو اعتذر وتجرد من ثيابه وجادل عن نفسه لم ينفعه ذلك يقال معذرة ومعاذير على غير قياس كملاقيح ومذاكير جمع لقحة وذكر ، قال الفراء أي وإن اعتذر فعليه من يكذب عذره ، وقال الزجاج : المعاذير الستور والواحد معذار أي وإن أرخى الستور وأغلق الأبواب ، يريد أن يخفي نفسه فنفسه شاهدة عليه ، وكذا قال الضحاك والسدي ، والستر بلغة اليمن يقال له معذار كذا قال المبرد والأول أولى ، وبه قال مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير وابن زيد وأبو العالية ومقاتل ومثله قوله ﴿ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ﴾ وقوله ﴿ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ وقول الشاعر :

فما سن أن يعذر المرء نفسه وليس له من سائر الناس عاذر

وقال النسفي والمعاذير ليس بجمع معذرة لأن جمعها معاذر بل هي اسم جمع لها ونحوه المناكير في المنكر ، قال الشيخ وليس هذا البناء من أبنية أسماء الجموع وإنما هو من أبنية جموع التكسير وهو الصحيح .

﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴾ أي لا تحرك بالقرآن لسانك عند إلقاء الوحي لتأخذه على عجل مخافة أن يتفلت منك ، ومثل هذا قوله ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه ﴾ الآية .

﴿ إن علينا جمعه ﴾ في صدرك حتى لا يذهب عليك منه شيء ﴿ وقرآنه ﴾ أي إثبات قراءته في لسانك وهو تعليل للنهي ، قال الفراء القراءة والقرآن مصدران .

﴿ فإذا قرأناه ﴾ أي أتممنا قراءته عليك بلسان جبريل عليه السلام وبيناه ﴿ فاتبع قرآنه ﴾ أي فاستمع قراءته وكررها حتى يرسخ في ذهنك ، وقال ابن عباس يقول اعمل به ، وقال قتادة فاتبع قرآنه أي شرائعه وأحكامه .

﴿ ثم إن علينا بيانه ﴾ أي تفسير ما فيه من الحلال والحرام وبيان ما أشكل من معانيه . قال الزجاج : المعنى أن علينا أن ننزله عليك قرآناً عربياً فقه بيان للناس ، وقيل المعنى أن علينا أن نبينه بلسانك ، وهو دليل على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب ، وهو اعتراض بما يؤكد التوبيخ على حب العجلة لأن العجلة إذا كانت مذمومة فيما هو أهم الأمور وأصل الدين فكيف بها في غيره .

والمناسبة بين هذه الآية وما قبلها أن تلك تضمنت الإعراض عن آيات الله ، وهذه تضمنت المبادرة اليها بحفظها .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعالج من التنزيل شدة فكان يحرك به لسانه وشفتيه مخافة أن يتفلت منه ، يريد أن يحفظه فأنزل الله ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه ﴾[1] يقول إن علينا أن نجمعه في صدرك ثم نقرأه فإذا قرأناه يقول إذا أنزلناه عليك فاتبع قرآنه فاستمع له وأنصت ، ثم إن علينا بيانه أن نبينه بلسانك ، وفي لفظ علينا أن نقرأه ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد ذلك إذا أتاه جبريل أطرق ، وفي لفظ استمع ، فاذا ذهب قرأه كما وعده الله .

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس، والبخاري ٨/٣٢٥ ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن جرير ، وذكره السيوطي في « الدر » ٦ / ٢١٩ وزاد نسبته للطيالسي ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن الأنباري في « المصاحف » والطبراني ، وابن مردويه ، وأبي نعيم والبيهقي معاً في « الدلائل » عن ابن عباس رضي الله عنهما .

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾

﴿ كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة ﴾ كلا للردع عن العجلة، والترغيب في الأناة، وقيل هي ردع لمن لا يؤمن بالقرآن وبكونه بيّنا من الكفار، قال عطاء: أي لا يؤمن أبو جهل بالقرآن وبيانه، قرأ أهل المدينة والكوفيون تحبون وتذرون بالفوقية في الفعلين جميعاً، وقرأ الباقون بالتحتية فيهما وهما سبعيتان، فعلى الأولى يكون الخطاب لهم تقريعاً وتوبيخاً، والمعنى تحبون الدنيا وتختارونها وتتركون الآخرة ونعيمها فلا تعملون لها، وعلى الثانية يكون الكلام عائداً إلى الإنسان لأنه بمعنى الناس، قال ابن مسعود عجلت لهم الدنيا خيرها وشرها، وغيبت الآخرة، أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد.

﴿ وجوه يومئذ ناضرة ﴾ أي ناعمة غضة حسنة يقال شجر ناضر، وروض ناضر أي حسن ناعم، ونضارة العيش حسنه وبهجته، قال الواحدي: قال المفسرون: مضيئة مسفرة مشرقة، وقال ابن عباس: ناعمة وقيل مسرورة بالنعيم، وقيل بيض يعلوها نور، والأول أولى، ووجوه مبتدأ وناضرة صفة لوجوه، ويومئذ ظرف لناضرة، وناظرة خبر مبتدأ وسوغ الابتداء بالنكرة هنا العطف عليها وكون الموضع موضع تفصيل، ولو لم يكن المقام مقام تفصيل لكان وصف النكرة بقوله ناضرة مسوغاً للابتداء بها، ولكن مقام التفصيل بمجرده مسوغ للابتداء بالنكرة.

﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ أي تنظر اليه عياناً بلا حجاب، هكذا قال جمهور أهل العلم والمراد به ما تواترت به الأحاديث الصحيحة من أن العباد ينظرون

الى ربهم يوم القيامة كما ينظرون الى القمر ليلة البدر .

قال ابن كثير وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام وهداة الأنام ، وقال مجاهد إن النظر هنا انتظار ما لهم عند الله من الثواب ، وروي نحوه عن عكرمة ، وقيل لا يصح هذا الا عن مجاهد وحده ، قال الأزهري وقول مجاهد خطأ لأنه لا يقال نظر الى كذا بمعنى الانتظار لأن قول القائل نظرت الى فلان ليس إلا رؤية عين ، فإذا أرادوا الانتظار قالوا نظرته ، فاذا أرادوا نظر العين قالوا نظرت اليه ، وأشعار العرب وكلماتهم في هذا كثيرة جداً .

ويشهد لصحة هذا أن النظر الوارد في التنزيل بمعنى الانتظار كثير ولم يوصل في موضع بإلى قوله ﴿ انظرونا نقتبس من نوركم ﴾ وقوله ﴿ هل ينظرون إلا تأويله ﴾ وقوله ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله ﴾ والوجه إذا وصف بالنظر وعدِّي بإلى لم يحتمل غير الرؤية .

والأحاديث الصحيحة تعضد قول من فسر النظر في هذه الآية بالرؤية وسيأتي بعضها قال ابن عباس في الآية تنظر الى الخالق ، وعنه قال تنظر الى وجه ربها .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في الآية ينظرون إلى ربهم بلا كيفية ولا حد محدود ولا صفة معلومة . أخرجه ابن مردويه .

وعن أبي هريرة قال : «قال الناس يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة قال هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب ، قالوا لا يا رسول الله ، قال فهل تضارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ، قالوا لا يا رسول الله ، قال فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك » أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما[1] .

---

(١) وقد ثبت رؤية المؤمنين لله عز وجل في الدار الآخرة في الأحد الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث لا يمكن دفعها ولا منعها ، كحديث أبيّ وأبي هريرة ، وهما في « الصحيحين » أن ناساً

وأخرج الشيخان وغيرهما من حديث أبي هريرة نحوه .

وقد أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن المنذر والدارقطني والحاكم وابن مردويه والبيهقي عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر الى جناته وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة ، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ﴾ » وأخرجه أحمد في المسند من حديثه بلفظ « وإن أفضلهم منزلة لينظر في وجه الله كل يوم مرتين » .

وأخرج النسائي والدارقطني وصححه وأبو نعيم عن أبي هريرة قال : « قلنا يا رسول الله هل نرى ربنا قال هل ترون الشمس في يوم لا غيم فيه ، وترون القمر في ليلة لا غيم فيها قلنا نعم ، قال فإنكم سترون ربكم عز وجل حتى أن أحدكم ليحاور ربه محاورة فيقول عبدي هل تعرف ذنب كذا وكذا فيقول:ألم تغفر لي؟فيقول بمغفرتي صرت إلى هذا » .

وقد تظافرت أدلة الكتاب والسنة وإجماع الصحابة ومن بعدهم من سلف الأمة على إثبات رؤية الله تعالى ، وقد رواها نحو من عشرين صحابياً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وآيات القرآن فيها مشهورة ، ولاعتراضات المبتدعة من المعتزلة والخوارج وبعض المرجئة عليها أجوبة معروفة في كتب الكلام من أهل السنة ، وكذلك باقي شبههم وأجوبتها مستفاضة في كتب أهل الحق ، وليس هذا موضع ذكرها ، وقد قدمنا أن أحاديث الرؤية متواترة فلا نطيل بذكرها وهي تأتي في مصنف مستقل ، ولم يتمسك

قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة فقال : « هل تضارون في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب ؟ » قالوا : لا يا رسول الله ، قال : « إنكم ترون ربكم كذلك » وفي « الصحيحين » عن جرير قال : نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم القمر ليلة البدر فقال : «إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر ، فإن استطعتم أن لا تقلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ولا قبل غروبها فافعلوا » .

من نفاها واستبعدها بشيء يصلح للتمسك بـه لا من كتاب الله ولا من سنة رسوله .

وقد أطـال الحافظ المتكلم محمـد بن أبي بكر القيم الجـوزي رحمه الله تعالى في إثبات رؤيته تعالى يوم القيامة في كتابـه ﴿ حـادي الأرواح إلى بـلاد الأفراح ﴾ ومن أحب النظر في أدلة الفريقين فعليه برسـالة الشـوكاني المسمـاة بالبغية في مسألة الرؤية جمـع فيها جميـع ما استـدل به النـافون والمثبتـون من الأدلة العقلية والنقلية .

﴿ ووجوه يومئذ باسرة ﴾ أي كالحة عابسة كئيبة قال في الصحاح : بسـر الرجل وجهـه بسوراً أي كلح قـال السدي : بـاسرة أي متغيـرة ، وقيل مصفـرة والمراد بالوجوه هنا وجوه الكفار .

﴿ تظن ﴾ أي توقن ﴿ أن يفعل بها فـاقرة ﴾ الفـاقرة الـداهية العـظيمة ، يقال فقرتـه الفاقـرة أي كسرت فقـار ظهره ، قـال قتادة : الفـاقرة الشـر ، وقال السدي : الهلاك وقـال ابن زيد : دخـول النار ، وقيـل الحجاب عن رؤيـة الله تعالى ، والأول أولى .

وأصـل الفاقـرة الوسم على أنف البعيـر بحديـدة أو نار حتى تخلص الى العظم ، كذا قال الأصمعي ومن هذا قولهم قد عمل به الفاقرة .

﴿ كـلا ﴾ ردع وزجر أي بعيـد أن يؤمن الكافـر بيوم القيـامة ثم استـأنف فقال ﴿ إذا بلغت ﴾ النفس أو الروح أي نفس المحتضر مؤمنـاً كـان أو كافـراً ، وإنما أضمرت وإن لم يجر لها ذكـر لأن السياق يـدل عليها ﴿ التـراقي ﴾ جمع ترقوة وهي عظم بين ثغرة النحر والعاتق يميناً وشمالاً ، ولكـل إنسان تـرقوتـان ويكنى ببلوغ النفس التـراقي عن الإشفـاء على المـوت ، ومثله قـولـه تعـالى ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم ﴾ وقيل معنى كـلا حقـاً أي حقـاً أن المساق الى الله إذا بلغت التـراقي ، والمقصود تـذكيرهم بشـدة الحال عنـد نزول المـوت قـال دريد بن الصمة :

ورب كريهة دافعت عنها وقد بلغت نفوسهم التراقي

﴿ وقيـل ﴾ هذا الفعـل وما بعـده من الفعلين معـطوف على بلغت ﴿ من

راق ﴾ أي قال من حضر صاحبها من يرقيه ويشتفي برقيته ، قال قتادة إلتمسوا له الأطباء فلم يغنوا عنه من قضاء الله شيئاً وبه قال أبو قلابة ومنه قول الشاعر :

هل للفتى من بنات الموت من واقٍ ؟ أم هل له من حمام الموت من راقِ ؟

وقال أبو الجوزاء هو من رقى يرقى إذا صعد والمعنى من يرقى بروحه إلى السماء أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب ، وقيل إنه يقول ذلك ملك الموت وذلك أن نفس الكافر تكره الملائكة قربها ، وقال ابن عباس : في قوله ﴿ وقيل من راق ﴾ قال تنتزع نفسه حتى إذا كانت في تراقيه قيل من يرقى بروحه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب ، وهذا الاستفهام يجوز أن يكون على بابه وأن يكون استبعاداً وإنكاراً ، وراق اسم فاعل إما من رقى يرقي بالفتح في الماضي والكسر في المضارع من الرقية وهي كلام معد للاستشفاء يرقى به المريض ليشفى ، وفي الحديث « وما أدراك أنها رقية »[١] ، يعني الفاتحة وهي من أسمائها ، وإما من رقي يرقى بالكسر في الماضي والفتح في المضارع من الرقي وهو الصعود ،يقال رقى بالفتح من الرقية وبالكسر من الرقي .

﴿ وظن ﴾ أي أيقن الذي بلغت روحه التراقي وسمي اليقين ظناً لأن الإنسان ما دامت روحه متعلقة ببدنه فإنه يطمع في الحياة لشدة حبه لها ولا ينقطع رجاؤه منها ﴿ أنه ﴾ أي ما نزل به ﴿ الفراق ﴾ من الدنيا ومن الأهل والمال والولد .

﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ أي التفت ساقه بساقه عند نزول الموت به ، وقال جمهور المفسرين المعنى تتابعت عليه الشدائد وقال الحسن : هما ساقاه اذا التفتا في الكفن ، وقال زيد بن أسلم التفت ساق الكفن بساق الميت ، وقيل ماتت رجلاه ويبست ساقاه ولم تحملاه ، وقد كان جوالاً عليهما ، وقال الضحاك : اجتمع عليه أمران شديدان الناس يجهزون جسده ، والملائكة يجهزون روحه ، وبه قال ابن زيد :

والعرب لا تذكر الساق الا في الشدائد الكبار والمحن العظام ، ومنه قولهم قامت الحرب على ساق ، وقيل الساق الأول تعذيب روحه عند خروج

(١) سبق شرحها في تفسير سورة الفاتحة .

نفسه ، والساق الآخر شدة البعث وما بعده ، وقال ابن عباس التفت عليه الدنيا والآخرة ، وعنه قول يقول آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة فيلقى الشدة بالشدة إلا من رحم الله ، وقال الشعبي وغيره المعنى التفت ساق الإنسان عند الموت من شدة الكرب ، وقال قتادة أما رأيته إذا أشرف على الموت يضرب إحدى رجليه على الأخرى ، قال النحاس القول الأول أحسنها .

﴿ إلى ربك يومئذ المساق ﴾ أي إلى خالقك يوم القيامة المرجع ، وذلك جمع العباد الى الله يساقون اليه وقيل التنوين عوض عن جمل أربع أي يوم إذ بلغت الروح التراقي الخ .

﴿ فلا صدق ولا صلى ﴾ أي لم يصدق الإنسان المذكور في أول هذه السورة بالرسالة ولا بالقرآن ولا صلى لربه أي الصلاة الشرعية ، فهو ذم له يترك العقائد والفروع ، قال قتادة فلا صدق بالكتاب ولا صلى لله ، وقيل فلا آمن بقلبه ولا عمل ببدنه ، وقيل صدق من التصدق أي فلا صدق بشيء يدخره عند الله تعالى ، قاله القرطبي قال الكسائي : لا بمعنى لم وكذا قال الأخفش والعرب تقول لا لا ذهب أي لم يذهب ، وهذا مستفيض في كلام العرب ومنه .

إن تغفر اللهم فاغفر جما وأي عبد لك لا ألما

ولما كان عدم التصديق يصدق بالشك والسكوت والتكذيب استدرك على عمومه وبين أن المراد منه خصوص التكذيب فقال : ﴿ ولكن كذب وتولى ﴾ أي كذب بالرسول وبما جاء به ، وتولى عن الطاعة والإيمان ، ولم يستدرك على نفي الصلاة لأنه لا يصدق إلا بصورة واحدة فلم يحتج للاستدراك عليه .

﴿ ثم ذهب الى أهله يتمطى ﴾ أي يتبختر ويختال في مشيه افتخاراً بذلك ، وقيل هو مأخوذ من المطا ، وهو الظهر والمعنى يلوي مطاه وقيل أصله يتمطط وهو التمدد والتثاقل أي يتثاقل ويتكاسل عن الداعي الى الحق .

قال الإمام هذا ذكر لما يتعلق بدنياه بعد ذكر ما يتعلق بدينه ، وثم للاستبعاد لأن من صدر عنه مثل ذلك ينبغي أن يخاف من حلول غضب الله به فيمشي خائفاً منه متطامناً لا فرحاً متبختراً ، ذكره الشهاب .

أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

﴿ أولى لك ﴾ فيه التفات عن الغيبة ، والكلمة اسم فعل مبنية على السكون لا محل لها من الإعراب ، والفاعل ضمير مستتر يعود على ما يفهم من السياق وهو كون هذه الكلمة تستعمل في الدعاء بالمكروه ، واللام مزيدة والمعنى وليك ما تكرهه ﴿ فأولى ﴾ أي فهو أولى بك من غيرك ، فدلت الأولى على الدعاء عليه بقرب المكروه منه ، ودلت الثانية على الدعاء عليه بأن يكون أقرب اليه من غيره ، هذا ما سلكه الجلال المحلي في تقرير هذا المقام وانفرد به عن غيره من المفسرين وهو حسن جداً .

﴿ ثم أولى لك فأولى ﴾ الأولى تأكيد للأولى والثانية تأكيد للثانية ، وقيل أي وليك الويل وأصله أولاك الله ما تكرهه واللام مزيدة كما في ردف لكم ، وهذا تهديد شديد ووعيد بعد وعيد ، والتكرير للتأكيد أي يتكرر عليك ذلك مرة بعد مرة .

قال الواحدي قال المفسرون : « أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بيد أبي جهل فقال أولى لك فأولى فقال أبو جهل بأي شيء تهددني ؟لا تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئاً وإني لأعز أهل هذا الوادي » فنزلت هذه الآية ، وقيل معناه الويل لك وعلى هذا القول قيل هو من المقلوب ، كأنه قيل أويل لك ثم أخر الحرف المعتل، قيل ومعنى التكرير لهذا اللفظ أربع مرات الويل لك حياً والويل لك ميتاً والويل لك يوم البعث والويل لك يوم تدخل

النار ، وقيل المعنى أن الذم لك أولى لك من تركه ، وقيل المعنى أنت أولى وأحق وأجدر بهذا العذاب قاله محي السنة ، وقال الأصمعي أولى في كلام العرب معناه مقاربة الهلاك ، قال المبرد كأنه يقول قد وليت الهلاك وقد دانيته ، وأصله من الولي وهو القرب .

قال ثعلب : لم يقل أحد في ﴿ أولى ﴾ أحسن وأصح مما قاله الأصمعي ، وعن سعيد بن جبير قال : « سألت ابن عباس عن قوله أولى لك فأولى أشيء قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأبي جهل من قبل نفسه أم أمره الله به قال بل قاله من قبل نفسه ثم أنزله الله » أخرجه النسائي والحاكم وصححه والطبراني وغيرهم .

﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾ أي مهملاً لا يؤمر ولا ينهى ولا يحاسب ولا يعاقب ولا يكلف في الدنيا ولا يبعث ولا يجازى ، وقال السدي معناه المهمل ومنه إبل سدى أي ترعى بلا راع ، وقيل المعنى أيحسب أن يترك في قبره كذلك أبداً لا يبعث ، وهو يتضمن تكرير إنكاره للحشر ، والدلالة عليه من حيث أن الحكمة تقتضي الأمر بالمحاسن والنهي عن القبائح ، والتكليف لا يتحقق إلا بالمجازاة وهي قد لا تكون في الدنيا فتكون في الآخرة .

﴿ ألم يك نطفة من مني يمنى ﴾ مستأنفة أي ألم يك ذلك الإنسان قطرة من مني تراق وتصب في الرحم ، وسمي المني منياً لإراقته ، والنطفة الماء القليل ، يقال نطف الماء إذا قطر ، قرأ الجمهور ألم يك بالتحتية على إرجاع الضمير الى الإنسان ، وقرأ الحسن بالفوقية على الالتفات إليه توبيخاً له ، وقرأ الجمهور تمنى أيضاً بالفوقية على أن الضمير للنطفة ، وقرىء بالتحتية على أن

الضمير للمني ، ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو واختارها أبو حاتم وفائدته بعد قوله ﴿ من مني ﴾ الإشارة الى حقارة حاله كأنه قيل إنه مخلوق من مني الذي يجري على مخرج النجاسة .

﴿ ثم كان علقة ﴾ أي كان بعد النطفة دماً أحمر شديد الحمرة ﴿ فخلق ﴾ أي فقدر الله منها الانسان بأن جعلها مضغة مخلقه ﴿ فسوى ﴾ أي فعدله وكمل نشأته ونفخ فيه الروح وجعله بشراً سوياً ﴿ فجعل منه ﴾ أي حصل من الإنسان وقيل من المني ﴿ الزوجين ﴾ أي الصنفين من نوع الإنسان ، قال الكرخي أي لا خصوص الفردين وإلا فقد تحمل المرأة بذكرين وأنثى وبالعكس ، ثم بين ذلك فقال ﴿ الذكر والانثى ﴾ أي الرجل والمرأة يجتمعان تارة وينفرد كل منهما عن الآخر أخرى .

﴿ أليس ذلك ﴾ الفعال الذي أنشأ هذا الخلق البديع وقدر عليه ﴿ بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ أي يعيد الأجسام بالبعث كما كانت عليه في الدنيا ، فإن الإعادة أهون من الإبداء وأيسر مؤنة منه ، قرأ الجمهور بقادر ، وقرأ زيد بن علي (يقدر) فعلاً مضارعاً ، وقرأ الجمهور أيضاً يحيى بنصبه بأن ، وقرىء بسكونها تخفيفاً أو على إجراء الوصل مجرى الوقف كما مر في مواضع .

عن صالح أبي الخليل قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا قرأ هذه الآية قال سبحانك اللهم وبلى »[١] ، أخرجه عبد بن حميد وابن الأنباري .

---

(١) ذكره ابن كثير في التفسير من رواية ابن أبي حاتم عن ابن عباس موقوفاً من حديث أبي إسحاق السبيعي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس . وأبو إسحاق السبيعي ثقة عابد لكنه اختلط بأخرة . ورواه أبو داود والترمذي مطولاً عن أبي هريرة رضي الله مرفوعاً وفي سنده أعرابي لم يسم ، وعنه أخرجه احمد ٢ / ٢٤٩ والترمذي ٢ / ٢٣٨ مختصراً وأعله بالأعرابي . ورواه الحاكم في « المستدرك » ٢ / ٥١٠ وصححه ووافقه الذهبي ، وفي سنده يزيد بن عياض ، وهو متروك كما قال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » . ورواه أبو داود رقم (٨٨٤) من رواية موسى بن أبي عائشة عن رجل سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم ، قال ابن كثير : تفرد به أبو داود ، ولم يسم هذا الصحابي ، ولا يضر ذلك .

وعن البراء بن عازب قال « لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، سبحانك ربي وبلى » أخرجه ابن مردويه .

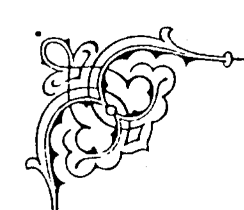
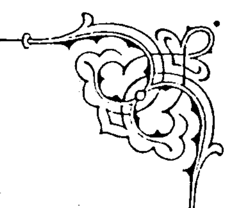
وعن أبي أمامة أنه « سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول عند قراءته لهذه الآية بلى وأنا على ذلك من الشاهدين » أخرجه ابن النجار في تاريخه .

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من قرأ منكم والتين والزيتون فانتهى إلى آخرها أليس الله بأحكم الحاكمين ، فليقل بلى وأنا على ذلك من الشاهدين ، ومن قرأ لا أقسم بيوم القيامة فانتهى إلى قوله : ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ فليقل بلى ، ومن قرأ والمرسلات عرفاً فبلغ فبأي حديث بعد يؤمنون ، فليقل آمنا بالله » ، أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي وفي إسناده رجل مجهول .

وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا قرأت لا أقسم بيوم القيامة فبلغت أليس ذلك بقادر إلى آخرها فقل بلى » أخرجه ابن المنذر وابن مردويه .

قال ابن عباس من قرأ سبح اسم ربك الأعلى إماماً كان أو غيره فليقل سبحان ربي الأعلى ، ومن قرأ لا أقسم بيوم القيامة إلى آخرها فليقل سبحانك اللهم بلى ، إماماً كان أو غيره ، ذكره الخطيب .

قال الحفناوي : قوله إماماً كان أو غيره يقتضي أن هذه الكلمة وهي (بلى) لا تبطل الصلاة وهو كذلك لأنها ذكر وتقديس وتنزيه لله تعالى .

سورة الانسان

﴿ وتسمى سورة هل أتى وسورة الأمشاج وسورة الدهر وهي إحدى وثلاثون آية ﴾

قال الجمهور هي مدنية . وقال مقاتل والكلبي : هي مكيّة . وجرى عليه البيضاوي والزمخشري . وقال المحلي : مكيّة أو مدنية ولم يجزم بشيء قال ابن عباس : نزلت بمكة . وعن ابن الزبير مثله . وقيل فيها مكي من قوله : ﴿ إنا نحن نزلنا عليك القرآن ﴾ الى آخر السورة وما قبله مدني وقال الحسن وعكرمة هي مدنية الا آية وهي ﴿ فاصبر لحكم ربك الى كفوراً ﴾ وأخرج الطبراني وابن مردويه وابن عساكر عن ابن عمرو قال : « جاء رجل من الحبشة الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « سل واستفهم » فقال يا رسول الله فضلتم علينا بالألوان والصور والنبوة أفرأيت إن آمنت بما آمنت به وعملت بما عملت به أني كائن معك في الجنة قال نعم والذي نفسي بيده إنه ليرى بياض الأسود في الجنة من مسيرة ألف عام ثم قال من قال لا آله الا الله كان له عهد عند الله ومن قال سبحان الله وبحمده كتب له مائة ألف حسنة . وأربعة وعشرون ألف حسنة . ونزلت هذه السورة الى قوله : ﴿ ملكاً كبيراً ﴾ فقال الحبشي وإن عيني لترى ما ترى عيناك في الجنة قال نعم . فاستبكى حتى فاضت نفسه . قال ابن عمر فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدليه في حفرته بيده » .

وأخرج أحمد في الزهد عن محمد بن مطرف قال حدثني الثقة «أن رجلا أسود كان يسأل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن التسبيح والتهليل فقال له عمر بن الخطاب أكثرت على رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم فقال مه يا عمر. وأنزلت على رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر ﴾ حتى اذا أتى على ذكر الجنة زفر الأسود زفرة خرجت نفسه فقال النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم «مات شوقاً الى الجنة» وأخرج نحوه ابن وهب عن ابن زيد مرفوعاً مرسلاً.

وأخرج أحمد والترمذي وحسنة وابن ماجة وغيرهم عن ابي ذر قال «قرأ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ﴿ هل أتى على الإنسان ﴾ حتى ختمها ثم قال «إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربعة أصابع الا وملك واضع جبهته ساجداً للّه. واللّه لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم الى الصعدات تجأرون الى اللّه عز وجل»[1].

---

(١) حديث حسن ـ صحيح الجامع ٢٤٤٥ ـ المشكاة ٥٣٤٧.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾

﴿ هل أتى ﴾ حكى الواحدي عن المفسرين وأهل المعاني أن هل هنا بمعنى قد ، وليس باستفهام لأن الاستفهام محال على الله تعالى ، وقد قال بهذا سيبويه والكسائي والفراء وأبو عبيدة ، قال الفراء ﴿ هل ﴾ يكون جحداً ويكون خبراً فهذا من الخبر ، لأنك تقول هل أعطيتك تقرره بأنك أعطيته والجحد أن تقول هل يقدر أحد على مثل هذا ، وقيل هي وإن كانت بمعنى قد ففيها معنى الاستفهام ، والأصل أهل أتى ، فالمعنى أقد أتى ، والاستفهام للتقرير والتقريب وبه قال مكي وهو تقرير لمن أنكر البعث أن يقول نعم قد مضى دهر طويل لا إنسان فيه ، قال السمين : جعلها للاستفهام التقريري لا للاستفهام المحض ، وهذا هو الذي يجب أن يكون لأن الاستفهام لا يرد من الله إلا على هذا النحو وما أشبهه انتهى والأول أنسب .

﴿ على الإنسان ﴾ المراد بالإنسان هنا آدم قاله قتادة والثوري وعكرمة والسدي وغيرهم وقال ابن عباس كل إنسان ﴿ حين من الدهر ﴾ أي طائفة محدودة من الزمان الممتد غير المحدود ، فإنه عند الجمهور يقع على مدة العالم جميعها ، وعلى كل زمان طويل غير معين قيل أربعون سنة قبل أن ينفخ فيه الروح ، وهو ملقى بين مكة والطائف ، وقيل إنه خلق من طين أربعين سنة ثم من حمأ مسنون أربعين سنة ثم من صلصال أربعين سنة فتم خلقه بعد مائة وعشرين سنة ثم نفخ فيه الروح ، وقيل الحين المذكور هنا لا يعرف مقداره .

وجملة ﴿ لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ في محل نصب على الحال من الإنسان

أو في محل رفع صفة لحين ، قال الفراء وقطرب وثعلب المعنى أنه كان جسداً مصوراً تراباً وطيناً لا يذكر في السماء ولا في الأرض ولا يعرف ولا يدري ما اسمه ولا ما المراد به ، ثم نفخ فيه الروح فصار مذكوراً ، وقال يحيي : لم يكن شيئاًمذكوراً في الخلق وإن كان عند الله شيئاً مذكوراً ، وقيل ليس المراد بالذكر هنا الإخبار فإن إخبار الرب عن الكائنات قديم بل هو الذكر بمعنى الخطر والشرف كما في قوله ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ قال القشيري ما كان مذكوراً لله سبحانه .

قال الفراء : كان شيئاً ولم يكن مذكوراً ، فجعل النفي متوجهاً الى القيد وقيل المعنى قد مضت أزمنة وما كان آدم شيئاً ولا مخلوقاً ولا مذكوراً لأحد من الخليقة .

وقال مقاتل : في الكلام تقديم وتأخير وتقديره هل أتى حين من الدهر على الإنسان لم يكن شيئاً مذكوراً لأنه خلقه بعد خلق الحيوان كله ولم يخلق بعده حيوان، وعن عمر أنه سمع رجلاً يقرأ هذه الآية لم يكن شيئاً مذكوراً فقال عمر ليتها تمت ، يعني ليته بقي على ما كان عليه ، ويروى نحوه عن ابي بكر وابن مسعود ، وقيل المراد بالإنسان جنس الإنسان وهو بنو آدم بدليل قوله .

﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة ﴾ فإن المراد بالإنسان هنا بنو آدم ، قال القرطبي من غير خلاف ، والنطفة الماء الذي يقطر ، وهو المني وكل ماء قليل في وعاء فهو نطفة وجمعها نطف أي خلقناه من مادة هي شيء يسير جداً من الرجل والمرأة ، والنطفة ماء الرجل والمرأة وأيضاً الماء الصافي قل أو كثر ، ولا فعل للنطفة اي لا يستعمل لها فعل من لفظها .

﴿ أمشاج ﴾ صفة لنطفة وهي جمع مشج بفتحتين أو مشج كعدل وأعدال أو مشيج كشريف وأشراف وهي الأخلاط ، ووقع الجمع صفة لمفرد لأنه في معنى الجمع أو جعل كل جزء من النطفة نطفة فاعتبر ذلك فوصف بالجمع والمراد نطفة الرجل ونطفة المرأة واختلاطهما يقال مشج هذا بهذا فهو

ممشوج اي خلط هذا بهذا فهو مخلوط .

قال المبرد مشج يمشج اذا اختلط وهو هنا اختلاط النطفة بالدم ، قال الفراء أمشاج اختلاط ماء الرجل وماء المرأة والدم والعلقة ، ويقال مشج هذا اذا خلط ، وقيل الأُمشاج الحمرة في البياض ، والبياض في الحمرة :

قال القرطبي : وهذا قول يختاره كثير من أهل اللغة وذلك لأن ماء الرجل أبيض غليظ وماء المرأة اصفر رقيق فيخلق منهما الولد ، قيل وما كان من عصب وعظم فمن نطفة الرجل ، وما كان من لحم ودم وشعر فمن ماء المرأة ، حتى لو زنت المرأة بامرأة واجتمع الماءآن في رحم إحداهما خلق الولد بلا عظم ، وقد وقع ذلك في عصر السلطان غياث الدين فلم يدر السلطان ، فجمع الأطباء والعلماء فلم يدركوا شيئاً من شأنه فأرسل الاستفتاء الى علماء ظفر أباد فقال محمد بن الحاج إنه خلق من ماء امرأتين فتفحص السلطان فظهر أنه كذلك ، وقيل الأمشاج أطوار الخلق نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظماً ثم يكسوه لحماً ثم ينشئه خلقاً آخر .

قال ابن السكيت : الأمشاج الأخلاط لأنها ممتزجة من أنواع يخلق الإنسان منها وطباع مختلفة ، وقيل الأمشاج لفظ مفرد كبرمة أعشار ، ويؤيد هذا وقوعه نعتاً للنطفة ، قال ابن مسعود : أمشاجها عروقها ، وعن ابن عباس : قال ماء الرجل وماء المرأة حين يختلطان ، وعنه قال : نطفة الرجل بيضاء وحمراء ونطفة المرأة خضراء وحمراء ، وعنه قال : الأمشاج الذي يخرج على أثر البول كقطع الأوتار ، ومنه يكون الولد .

وجملة ﴿ نبتليه ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل خلقنا أي مريدين ابتلاءه حين تأهله ويجوز أن يكون حالاً من الإنسان ، والمعنى نبتليه بالخير والشر والتكاليف قال الفراء معناه والله أعلم ﴿ فجعلناه سميعاً بصيراً ﴾ نبتليه وهي مقدمة معناها التأخير ، لأن الابتلاء لا يقع إلا بعد تمام الخلقة ، وعلى هذا هذه حال مقدرة وقيل مقارنة .

وقال الكرخي : لا حاجة الى دعوى التقديم والتأخير مع صحة المعنى بدونه ، وقيل معنى الابتلاء نقله من حال الى حال على طريقة الاستعارة والأول أولى ، والمراد بالسمع والبصر الحاستان المعروفتان ، وخصهما بالذكر لأنهما أعظم الحواس وأشرفها قال الخطيب أي جعلناه عظيم السمع والبصر والبصيرة ليتمكن من مشاهدة الدلائل ببصره ، وسماع الآيات بسمعه ومعرفة الحجج ببصيرته فيصح تكليفه وابتلاؤه ، وقدم السمع لأنه أنفع في المخاطبات ، ولأن الآيات المسموعة أبين من الآيات المرئية وقيل المراد بالسميع المطيع كقولهم سمعاً وطاعة ، وبالبصير العالم يقال لفلان بصر في هذا الأمر أي علم ، والأول أولى .

ثم ذكر سبحانه أنه أعطاه ما يصح معه الابتلاء فقال : ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ أي بينا له وعرفناه طريق الهدى والضلال والخير والشر بأدلة السمع والعقل ، كما في قوله ﴿ وهديناه النجدين ﴾ قال مجاهد : أي بينا السبيل الى الشقاوة والى السعادة ، وقال الضحاك والسدي وأبو صالح : السبيل هنا خروجه من الرحم ، وقيل منافعه ومضاره التي يهتدي اليها بطبعه وكمال عقله ، وانتصاب شاكراً وكفوراً على الحال من مفعول هديناه أي مكناه من سلوك الطريق في حالتيه جميعاً ، وقيل على الحال من السبيل على المجاز أي عرفناه السبيل إما سبيلاً شاكراً وإما سبيلاً كفوراً[١] .

وحكى مكي عن الكوفيين إن قوله إما هي إن الشرطية زيدت بعدها ما أي بينا له الطريق إن شكر وإن كفر ، واختار هذا الفراء ولا يجيزه البصريون لأن ﴿ إن ﴾ الشرطية لا تدخل على الأسماء إلا أن يضمر بعدها فعل ، ولا يصح هنا إضمار الفعل لأنه كان يلزم رفع شاكراً وكفوراً ، ويمكن أن يضمر فعل ينصب شاكراً وكفوراً وتقديره إن خلقناه شاكراً فشكوراً ، وإن خلقناه كافراً

---

(١) قال ابن كثير : فهو في ذلك إما شقي وإما سعيد ، كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها » .

فكفوراً ، وهذا على قراءة الجمهور ﴿إمّا﴾ بكسر الهمزة وقرأ أبو السماك وأبو العجاج بفتحها وعلى الفتح هي ﴿أمّا﴾ العاطفة في لغة بعض العرب أو هي التفصيلية وجوابها مقدرة وقيل انتصب شاكراً وكفوراً بإضمار كان والتقدير سواء كان شاكراً أو كان كفوراً .

ولما كان الشكر قل من يتصف به قال شاكراً ، ولما كان الكفر كثيراً من يتصف به ويكثر وقوعه عن الإنسان بخلاف الشكر قال كفوراً بصيغة المبالغة ، كذا في النهر أو هو مراعاة لرؤوس الآي .

ثم بين سبحانه ما أعد للكافرين فقال : ﴿ إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً ﴾ قرأ نافع والكسائي وأبو بكر عن عاصم وهشام عن ابن عامر ﴿سلاسلاً﴾ بالتنوين ووقف قنبل عن ابن كثير وحمزة بغير الف ، والباقون وقفوا بالألف ، ووجه من قرأ بالتنوين في سلاسل مع كونه صيغة منتهى الجموع أنه قصد بذلك التناسب لأن ما قبله وهو إما شاكراً وإما كفوراً ، وما بعده وهو أغلالاً وسعيراً منون أو على لغة من يصرف جميع ما لا ينصرف كما حكاه الكسائي وغيره من الكوفيين عن بعض العرب .

قال الأخفش : سمعنا من العرب من يصرف كل ما لا ينصرف لأن الأصل في الأسماء الصرف وترك الصرف لعارض فيها ، قال الفراء هو على لغة من يجر الأسماء كلها إلا قولهم هو أظرف منك فإنهم لا يجرونه ، وقيل إن التنوين لموافقة رسم المصاحف المكية والمدنية والكوفية فإنها فيها بالألف ، وقيل إن هذا التنوين بدل من حرف الإطلاق ويجري الوصل مجرى الوقف .

والسلاسل قد تقدم تفسيرها ، والخلاف فيها هل هي القيود أو ما يجعل في الأعناق كما في قول الشاعر :

ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل

والسلاسل جمع سلسلة أي يشدون ويسحبون بها في النار ، والأغلال جمع غل تغل به الأيدي الى الأعناق ، وقد تقدم تفسير السعير وهي نار مهيجة يعذبون بها .

ولما أوجز في جزاء الكافرين ذكر ما أعده للشاكرين وأطنب تأكيداً للترغيب فقال : ﴿ إن الأبرار يشربون من كأس ﴾ الأبرار أهل الطاعة والإخلاص والصدق جمع بر أو بار ، قال في الصحاح : جمع البر الأبرار ، وجمع البار البررة ، وفلان يبر خالقه ويبرره أي يطيعه ، وقال الحسن : البر الذي لا يؤذي الذر ، وقال قتادة : الأبرار الذين يؤدون حق الله ويوفون بالنذر ، وقيل هم الصادقون في إيمانهم المطيعون لربهم الذين سمت همتهم عن المحقرات فظهرت في قلوبهم ينابيع الحكمة ، وقيل سماهم الأبرار لأنهم بروا الآباء والأبناء ، والكأس في اللغة هو الإناء الذي فيه الشراب ، واذا لم يكن فيه الشراب لم يسم كأساً ، بل هو إناء ، ولا وجه لتخصيصه بالزجاجة بل يكون من الزجاج ومن الذهب والفضة والصيني وغير ذلك ، وقد كانت كؤوس العرب من أجناس مختلفة ، وقد يطلق الكأس على نفس الخمر كما في قول الشاعر :

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

﴿ كان مزاجها كافوراً ﴾ أي ما يخالطها وتمزج به ، يقال مزجه يمزجه مزجاً أي خلطه يخلطه خلطاً ومنه مزاج البدن وهو ما يمازجه من الإخلاط ، والكافور قيل هو اسم عين في الجنة يقال لها الكافور أي تمزج خمر الجنة بماء هذه العين ، وقال قتادة ومجاهد : تمزج لهم بالكافور وتختم لهم بالمسك ، وقال عكرمة : مزاجها طعمها ، وقيل إنما الكافور في ريحها لا في طعمها ، وقيل إنما أراد الكافور في بياضه وطيب رائحته وبرده ، لأن الكافور لا يشرب كما في قوله ﴿ حتى اذا جعله ناراً ﴾ أي كنار ، وقال ابن كيسان : طيبها المسك والكافور والزنجبيل ، وقال مقاتل : ليس هو كافور الدنيا وإنما سمى الله ما عنده بما عندكم حتى تهتدي له القلوب .

والجملة في محل جر صفة لكأس ، وقيل إن « كان » ههنا زائدة أي من كأس مزاجها كافور ، وقرأ عبد الله قافوراً بالقاف بدل الكاف ، قال السمين وهذا من التعاقب بين الحرفين .

عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾

وقوله ﴿ عيناً ﴾ بدل من كافور لأن ماءها في بياض الكافور ، وقال مكي انها بدل من محل من كأس على حذف مضاف كأنه قيل يشربون خمراً خمر عين ، وقيل إنها منتصبة على أنها مفعول يشربون أي عيناً من كأس ، وقيل هي منتصبة على الاختصاص ، قاله الأخفش وقيل بإضمار فعل يفسره ما بعده أي يشربون عيناً ، وذكر السمين في نصبها وجوهاً والأول أولى .

﴿ يشرب بها عباد الله ﴾ أي أولياؤه أو المؤمنون ، والجملة صفة لعيناً ، وقيل الباء في بها زائدة ويؤيده قراءة ابن أبي عبلة يشربها ، وقيل بمعنى (من) قاله الزجاج ، وقيل إن يشرب مضمن معنى يلتذ وقيل هي متعلقة بيشرب والضمير يعود على الكأس ، وقيل إنها حالية أي ممزوجة بها ، وقال الفراء يشربها ويشرب بها سواء في المعنى وكأن يشرب بها يروى بها وينتفع .

﴿ يفجرونها تفجيراً ﴾ أي يجرونها الى حيث يريدون وينتفعون بها كما يشاؤون ويتبعهم ماؤها الى كل مكان يريدون وصوله إليه ، فهم يشقونها شقاً كما يشق النهر ويفجر الى هنا وهنا ، قال مجاهد : يقودونها حيث شاؤوا وتتبعهم حيث مالوا مالت معهم أي فهي سهلة لا تمتنع عليهم ، والجملة صفة أخرى لعيناً .

وجملة ﴿ يوفون بالنذر ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان ما لأجله رزقوا ما ذكر ، وكذا ما عطف عليها ، ومعنى النذر في اللغة الإيجاب ، والمعنى يوفون بما أوجبه الله عليهم من الطاعات ، قال قتادة ومجاهد : يوفون بطاعة الله من

الصلاة والحج ونحوهما ، وفيه مبالغة في وصفهم بالتوفيق على أداء الواجبات لأن من وفى بما أوجبه هو على نفسه لوجه الله تعالى كان بما أوجب الله عليه أوفى .

وقال عكرمة : يوفون اذا نذروا في حق الله سبحانه ، والنذر في الشرع ما أوجبه المكلف على نفسه ، فالمعنى يوفون بما أوجبوه على أنفسهم[١] .

قال الفراء : في الكلام إضمار أي كانوا يوفون بالنذر في الدنيا ، وقال الكلبي : يوفون بالنذر أي يتممون العهود لقوله تعالى ﴿ وأوفوا بعهد الله ﴾ وقوله : ﴿ أوفوا بالعقود ﴾ أمروا بالوفاء بهما لأنهم عقدوهما على أنفسهم باعتقادهم الإيمان ، والأولى حمل النذر هنا على ما أوجبه العبد على نفسه من غير تخصيص .

﴿ ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ﴾ المراد يوم القيامة ، ومعنى استطارة شره فشوه وانتشاره غاية الانتشار ، يقال استطار يستطير فهو مستطير ، وهو استفعل من الطيران ، والعرب تقول استطار الصدع في القارورة والزجاجة اذا امتد ويقال استطار الحريق اذا انتشر ، وهو أبلغ من طار ، قال الفراء : المستطير المستطيل ، قال قتادة استطار شر ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض .

قال مقاتل كان شره فاشياً في السموات فانشقت وتناثرت الكواكب وكورت الشمس والقمر وفزعت الملائكة ، وفي الأرض نسفت الجبال وغارت

---

(١) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (يوفون بالنذر) أي : يتعبدون الله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر . قال الإمام مالك في «الموطأ» ٢ / ٤٧٦ عن طلحة بن عبد الملك الأيلي عن القاسم بن محمد بن الصديق عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه » ورواه البخاري في صحيحه « كتاب الأيمان والنذور » : باب النذر في الطاعة من حديث مالك .

المياه ، وفي الآية إشارة لحسن عقيدتهم واجتنابهم المعاصي .

﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ﴾ أي يطعمون هؤلاء الثلاثة الأصناف الطعام مع حبه لديهم وقلته عندهم ، قال مجاهد على قلته وحبهم إياه وشهوتهم له ، فقوله (على حبه) في محل نصب على الحال أي كائنين على حبه ومثله قوله ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ وقيل على حب الإطعام لرغبتهم في الخير قال الفضيل بن عياض على حب إطعام الطعام ، وقيل الضمير يرجع الى الله أي يطعمون إطعاماً كائناً على حب الله ، ويؤيد هذا قوله الآتي ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله ﴾ والأول أمدح لأن فيه الإيثار على النفس ، والطعام محبوب للفقراء والأغنياء ، والمسكين ذو المسكنة وهو الفقير أو من هو أفقر من الفقير ، والمراد باليتيم يتامى المسلمين . والأسير الذي يؤسر فيحبس ، قال قتادة ومجاهد الأسير المحبوس ، وقال عكرمة الأسير العبد ، وقال ابو حمزة الثمالي الأسير المرأة .

قال سعيد بن جبير : نسخ هذا الإطعام آية الصدقات وآية السيف في حق الأسير الكافر ، وقال غيره بل هي محكمة ، وإطعام المسكين واليتيم على التطوع ، وإطعام الأسير لحفظ نفسه الى أن يتخير فيه الإمام ، قال ابن عباس أسيراً هو المشرك .

وعن أبي سعيد الخدري « عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله (مسكيناً) قال فقيراً ﴿ ويتيماً ﴾ قال لا أب له ﴿وأسيراً﴾ قال المملوك والمسجون » أخرجه ابن مردويه وأبو نعيم ، وعن ابن عباس قال : « نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم » أخرجه ابن مردويه ، وقيل عامة في كل من أطعم هؤلاء لله وآثر على نفسه[1] .

---

(١) ذكره الواحدي في « أسباب النزول » ٣٣١ والبغوي من رواية عطاء عن ابن عباس بغير سند . وأورده السيوطي في « الدر » ٢٩٩/٦ من رواية ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت في علي بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . والله اعلم .

وجملة ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله ﴾ في محل نصب على الحال بتقدير القول أي يقولون بلسان المقال أو بلسان الحال ، أو قائلين إنما نطعمكم يعني أنهم لا يتوقعون المكافأة ولا يريدون ثناء الناس عليهم بذلك ، وهذا الوصف من باب التكميل ، فقد وصفهم أولاً بالجود والبذل وكمله بأن ذلك عن إخلاص لا رياء فيه .

قال الواحدي قال المفسرون لم يتكلموا بهذا ، ولكن علمه الله من قلوبهم فأثنى عليهم وعلم من ثنائه أنهم ذلك خوفاً من الله ورجاء ثوابه .

﴿ لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ﴾ أي لا نطلب منكم المجازاة على هذا الإطعام ولا نريد منكم الشكر لنا ، بل هو خالص لوجه الله ، وهذه الجملة مقررة لما قبلها لأن من أطعم لوجه الله لا يريد المكافأة ولا يطلب الشكر له ممن أطعمه .

﴿ إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً ﴾ أي نخاف عذاب يوم متصف بهاتين الصفتين ومعنى عبوساً أنه يوم تعبس فيه الوجوه من هوله وشدته ، فالمعنى أنه ذو عبوس ، قال الفراء وأبو عبيده والمبرد : يوم قمطرير وقماطر اذا كان صعباً شديداً ، قال الأخفش القمطرير أشد ما يكون من الأيام وأطوله في البلاء . قال الكسائي اقمطر اليوم وازمهر اذا كان شديداً صعباً .

وقال مجاهد إن العبوس بالشفتين والقمطرير بالجبهة والحاجبين فجعلهما من صفات اليوم والمتغير في ذلك اليوم بما يراه من الشدائد ، قال ابو عبيدة يقال قمطرير أي منقبض ما بين العينين والحاجبين .

قال الزجاج يقال اقمطرت الناقة اذا رفعت ذنبها وجمعت قطريها ورمت بأنفها ما سبقها من القطر ، وجعل الميم مزيدة .

وقال ابن عباس : عبوساً ضيقاً قمطريراً طويلاً ، وعن أنس بن مالك « عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله عبوساً قمطريراً قال يقبض ما بين الأبصار » وقال ابن عباس القمطرير الرجل المنقبض ما بين عينيه ووجهه .

﴿ فوقاهم الله شر ذلك اليوم ﴾ أي دفع عنهم شره بسبب خوفهم منه واطعامهم لوجهه ، والفاء سببيه ﴿ ولقاهم نضرة وسروراً ﴾ أي أعطاهم بدل العبوس في الكفار نضرة في الوجوه وسروراً في القلوب بدل الخوف ، قال الضحاك النضرة البياض والنقاء في وجوههم ، وقال سعيد بن جبير : الحسن والبهاء ، وقيل النضرة أثر النعمة ، وعن ابن عباس : قال نضرة في وجوههم ، وسروراً في صدورهم .

﴿ وجزاهم بما صبروا ﴾ أي بسبب صبرهم على التكاليف ، وقيل على الفقر ، وقيل على الجوع ، وقيل على الصوم والأولى حمل الآية على الصبر على كل شيء يكون الصبر عليه طاعة لله سبحانه ﴿ جنة وحريراً ﴾ أي أدخلهم الجنة وألبسهم الحرير ، وهو لباس أهل الجنة عوضاً عن تركه في الدنيا امتثالاً لما ورد في الشرع من تحريمه .

والمراد بالجنة هنا بستان المأكولات لا ما يقابل النار ، وهي دار الكرامة حتى يقال أي حاجة الى ذكر الحرير بعد ذكر الجنة مع أنها مشتملة عليه في جملة ما أعد فيها للمؤمنين .

وظاهر هذه الآيات العموم في كل من خاف من يوم القيامة وأطعم لوجه الله وخاف من عذابه ، والسبب وإن كان خاصاً كما تقدم فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ويدخل سبب النزول تحت عمومها دخولاً أولياً .

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾

وقوله ﴿ متكئين فيها على الأرائك ﴾ منصوب على الحال من مفعول جزاهم ، والعامل فيها جزي ولا يعمل فيها صبروا ، لأن الصبر إنما كان في الدنيا قال الفراء وإن شئت جعلت متكئين تابعاً كأنه قال وجزاهم جنة متكئين فيها .

وقال الأخفش يجوز أن يكون منصوباً على المدح والضمير في (فيها) يعود الى الجنة ، وجوز أبو البقاء والزمخشري أن يكون متكئين صفة لجنة ، وهذا لا يجوز عند البصريين لأنه كان يلزم بروز الضمير فيقال متكئين هم فيها لجريان الصفة على غير من هي له ، وقد منعه مكي لما ذكر من عدم بروز الضمير ، ولا يجوز كونه حالاً من فاعل صبروا لأن الصبر كان في الدنيا واتكاؤهم إنما هو في الآخرة .

والأرائك جمع أريكة وهي السرر في الحجال وهي بيت يزين بالثياب والأسرة والستور ، وقد تقدم تفسيرها في سورة الكهف .

﴿ لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً ﴾ الجملة في محل نصب على الحال من مفعول جزاهم ، فتكون من الحال المترادفة او من الضمير في متكئين فتكون من الحال المتداخلة ، أو صفة أخرى لجنة ، قال ابن مسعود الزمهرير هو البرد الشديد ، والمعنى أنهم لا يرون في الجنة حر الشمس ولا برد لزمهرير ، ومنه قول الأعشى :

منعمة طفلة كالمها لم تر شمساً ولا زمهريرا

وفي الحديث « هواء الجنة سجسج لا حر ولا قر » قاله النسفي ، وقال ثعلب الزمهرير القمر بلغة طي وأنشد لشاعرهم :

وليلة ظلامها قد اعتكر قطعتها والزمهرير ما زهر[1]

ويروي ما ظهر أي ما طلع القمر ، وقد تقدم تفسير هذا في سورة مريم .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اشتكت النار الى ربها فقالت رب أكل بعضي بعضاً ، فجعل لها نفسين نفساً في الصيف ونفساً في الشتاء ، فشدة ما تجدون من البرد من زمهريرها ، وشدة ما تجدون في الصيف من الحر من سمومها » .

﴿ ودانية عليهم ظلالها ﴾ قرأ الجمهور دانية بالنصب عطفاً على محل لا يرون أو على متكئين أو صفة لمحذوف أي وجنة دانية كأنه قال وجزاهم جنة دانية ، وقال الزجاج هو صفة لجنة المتقدم ذكرها ، وقال الفراء منصوب على المدح ، وقرىء بالرفع على أنه خبر مقدم وظلالها مبتدأ مؤخر ، والجملة في محل نصب على الحال ، والمعنى أن ظلال الأشجار قريبة منهم مظلة عليهم ، زيادة في نعيمهم وإن كان لا شمس هنالك ، قال مقاتل :يعني شجرها قريب منهم ، وقرأ ابن مسعود ودانياً عليهم قال البراء بن عازب : دانية قريبة .

﴿ وذللت قطوفها تذليلاً ﴾ معطوف على دانية كأنه قال ومذللة ، ويجوز أن تكون الجملة في محل نصب على الحال من الضمير في ﴿ عليهم ﴾ ويجوز أن تكون مستأنفة ، والقطوف الثمار جمع قطف بالكسر وهو العنقود .

والمعنى أنها سخرت ثمارها لمتناوليها تسخيراً كثيراً بحيث يتناولها القائم

---

(١) البيت غير منسوب راجع القرطبي ١٩/١٣٦ والآلوسي ٢٩/١٥٨

والقاعد ، والمضطجع والمتكىء ، ولا يرد أيديهم عنها بعد ولا شوك ، قال النحاس المذلل القريب التناول ، ومنه قولهم حائط ذليل أي قصير ، قال ابن قتيبة ذللت أدنيت من قولهم حائط ذليل إذا كان قصير السمك وقيل ذللت اي جعلت منقادة لا تمتنع على قطافها كيف شاؤوا .

عن البراء ابن عازب قال إن أهل الجنة يأكلون من ثمار الجنة قياماً وقعوداً ومضطجعين وعلى أي حال شاؤوا وفي لفظ قال ذللت فيتناولون منها كيف شاؤوا .

ولما وصف تعالى طعامهم ولباسهم ومسكنهم وصف شرابهم بقوله ﴿ ويطاف عليهم ﴾ وقال هنا يطاف وفيها بعد يطوف لأن المقصود في الأول ما يطاف به لا الطائفون بقرينة قوله : ﴿ بآنية من فضة وأكواب ﴾ والمقصود في الثاني الطائفون ، فذكر في كل منهما ما يناسبه كما أشار اليه في التقرير ، والمعنى يدور عليهم الخدم اذا أرادوا الشراب بآنية الفضة ، والآنية جمع إناء والأصل أأنية بهمزتين الأولى مزيدة للجمع ، والثانية فاء الكلمة فقلبت الثانية الفاً وجوباً ، وهذا نظير كساء وأكسية وغطاء وأغطية ونظيره في الصحيح اللام حمار وأحمرة قاله السمين وهو وعاء الماء .

والأكواب جمع كوب وهو الكوز العظيم والإبريق الذي لا أذن له ولا عروة ، وهو من عطف الخاص على العام ، ولم تنف الآية آنية الذهب ، بل نبه سبحانه بذكر أحدهما على الآخر كقوله ﴿ تقيكم الحر ﴾ والمعنى قد يسقون في أواني الفضة ، وقد يسقون في أواني الذهب وقد مضى تفسيره في سورة الزخرف .

﴿ كانت قواريراً ﴾ بتكوين الله تعالى تفخيماً لتلك الخلقة العجيبة الشأن الجامعة بين صفتي الجوهرين المتباينين وكذا كان مزاجها كافوراً .

﴿ قوارير من فضة ﴾ أي في وصف القوارير في الصفاء وفي بياض الفضة ، فصفاؤها صفاء الزجاج ولونها الفضة ، قال ابن عباس آنية من فضة

وصفاؤها كصفاء القوارير ، وعنه قال ليس في الدنيا شيء مما في الجنة الا الأسماء اذ الذي في الجنة أشرف وأعلى .

قرأ نافع الكسائي وأبو بكر قواريراً بالتنوين فيهما مع الوصل وبالوقوف عليهما وبالألف ، وقد تقدم وجه هذه القراءة في تفسير قوله (سلاسلاً) من هذه السورة ، وبينا هنالك وجه صرف ما فيه صيغة منتهى الجموع .

وقرأ حمزة بعدم التنوين فيهما وعدم الوقف بالألف ، ووجه هذه القراءة ظاهر لأنهما ممتنعان لصيغة منتهى الجموع .

وقرأ هشام بعدم التنوين فيهما مع الوقف عليهما بالألف .

وقرأ ابن كثير بتنوين الأول دون الثاني والوقف على الأول بالألف دون الثاني .

وقرأ أبو عمرو وحفص وابن ذكوان بعدم التنوين فيهما والوقف على الأول بالألف دون الثاني ، وبسط السمين في ذكر هذه الوجوه الخمسة في القراءة .

والجملة في محل جر صفة لأكواب ، وقوارير جمع قارورة وهي ما أقر فيه الشراب ونحوه من كل إناء رقيق صاف ، وقيل هو خاص بالزجاج .

قال أبو البقاء : وحسن التكرير لما اتصل به من بيان أصلها ، ولولا التكرير لم يحسن أن يكون الأول رأس آية لشدة اتصال الصفة بالموصوف .

قال الواحدي قال المفسرون : جعل الله قوارير أهل الجنة من فضة فاجتمع لها بياض الفضة وصفاء القوارير .

قال الزجاج القوارير التي في الدنيا من الرمل فأعلم الله فضل تلك القوارير أن أصلها من فضة يرى من خارجها ما في داخلها ، قال ابن عباس : لو أخذت فضة من فضة الدنيا فضربتها حتى جعلتها مثل جناح الذباب لم ير الماء من ورائها ، ولكن قوارير الجنة ببياض الفضة في صفاء القوارير : وعنه قال :

ليس في الجنة شيء إلا وقد أعطيتم في الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة .

وجملة ﴿ قدروها تقديراً ﴾ صفة لقوارير ، قرأ الجمهور قدروها بفتح القاف على البناء للفاعل أي قدرها السقاة من الخدم الذين يطوفون عليهم على قدر ما يحتاج اليه الشاربون من اهل الجنة من دون زيادة ولا نقصان ، وذلك ألذ الشراب لكونه على مقدار الحاجة لا يفضل عنه ولا يعجز ، قال مجاهد : وغيره أتوا بها على قدر ربهم أي شهوتهم بغير زيادة ولا نقصان إذ لا عطش في الجنة قال الكلبي : وذلك ألذ وأشهى .

وقيل تدرها الملائكة وقيل قدرها أهل الجنة الشاربون على مقدار شهوتهم وحاجتهم فجاءت كما يريدون في الشكل لا تزيد ولا تنقص .

وقرىء قدروها بضم القاف وكسر الدال مبنياً للمفعول أي جعلت لهم على قدر إرادتهم .

قال أبو علي الفارسي : هو من باب القلب قال لأن حقيقة المعنى أن يقال قدرت عليهم لا قدروها لأنه في معنى قدروا عليها .

وقال ابو حاتم التقدير قدرت الأواني على قدر ريِّهم ، فمفعول ما لم يسم محذوف . قال أبو حيان والأقرب في تخريج هذه الآية الشاذة أن يقال قدر ريهم منها تقديراً ، فحذف المضاف فصار قدروها .

قال المهدوي : هذه القراءة يرجع معناها الى القراءة الأولى ، وكان الأصل قدروا عليها فحذف حرف الجر ، وقال ابن عباس : قدرت للكف ، وقال أيضاً أتوا بها على قدر الفم لا يفضلون شيئاً ولا يشتهون بعدها شيئاً ، وعنه قال : قدرتها السقاة .

وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾

﴿ ويسقون ﴾ أي يسقيهم من أرادوه من خدمهم الذين لا يحصون كثرة ﴿ فيها ﴾ أي في الجنة أو الأكواب ﴿ كأساً كان مزاجها زنجبيلاً ﴾ قد تقدم أن الكأس هو الإناء الذي فيه الخمر ، واذا كان خالياً عن الخمر فلا يقال له كأس .

والمعنى أن أهل الجنة يسقون في الجنة كأساً من الخمر ممزوجة بالزنجبيل ، وقد كانت العرب تستلذ مزيج الشراب بالزنجبيل لطيب رائحته ، وقال مجاهد وقتادة الزنجبيل اسم للعين التي يشرب بها المقربون ، وقال مقاتل هو زنجبيل لا يشبه الدنيا أي يلذع الحلق فتصعب إساغته .

قلت : وكذلك ما في الجنان من الأشجار والثمار والقصور والنساء والحور والمأكولات والمشروبات والملبوسات لا يشبه ما في الدنيا إلا في مجرد الاسم ، لكن الله سبحانه وتعالى يرغب الناس ويطمعهم بأن يذكر لهم أحسن شيء وألذه وأطيبه مما يعرفونه في الدنيا لأجل أن يرغبوا ويسعوا فيما يوصلهم الى هذا النعيم المقيم .

﴿ عيناً فيها تسمى سلسبيلاً ﴾ انتصاب عيناً على أنها بدل من كأس

ويجوز أن تكون منصوبة بفعل مقدر أي يسقون عيناً ، ويجوز أن تكون منصوبة بنزع الخافض أي ومن عين ، والسلسبيل الشراب اللذيذ مأخوذ من السلاسة ، تقول العرب هذا شراب سلس وسلسال وسلسبيل اي طيب لذيذ .

قال الزمخشري : وقد زيدت الباء في التركيب حتى صارت الكلمة خماسية ودلت على غاية السلاسة ، قال الزجاج السلسبيل في اللغة اسم لماء في غاية السلاسة سريع الجريان يسوغ في حلوقهم ، ومنه قول حسان بن ثابت :

يسقون من ورد البريض عليهم   كأساً يصفق بالرحيق السلسل

وقال ابن الأعرابي لم أسمع السلسبيل إلا في القرآن ، وقال مكي هو اسم عجمي نكرة فلذلك صرف وزنه مثل دردبيس ، وقيل فعفليل لأن الفاء مكررة وقيل سلسة منقادة لهم يصرفونها حيث شاؤوا والأول أولى .

وقال الخازن معنى (تسمى) توصف لأن أكثر العلماء على أن سلسبيلاً صفة لا اسم انتهى .

قال مقاتل ابن حيان سميت سلسبيلاً لأنها تسيل عليهم في الطرق وفي منازلهم تنبع من أصل العرش من جنة عدن الى أهل الجنان .

قال البغوي وشراب الجنة في برد الكافور ، وطعم الزنجبيل ، وريح المسك من غير لذع ، قال مقاتل يشربها المقربون صرفاً ، وتمزج لسائر أهل الجنة .

ولما فرغ سبحانه من وصف شرابهم ووصف آنيته ووصف السقاة الذين يسقونهم ذلك الشراب فقال : ﴿ ويطوف عليهم ﴾ بالشراب ﴿ ولدان ﴾ بكسر الواو باتفاق السبعة أي غلمان هم في سن من هو دون البلوغ ، قال بعض المفسرين هم غلمان ينشئهم الله تعالى لخدمة المؤمنين ، وقال بعضهم أطفال المؤمنين لأنهم ماتوا على الفطرة .

وقال ابن برحان : وأرى والله أعلم أنهم من علم الله تعالى إيمانه من أولاد الكفار ، ويكونون خدماً لأهل الجنة كما كانوا في الدنيا لنا سبياً وخدماً ، وأما أولاد المؤمنين فيلحقون بآبائهم تأنساً وسروراً بهم .

وفي الخازن في سورة الواقعة والصحيح الذي لا معدل عنه إن شاء الله تعالى أنهم ولدان خلقوا في الجنة لخدمة أهل الجنة كالحور ولم يولدوا ، ولم يخلقوا عن ولادة انتهى .

قلت الله أعلم بهم ، ولا أقول فيهم بشيء ظناً وتخميناً إذ لم يرد نص صريح صحيح في كتاب الله ولا في سنة رسوله فالوقف أولى وأحوط .

﴿ مخلدون ﴾ أي باقون على ما هم عليه من الشباب والطراوة والنضارة لا يهرمون ولا يتغيرون ، وقيل المعنى لا يموتون ، وقيل التخليد التحلية أي محلون .

﴿ اذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً ﴾ أي اذا نظرت اليهم ظننتهم لمزيد حسنهم وصفاء ألوانهم ونضارة وجوههم ، وانبثاثهم في مجالسهم ، لؤلؤاً مفرقاً ، قال عطاء يريد في بياض اللون وحسنه ، واللؤلؤ إذا نثر من الخيط على البساط كان أحسن منه منظوماً .

قال أهل المعاني إنما شبهوا الانتثار لأنهم في الخدمة ولو كانوا صفاً لشبهوا بالمنظوم ، قيل إنما شبههم بالمنثور لأنهم سراع في الخدمة بخلاف الحور العين فإنه شبههن باللؤلؤ المكنون لأنهن لا يمتهن بالخدمة .

عن أبي عمرو قال : « إن أدنى أهل الجنة منزلاً من يسعى عليه الف خادم كل خادم على عمل ليس عليه صاحبه ، وتلا ﴿ اذا رأيتهم حسبتهم ، الخ » أخرجه ابن المبارك وهناد وعبد بن حميد والبيهقي في البعث .

﴿ واذا رأيت ثم ﴾ أي وإذا رميت ببصرك هناك يعني في الجنة ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل من يدخل الجنة ، وثم ظرف مكان مختص بالبعد ، والعامل فيها رأيت .

قال الفراء في الكلام « ما » مضمرة أي واذا رأيت ما ثم كقوله لقد انقطع بينكم أي ما بينكم .

قال الزجاج معترضاً على الفراء أنه لا يجوز إسقاط الموصول وترك الصلة ولكن رأيت يتعدى في المعنى الى ثم ، والمعنى اذا رأيت ببصرك ثم ويعني بثم الجنة ، وقيل إن رأيت ليس له مفعول ملفوظ ولا مقدر ولا منوي بل معناه أن بصرك أينما وقع في الجنة ﴿ رأيت نعيماً ﴾ لا يوصف ، والنعيم سائر ما يتنعم به .

﴿ وملكاً كبيراً ﴾ لا يقادر قدره ، قال السدي الملك الكبير استئذان الملائكة عليهم وكذا قال مقاتل والكلبي وقيل واسعاً لا غاية له ، وقيل كون التيجان على رؤوسهم كما تكون على رؤوس الملوك وأعظمهم منزلة من ينظر الى وجه ربه كل يوم .

﴿ عاليهم ثياب سندس ﴾ قرأ نافع وحمزة وابن محيصن عاليهم بسكون الياء وكسر الهاء وهي سبعية على أنه خبر مقدم وثياب مبتدأ مؤخر او على أن عاليهم مبتدأ ثياب مرتفع بالفاعلية وأن لم يعتمد الوصف كما هو مذهب الأخفش ، وقال الفراء : هو مرفوع بالابتداء وخبره ثياب واسم الفاعل مراد به الجمع .

وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الهاء لتحرك ما قبلها على أنه ظرف كأنه قيل فوقهم ثياب قال الفراء إن عاليهم بمعنى فوقهم ، وكذا قال ابن عطية .

قال أبو حيان عال وعالية اسم فاعل فيحتاج في كونهما ظرفين الى أن يكون منقولاً من كلام العرب ، وقد تقدمه الى هذا الزجاج ، وقال هذا مما لا نعرفه في الظروف ، ولو كان ظرفاً لم يجز إسكان الياء ولكنه نصب على الحال من شيئين أحدهما الهاء والميم في قوله يطوف عليهم ، أي على الأبرار ثياب

سندس ، أي يطوف عليهم في هذه الحال .

والثاني أن يكون حالاً من الولدان أي اذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً في حال علو الثياب أبدانهم .

قلت : قد وردت الفاظ من صيغ أسماء الفاعلين ظروفاً نحو خارج الدار وداخلها وباطنها وظاهرها فكذلك هذا فلا وجه للإنكار ، وقال أبو علي الفارسي : العامل في الحال إما لقاهم نضرة وإما جزاهم بما صبروا قال ويجوز أن يكون ظرفاً .

وقرىء ﴿ عليهم ﴾ وهي قراءة واضحة المعنى ظاهرة الدلالة ، واختار ابو عبيد الأولى لقراءة ابن مسعود ﴿ عاليتهم ﴾ .

وقرأ الجمهور ثياب سندس بالإضافة على معنى « من » وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبلة بفكها ورفع سندس ، و ﴿ خضر واستبرق ﴾ على أن السندس نعت للثياب لأن السندس نوع منها وعلى أن خضر نعت لسندس لأنه يكون أخضر وغير أخضر ، وعلى أن استبرق معطوف على سندس أي وثياب استبرق .

والجمهور من القراء اختلفوا في خضر واستبرق مع اتفاقهم على جر سندس بإضافة ثياب اليه ، فقرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم وابن محيصن بجر خضر نعتاً لسندس ، ورفع استبرق عطفاً على ثياب اي عليهم ثياب سندس ، وعليهم استبرق .

وقرأ ابو عمرو وابن عامر برفع خضر نعتاً لثياب وجر استبرق نعتاً لسندس ، واختار هذه القراءة أبو حاتم وأبو عبيد لان الخضر أحسن ما كانت نعتاً للثياب فهي مرفوعة ولاستبرق من جنس السندس .

وقرأ نافع وحفص برفع خضر واستبرق لأن خضراً نعت للثياب واستبرق عطف على الثياب .

وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي بجر خضر واستبرق على أن خضراً نعت للسندس واستبرق معطوف على سندس .

واستشكل على هذه القراءة وكذا على قراءة جر الأول ورفع الثاني بوقوع خضر الذي هو جمع نعتاً لسندس الذي هو مفرد .

والجواب أن السندس اسم جنس واحده سندسة ، ووصف اسم الجنس بالجمع شائع فصيح على حد ﴿ وينشىء السحاب الثقال ﴾وقرأوا كلهم بصرف استبرق إلا ابن محيصن فإنه قرأ بعدم صرفه قال لأنه أعجمي ، ولا وجه لهذا لأنه نكرة إلا أن يقول أنه علم لهذا الجنس من الثياب ، والسندس ترقّ من الديباج ، والاستبرق ما غلظ منه ، وقد تقدم تفسيرهما في سورة الكهف .

﴿ وحلوا أساور من فضة ﴾ عطف على يطوف عليهم ماض لفظاً مستقبل معنى وأبرزه بالماضي لتحققه .

ذكر سبحانه هنا أنهم يحلون بأساور الفضة ، وفي سورة فاطر ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ﴾ وفي سورة الحج ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ﴾

ولا تعارض بين هذه الآيات لإمكان الجمع بأن تجعل لهم سوارات من ذهب وفضة ولؤلؤ لتجتمع لهم محاسن الجنة أو بأن المراد لهم يلبسون سوارات الذهب تارة ، وسوارات الفضة تارة ، وسوارات اللؤلؤ تارة ، وأنه يلبس كل أحد منه ما تميل اليه نفسه من ذلك أو حلي الرجال الفضة وحلي النساء الذهب ، وقيل أسورة الفضة إنما تكون للولدان ، وأسورة الذهب للنسوان ، وقيل هذا بحسب الأوقات والأعمال .

﴿ وسقاهم ربهم شراباً طهوراً ﴾ هذا نوع آخر من الشراب الذي يمن الله عليهم به يفوق على النوعين المتقدمين ، ولذلك أسند سقياه الى الله

ووصفه بالطهورية فإنه يطهر شاربه عن الميل الى اللذات الحسية ، والركون الى ما سوى الحق فيتجرد لمطالعة جماله ، متلذذاً بلقائه باقياً ببقائه ، وهو منتهى درجات الصديقين .

قال الفراء يقول هو طهور ليس بنجس كما كان في الدنيا موصوفاً بالنجاسة أي لم تمسه الأيدي ولم تدنسه الأرجل ، وقيل لا يستحيل بولاً ، وطهور صيغة مبالغة في الطهارة والنظافة .

والمعنى أن ذلك الشراب طاهر ليس كخمر الدنيا ، فشتان ما بين الشرابين والآنيتين والمنزلتين ، قال مقاتل هو عين ماء على باب الجنة من شرب منها نزع الله ما كان في قلبه من غش وغل وحسد .

قال أبو قلابة وإبراهيم والنخعي يؤتون بالطعام فاذا كان آخره أتوا بالشراب الطهور فيشربون فتضمر بطونهم من ذلك ويفيض عرق من أبدانهم مثل ريح المسك ثم يقال لهم بعد دخولهم في الجنة ومشاهدتهم نعيمها .

﴿ إن هذا ﴾ الذي ذكر من أنواع النعم ﴿ كان ﴾ في علم الله ﴿ لكم جزاء ﴾ بأعمالكم أي ثواباً لها أعده لكم الى هذا الوقت ﴿ وكان سعيكم مشكوراً ﴾ أي كان عملكم في الدنيا بطاعة الله مرضياً مقبولاً مقابلاً بالثواب ، وشكر الله سبحانه لعمل عبده هو قبوله لطاعته .

﴿ إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً ﴾ أي فرقناه في الإنزال ولم ننزله جملة واحدة لحكمة بالغة تقتضي تخصيص كل شيء بوقت معين ، قيل المعنى نزلناه عليك ولم تأت به من عندك كما يدعيه المشركون ، والمقصود من ذلك تثبيت قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وشرح صدره وان الذي أنزل عليه وحي ليس بكهانة ولا سحر لتزول الوحشة الحاصلة له من قول الكفار إنه كهانة أو سحر .

فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾

﴿ فاصبر لحكم ربك ﴾ أي لقضائه ومن حكمه وقضائه تأخير نصرك إلى أجل اقتضته حكمته ، قيل هذا منسوخ بآية السيف ﴿ ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً ﴾ أي لا تطع كل واحد من مرتكب لإثم وغال في كفر ، فنهاه الله سبحانه وتعالى عن ذلك .

قال الزجاج : إن الألف هنا آكد من الواو وحدها لأنك اذا قلت لا تطع زيداً وعمراً فأطاع أحدهما كان غير عاص لأنك أمرته أن لا يطيع الاثنين ، فاذا قال منهم آثماً او كفوراً دل ذلك على أن كل واحد منهما أهل أن يعصى ، كما أنك اذا قلت لا تخالف الحسن أو ابن سيرين فقد قلت أنهما أهل أن يتبعا ، وكل واحد منهما أهل أن يتبع .

وقال الفراء « أو » هنا بمنزلة لا كأنه قال ولا كفوراً ، وقيل المراد بقوله ﴿ آثماً ﴾ عتبه ابن ربيعة وبقوله ﴿ أو كفوراً ﴾ الوليد بن المغيرة لأنهما قالا للنبي صلى الله عليه وسلم ارجع عن هذا الأمر ونحن نرضيك بالمال والتزويج .

﴿ واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً ﴾ أي دم على ذكره في جميع الأوقات وقيل المعنى صل لربك أول النهار وآخره ، فأول النهار صلاة الصبح ، وآخره صلاة العصر ، قال البيضاوي دم على صلاة الفجر والظهر والعصر ، فإن

الأصيل يتناول وقتيهما ، وفي الشهاب تناول الأصيل للعصر ظاهر ، وأما تناوله للظهر فباعتبار آخره إذ الزوال وما يقرب منه لا يسمى أصيلاً .

﴿ ومن الليل فاسجد له ﴾ اي صل المغرب والعشاء وقيل المراد الصلاة في بعضه من غير تعيين ، ومن للتبعيض على كل تقدير والفاء دالة على معنى الشرطية والتقدير مهما يكن من شيء فصل من الليل ، وهو يفيد أيضاً بتأكيده الاعتناء التام ﴿ وسبحه ليلاً طويلاً ﴾ أي نزهه عما لا يليق به فيكون المراد الذكر بالتسبيح سواء كان في الصلاة أو في غيرها ، وقيل المراد التطوع في الليل .

قال ابن زيد وغيره إن هذه الآية منسوخة بالصلوات الخمس ، وقيل الأمر للندب وقيل هو مخصوص بالنبي صلى الله عليه وسلم .

وفيه دليل على عدم صحة ما قاله بعض أهل علم المعاني والبيان أن الجمع بين الحاء والهاء مثلا يخرج الكلمة عن فصاحتها وجعلوا من ذلك قول أبي تمام :

كريم متى أمدحه أمدحه والورى معي ، واذا ما لمته لمته وحدي

ويمكن أن يفرق بين ما أنشدوه وبين الآية الكريمة بأن التكرار في البيت هو المخرج له عن الفصاحة بخلاف الآية فإنه لا تكرار فيها ذكره السمين .

﴿ إن هؤلاء ﴾ يعني كفار مكة ومن هو موافق لهم ﴿ يحبون ﴾ الدار ﴿ العاجلة ﴾ وهي دار الدنيا ﴿ ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً ﴾ أي يتركون ويدعون خلفهم أو بين أيديهم وأمامهم يوماً شديداً عسيراً وهو القيامة ، وسمي ثقيلاً لما فيه من الشدائد والأهوال ، ووصفه بالثقل على المجاز لأنه من صفات الأعيان لا المعاني ، ومعنى كونهم يذرونه وراءهم أنهم لا يستعدون له ولا يعبأون به ، فهم كمن ينبذ الشيء وراء ظهره تهاوناً به واستخفافاً بشأنه ، وإن كانوا في الحقيقة مستقبلين له وهو أمامهم .

﴿ نحن خلقناهم ﴾ أي ابتدأنا خلقهم من تراب ثم من نطفة ثم من مضغة ثم من علقة الى أن كمل خلقهم ، ولم يكن لغيرنا في ذلك عمل ولا سعي ، لا اشتراكاً ولا استقلالاً ﴿ وشددنا أسرهم ﴾ الأسر شدة الخلق يقال شد الله أسر فلان أي قوى خلقه ، قال مجاهد وقتادة ومقاتل وغيرهم : شددنا خلقهم ، قال الحسن شددنا وربطنا أوصالهم بعضاً الى بعض بالعروق والعصب .

قال أبو عبيدة: يقال فرس شديد الأسر اي الخلق وقال ابن زيد الأسر القوة واشتقاقه من الأسار وهو القد الذي تشد به الأقتاب ، قال ابن عباس : أسرهم خلقهم وقال : ابو هريرة هي المفاصل ، وقيل المراد بالأسر عَجْبُ الذنب لأنه لا يتفتت في القبر والأسر بالضم احتباس البول كالحصر في الغائط .

﴿ واذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً ﴾ أي لو شئنا لأهلكناهم وجئنا بأطوع لله منهم ، وقيل المعنى مسخناهم الى أسمج صورة وأقبح خلقه .

﴿ إن هذه تذكرة ﴾ يعني أن هذه السورة تذكير وموعظة للخلق لأن في تصفحها تنبيهات للغافلين ، وفي تدبرها وتذكرها فوائد جمة للطالبين السالكين ممن ألقى سمعه وأحضر قلبه ، وكانت نفسه مقبلة على ما ألقى اليه سمعه ﴿ فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلاً ﴾ أي طريقاً يتوصل به اليه ، وذلك بالايمان والطاعة والمراد الى ثوابه او الى جنته ، لأنا بينا الأمور غاية البيان وكشفنا اللبس ، وأزلنا جميع موانع الفهم ، فلم يبق مانع من استطراق الطريق غير مشيئة العبد .

﴿ وما تشاؤون ﴾ أن تتخذوا الى الله سبيلاً ، وفيه التفات عن الغيبة في خاتقناهم الى الخطاب ، وقرىء بالياء التحتية لمناسبة قوله خلقناهم .

وقوله ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ منصوب على الظرفية وأصله إلا وقت مشيئة الله فالأمر اليه سبحانه ليس اليكم والخير والشر بيده لا مانع لما أعطى ، ولا

معطي لما منع ، فمشيئة العبد مجردة لا تأتي بخير ، ولا تدفع شراً وإن كان يثاب على المشيئة الصالحة ويؤجر على قصد الخير كما في حديث « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى »[1] قال الزجاج أي لستم تشاؤون إلا بمشيئة الله ، والآية حجة على المعتزلة والقدرية ﴿ إن الله كان عليماً ﴾ أي بليغ العلم بما يكون من الأحوال ﴿ حكيماً ﴾ بليغ الحكمة في أمره ونهيه ، مصيباً في جميع الأقوال والأحوال .

﴿ يدخل من يشاء في رحمته ﴾ أي يدخل في رحمته من يشاء أن يدخله فيها أو يدخل في جنته من يشاء من عباده لأنها برحمته تنال ، وهو حجة على المعتزلة ، قال عطاء من صدقت نيته أدخله الله تعالى جنته ﴿ والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً ﴾ انتصاب الظالمين بفعل مقدر يدل عليه ما قبله أي يعذب الظالمين لأن ما قبله منصوب أي يدخل من يشاء في رحمته ، ويعذب الظالمين أي المشركين ، ويكون أعد لهم تفسيراً لهذا المضمر والاختيار النصب وإن جاز الرفع ، وبالنصب قرأ الجمهور ، وقرأ أبان بن عثمان بالرفع على الابتداء ، ووجهه أنه لم يكن بعده فعل يقع عليه .

(١) سبق ذكره




خاتمة الجزء الرابع عشر
بسم الله الرحمن الرحيم
تم بعون الله سبحانه وتعالى الجزء الرابع عشر من كتاب فتح البيان
في مقاصد القرآن ويليه الجزء الخامس عشر وأوله سورة المرسلات.

فهرس الجزء الرابع عشر